

الإيمان في عصر التَّشكيك

تيموثي كَلِر

الإيمـــان
في عصر
التّشكيك

الإيمـــان
في عصر
التَّشكيك

تيمـــوثي كَلِـر

ترجمة

سعيد فارس باز



ophir

الإيمان في عصر التَّشكيك

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠

أوفير للطباعة والنشر

ص. ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+

فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٦/٢٢١٧
ISBN 978-90-5950-121-8

الإهداء... إلى كاثي الباسلة

المحتويات

القسم الثاني: دواعي الإيمان



المقدّمة

أجِدُ افتقارك إلى الإيمان مُزعِجًا مُقلِقًا.

دارث ڤايدر (Darth Vader)

العدوّان كِلاهما على حقّ

ثَمَّة ثغرةٌ واسعةٌ اليومَ بين ما يُدعى عمومًا اللّيبراليَّة والمُحافَظة. ولا يُطالِبك كلا الجانبَين بأن تُخالفَ الآخرَ فحسب، بل بأن تَزدريَهُ أيضًا باعتباره (في أفضل الحالات) ضعيفًا، أو (في أسوإها) شرًّا. وهذا صحيحٌ على الخصوص حين يكونُ الدِّين هو المسألةَ الجاريَ بحثُها. فالتقدُّميُّون يُجاهِرون بأنَّ الأصوليَّة تنمو بسرعةٍ وعدمَ الإيمان يُوصَم بالعار. وهم يُنوِّهون بأنَّ السياسة قد تحوَّلت نحو اليمين المتطرِّف، تدعمُها الكنائس الكُبرى ويَحدوها المؤمنون المُحفَّزون المتمسِّكون بالعقيدة القويمة. والمُحافِظون يُندِّدون دون انقطاع بما يَرونه مُجتمَعًا ينحو باتِّجاه الشُّكوكيَّة والنِّسبيَّة على نحوٍ مُتفاقِم. وهم يقولون إنَّ الجامعاتِ الكبرى والشركاتِ الإعلاميَّة والمؤسَّساتِ الممتازةَ دُنيويَّةٌ إلى

الحدُّ الأقصى، وهي تُسيطِر على الثقافة.

فما واقع الحال؟ أَللشُّكوكيَّة الهيمَنَةُ في العالَم اليوم، أم للإيمان؟ الجواب هو نعم بالنسبةِ إلى كِلَيهما. فالعَدوَّان كلاهما على حقّ. ذلك أنَّ الشكَّ والخوفَ والغضبَ تُجاه الدِّين التقليديّ تَتَعاظمُ قوَّةً وتأثيرًا. ولكنْ في الوقت نفسه يتنامى أيضًا الإيمانُ القويُّ القويمُ بمعتقدات الدِّين العريقة.

إنَّ عددَ الذين لا يرتادون الكنائسَ في أميركا وأوروبا يزداد باطِّراد.[١] وفي أثناء العقد الأخير، ازدادَ عددُ الأميركيِّين الذين يُدْلون في الاستطلاعات بعدم وجود تفضيل دينيٍّ لديهم ازديادًا صاروخيًّا، إذ تَضاعفَ مرَّتين أو حتَّى ثلاثًا.[٢] وقبل قرنٍ من الزمان، تحوَّلتْ معظمُ جامعات أميركا عن أساسٍ مسيحيٍّ رسميٍّ إلى أساسٍ دنيويٍّ علنيّ.[٣] ونتيجةً لذلك، فإنَّ لأصحاب المعتقدات الدينيَّة التقليديَّة مَوطئَ قَدمٍ صغيرًا في المؤسَّسات ذات النُّفوذ الثقافيّ. ولكنْ رُغمَ تَزايُد عدد الذين يُعرِّفون بأنفسُهم باعتبارهم لا يملكون أيَّة خِيارات دينيَّة، فإنَّه تنمو في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة- وتنفجرُ في أفريقيا وأميركا اللَّاتينيَّة وآسيا- كنائسُ مُعيَّنةٌ ذاتُ عقائدَ يُفتَرَضُ أنَّها مَهجورة بكتابٍ مقدَّس معصوم ومُعجِزاتٍ بائدة. حتَّى إنَّ قسمًا كبيرًا من أوروبا يَشهدُ شيئًا من الارتفاع في نسبة حضور الكنائس.[٤] وعلى الرُّغم من دُنيويَّة معظم الجامعات والكلِّيَّات، فإنَّ الإيمانَ الدينيَّ ينمو في بعض الأركان في الجامعات. ويُقدَّر أنَّ ما بين ١٠ و٢٥٪ من جميع مُعلِّمي الفلسفة وأساتذتِها في أميركا هم مسيحيُّون مُلتزِمون، بعدما كانَت النِّسبة قبل ثلاثين سنة فقط أقلَّ من ١٪.[٥] وربَّما كانت عينُ الجامعيِّ البارز ستانلي فِش (Stanley Fish) على هذا الاتِّجاه السائد لمَّا أفادَ قائلًا: "حين تُوفِّيَ جاك دِريدا (Jacques Derrida) في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٤، هاتَفَني

مُراسلُ صحيفةٍ أراد أن يعرفَ ما الذي سيَعقبُ النظريَّة العالية وثالوثَ العِرق والجنس والطَّبقة ليكونَ بؤرةً للنشاط الفكريِّ في الدوائر الجامعيَّة، فقلتُ حالًا وبغير تردُّد: الدِّين"[٦].

وبالاختصار، إنَّ العالَمَ يُستقطَبُ حَول الدِّين. وهو صائرٌ أكثر تَديُّنًا وأقلَّ تَديُّنًا في الوقت نفسه. ولقد سادَ حينًا اعتقادٌ وثيقٌ أنَّ البلدانَ الأوروبيَّة اللَّادينيَّة كانت رائدةَ باقي العالَم. وقد عمَّ التفكيرُ بأنَّ الدِّين سوف يَضمرُ عن أشكاله الأكثر قوَّةً وفوطبيعيَّةً (شكلًا خارقًا للطبيعة)، أو يتلاشى كلِّيًّا. غير أنَّ النظريَّةَ القائلةَ إنَّ التقدُّم التكنولوجيَّ يأتي بالعَلمنة الحتميَّة يجري التخلُّص منها، أو يُعاد النظر فيها جذريًّا.[٧] حتَّى إنَّ أوروبا قد لا تُواجِه مُستقبلًا لا دينيًّا، فيما المسيحيَّة تَتَنامى باعتدال والإسلامُ يتزايدُ أنصارُه.

المُعَسكران

إنِّي أتكلَّمُ من نُقطة استِشراف استثنائيَّة لهذه الظاهرة ذاتِ الحدَّين. فقد تربَّيتُ في كنيسةٍ لوثريَّة مُحافِظة شرقَ ولاية پنسلڤانيا الأميركيَّة. ولمَّا بلغتُ سنَّ المُراهقة في ستِّينيَّات القرن العشرين، حان وقتُ حضوري صفَّ التثبيت، حيثُ درستُ مُقرَّرًا دام سنتَين وشملَ مُعتقداتِ المسيحيَّة ومُمارساتِها وتاريخَها. وكان الهدفُ من ذلك تزويدُ الناشئة بفَهمٍ أوفى للإيمان المسيحيِّ حتَّى يُمكنَهم التزامه علنيًّا. وقد كان مُعلِّمي في السنة الأولى خادمًا مُتقاعدًا. وكان تقليديًّا ومُحافظًا جدًّا، يتكلَّم أغلبَ الأحيان بشأن خطر جهنَّم ووجوبِ حيازةِ إيمانٍ فعَّال. أمَّا في السنة الثانية من الدُّروس، فكان المعلِّم أكليريكيًّا (رجلَ دين) شابًّا تخرَّج توًّا في معهد اللاهوت. وقد كان ناشطًا اجتماعيًّا ساورَته شكوكٌ عميقةٌ كثيرة بشأن العقائد المسيحيَّة

العريقة. ففي السنة الأولى وقفْنا أمام إلهٍ قدُّوس وعادل لا يمكن أن يُصرَف غضبُه عنَّا إلَّا بجهد وكلفةٍ عظيمَين. وفي السنة الثانية، سمعنا عن روحِ مَحبَّةٍ في الكون تطلُبُ منَّا بصورةٍ رئيسيَّة أن نعملَ في سبيل حقوق الإنسانَ وتحرير المظلومين. فكأنَّنا عُلِّمنا مبادئَ ديانتَين مختلفتَين تقريبًا. وكان السؤال الرئيسيُّ الذي أردتُ أن أطرحَه على مُعلِّمَينا: "أيُّ واحدٍ منكما يكذب؟" ولكنَّ أبناء الرابعةَ عشرةَ يُعوِزُهم شيءٌ من الجُرأة، فما كان منّي إلَّا أن أبقَيتُ فمي مُطبَقًا.

بعد ذلك انتقلَتْ عائلتي إلى كنيسة أكثرَ محافَظةً تنتمي إلى طائفةٍ ميثوديَّة صغيرة. وعلى مدى بضعة أعوام قوَّى هذا الأمر ما يمكن أن يُدعى باسْم "طبقة نار جهنَّم" في تكويني الدينيّ، مع أنَّ الخادم والمخدومين هناك كانوا ألطفَ ما يكون على الصعيد الشخصيّ. ثُمَّ انتقلتُ للدراسة في إحدى تلك الجامعات الجيِّدة المُتحرِّرة الصُّغرى الواقعة في الشمال الشرقيّ، وسرعان ما بدأتْ تَصُبُّ الماءَ على نار جهنَّمَ المُضطرِمة في مُخيِّلتي.

لقد شهدتْ دوائرُ التاريخ والفلسفة ثورةً على الصَّعيد الاجتماعيِّ وتأثَّرتْ كثيرًا بالنظريَّة النَّقديَّة الماركسيَّة المُحدَثة (The Neo Marxist Critical Theory) التي تبنَّتها مدرسةُ فرانكفورت. وكانت تلك بضاعةً خلَّابة في سنة ١٩٦٨. وكان مذهبُ الفعَّاليَّة الاجتماعيُّ (The Social Activism) جذَّابًا على نحوٍ خاصّ، كما كان نقدُ المجتمع الأميركيِّ البورجوازيِّ آسِرًا، غير أنَّ أُسُسَه الفلسفيَّة كانت مُربِكةً لي. وبدا لي أنِّي أرى أمامي مُعسكَرَين، وكان في كِلَيهما شيءٌ من الخَلَل الجذريّ. فالأشخاصُ الأكثرُ شَغَفًا بشأن العدالة الاجتماعيَّة كانوا من القائلين بالنِّسبيَّة على الصعيد الأخلاقيّ، فيما لم يبدُ أنَّ المُستقيمين خُلُقيًّا يَعنيهم

الطُّغيان المُتمادي في جميع أنحاء العالم. وقد انجذبتُ عاطفيًّا إلى السبيل الأوَّل... وأيُّ شابٍّ لا ينجذبُ إليه؟ حَرِّرِ المظلومين ونَمْ مع مَن شِئت! غير أنِّي ما توقَّفتُ عن طَرْح السؤال: "إذا كانتِ الأخلاقيَّات نسبيَّة، فلِمَ لا تكونُ العدالةُ الاجتماعيَّة مثلَها أيضًا؟" فقد بدا هذا تَضارُبًا صارخًا في أساتذتي وأتْباعهم. ومع ذلك لَفَتَني أيضًا التناقُضُ الهائل في الكنائس التقليديَّة. فكيف يُمكنني أن أركِن من جديد إلى نوع المسيحيَّة المألوفة ذاك الذي يؤيِّدُ العزلَ العرقيَّ في الجنوب وسياسةَ التمييز العُنصريِّ في جنوب أفريقيا؟ إذ ذاك بدأتِ المسيحيَّةُ تبدو مُصطنعةً جدًّا في نظري، رُغم أنِّي لم أستطعْ أن أميِّز طريقةَ حياةٍ وفِكرٍ بديلةً قابلة للتطبيق.

ورُغم عدم معرفتي بواقع الحال آنذاك، فإنَّ هذه الروحيَّة "المُصطنَعة" نجمَتْ عن ثلاثة عوائقَ اعترضَتْ سبيلي. وفي أثناء دراستي الجامعيَّة، تآكلتْ هذه العوائق الثلاثة، وغدا إيماني أكثر حيويَّةً وتأثيرًا في الحياة. وقد كان العائق الأوَّل فكريًّا. إذ واجهَتني جَمهرةٌ من الأسئلة الصعبة بشأن المسيحيَّة: "ماذا نقول في الأديان الأخرى؟ وماذا عن الشرِّ والمُعاناة؟ كيف يُمكن أن يَدينَ إلهٌ مُحبٌّ البشرَ ويُعاقبَهم؟ ولماذا عليَّ أن أعتنق أيَّ إيمانٍ أصلًا؟" ثُمَّ بدأتُ أقرأ كُتبًا ودراساتٍ جدليَّةً في كلا جانبَي هذه المسائل. وببطءٍ لكنْ بِثَبات، بدأتِ المسيحيَّةُ تَعني لي أكثرَ فأكثر. وباقي هذا الكتاب يَبسطُ الدواعيَ التي تجعلني أعتقدُ ما أعتقدُه بعد.

أمَّا ثاني العوائق فكان عائقًا داخليًّا شخصيًّا. فعندما يكون المرء صغيرًا يمكن أن تعتمدَ معقوليَّةُ إيمانٍ ما (إيمانٍ مقبولٍ ظاهريًّا) على سُلطة الآخرين، ولكنْ حين نبلُغُ سنَّ الرُّشد تدعو الحاجة إلى اختبارٍ شخصيٍّ مباشر أيضًا. وبينما كنتُ قد واظبتُ سنين على "تلاوة صلواتي"؛ وكان

يأخذُني أحيانًا ذلك الشعورُ الإلهاميُّ الجماليُّ بالرَّهبة والرَّوعة حِيالَ منظر بحرٍ أو جَبَل، لم أكُن قطُّ قد اختبرتُ حضورَ الله شخصيًّا. ولم يتطلَّب هذا معرفةً وافيةً للتِّقنيَّات المتعلِّقة بالصلاة، بل تطلَّب عمليَّةً أدَّت بي إلى إدراك احتياجاتي ونقائصي ومشاكلي. وقد كانت عمليَّةً مؤلمة، أطلقَتْ شرارتَها خَيباتٌ وسَقطات- كما هي الحال وكما يحدُثُ نموذجيًّا. ومن شأن الغوص في هذه كلِّها أن يستدعيَ كتابًا آخرَ مختلفَ النَّوع. ولكنْ لا بدَّ من القول إنَّ رحلاتِ الإيمان ليستِ البتَّة مجرَّدَ اختباراتٍ فكريَّة.

وأمَّا العائقُ الثالث فكانَ عائقًا اجتماعيًّا. ذلك أنِّي احتجتُ أمسَّ احتياج إلى العثور على "مُعسكَر ثالث"- إلى جماعة من المؤمنين بالسيِّد المسيح لديهم اهتمامٌ بالعدالة في العالَم، ولكنَّهم يؤسِّسونَه على طبيعة الله، لا على مشاعرهم الذاتيَّة الخاصَّة. ولمَّا عثرتُ على تلك المجموعة المؤلَّفة من إخوة- ومن أخوات (بالأهمِّيَّة نفسها تمامًا!)- بدأتِ الأمور تتغيَّر بالنِّسبة إليَّ. ولم تسقطْ هذه العوائقُ سريعًا، ولا وَفقًا لترتيبٍ معلوم، بل كانتْ بالأحرى مُتضافِرة ومُتوافقة. ولم أتَصدَّى لهذه العوائق بأيَّة طريقةٍ مَنهجيَّة. إنَّما بالإدراك المُتأخِّر وحدَه (أي بعد انقضاء الأمر) أرى الآن كيف عملَتْ هذه العواملُ الثلاثة معًا. ولأنِّي كنتُ دائمًا أفتِّش عن ذلك المُعسكَر الثالث، بِتُّ مَعنيًّا بتشكيل جماعاتٍ مسيحيَّةٍ جديدة ومَعنيًّا بإطلاقها أيضًا. وقد عنى ذلك انخراطي في الخدمة، وهكذا دخلتُها بعد بضع سنواتٍ من إنهاء دراستي الجامعيَّة.

المشهدُ من مَنهاتن

في أواخر ثمانينيَّات القرن العشرين، انتقلتُ إلى مَنهاتن، مع زوجتي كاثي

(Kathy) وأولادنا الثلاثة الصِّغار لإنشاء كنيسةٍ جديدة في حيٍّ لا يرتادُ مُعظم سكَّانه الكنائس. وفي أثناء مرحلة البحث قال لي الجميع تقريبًا إنَّها كانت مُغامرةً سخيفة. فالكنيسة تعني الاعتدال أو المحافظة؛ والمدينة كانت ليبراليَّة وسيِّئة الخُلُق مهتاجة. والكنيسة تعني العائلات؛ ومدينة نيويورك كانت تغصُّ بالعازبين الشُّبان والشابَّات و"الأسَر غير التقليديَّة". والكنيسة أوَّلَ كُلِّ شيء تعني الإيمان؛ غير أنَّ مَنهاتن كانت بلد الشكوكيِّين والنُّقَّاد والساخرين. وكان أهلُ الطبقة الوسطى- وهي السُّوق المألوفة لقيام كنيسة- يُغادرون المدينة هربًا من الجريمة وغلاء المعيشة. فلم يبقَ إلَّا المُتأنِّقون والغوغاء، الأغنياءُ والفُقراء. ومُعظم هؤلاء القوم يكتفون بالضَّحك حيالَ فكرة وجود كنيسة، كما قيل لي. فإنَّ رعايا الكنائس في المدينة كانوا يتضاءلون، وكان معظمهم يكافحون لمجرَّد صيانة مبانيهم.

وقد قال كثيرون ممَّن استقَيتُ منهم معلوماتي الأوليَّة إنَّ الكنائسَ القليلة التي حافظتْ على مُرتاديها فعلتْ ذلك بتكييف التعليم المسيحيِّ التقليديِّ وَفقًا لمزاج المدينة الذي يميلُ أكثر إلى التَّعدُّديَّة. "لا تقلْ للناس إنَّه ينبغي لهم أن يؤمنوا بالسيِّد المسيح؛ فذلك يُعدُّ تزمُّتًا هنا". وعبَّروا عن شكِّهم لمَّا أوضحتُ أنَّ معتقداتِ الكنيسة الجديدة ستَكونُ عقائدَ المسيحيَّةِ التاريخيَّةَ العريقة- عصمةَ الكتاب المقدَّس وألوهيَّةَ السيِّد المسيح ووجوبَ الولادة الجديدة- وهي كلُّها عقائدُ تُعدُّ عتيقةَ الطِّراز عند أكثريَّة النِّيويوركيِّين. لم يقُلْ لي أحدٌ قطُّ بصوتٍ عالٍ "أنتَ حالمٌ واهم"، ولكنَّ ذلك ارتسمَ دائمًا على سيمائهم.

على الرُّغم من ذلك أطلَقنا "كنيسة الفادي المَشيَخيَّة". وفي أواخر سنة ٢٠٠٧ كان عددُ الحضور قد تخطَّى ٥٠٠٠ شخص، وقد أفرخَتِ

الكنيسة بضعَ عشرةَ رعيَّةً تابعةً لها في مناطق مجاورة من المدينة. وهذه الكنيسةُ مُتعدِّدةُ الأعراق، ونسبةُ الشباب فيها كبيرةٌ (متوسِّط العُمر فيها ثلاثون سنة تقريبًا)، يُشكِّل العازبون أكثرَ من ثُلثَيها. وفي أثناء ذلك، نشأتْ عشراتُ الكنائس ذات العقائد العريقة المُماثِلة، ومئاتٌ غيرها، في أنحاء الأقسام الإداريَّة الأربعة الأخرى من المدينة. وقد بيَّنتْ إحدى الدِّراسات أنَّه في بضعة الأعوام الأخيرة تأسَّست أكثرُ من مئة كنيسة في مدينة نيويورك على أيدي مسيحيِّين من أفريقيا وحدَها، الأمرُ الذي أذهلَنا كما أذهلَ سوانا.

وليست نيويورك وحدَها في ذلك. ففي خريف عام ٢٠٠٦، أدرجت مجلَّة "**ذي إيكونومِست**" (The Economist) تقريرًا عنوانُهُ الفرعيُّ "**المسيحيَّة تنهار في كلِّ مكان ما عدا لندن**" (Christianty is Collapsing Everywhere but London). وكان بَيت القصيد في تلك المقالة أنَّه على الرُّغم من حقيقة كَونِ حضور الكنائس والاعتراف بالإيمان المسيحيِّ آخذَين في الهُبوط عموديًّا عبر بريطانيا وأوروبا، كان كثيرون من أصحاب المِهَن الشباب (والمُهاجرين الجُدد) في لندن يَتقاطرون إلى كنائسَ إنجيليَّة.[٨] وذلك تمامًا هو ما أزالُ أشهدُه هنا.

هذا الأمر يؤدِّي إلى استنتاج غريب. فقد وصلْنا إلى لحظةٍ حضاريَّة فيها يشعر الشُّكوكيُّون والمؤمنونَ جميعًا بأنَّ وجودَهم في خَطَر؛ لأنَّ الشُّكوكيَّة الدُّنيويَّة والإيمان الدينيَّ يشهدان كلاهما تقدُّمًا مُطَّردًا على

أصعدة قويّة بارزة. وليس لدينا الآن مسيحيّةُ* أوروبا الماضيةُ ولا المجتمعُ الدُّنيويُّ اللّادينيُّ الذي سبقَ التنبُّؤُ بنشوئه مُستقبلًا، بل إنَّ لدينا شيئًا آخرَ مختلفًا كلَّ الاختلاف.

ثقافةٌ مُنقسِمة

قبل ثلاثة أجيال، كان معظم الناس يَرِثون إيمانَهم الدينيَّ بدلَ أن يختاروه بأنفسهم. وكان السَّواد الأعظم من الناس ينتمون إلى واحدةٍ أو غيرها من الكنائس البروتستانتيَّة التاريخيَّة العريقة، أو إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة ومثيلاتها. أمَّا اليوم، فإنَّ الكنائس البروتستانتيَّة ذات الإيمان المُتوارَث والثقافة المُتَّبعة، تلك التي باتَ يُطلَق عليها تعبيرُ "كنائس الخطِّ القديم"، تَهرمُ وتخسرُ أعضاءَها بسرعة. والناس يختارون، بدلًا من ذلك، حياةً لادينيَّة، أو روحانيَّةً مُنشأةً ذاتيًّا وغير تابعة للمؤسَّسات القائمة، أو جماعاتٍ دينيَّةً عريقةً تُشدِّد على الالتزام الدقيق وتتوقَّع من أعضائها حُصولَهم على اختبار "التجديد"، أو الولادة الجديدة. وعليه، فإنَّ الناس صائرون- على طرفَي نقيض- إمَّا أكثر تديُّنًا وإمَّا أقلَّ تديُّنًا في آنٍ معًا.

ولمَّا كان الشكُّ والإيمان كلاهما آخِذَين في التقدُّم، فإنَّ حديثَنا السياسيَّ والعامَّ في شؤون الإيمان والأخلاق قد بات في ورطةٍ ومُنقسمًا في العُمق. والحروبُ الثقافيَّة حاميةُ الوطيس، حيث المشاعرُ مُتأجِّجة

* تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ المؤلِّفَ استخدمَ الكلمةَ الإنكليزيَّة (Christendom) والتي تحمل معنى المسيحيَّة كنظام مؤسَّسيّ، وليس الكلمةَ الإنكليزيَّة (Christianity) والتي تعبِّر عن المسيحيَّة كإيمانٍ ومُعتقَداتٍ جوهريَّة (الناشر).

والخُطَب ناريَّة، بل هستيريَّة أيضًا. فالذين يؤمنون بالله والمسيحيَّة مُنطلقون كي "يفرضوا معتقداتهم على الآخرين" و"يُرجعوا عقارب الساعة بالعكس" إلى زمان أقلّ تنويرًا. والذين لا يؤمنون هم "أعداء الحقّ" و"المموِّنون الرئيسيُّون للنِّسبيَّة والإباحيَّة". ونحنُ لا نحاجُّ الفريقَ الآخر، بل نشجبُ ونُندِّد.

لدينا طريقٌ مسدودٌ بين قوى الشكّ والإيمان المُزدادةِ قوَّةً، ولن يُحَلَّ هذا بمجرَّد الدَّعوة إلى مزيدٍ من الكياسة والحوار. فإنَّ المُجادلات تتوقَّف على حيازة نقاطٍ مرجعيَّة مقبولة عمومًا يستطيع كِلا الفريقَين أن يُحيلَ الآخر إليها. وحين تَتَضاربُ مفاهيمُ الحقيقةِ الجوهريَّة، يَصعبُ العثورُ على أيِّ شيءٍ يُعوَّل عليه. وخير تعبيرٍ عن ذلك عُنوانُ كتاب ألاسدَير ماكإنتاير (Alasdair MacIntyre) "**عدالةُ مَن؟ أيَّةُ عقلانيَّة؟**" (Whose Justice? Which Rationality?). فمشاكلنا لن تَتبدَّد بسهولة.

كيف يَسَعُنا أن نجدَ طريقًا نمضي فيه إلى الأمام؟

أوَّلًا، ينبغي لكِلا الطَّرفَين أن يُقِرَّا بأنَّ الإيمانَ الدينيَّ والشُّكوكيَّة **كلَيهما** يتعاظمان. فعلى الكاتب المُلحِد سام هَرِس (Sam Harris) وقائد حركة **اليمين الدينيِّ المتطرِّف** (Religious Right) پات روبرتسون (Pat Robertson) أن يعترفا كلَيهما بأنَّ جماعتَه قويَّةٌ ومُزدادةٌ في التأثير. ومن شأن هذا أن يُقصيَ الحديث الذاتيَّ المُستشري في المُعَسكرَين كلَيهما، وأعني القولَ إنَّ المعسكر ذاك سيَصير بائدًا عن قريب إذ يَكتسحه المُعسكرُ المُعارِض. إنَّما لا شيءَ من ذلك مُمكنٌ بصورة وشيكة. وإن كففنا عن قول أمورٍ من هذا النَّوع لأنفسنا، فقد يجعلُ ذلك كلَّ واحدٍ أكثر لُطفًا وسعةَ صدرٍ تُجاهَ الآراء المُناقِضة.

ثُمَّ إنَّ إقرارًا كهذا ليس مُطَمئنًا فحسب، بل يدفعُ إلى الاتّضاع أيضًا. فما زال كثيرون من ذوي العُقول ذات المنحى الدُّنيويّ يقولون واثقين إنَّ الإيمانَ المستقيمَ يحاولُ عبثًا "مقاومةَ مَدِّ التاريخ"، رُغمَ عدم وجود أيِّ دليلٍ تاريخيٍّ على أنَّ الدِّين يتلاشى. وعلى المؤمنين بالدِّين أيضًا أن يكونوا أَقَلَّ نبذًا للشكوكيَّة الدُّنيويَّة. إذ ينبغي للمسيحيِّين أن يتفكَّروا في حقيقة كَون قطاعاتٍ كبيرةٍ جدًّا من المُجتمعات التي غلبَتْ عليها سابقًا الصبغة المسيحيَّة قد أدارَتِ القَفا للإيمان. ولا بدَّ أن يؤدِّيَ ذلك إلى فَحْصِ الذات. فقد ولَّى زمانُ التلميح المُتأدِّب برَفض الفريق الآخر. وبِتنا الآن في حاجةٍ إلى ما يتخطَّى ذلك... لكنْ ما هو؟

نظرةٌ ثانيةٌ إلى الشكّ

أودُّ أن أقدِّمَ اقتراحًا لمستُ ما آتاه من ثمرٍ كثير في حياةِ الشباب النيويوركيِّين على مرِّ السِّنين. فأنا أوصي كِلا الفريقَين بالنَّظر إلى **الشكِّ** بطريقةٍ جديدة جَذريًّا.

ولْنَبدأْ بالمؤمنين. إنَّ إيمانًا لا تُساورُه بعضُ الشُّكوك يُشبهُ جسمًا بشريًّا ليست فيه أجسام مُضادَّة. فالأشخاصُ الذين يسلُكونَ سبيلهم في الحياة بابتهاج؛ وهُم أكثرُ انشغالًا أو لامُبالاةً من أن يطرحوا أسئلةً صعبةً عن أسباب إيمانهم بما يؤمنون به، سيَجدون أنفُسهم بِلا دفاع عندما يُواجِهون إمَّا اختبارًا مأساويًّا وإمَّا أسئلةً فاحصة من قِبَل شكوكيٍّ ذكيّ. ورُبَّما انهار إيمانُ شابَّةٍ بين عشيَّةٍ وضُحاها تقريبًا إنْ كانتْ قد أخفقَتْ على مرِّ السنين في الإصغاء برَويَّةٍ إلى شكوكها الخاصَّة التي لا ينبغي نَبذُها إلَّا بعد كثير من التفكير.

فعلى المؤمنين أن يعترفوا بالشُّكوك ويُكافحوها- ليس شكوكهم فقط بل شكوك أصدقائهم وجيرانهم أيضًا. إذ لم يعُدْ كافيًا ووافيًا أن تَتمسَّك بمُعتقَداتٍ فقط لأنَّك ورِثْتَها. وحين تخوضُ صراعًا طويلًا ومريرًا مع الاعتراضات الموجَّهة إلى إيمانك، حينئذ فقط تغدو قادرًا على بَسْط أُسُس لمعتقداتك أمام الشَّكّاكين- بمَن فيهم أنت نفسُك- تكون معقولةً ظاهريًّا، لا سخيفةً أو مُزعجة. ومُهمٌّ كذلك أيضًا بالنِّسبة إلى وضْعِنا الحاليِّ أنَّ عمليَّةً كهذه ستُؤدِّي بك إلى احترامِ الذين يَشكُّون وإلى تفهُّمهم، حتَّى بعدَ بُلوغكَ مَوقعَ إيمانٍ قويّ.

ولكنْ مثلما ينبغي للمؤمنين أن يتعلَّموا التفتيشَ عن أسبابٍ كامنةٍ وراءَ إيمانهم، كذلك يجب على الشَّكّاكين أيضًا أن يتعلَّموا البحثَ عن نوعٍ من الإيمان مَخبوءٍ داخلَ تعليلاتهم. ذلك أنَّ جميع الشُّكوك هي في الواقع مجموعةُ مُعتقدات بديلة، مهما بَدَت شُكوكيَّةً وساخرة.[٩] فليس في وُسعك أن تشكَّ في المُعتقَد "أ" إلَّا من مَوقع إيمانٍ بالمُعتقد "ب". مثلًا، إذا شككتَ في المسيحيَّة لأنَّه "لا يمكن أن تُوجَد فقط ديانةٌ حقيقيَّة واحدة"، وجبَ أن تُدركَ أنَّ تصريحَك هذا هو بحدِّ ذاته فِعلُ إيمان. فلا أحدَ يستطيع البرهنة على هذه المقولة تجريبيًّا، وهي ليست حقيقةً شاملةً يقبلُها كلُّ إنسان. وإن ذهبتَ إلى الشَّرقِ الأوسط مثلًا وقُلت: "لا يُعقَل أن توجَدَ ديانة حقيقيَّة واحدة فقط"، فمن شأن كلِّ إنسان تقريبًا أن يقول: "ولِمَ لا؟" فإنَّ السبب الذي يحملك على الشكِّ في مُعتقَد المسيحيَّة "أ" هوَ أنَّك تعتنقُ المعتقدَ "ب" غير المُبرهَن. من هنا كان كلُّ شَكٍّ مؤسَّسًا على قفزة إيمان.

يقولُ بعضُهم: "لستُ أومن بالمسيحيَّة لأنِّي لا أستطيعُ أن أقبلَ وجودَ مُطلَقاتٍ أخلاقيَّة. فينبغي لكلِّ فرد أن يُحدِّد الحقيقةَ الخُلُقيَّةَ لنَفسه". فهل

تلك مَقولةٌ يستطيعون برهنتَها لشخصٍ لا يُشارِك فيها؟ لا، بل هي قفزةُ إيمان، اعتقادٌ راسخٌ أنَّ الحقوق الفرديَّة لا تعملُ فقط في الدائرة السياسيَّة بل أيضًا في الدائرة الخُلُقيَّة. فليس من برهانٍ تجريبيٍّ لموقفٍ كهذا. وهكذا، فإنَّ الشكَّ (في المُطلَقات الأخلاقيَّة) هو قفزة إيمان.

ومن شأن بعضهم أن يُجاوِبوا عن هذا كلِّه بالقول: "إنَّ شكوكي ليسَت مؤسَّسةً على قفزة إيمان. فلا مُعتقدات لديَّ بشأن الله في هذا الاتِّجاه أو ذاك. وأنا إنَّما أشعرُ بعدم الاحتياج إلى الله، ولستُ مَعنيًّا بالتفكير في الأمر". ولكنْ يختبئُ وراءَ هذا الشعور الاعتقاد الأميركيُّ الحديثُ جدًّا والقائلُ إنَّ وجودَ الله مسألةُ لامُبالاةٍ إلَّا إذا تقاطعَتْ مع حاجاتي العاطفيَّة. فالمُتكلِّم يُراهِن بحياته على عدم وجود إلهٍ يُحاسِبُك على معتقداتك وسلوكك إن كنتَ لا تشعر بالاحتياج إليه. وقد يكون هذا صحيحًا أو لا يكون. ولكنَّه أيضًا قفزةُ إيمان بكلِّ ما تحمل الكلمة من معنى.[١٠]

إنَّ الطريقةَ الوحيدةَ للشَّكِّ في المسيحيَّة بحقٍّ وإنصاف هي أن تُميِّز المُعتقَد البديلَ في ضوء كلٍّ من شكوكك، ثُمَّ أنْ تسألَ نفسَك أيَّةُ أسبابٍ لديك تدعوك إلى الإيمان به. وكيف تعرفُ أنَّ عقيدتَك صحيحة؟ إنَّه يكون أمرًا غير مُتناغِم أن تطلبَ لأجل العقيدة المسيحيَّة تبريرًا يفوق ما تطلُبه لأجل عقيدتك الخاصَّة، ولكنَّ ذلك هو ما يحدث أغلبَ الأحيان. فبالإنصاف يجب أن تشكَّ في شكوكك. وقَولي هو إنَّك إذا بتَّ تُميِّز المعتقداتِ التي تؤسِّس عليها شكوكَكَ بشأن المسيحيَّة؛ وإذا طلبتَ لهذه المعتقدات مثل ما تطلُبه للمسيحيَّة من براهين، فسيَتَبيَّن لك أنَّ شكوكَك ليست صُلبةً كما بَدَت للوَهلة الأولى.

إنِّي أعهدُ إلى قُرَّائي بعمليَّتَين. فأنا أحثُّ الشكَّاكين على خَوض

الصِّراع في مواجهة "الإيمان الأعمى" غير المُمتحَن ذاك الذي أسَّستِ الشُّكوكيَّة عليه، وعلى رؤية مدى الصعوبة البالغ في تبرير تلك المُعتقدات للَّذين لا يُشاركون فيها. كما أحثُّ المؤمنين أيضًا على خَوض الصِّراع في مواجهة اعتراضاتهم الشخصيَّة واعتراضات حضارتهم على الإيمان. وعند انتهاء العمليَّتين كلتَيهما، فحتَّى لو بقيتَ ذلك الشكَّاك أو المؤمن الذي كُنتَه، ستَكونُ مُتَمسِّكًا بموقفك بمزيدٍ من الوضوح والاتِّضاع معًا. ثُمَّ سيَكونُ لديك فهمٌ وتعاطُفٌ واحترامٌ تُجاه الطَّرَف الآخر الذي لم يكُن مَوجودًا من قبل. فالمؤمنون وغير المؤمنين سيَرتَقون إلى مستوى الاختلاف في الرأي، بدلًا من مُجرَّد التَّنديد بعضهم ببعض. ويحصلُ هذا بعد أن يتعلَّمَ كلُّ طَرَفٍ تمثيلَ حُجَّةِ الآخر في شكلِها الأقوى والأكثر إيجابيَّة. عندئذٍ فقط يكونُ عدمُ الاتِّفاق معها مأمونًا ومُنصِفًا. وهذا يُنشئُ الكياسةَ في مجتمعٍ تَعَدُّديّ، وهي ليست أمرًا يسيرًا.

طريقٌ ثالثٌ روحيّ؟

إنَّ باقيَ هذا الكتاب هو تَقطيرٌ للمُحادَثات الكثيرة التي جرت بيني وبين الشَّكَّاكين على مرِّ السِّنين. وفي وعظي ومُقابلاتي الشخصيَّة على السواء، حاولتُ أن أساعِد الشُّكوكيِّين باحترام على النَّظر إلى أساسات مُعتقداتهم الخاصَّة، فيما أبسِّط قدَّامهم في الوقت نفسه أساسات إيماني ليَتَناوَلوها بأقوى انتقاداتهم. ففي النِّصف الأوَّل من هذا الكتاب سنُراجع أكبرَ سبعة اعتراضات وشكوك بشأن المسيحيَّة سمعتُها من الناس على مرِّ السِّنين. وسوف أتبيَّن باحترام المعتقداتِ البديلةَ وراء كلٍّ منها. ثُمَّ في النصف الثاني من الكتاب ننظر في الأسباب الكامنة في أساس المعتقدات المسيحيَّة.

يُشكِّل الحوارُ المُتَّسمُ بالاحترام بين المُحافظين التقليديّين المُتحصِّنين والليبراليّين اللّادينيّين خَيرًا عظيمًا، وأرجو أن يُعزِّزه هذا الكتاب. ولكنَّ اختباري بصفتي راعيًا لكنيسةٍ في نيويورك أمدَّني بحافز آخر على كتابة هذا المُجلَّد. فما إن قَدِمتُ إلى نيويورك حتّى تبيَّن لي أن وَضْع الإيمان والشَّكّ لم يكن كما اعتقدَه الخُبَراء. إذ إنَّ البِيضَ الأكبرَ سنًّا، والذين كانوا يُديرون الشأنَ الثقافيَّ في المدينة تحديدًا، كانوا لادينيّين إلى أقصى الحدود. ولكنِ انتشَرت بين المِهَنيّين الأصغر سنًّا، المتعدِّدي الأعراق والذين تتزايد أعدادهم، ومُهاجري الطبقة العاملة، تشكيلةٌ غنيَّة من المعتقدات الدينيَّة القويَّة تتخطّى التَّصنيفات. وقد كانت المسيحيَّة، على وجه الخُصوص، آخذةً في النُّموّ بسرعة بين هؤلاء.

أعتقد أنَّ هؤلاء المسيحيّين الأكثر شبابًا هم طليعةُ تشكيلاتٍ دينيَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة جديدة يمكن أن تجعلَ الشَّكل القديمَ من الحروب الحضاريَّة بائدًا. فبعدَ أن يخوضَ الكثيرون صراعًا مع الشكوك والاعتراضات التي تتعرَّض لها المسيحيَّة، يخرجون من الجهة الأخرى بإيمانٍ قويمٍ لا يخضعُ للتَّصنيفات الجارية التي تفصلُ بين ديمقراطيٍّ ليبراليٍّ وجمهوريٍّ مُحافِظ. ويرى كثيرون أنَّ الطَّرفَين كليهما في "الحرب الحضاريَّة" يجعلان الحرِّيَّة الفرديَّة والسعادة الشخصيَّة هُما القيمةَ القُصوى بدلًا من الله والخير العامّ. فإنَّ فَردانيَّة الليبراليّين تَبرزُ في آرائهم بشأن الإجهاض والجنس والزَّواج. فيما تبرز فردانيَّة المُحافظين في عدم ثقتهم البالغ بالقطاع العامّ، وفي فهمهم للفقر باعتباره مجرَّد إخفاقٍ في المسؤوليَّة الشخصيَّة. أمَّا المسيحيَّة القويمة المُتعدِّدة الأعراق، والآخذةُ في الانتشار بسرعة في المُدن، فهي تُعنى بالفقراء والعدالة الاجتماعيَّة عنايةً تفوق كثيرًا جدًّا ما درج الجمهوريُّون عليه، كما

تُعنى في الوقت عينه بإعلاء شأن الأخلاقيّات المسيحيّة المعهودة والأخلاق المُتعلّقة بالجنس عنايةً تفوقُ كثيرًا جدًّا ما درجَ عليه الديمقراطيُّون.

وبينما يعرضُ النِّصفُ الأوَّل من الكتاب سبيلًا سلَكَه كثيرون من هؤلاء المؤمنين بالسيِّد المسيح عبرَ الشَّكّ، يُشكِّلُ النِّصف الثاني من الكتاب عَرضًا أكثر إيجابيَّةً للإيمان الذي يعيشونه في العالَم. وإليك تعريفًا بثلاثةِ أشخاصٍ في الكنيسة الآن.

> كانت جُون (June) خرِّيجةَ إحدى جامعات أيڤي لِيغ (Ivy League)** ، تُقيم وتعمل في مَنهاتن. وقد استحوذ عليها هاجسُ صورتها البَدَنيَّة جدًّا حتَّى نشأت لديها اضطراباتٌ تغذويَّة وإدماناتٌ مادِّيَّة. وباتت تُدرك أنَّها مُتَّجهة نحو الانتحار، ولكنَّها أدركتْ أيضًا عدمَ وجودِ سببٍ مُعيَّن لديها يحملها على الإقلاع عن تدمير حياتها. وبَعدُ، ماذا كانت حياتُها تعني؟ ولماذا لا تسلكُ سبيل الانتحار؟ ثُمَّ بعد ذلك، أقبلَتْ إلى الكنيسة والْتَمسَتْ فهمًا لِرَحمةِ الله واختبارًا لحقيقته. وقد قابلَتْ مُرشدًا في الكنيسة ساعدَها على إقامة رابطٍ بين رحمة الله وحاجتِها إلى القبول التي يبدو أنَّها لا تنفَدُ. وفي الأخير تأتَّتْ لها الثقة لالتماس لقاءِ بالله نفسِه. ورغم أنَّها لا تستطيعُ أن تُحدِّدَ بدقَّةٍ لحظةً مُعيَّنة،

** هو تجمُّعٌ لثَماني مؤسَّساتٍ أكاديميَّة مَرموقة في الشمال الشرقيّ للولايات المتَّحدة منها جامعتَا هارڤاد (Harvard) ويال (Yale). يتضمَّن هذا المصطلحُ أيضًا التميُّزَ الأكاديميّ، والشروطَ الصارمةَ في اختيار الطلّاب، كما يعكسُ كَونَ خرِّيجيها من النُّخَبِ الاجتماعيَّة (الناشر).

باتت تشعر- وللمرَّة الأولى في حياتها- بأنَّها "محبوبةً محبَّةً غير مشروطة بِوَصفها ابنةً حقيقيَّةً لله". وبالتدريج، نالتِ التَّحرُّر من هواجسِها الانتحاريَّة.

وكان جَفري (Jeffrey) موسيقيًّا من مدينة نيويورك، تربَّى في بيت يهوديٍّ مُحافِظ. وقد عانى أبواه كلاهما معاناةً رهيبة من جرّاء السَّرطان، ثُمَّ ماتتْ أمُّه بعد مدَّة بالسَّرطان. وبسبب بضعة أمراضٍ صحِّيَّة ابتُلِيَ بها منذ حداثته، لجأ إلى ممارسات فنون الشِّفاء الصِّينيَّة، فضلًا عن التأمُّل التاويِّ والبُوذيِّ (في بعض الديانات الشرقيَّة)، وصار بالغَ التركيز على الصِّحَّة الجسديَّة. ولم يَكُنْ في حالةِ "احتياج روحيّ" لمَّا بدأ أحد أصدقائه باصطحابه إلى كنيسة الفادي. وقد راقَتْه العظات، حتَّى "إذا جرى التطرُّق في آخرها إلى الشأن المتعلِّق بالسيِّد المسيح" كان يكفُّ عن الاستماع إذ ذاك. ولكنَّه سرعانَ ما صارَ إلى حدٍّ ما يَغارُ من أصدقائه المسيحيِّين لفَرحهم ورجائهم المستقبليِّ اللذين لم يَعهدْهما قبلًا. ثَمَّ بدأ يُصغي إلى خاتمة كلٍّ من العِظات، فأدركَ أنَّها تطرحُ تحدِّيًا عقلانيًّا لم يكُنْ يريدُ أن يُواجهَه. وممَّا أدهشَهُ أخيرًا أنَّه في أثناء أوقات تأمُّله تبيَّن له أنَّ "لحظاتِ صفائه وهدوئه الخالصةَ عادةً كانت تُقاطعُها باستمرار رؤًى يظهر فيها السيِّد المسيح مصلوبًا". فبدأ يُصلِّي إلى إله المسيحيَّة، وأدركَ سريعًا أنَّ قصَّةَ حياته المُهيمنةَ ما تزال تدورُ حول الفرار من الألَم وتجنُّبه كليًّا. آنذاك أدركَ مدى عُقمِ مثلِ

هذا الهدف في الحياة. ولمّا أدركَ أنَّ السيِّد المسيحَ قد سلَّم صحَّته وحياته لأجل خلاص العالَم- وخلاص جَفري نفسه أيضًا- أثَّر فيه ذلك أعمقَ التأثير. وهكذا رأى سبيلًا إلى الحصول على الشجاعة لمواجهة مُعاناة المستقبل التي لا مفرَّ منها، وإلى التيقُّن بأنَّ دربَ اجتيازها سيَكونُ مُتاحًا. ومن ثَمَّ قَبِلَ إنجيلَ يسوع المسيح وأخبارَه السارَّة.

وكانت كَلي (Kelly) مُلحِدةً تعتنق مبادئ آيَقي لِيغ. ولمّا كانت في الثانيةَ عشرةَ من عمرها، راقَبَتْ جدَّها يموت بالسَّرَطان، وأختَها ابنةَ السنتَين تخضع للجراحة والعلاج الكيمياويِّ والإشعاعيِّ بسببِ وَرَم دماغيّ. ولمّا صارتْ طالبةً للشهادة الأولى في جامعة كولومبيا، كانت قد فقدَتْ كلَّ أملٍ بوجود أيِّ معنًى للحياة. وقد حدَّثَها بعضُ أصدقائها المؤمنين في الجامعة بشأن إيمانهم، ولكنَّ قلبَها كان "أرضًا صخريَّة" بالنسبة إلى بذار شهاداتهم. غير أنَّه لمّا أصيبتْ أختُها بسكتةٍ دماغيَّة وصارت مشلولةً وهي في الرابعةَ عشرة، لم يدفعْها ذلك للاستِسلام من جهة الله، بل بالأحرى إلى مباشرة مزيدٍ من البحث الهادف. ولكنَّها كانتْ آنذاك تُقيمُ وتشتَغلُ في المدينة، حيثُ التَقَتْ زَوجها المستقبليَّ كيڤن (Kevin)، وكان قد تخرَّج في جامعة كولومبيا، كما كان مُلحِدًا، يعمل في وول ستريت لدى جاي. پي. مورغَن (J. P. Morgan). وقد كانت شكوكُهما بشأن الله مُستعصِيةً جدًّا، ومع ذلك ساورَتْهما شُكوكٌ بشأن شُكوكِهما، وهكذا بدأا يحضران

خدماتِ كنيسةِ الفادي. وكانت رحلتُهما نحو الإيمان بطيئةً وشاقَّة. إنَّما كان من الأمور التي أبقَتهما على الخَطِّ ذلك العددُ الكبير الذي قابلوه من المسيحيِّين المؤمنين الذين لم يكونوا يَقِلُّون في شيءٍ عن أيِّ مُثقَّفٍ ذكيٍّ آخر قابلوه في المدينة. وأخيرًا اقتَنَعا ليس فقط بِصدقيَّة المسيحيَّة فكريًّا، بل جذبَتْهما أيضًا رؤياها بشأن الحياة. وقد كتبَت كَلي: "لمَّا كنتُ مُلحدةً، خُيِّل إليَّ أنِّي أعيشُ نوعَ حياةٍ خُلُقيًّا موجَّهًا بمُقتضى مَصلحة الجماعة ومَعنيًّا بالعدالة الاجتماعيَّة، ولكنِّي وجدتُ في المسيحيَّة معيارًا أسمى بَعدُ، يمسُّ أعماقَ أفكارنا وحالةَ قلوبنا. فقبِلْتُ غفرانَ الله ودَعوتَه إلى داخل حياتي". وكتب كيڤن: "بينما كنتُ جالسًا في مقهى أقرأ "المسيحيَّة المجرَّدة"*** (Mere Christianity) بقلم سي. أس. لِويس (C.S. Lewis)، وضعتُ الكتابَ جانبًا وكتبتُ في مفكِّرتي "إنَّ البيِّنات التي تحيطُ بدعاوى المسيحيَّة دامغةٌ حقًّا". لقد تبيَّنَ لي أنَّ إنجازاتي كانت غير مُرضِيةٍ كلِّيًّا، واستحسانَ الإنسانِ عابرٌ وزائل، وأنَّ حياةَ الاستمتاع الوقتيِّ التي نعيشها فقط في سبيل المغامرة هي مجرَّدُ شكلٍ من أشكال النَّرجسيَّة**** وعبادةِ الأصنام. وهكذا صرتُ مؤمنًا بالسيِّد المسيح".[١١]

*** كتابُ "المسيحيَّة المجرَّدة" أحدُ منشورات أوفير للطباعة المتخصِّصة والنشر (الناشر).

**** نسبة إلى نارسيس (Narcissus) في الميثولوجية الإغريقيَّة الذي كان مغرقًا في الإعجاب بنفسه حتَّى إنَّه غرقَ في بحيرةٍ كان يرى فيها انعكاسَ صورته، بينما كان يُحاولُ الاقتراب من تلك الصورة. ويُقال إنَّ شخصًا ما نرجسيٌّ حين يكون مُعجَبًا بِذاته جسديًّا، ويُقال ذلك مجازًا في المعجَب بأفكاره وآرائه أيضًا (الناشر).

السيِّدُ المسيحُ وشُكوكُنا

ثُمَّ إنَّ شهادةَ كَلي تستَذكرُ كيف كان المقطعُ الذي يتحدَّثُ بشأن تُوما في العهد الجديد تعزيةً لها، وهي التي خاضَتْ صراعها في مواجهة الشكِّ والإيمان. هناك رسمَ السيِّدُ المسيحُ نموذجًا لنظرةٍ في الشكِّ أغنى معنًى من نظرات الشُّكوكيِّين العصريِّين والمؤمنين المعاصرين على السَّواء. فلمَّا واجه السيِّد المسيحُ "تُوما الشَّكَّاك" حثَّه على عدم الإذعانِ للشَّكِّ ("لا تكُن غير مؤمنٍ بل مؤمنًا!" يوحنَّا ٢٠: ٢٧)، إلَّا أنَّه استجابَ أيضًا لِطَلبه بتقديم دليلٍ إضافيّ. وفي حادثةٍ أخرى، قابَلَ السيِّد المسيحُ رجلًا اعترفَ بأنَّه مُمتلئٌ شكوكًا (مرقس ٩: ٢٤) إذ قال له: "أعِنْ عدم إيماني" - ساعِدْني على شكوكي! وتجاوُبًا مع هذا الاعتراف الصادق، بارَكه السيِّدُ المسيحُ وشفى ابنه. فسواءٌ حسبتَ نفسَك مؤمنًا أم شكَّاكًا، فإنِّي أدعوكَ إلى تَوخِّي هذا النَّوع من الصِّدق، وإلى النُّموِّ في فَهْم طبيعةِ شكوكِكَ الخاصَّة. ولَسَوفَ تَفوقُ النتيجةُ كلَّ شيءٍ تستطيعُ أن تَتصوَّرَه.



القسم الأوّل

قفزةُ الشَّكّ



١

لا يُعقَلُ أن توجَدَ ديانةٌ حقيقيَّةٌ واحدةٌ فقط

قالتْ بلير (Blair)، ابنةُ العشرين المُقيمةُ في مَنهاتن: "كيف يُعقل أن يوجَدَ إيمانٌ حقيقيٌّ واحدٌ فقط؟ من العجرفة أن تقولَ إنَّ ديانتَك مُتفوِّقةٌ، فَتُحاولَ أن تهدِيَ كلَّ إنسانٍ آخرَ إليها. يقينًا أنَّ جميعَ الأديان خيِّرةٌ بالتَّساوي وفعَّالةٌ لتَلبيةِ حاجاتِ أتْباعها".

وأضاف جيوف (Geoff)، وهو بريطانيٌّ في العقد الثالث يقيمُ في نيويورك أيضًا: "ليستِ الحصريّة (Exclusivity) الدينيّة ضيِّقة الأفق فحسْب، بل هي خطرةٌ أيضًا. فإنَّ الدِّين قد أدَّى إلى ما لا يُوصفُ من النِّزاع والانقسام والصِّراع. وربَّما كان هو أكبر عدوٍّ للسَّلام في العالم. فإن استمرَّ المسيحيُّون في الإصرار على أنّهم يملكون "الحقّ"– وإذا حذا حذوَهم أيضًا أتْباعُ الديانات الأخرى– فإنَّ العالَم لن يعرفَ السلام".[1]

في أثناء قرابة العقدَين اللَّذَين قضيتُهما في نيويورك، أتيحَتْ لي فُرصٌ كثيرةٌ كي أسألَ أشخاصًا: "ما المُعضلة الكُبرى التي تُواجِهُها في المسيحيَّة؟ ماذا يُقلقُكَ أكثرَ الكُلِّ بشأن عقائدها أو كيفيَّة ممارستها؟"

وواحدٌ من أكثر الأجوبة تكرارًا بين ما سمعتُه على مرِّ السِّنين يُمكن تلخيصه بكلمة واحدة: الحصريَّة.

وقد دُعيتُ مرَّةً لأكونَ المُمثِّل المسيحيَّ في مُناقشةٍ عامَّة بمعهدٍ محلِّيٍّ مع حاخام يهوديٍّ وإمام مُسلِم، حيث طُلِبَ إلى المناقشين أن يَبحثوا في الفوراق بين دياناتهم. وكانَتِ المحادثةُ تتَّسمُ باللِّياقة والذَّكاء والاحترام في آنٍ معًا. وقد أكَّدَ كلُّ مُتكلِّم وجودَ فوارقَ مهمَّةٍ بين الدِّيانات الكُبرى يَصعُبُ التَّوفيقُ بينها. واتَّفقْنا جميعًا على المقولة التالية: "إنْ كانَ المسيحيُّون على حقٍّ بشأن كَون السيِّد المسيح هو الله، فإنَّ اليهودَ والمسلمينَ يُخفِقون إخفاقًا ذَريعًا في محبَّة الله كما هو بالحقيقة. أمَّا إذا كان اليهودُ والمسلمون على حقٍّ في قولهم إنَّ السيِّدَ المسيحَ ليس الله بل بالأحرى مُعلِّمٌ أو نبيّ، فإنَّ المسيحيِّين يُخفِقون إخفاقًا ذَريعًا في محبَّة الله كما هو بالحقيقة". وكانَتِ النتيجةُ النهائيَّةُ أنَّه لا يمكُنُ أن نكونَ جميعًا على حقٍّ بالتَّساوي في ما يتعلَّق بطبيعة الله.

وقد بلغَ طُلَّابٌ كثيرون غايةَ الانزعاج من ذلك. وأصرَّ أحدُهم على أنَّ ما يهمُّ هو أن تؤمنَ بالله وتكونَ أنت نفسُك شخصًا مُحبًّا. فلم يكنْ مقبولًا الإصرارُ على أنَّ ديانةً واحدةً تحوزُ فهمًا للحقّ يفوقُ ما تحوزُهُ ديانةٌ أخرى. كما أنَّ أحدَ الطُّلَّاب نظرَ إلينا نحنُ رجالَ الدِّين وقال مُحبَطًا: "لَن نصلَ أبدًا إلى اختبارِ السلام على الأرض إنِ استمرَّ القادةُ الدينيُّون في إصدار تَصريحاتٍ حصريَّة كهذه!"

يُعتقَد على نطاقٍ واسع أنَّ واحدًا من العوائق الرئيسيَّة للسَّلام العالميّ هو الدِّين، ولا سيَّما الأديان الكُبرى بدَعاواها الحصريَّة من حيثُ التفوُّق. وقد يُدهشُك أنِّي أوافق على هذا رُغم كَوني خادمًا مسيحيًّا. فإنَّ الدِّين، على وجه العموم، يميلُ إلى إنشاء مُنحدَرٍ زَلِقٍ في القلب. وكلُّ دينٍ يُعلِّمُ أتْباعَه بأنَّ

لديهم "الحقّ"، الأمرُ الذي يؤدّي بهم على نحوٍ طبيعيٍّ إلى الشّعور بأنّهم مُتفوِّقون على ذوي المُعتقدات المختلفة. ثُمَّ إنَّ كلَّ دين يقول لأتْباعه إنّهم يَخلُصون ويرتبطون بالله من خلال ممارستهم المُتفانية لذلك الحقّ. ويَدفعُهم هذا للانفصال عن الذين هم أقلُّ تقوى وطهارةً في الحياة. لذلك يَسهُلُ على جماعةٍ دينيَّةٍ ما أن تُقولِبَ غيرَها من الجماعات وتُظهرَها بصورةٍ كاريكاتوريَّة. وما إنْ يوجَد ذلك، قد تنحدرُ تلك الجماعة بسهولة إلى تهميشِ غيرها من الجماعات، بل أيضًا إلى معاملتها باضطهادٍ أو تعسُّفٍ أو عنف.

وحالَما نُدرِكُ كيف يَطمسُ الدِّين السلامَ على الأرض، فماذا يمكننا أن نفعلَ حِيالَ ذلك؟ ثَمَّةَ ثلاثةُ أساليبَ يستخدمُها القادةُ المدنيُّون والثقافيُّون حول العالَم في التصدّي للانقسام الذي يُنشئه الدِّين. فهنالك دَعواتٌ إمَّا إلى حَظْر الدِّين، وإمَّا إلى شَجْبه، وإمَّا على الأقلِّ إلى جَعْله مسألةً خاصَّةً بصورة جذريَّة.[٢] وكثيرون من الناس يُعلِّقون آمالًا كبارًا على هذه الأساليب. ولكنَّ النبأ غيرَ المُسرِّ للكثيرين هو أنِّي لا أعتقد أنَّ أيًّا منها سيَكون فعَّالًا. بل إنِّي أخشى في الحقيقة أنَّها لن تزيدَ الوضْعَ إلَّا تفاقمًا.

١. حَظْر الدِّين

ما تزالُ إحدى الطُّرق في التصدّي لما يسبِّبه الدِّين من الخلاف والشّقاق هي اللجوء إلى السَّيطرة عليه، أو حتَّى إلى حَظْره بقبضةٍ من حديد. وقد شهدَ القرنُ العشرون عددًا من المساعي الهائلة لإتمام ذلك. فإنَّ روسيا السوڤياتيَّة والصِّين الشيوعيَّة والخمير الحُمر (في كمبوديا) وألمانيا النازيَّة (بطريقة مختلفة) كانت جميعًا عاقدة العزم على ضَبْط الممارسة الدينيَّة بحَزْم، في محاولةٍ لمنعها من شقِّ المجتمع أو إضعاف سُلطة الدَّولة. غير أنَّ النتيجةَ لم

تكنْ مزيدًا من السلام والوئام، بل كانت مزيدًا من الظُّلم والطُّغيان. ويُبرِز السُّخريةَ المأساويَّةَ في هذا الوضع ألِستَر مَكْغراث (Alister McGrath) في تاريخه عنِ الإلحاد:

> أدّى القرنُ العشرون إلى نشوء واحدةٍ من أعظم مُفارقات التاريخ البشريّ وأشدِّها مُضايَقة: أنّ أفدح تعصُّبٍ وعُنفٍ في ذلك القرن مارسهما أولئك الذين كانوا يعتقدون أنّ الدِّين يُسبِّب التعصُّب والعُنف.[٣]

وقد سار يدًا بِيَد مع تلك المساعي اعتقادٌ واسعُ الانتشار في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنَّ الدِّينَ سيَضعُفُ ويتلاشى إذ يصيرُ الجنسُ البشريُّ أكثرَ تقدُّمًا على الصَّعيد التكنولوجيّ. ورأى هذا الرأيُ أنَّ الدِّين قام بِدَورٍ ما في التَّنمية البشريَّة. فقد كُنَّا في ما مضى بحاجةٍ إلى الدِّين ليُساعدَنا على مواجهة عالَمٍ مُروِّعٍ مُبهَم. ولكنْ إذ صِرْنا أكثرَ تقدُّمًا على الصعيد العلميّ وأقدرَ على فَهْم بيئتنا والتحكُّم فيها، تَتَضاءَلُ حاجتُنا إلى الدِّين، على حدِّ ما اعتَقدَ البعض.[٤]

غير أنَّ ذلك لم يحدُثْ، و"طَرْحُ العَلمانيَّة" (Secularization Thesis) هذا لم يَعُدْ يَلقى قبولًا رائجًا.[٥] ففي الواقع أنَّ جميعَ الدِّيانات الرئيسيَّة يَزدادُ عددُ أتْباعها. ونموُّ المسيحيَّة، خصوصًا في العالَم النَّامي، هو نموٌّ انفجاريّ. فعدَد الأنكليكانيِّين في نيجيريا وحدَها يبلغُ ستَّة أضعاف عددهم في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. وفي غانا مَشيَخيُّون يفوقُ عددُهم ما في الولايات المتَّحدة وسكوتلندا معًا. أمَّا في كوريا فقد ارتفعتْ نسبة المسيحيِّين من ١٪ إلى ٤٠٪، في غضونِ مئة سنة، ويعتقدُ الخُبراءُ أنَّ الأمرَ عينَه سيَحصلُ في الصِّين. فإنْ صارَ في الصِّين نِصفُ مليار مسيحيٍّ بعد

خمسين سنة من الآن، فإنَّ ذلك سيُغيِّرُ مجرى التاريخ البشريّ.[٦] وفي أغلب الحالات، ليسَتِ المسيحيَّةُ التي تشهَدُ نُموًّا مُمَثِّلَةً لنَماذجَ دُنيويَّةٍ وسطحيَّةِ الإيمان، كالتي تكهَّنَ بها علماء الاجتماع، بل هي بالأحرى نوعٌ حيٌّ من الإيمان فائقٌ للمألوف، يصحبُه إيمانٌ بالمعجزاتِ وسلطةِ الكتاب المقدَّس والولادةِ الجديدة الشخصيَّة.

وبفَضل حيويَّة الإيمان الدينيِّ في العالَم، فإنَّ المجهوداتِ المبذولةَ لقَمعه أو ضَبْطه غالبًا ما تؤولُ إلى جَعْله أقوى فحسْب. فلَمَّا طردَ الشُّيوعيُّون الصِّينيُّون المُبشِّرين الغربيِّين من الصِّين بعد الحرب العالميَّة الثانية، خُيِّلَ إليهم أنَّهم يُوجِّهون إلى المسيحيَّة في الصِّين ضربةً قاضية. ولكنَّ هذا التحرُّك لم يؤدِّ إلَّا إلى جَعْل قيادةِ الكنائس الصِّينيَّة محلِّيَّةً وطنيَّةً جدًّا، ومن ثَمَّ آلَ إلى تَقْويَتها.

ليس الدِّينُ مجرَّدَ أمرٍ وقتيٍّ ساعدَنا على التكيُّف مع بيئتنا، بل هو بالأحرى عنصرٌ ثابتٌ وجوهريٌّ بالنِّسبة إلى الوضع البشريّ. وهذا دواءٌ مُرٌّ يصعبُ أن يبتلعَه اللَّادينيُّون. فكلُّ امرئٍ يُريدُ أن يحسبَ أنَّه يسيرُ في الاتِّجاه السائد، وأنَّه ليس مُتطرِّفًا أو مُتزمِّتًا. غير أنَّ المعتقداتِ الدينيَّةَ الناشطة تَسودُ العالَم. وليس من سببٍ يدعو إلى توقُّعِ حصولِ تغييرٍ في ذلك.

٢. شَجْبُ الدِّين

ليس الدِّينُ راحلًا، ولا يُمكن إضعافُ سُلطته بسَيطرة الحكومة عليه. ولكنْ، ألا نستطيع– من خلال التعليم والمُجادلة– أن نهتديَ إلى سُبُلٍ بها نَعوقُ اجتماعيًّا الأديانَ التي تَزعمُ أنَّها تملكُ "الحقّ"، والتي تُحاولُ أن تَهديَ الآخرين

إلى عقائدها؟ ألا نستطيعُ أن نعثُرَ على طُرقٍ بها نَضطرُّ جميع مواطنينا إلى الاعتراف بأنَّ كلَّ دينٍ يؤمنُ به الناس ما هو إلَّا واحدٌ من عدَّة سُبُلٍ صحيحة بالتَّساوي تؤدِّي كلُّها إلى الله، وواحدةٌ من طرائقَ مُتماثلَةٍ للعَيش في العالَم؟

إنَّ هذا الأسلوبَ يُوجِدُ بيئةً فيها يُعدُّ إدلاءُ المرء بتصريحاتٍ دينيَّة حصريَّة أمرًا مخالفًا للتَّنوُّر والتأدُّب، حتَّى في الأحاديث الشخصيَّة. ويتمُّ لهذا الأسلوبِ ذلكَ الأمرُ (إقصاءُ مَن يُدلون بتصريحاتٍ حصريَّة) بأن يطرَحَ بديهيَّاتٍ مُعيَّنةً ويُعيدَ طرْحَها ممَّا يؤولُ في الأخير إلى إشاعة حسٍّ فِطريٍّ عامّ. وأولئك الذين يَحيدونَ عن تلك البديهيَّات يُوصَمون بأنَّهم مجانين أو ذوو خَطَر. وعلى خلاف الاستراتيجيَّة الأولى، يُحقِّقُ هذا الأسلوبُ بعضَ النتائج في التصدِّي للتَّفرقة التي يُحدِثُها الدِّين. ولكنْ من غير المُمكِن أن يُحرزَ هذا الأسلوبُ النجاحَ في نهاية المطاف؛ إذ إنَّ في لُبِّه يكمنُ تضارُبٌ فتَّاك- بل ربَّما نوعٌ من النِّفاق- سوف يؤدِّي في الأخير إلى انهيار طريقة التفكير هذه. وفي ما يلي بعضٌ من هذه البديهيَّات، تَصحبُها المُشكلة المتعلِّقة بكلٍّ منها.

"جميع الدِّيانات الرئيسيّة صحيحةٌ على السواء، وهي جوهريًا تُعلِّمُ تعليمًا واحدًا".

هذا التوكيد شائعٌ جدًّا بحيثُ إنَّ أحدَ الصِّحافيِّين كتبَ مؤخَّرًا أنَّ أيَّ شخصٍ يعتقدُ أنَّ "هنالك أديانًا دُنيا" هو مُتطرِّف يمينيّ.[٧] أتُريدُ حقًّا أن تقولَ إنَّ "شُعبة الداوُديِّين"* أو الأديان التي تطلب تقديم أضحيَّات من الأطفال

* شعبة الداوديِّين (The Branch Davidians) هي بدعةٌ انشقَّت عن طائفة السبتيِّين- الأدفنتست، وقد حملتْ هذا الاسم بعد وفاة مؤسِّسها ڤكتور هوتِف (Victor Houteff) في عام ١٩٥٥. ومن معتقداتهم الرئيسيَّة أنَّ قائدَهم يجب أن يكون مملوءًا بروح النبوَّة، وأنَّ عليهم أن يستردُّوا مُلكَ داود على

ليست أدنى من أيِّ مذهب دينيٍّ آخر؟ من شأن الغالبيَّة العُظمى من الناس أن يُوافِقوا على كَون هذه أدنى من سواها موافقةً إجماعيَّةً تقريبًا.

ومُعظم الذين يؤكِّدونَ تَساويَ الأديان يُضمِرونَ في أذهانهم ديانات العالَم الرئيسيَّة، لا الفرَقَ الصغيرة. وقد كان هذا هو شكلَ الاعتراض الذي نالَني من ذلك الطالبِ ليلةَ كنتُ في المناقَشة العامَّة. فإنَّه حاجَّ (أدلى بحُجَّته) بأنَّ الفوارقَ العقائديَّة بين اليهوديَّة والإسلام والمسيحيَّة والبوذيَّة والهندوسيَّة هي سطحيَّةٌ وغير مُهمَّة، وأنَّ هذه الدِّياناتِ كلَّها تؤمنُ بالإله الواحد. ولكن لمَّا سألتُه مَن يكونُ ذلك الإله، وصفَه بأنَّه روحٌ كلِّيُّ المحبَّة في الكَون. أمَّا مُشكلةُ هذا الموقف فهي تَناقُضها مع ذاتها. فهو يُصرُّ على أنَّ العقيدةَ غيرُ مُهمَّة، ولكنَّه في الوقت نفسه يفترضُ مُعتقَداتٍ عقائديَّةً بشأن طبيعة الله تَتَعارَضُ مع معتقدات جميع الدِّيانات الرئيسيَّة. ذلك أنَّ البوذيَّةَ لا تؤمنُ بإلهٍ شخصيٍّ أبدًا. كما أنَّ اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام تؤمن بإلهٍ يحسبُ الناسَ مسؤولين عن مُعتقَداتهم وممارساتهم، وسَجاياهُ لا يمكنُ اختصارُها بالمحبَّة وحدَها. ومن دواعي السُّخرية أنَّ الإصرارَ على كَون العقائد غيرَ مُهمَّة هو عقيدةٌ بحدِّ ذاته. فهو يتمسَّكُ بنظرةٍ مُحدَّدةٍ إلى الله، تُوصَفُ بأنَّها أكثرُ سُموًّا وتَنوُّرًا من معتقدات معظم الأديان الرئيسيَّة. وهكذا، فإنَّ أنصارَ هذا الرأي يفعلونَ الأمرَ عينَه الذي يحظرونَه على الآخرين.

"كلُّ ديانةٍ تَرى جزءًا من الحقيقة الروحيَّة، ولكنْ لا تستطيعُ أيَّةٌ منها أن ترى الحقَّ كُلَّه".

أحيانًا تُمَثَّلُ هذه النُّقطة بِحكايةِ العميان والفيل. فإنَّ بضعةَ عميانٍ

الأرض قبل مجيء السيِّد المسيح ثانيةً، ومن هنا ارتبطَ اسمهم بالملك داود (الناشر).

كانوا يسيرونَ معًا وصادَفوا فيلًا سمحَ لهم بأن يتلمَّسوه ويتحسَّسُوه. فقال الأعمى الأوَّل الذي لمسَ خرطوم الفيل: "هذا المخلوقُ طويلٌ ومَرِنٌ مثل الحيَّة". وقالَ الأعمى الثاني الذي تحسَّس رِجلَ الفيل: "كلَّا! إنَّه ثخين ومَبروم مثل جذع الشجرة". وقال الأعمى الثالث الذي جسَّ جنبَ الفيل: "لا، بل هو كبير ومُفلطَح". فقد كان في وُسع كلِّ أعمى أن يلمسَ فقط جزءًا من الفيل- ولكنَّ أحدًا من العميان لم يستطِعْ أن يتصوَّرَ الفيلَ بكامله. وهكذا يُحاجُّ بالطريقة نفسِها بأنَّه يمكنُ لكلِّ واحدةٍ من ديانات العالَم أن تُلِمَّ بجزءٍ من الحقِّ بشأن الحقيقة الروحيَّة، ولكنْ لا تستطيعُ أيَّةُ منها أن ترى الفيلَ كُلَّه أو تدَّعيَ أنَّها تحوز رؤيةً شاملة للحقّ.

ولكنَّ هذا الإيضاحَ يرتدُّ على مُستخدميه. فالقصَّةُ مَرويَّةٌ من وجهة نظرِ شخصٍ غير أعمى. وكيف يمكنُ أن تعرفَ أنَّ كلَّ أعمى يَعي فقط جزءًا من الفيل إلَّا إذا زعمتَ أنتَ أنَّك قادرٌ على رؤية الفيل بكامله؟

> ثمَّة مظهرُ اتِّضاعٍ في المحاجَّة بأنَّ الحقَّ أكبرُ بكثيرٍ من أن يستطيعَ أيُّ واحدٍ منَّا أن يستوعبَه. ولكنْ إذا استُخدِمَ هذا لتفنيد جميع الادِّعاءات بتمييز الحقّ، يكونُ بالحقيقة ادِّعاءً مُكابرًا بنوعٍ من المعرفة أسمى من باقي الأنواع... فعلينا أن نسأل: "ما الموقعُ المُمتازُ المُطلق الذي منه تدَّعي أنَّك قادرٌ على إضفاء النِّسبيَّة على كلِّ التصريحاتِ المُطلقة التي تُدلي بها شواهدُ مختلفةٌ من الكتاب المقدَّس؟"[٨]

فكيف يُعقَلُ أن تعرفَ، على وجه الاحتمال، أنَّه ما من دِينٍ يستطيعُ أن يُلِمَّ بالحقِّ كُلِّه إلَّا إذا كنتَ أنت حائزًا المعرفةَ المُتفوِّقةَ الشاملةَ بالحقيقة الروحيَّة، تلك التي زعمتَ توًّا أنَّ أيَّ دِينٍ من الأديان لا يحوزُها؟

"المُعتقَد الدينيُّ أكثرُ تكيُّفًا مع الحضارة والثقافة والتاريخ من أن يكونَ هو الحقّ".

لمَّا قَدمتُ إلى مدينة نيويورك أوَّلًا منذ عشرين سنة تقريبًا، سمعتُ أغلبَ الأحيانِ الاعتراضَ القائل إنَّ جميعَ الأديان صحيحةٌ على السَّواء. وأمَّا الآن، فالأرجحُ أن يُقال لي إنَّ جميعَ الأديان زائفةٌ على السواء ويجري الاعتراضُ على هذه الشاكلة: "جميعُ المَقُولات الخُلُقيَّة والروحيَّة هي حصيلةُ اللَّحظة التاريخيَّة والثقافيَّة المخصوصة التي نعيشُها. ولذلك لا ينبغي لأحدٍ أن يدَّعيَ أنَّه يستطيعُ أن يعرفَ "**الحقّ**"؛ لأنَّه ليس ثَمَّة مَن يستطيعُ أن يحكُمَ بشأن توكيدٍ يتناوَلُ الحقيقةَ الروحيَّة والخُلُقيَّة أنَّ ذاك التوكيدُ أصحُّ من سواه". ويكشفُ عالِمُ الاجتماع پيتر أل. بيرغر (Peter L. Burger) ما ينطوي عليه هذا الافتراضُ الشائعُ من تضارُبٍ خطير.

فإنَّ بيرغر في كتابه "**شائعةُ ملائكة**" (A Rumor of Angels) يحكي كيف كشفَ القرنُ العشرون "سوسيولوجيَّة المعرفة" (The Sociology of Knowledge)، أي أنَّ الناس يؤمنون بما يؤمنون به إلى حدٍّ بعيد لأنَّهم مُكيَّفون اجتماعيًّا كي يؤمنوا به. ونحن نودُّ التفكيرَ في أنَّنا نُفكِّر بالأصالة عن أنفسنا (نفكِّر في ما يمثِّل حالنا)، ولكنَّ المسألة ليست بهذه البساطة. إذ إنَّنا نُفكِّر على غرار الأشخاص الذين نُعجب بهم ونحتاج إليهم أكثر من سواهم. فكلُّ امرئٍ ينتمي إلى جماعةٍ مُشترَكة تُعزِّزُ امتداحَ بعض المعتقدات فيما تُقصي معتقداتٍ أخرى. ويُشير بيرغر إلى أنَّ كثيرين استَنتَجوا من هذه الحقيقة أنَّه يستحيلُ البَتُّ في صواب المعتقدات المتضاربة أو خطئها؛ لأنَّنا جميعًا مُقيَّدون داخل مواقعنا التاريخيَّة والحضاريَّة والثقافيَّة.

غير أنَّ بيرغر يمضي ليقول إنَّ النِّسبيَّةَ المطلَقة لا يمكنُ أن توجَدَ إلَّا إذا

أعفى القائلون بالنِّسبيَّة أنفسَهم من تطبيق منطقهم الخاصّ.[٩] فإنِ استنتجتَ من التكيُّف الاجتماعيِّ الذي يتَّصفُ به كلُّ مُعتقَد أنَّه "ما من مُعتقَد يمكنُ أن يُقبَل على أنَّه صحيحٌ بالنِّسبة إلى كلِّ امرئٍ على نحوٍ شامل" - وهذا في ذاته تصريحٌ شاملٌ عن كلِّ امرئٍ هو حصيلةٌ للظُّروف الاجتماعيَّة- فلا يمكنُ أن يكونَ ذلك المُعتقَد صحيحًا، حسب شروطه الخاصَّة. ويُضيفُ بيرغر أنَّ "النِّسبيَّة تَضَعُ نسبيَّةً لنفسها"، ولذلك لا يمكن أن نحوزَ النسبيَّة مُطلَقًا "على طول الطريق".[١٠] ولا شكَّ أنَّ تحيُّزاتنا الثقافيَّةَ تجعلُ وَزْنَ دعاوى الحقِّ المُتنافسة عمليَّةً أصعب. فإنَّ التكيُّفَ الاجتماعيَّ للإيمان هو حقيقة، ولكنْ لا يمكن استخدامُه للمُجادلة بأنَّ الحقَّ كلَّه نسبيٌّ، وإلَّا فإنَّ الحُجَّةَ عينَها تدحَضُ ذاتها. وينتهي بيرغر إلى أنَّنا لا نستطيعُ أن نتجنَّب وَزْنَ الدَّعاوى الروحيَّة والدينيَّة بالاختباء وراءَ الكليشيهات القائلة إنَّه "لا سبيلَ إلى معرفة الحقّ". فما زالَ علينا أن نقومَ بالعمل الصَّعب إذ نسأل: أيَّة توكيدات عن الله والطبيعة البشريَّة والحقيقة الروحيَّة هي صحيحةٌ وأيُّها خاطئة؟ ولا بدَّ لنا من أن نؤسِّسَ حياتَنا على جوابٍ ما عن هذا السؤال.

وللفيلسوف أَلْفِن پلانتِنغا (Alvin Plantenga) نسختُه الخاصَّة لحُجَّة بيرغر. فالناسُ غالبًا ما يقولون له: "لو أنَّك وُلِدتَ في المغرب، لَمَا كنتَ حتَّى مسيحيًّا، بل بالأحرى مُسلمًا". وإليك جوابَه:

> فلْنفترضْ أنّنا سلّمنا جدلًا بأنّي لو وُلدتُ من أبوين مسلمين في المغرب لا من أبوين مسيحيّين في ميشيغن، لكانت معتقداتي مختلفةً تمامًا. ولكنّ الأمرَ عينَه يَصحُّ بالنّسبة إلى القائل بالتّعدُّديّة... فلو أنّ التّعدُّديّ وُلِد في المغرب، لَمَا كان تَعدُّديًا على وجه الاحتمال. فهل يصحُّ بالضّرورة أنّ معتقداته التّعدُّديّة تلك قد أنشأتْها فيه عمليّةُ إنتاج عقيدةٍ غيرُ جديرة بالثّقة؟[١١]

إنَّ پلانتنغا وبيرغر كلَيهما يؤكِّدان النُّقطة عينَها: ليس في وُسعك قَول إنَّ: "جميعَ الدَّعاوى بشأن الأديان مُكيَّفةٌ تاريخيًّا، ما عدا الدَّعوى التي أطلقُها أنا الآن". فإنْ أصرَرتَ على أنَّ أحدًا لا يستطيعُ أن يعرفَ العقائدَ الصحيحةَ من الخاطئة، فلماذا ينبغي أن نُصدِّقَ ما أنتَ قائلُه؟ الحقيقة هي أنَّنا جميعًا نُطلِقُ دعاوى بشأن الحقِّ من نوعٍ ما، ويَصعبُ جدًّا أن نَزِنَها على نحوٍ موثوقٍ به، ولكنْ لا بديلَ من أن نحاولَ القيامَ بهذا.

"من العَجرَفة أن تُصِرَّ على أنَّ ديانتَك صحيحةٌ وأن تَهديَ الآخرين إليها".

كتبَ عالمُ الأديان الشَّهير جون هِك (John Hick) أنه ما إن تُدرِكُ أنَّ في العالَم أشخاصًا آخرين يُعادلونَك ذكاءً وصلاحًا؛ وأنَّ لديهم مُعتقداتٍ تختلفُ عمَّا لديك، وأنَّك لَن تَقوى على إقناعهم بغَيرها، حتَّى يكون من العَجرَفة أن تستمرَّ في محاولة هدايَتِهم، أو محاولةِ إعلاءِ شأنِ رأيِكَ حاسِبًا إيَّاه الحقَّ الأسمى.[١٢]

نقَعُ هُنا أيضًا على تناقُضٍ قائم في صُلب القضيَّة. فإنَّ مُعظمَ الناس في العالَم لا يَرَون رأيَ جون هِك أنَّ جميع الأديان صحيحةٌ على السَّواء، وأنَّ كثيرين منهم صالحون وأذكياءُ مثله سواءً بسواء، وأنَّه لا يُرجَّح أن يُغيِّروا آراءهم. فمن شأن هذا أن يجعلَ المَقولةَ "جميعُ الدَّعاوى الدينيَّة القائلة بحيازة نظرةٍ أفضل إلى الأمور هي مُتعجرفة وخاطئة"، بشُروطها الخاصَّة، مقولةً مُتعجرفةً وخاطئة.

ويقول كثيرون إنَّه تعصُّبٌ للعِرْق أن ندَّعيَ أنَّ ديانتَنا مُتفوِّقةٌ على غيرها من الديانات. ولكنْ، أَلَيسَ هذا الادِّعاءُ بحدِّ ذاته مُتعصِّبًا للعِرْق؟ إنَّ مُعظمَ الحضارات غير الغربيَّة لا تَرى ضَيرًا في القول إنَّ ثقافتَها وديانتَها هُما الفُضلَيان. والفكرةُ القائلةُ إنَّه من غير الصواب أن نفعلَ ذلك مُتأصِّلةٌ في أعماق التقاليد

الغربيَّة التي تُعنى بالنَّقد الذاتيِّ والفَردانيَّة. فاتِّهامُ الآخرين "بخطيَّة التعصُّب العِرقيِّ هو بالحقيقة طريقةٌ في القول: "إنَّ الأسلوبَ الثقافيَّ الغربيَّ في النَّظر إلى الحضارات الأخرى مُتفوِّقٌ على سواه". إذ يكونُ المرءُ عندئذٍ ممارِسًا لِما يحظرُه على الآخرين.[١٣] وقد نبَّه المؤرِّخ سي. جون سُمرڤيل (C. John Sommerville) إلى أنَّه "لا يمكنُ الحُكمُ على دينٍ ما إلَّا بالاستناد إلى أساس دينٍ آخر". فلَيس في وُسعك أن تُقيِّم ديانةً ما إلَّا على أساس بعض المعايير الأخلاقيَّة التي تَتَوازى في الأخير مع موقفك الدينيِّ الخاصّ.[١٤]

إنَّما الآن ينبغي أن يتوضَّح بديهيًّا العَيبُ الفتَّاك في هذا الأسلوب بالنَّظر إلى الدِّين عمومًا وإلى المسيحيَّة خصوصًا. فالشُّكوكيون يعتقدونَ أنَّ أيَّة ادِّعاءاتٍ حَصريَّة بالمعرفة الأسمى للحقيقة الروحيَّة لا يمكنُ أن تكونَ صحيحةً. غير أنَّ هذا الاعتراض هو في ذاته مُعتقَد دينيّ. فهو يَفتَرضُ أنَّ الله لا يمكنُ أن يُعرَف، أو أنَّ الله مُحبٌّ لكنْ غيرُ غَضُوب، أو أنَّه هو قوَّةٌ لاشخصيَّةٌ وليس شخصًا يتكلَّم في الأسفار المقدَّسة. وهذه كلُّها افتراضاتٌ إيمانيَّة لا تُبرهَن. أضفْ إلى ذلك أنَّ أنصارَها يعتقدون أنَّ لديهم طريقًا أسمى للنَّظر إلى الأمور. فهُم يعتقدون أنَّ العالَم سيَغدو مكانًا أفضلَ إنْ تخلَّى كلُّ امرئٍ عن آراء الدِّين التقليديَّة بشأن الله والحقِّ وتبنَّى آراءَهم هم. وعليه، فإنَّ رأيَهم هو أيضًا دَعوى "حَصريَّة" بشأن طبيعة الحقيقة الروحيَّة. فإذا وَجَبَ عدمُ التَّشجيع على آراءٍ من هذا النَّوع، يجب ذلك أيضًا بالنِّسبة إلى هذا الرأي. وإذا لم يَكُنْ من التَّزمُّتِ التمسُّكُ بهذا الرأي، فلَيسَ من تزمُّتٍ صَميميٍّ في التمسُّك بالمعتقدات الدينيَّة التقليديَّة.

وقد تحدَّثَ الأستاذُ بجامعة شيكاغو، مارك لِلا (Mark Lilla)، إلى طالبٍ شابٍّ مُتفوِّق في كُلِّيَّة وارتُن لإدارة الأعمال (Wharton

Business School)** ، كان ذاك الشابُّ قد حَيَّرَه إذ تقدَّمَ إلى الأمام في إحدى حملات بيلي غراهام (Billy Graham) التبشيريَّة كي يُسلِّم حياتَه للسيِّد المسيح. وممَّا كتَبَه لِلا:

> أردْتُ أن ألقيَ الشكَّ على الخُطوة التي أوشَكَ أن يقومَ بها، كي أساعدَه على رؤية أنَّ هنالك طُرقًا أخرى للعَيش، وطُرقًا أخرى لالْتِماس المعرفة والمحبَّة، بل طرُقًا لِتغيير الذات أيضًا. أردْتُ أن أقنعَه بأنَّ كرامَته تتعلَّقُ بمحافظته على موقفٍ شكوكيٍّ مُتحرِّرٍ تُجاه العقيدة. أردْتُ...أن أخلِّصه...
>
> إنّ الشكّ، مثلَ الإيمان، يجب أن يَتعلَّمَه المرءُ تعلُّمًا. إنّه مَهارة. ولكنّ الأمرَ الغريب في ما يتعلّقُ بالشُّكوكيّة هو أنّ أنصارَها، القُدامى والجُدد، غالبًا ما كانوا من المُبشِّرين بها. وعند قراءتهم (قراءة مؤلّفاتهم)، كثيرًا ما أردْتُ أن أسأل الواحدَ منهم: "لماذا يهمُّك أمرُ التبشير بها؟" إنَّما شُكوكيَّتُهم لا تُقدِّمُ إجابةً جيّدة عن هذا السؤال. وليس عندي أنا إجابةٌ أدلي بها شخصيًّا.[١٥]

إنَّ معرفةَ لِلا تُبيِّنُ أنَّ شكوكَه بشأن المسيحيَّة هي مُعتَقدٌ بديلٌ مُتعلَّم. فهو يعتقدُ أنَّ كرامةَ المرء بوَصفه كائنًا بشريًّا تعتمدُ على الشُّكوكيَّة العقائديَّة، الأمرُ الذي هو بالطَّبع مُعتقَدٌ إيمانيّ. وكما يعترفُ، فهو لا يستطيعُ أن يتجنَّبَ الإيمانَ بأنَّ تبنِّيَ الناسِ لمعتقداته بشأن الحقيقة والكرامة الإنسانيَّة سيَكونُ أفضلَ من تَبنِّيهم لمعتقدات بيلي غراهام.

** تأسَّستْ كلِّيَّة وارتُن- جامعة پنسلڤانيا في عام ١٨٨١م بتَبرُّعٍ من جوزيف وارتُن (Joseph Wharton) لتَكونَ أوَّلَ كلِّيَّة متخصِّصة في مجال إدارة الأعمال. وهي تعدُّ اليومَ على مستوًى عالَميٍّ واسع من المعاهدِ التعليميَّةِ المرموقةِ في هذا المجال (الناشر).

ليسَتِ الدَّعوى بأنَّ إحدى الدِّيانات هي صحيحةٌ أضيقَ أفقًا من الادِّعاء بأنَّ إحدى الطَّرائق في التفكير بشأن جميع الدِّيانات (أيِ القولَ إنَّها جميعًا مُتساوية) هي صحيحة. فنحن جميعًا حصريُّون في معتقداتنا بشأن الدِّين، ولكنْ بطُرقٍ شتَّى.

٣. إبقاءُ الدِّين شخصيًّا تمامًا

يَتمثَّلُ أسلوبٌ آخر للتَّفرقة التي يسمحُ بها الدِّين في أن يُسمَحَ للنَّاس بأن يؤمنوا شخصيًّا بأنَّ إيمانهم هو الحقُّ وبأن "يُبشِّروا" بإيمانهم، ولكنْ ينبغي أن تُبقى المعتقداتُ الدينيَّة خارجَ الدائرة العموميَّة. وقد حاجَّ مُفكِّرون مؤثِّرون، مثل جون راولْز (John Rawls) وروبرت آودي (Robert Audi)، بأنَّه في المُباحثات السِّياسيَّة العامَّة لا يحقُّ لنا أن ندافع بالحُجَّة عن موقفٍ خُلُقيٍّ ما إلَّا إذا كان له أساسٌ عَلمانيٌّ لادينيّ. وراولْز معروفٌ جيِّدًا في الغَرب بإصراره على أنَّ ما يَدْعوه آراءً دينيَّةً "شاملة" يجبُ أن يُقصَى عن المحادثة العامَّة.[16] وقد وقَّعَ مؤخَّرًا حَشدٌ كبيرٌ من العُلَماء والفلاسفة "بيانَ دفاعٍ عن العلم والعَلمانيَّة" دعا فيه الموقِّعون القادةَ الحكوميِّين في الولايات المتَّحدة إلى "عدم السماح بأن يتأثَّرَ التَّشريعُ أو التنفيذُ بالمعتقدات الدينيَّة".[17] وكان بين الموقِّعين أسماءٌ لها وزنُها في عالَم الفكر. وقد حاجَّ الفيلسوف ريتشارد رُورتي (Richard Rorty) مثلًا بأنَّ الإيمانَ الدينيَّ يجبُ أن يبقى شأنًا شخصيًّا صرفًا، ويجبُ ألَّا يُقحَمَ في مناقشاتِ السياسةِ العامَّة. فإنَّ استعمالَ أيَّة حُجَّة مُتأصِّلة في معتقدٍ دينيٍّ معيَّن هو فعلًا "مُعيقٌ للحديث" لا يستطيعُ غيرُ المؤمِن أن يتقبَّله.[18]

و يردُّ رُورتي وآخرون على الذين يَشكُون أنَّ هذا الأسلوبَ يفوقُ الدِّين تعصُّبًا، بحُجَّة أنَّ هذه السياسة هي پراغماتيَّةٌ (ذاتُ منفعةٍ عمليَّة)

ليس إلَّا.[١٩] فإنَّهم لا يُعارِضونَ الدِّين في ذاته إيديولوجيًّا، ولا هُم يَسعَون إلى السَّيطرة على المعتقدات الدينيَّة، ما دامت باقيةً في الدائرة الخاصَّة. ولكنْ في المَيدان العامِّ يَنتجُ الخلافُ والشِّقاقُ ويتبدَّدُ الوقتُ من جرَّاء المجادلة بشأن الدِّين دائمًا. إذ تُعدُّ المواقف المؤسَّسة على الدِّين طائفيَّةً ومُثيرةً للجَدَل، في حين يُعدُّ التَّعليل للمَواقف الخُلُقيَّة جامعًا ومُتاحًا للجميع. ولذلك ينبغي أن تكونَ المحادثةُ العامَّة دُنيويَّة، لادينيَّةً البتَّة. فبغَير إشارةٍ إلى الإعلان الإلهيِّ أو التقليد المُتعارَف عليه، ينبغي أن نعملَ معًا في سبيل التَّصدِّي للمُشكلات الكبرى في أيَّامنا- كالأيدز والفَقْر ومشكلات التعليم، وما إلى ذلك. وينبغي أن نُبقيَ آراءَنا الدينيَّة لأنفسنا ونتَّحدَ حولَ سياساتٍ "تنفع عمليًّا" أكثرَ الناس.

غير أنَّ ستيفِن أل. كارتر (Stephen L. Carter)، الأستاذَ بجامعة يال (Yale)، يردُّ بأنَّه يستحيلُ أن نتخلَّى عن الآراء الدينيَّة عند القيام بأيِّ نوعٍ من التَّعليل الأخلاقيِّ على وجه الإطلاق.

> إنَّ المجهودات الهادفة إلى استِحْداث مَيدانٍ عامٍّ يَغيبُ عنه الحديثُ الدينيُّ، بغضِّ النَّظر عن مدى صياغته بتروٍّ- ستَقول دائمًا في نهاية المطاف لذوي الدِّين المُنظَّم إنَّهم هم وحدهم، على خلافِ أيِّ شخصٍ آخر، لا ينبغي أن يخوضوا الحوارَ العامَّ قبلَ تخلِّيهم عن ذلك الجُزء من أنفُسهم الذي ربَّما حَسبوه الأهمّ.[٢٠]

كيف يُعقَلُ أن يُقيم كارتر دَعوى كهذه؟ فَلْنبدَأْ بالسؤال عن ماهيَّة الدِّين. يقول بعضٌ إنَّه شكلٌ من أشكال الإيمان بالله. ولكنَّ هذا لا يشملُ البوذيَّة الصينيَّة (Zen Buddhism)، إذ لا تؤمن بالله على الإطلاق. ويقولُ بعضٌ إنَّه إيمانٌ بما هو فائقٌ للطبيعة. ولكنَّ هذا لا يشمل الهندوسيَّة، إذ

لا تؤمن بعالَم فَوطبيعيٍّ وراءَ العالَم المادِّيّ، بل يؤمنُ الهندوسيُّون فقط بحقيقةٍ روحيَّةٍ داخلَ ما هو تجريبيّ. فما تعريفُ الدِّين إذًا؟ إنَّه مجموعةٌ من المُعتقدات تَشرحُ ماهيَّة الحياة كلِّها، ومَن نحن، كما تَشرَحُ أيضًا الأمورَ الأهمَّ التي ينبغي للكائنات البشريَّة أن تُمضيَ الوقتَ في القيام بها. مثلًا، يعتقد بعضٌ أنَّ هذا العالَم المادِّيَّ هو كلُّ ما في الوجود، وأنَّنا نحن هنا بالصُّدفة، وعندما نموتُ نتحلَّلُ فحسْب، ولذلك فالأمرُ المهمُّ هو أن تختارَ القيام بما يجعلُكَ سعيدًا ولا تَدَعَ الآخرين يَفرضونَ مُعتقداتهم عليك. فلاحِظْ أنَّ هذا، على الرُّغم من عدم كَونه دِينًا "مُنظَّمًا" صريحًا، يحوي قصَّةً رئيسيَّة، روايةً عن معنى الحياة تَصحبُها توصيةٌ بكيفيَّة العيش على أساس تلك الرواية.

من الناس مَن يَدعو هذا "النَّظرة إلى الكون" ومنهم مَن يدعوه "الهُويَّة المَرويَّة". ففي كلتا الحالتَين هو مجموعةُ افتراضاتٍ إيمانيَّة بشأن طبيعة الأشياء. إنَّه دينٌ ضمنيّ. فَبِمفهومٍ عريض، يَصوغُ الإيمانُ بنظرةٍ ما إلى العالَم وإلى الطبيعة البشريَّة حياةَ كلِّ إنسان. ذلك أنَّ كلَّ إنسانٍ يحيا ويعملُ من مُنطلَقِ هُويَّةٍ مَرويَّة من نوعٍ ما، سواءٌ كانتْ حصيلةَ تفكيرٍ مَلِيٍّ ومَحَطَّ تأمُّل، أم أنَّها لم تكُن كذلك. فجميع الذين يقولون: "عليك أن تفعل هذا" أو "لا ينبغي لك أن تفعلَ ذاك" إنَّما يُعلِّلونَ الأمورَ من مُنطلَق مثل هذا الموقف الضمنيّ الأخلاقيِّ والدينيّ. أمَّا البراغماتيُّون فيَقولونَ إنَّه ينبغي لنا أن نتخلَّى عن نظرتنا الأعمق إلى العالَم، ونُحقِّق إجماعًا بشأن "ما ينفعُ عمليًّا". ولكنَّ ما يُحدِّدُ ما ينفعُ عمليًّا هو وجهة نظرنا (باستخدام تعبيرِ وندَل بَري Wendell Berry) في ما نعتقد أنَّ البشرَ هم له***. فأيَّةُ

*** ربَّما المقصود هنا أنَّه حتَّى يتمكَّن أيُّ فرد من تحديد ما ينفع البشر، عليه أن يعرف أوَّلًا غاية

صورةٍ للحياة البشريّة السعيدة التي "تنفعُ عمليًّا" تَصوغُها بالضرورة معتقداتٌ مُستقرّةٌ داخل الكِيان بشأن غاية الحياة البشريّة.[٢١] وحتّى أكثرُ البراغماتيّين لادينيّةً يتقدّمونَ إلى طاولة النّقاش بالْتِزاماتٍ ثابتةٍ وتعليلاتٍ مَروِيّةٍ راسخة لِما يَعنيه أن يكونَ المرء بَشَرًا.

إنّما يُصِرُّ رُورتي على أنَّ المعتقداتِ المؤسَّسةَ على الدِّين مُعيقاتٌ للمُحادثة. غير أنَّ جميع قناعاتنا الأكثرِ جوهريّةً بشأن أمور الحياة هي مُعتقداتٌ إيمانيّة يكادُ يستحيلُ تبريرُها للّذين لا يُشارِكوننا فيها. فالمفاهيمُ اللّادينيّة مثل "تحقيق الذات" و"الاستقلاليّة" تَستحيلُ بَرهنَتُها، وهي "مُعيقاتٌ للمُحادثة" شأنُها شأنُ الكثير ممّا يُنسَبُ إلى الكتاب المقدّس على سبيل الاتّهام.[٢٢]

إلّا أنَّ المَقُولاتِ التي تَبدو مُوافِقةً للفِطرة السليمة، غالبًا ما تكون دينيّةً بطبيعتها إلى أبعد حدّ. افترضْ أنَّ الآنسة "أ" تُحاجُّ بأنَّ شبكات الأمان المُخصَّصة للفُقراء ينبغي أن تُزال كلُّها، بدَعوى "بقاء الأصلح". فَلِلسيِّدة "ب" أن تَردَّ قائلةً: "للفُقراء الحقُّ في مُستوى مَعيشة كريم. فهُم كائناتٌ بشريّة مثلنا جميعًا!" عندئذٍ يَسَعُ الآنسة "أ" أن تَردَّ عليها بحقيقة كَون كثيرين من عُلَماء الأخلاق الأحيائيّة (Bioethicists) اليومَ يعتقدون أنَّ مفهومَ "ما هو بشريٌّ أو إنسانيٌّ" مُصطنَع ومُستحيلُ التعريف. وقد تمضي لتقولَ إنّه لا إمكانيّةَ لمعاملة جميع الكائنات العُضويّة الحيّة باعتبارها غاياتٍ، لا وسائل، وإنَّ بعضَها يجبُ أن يموتَ دائمًا حتّى يعيش سواها. فتلك هي

الحياة البشريّة فيقرِّر حينها ما ينفع البشريّة. وهذا بحدِّ ذاته مَثارُ جدلٍ بين البراغماتيّين أنفسهم (الناشر).

ببساطةِ الطريقة التي بها تعملُ الطبيعة عملَها. وإذا جاوبَتِ السَّيِّدةُ "ب" بحُجَّة پَراغماتيَّة، قائلةً إنَّ علينا أن نُساعد الفُقراء لمجرَّد كَون ذلك يجعلُ المجتمع يعملُ على نحوٍ أفضل، ففي وُسع الآنسة "أ" أن تَطلعَ بكثير من الحُجَج البراغماتيَّة المُماثلة التي تُسوِّغ تَرْكَ بعض الفقراء يموتون فحسب بدَعوى أنَّ ذلك أكثرُ فعَّاليَّةً بَعدُ. والآنَ يبدأ الغضبُ يستولي على السيِّدة "ب"، وقد تجيبُ مُحتدَّةً بأنَّ تجويعَ الفقراء حتَّى الموت أمرٌ يُنافي الأخلاق. ولكنَّ في وُسع الآنسة "أ" أن تُجيب: "ومَن يقول إنَّ الأخلاق يجب أن تكونَ مُتماثلةً لدى الجميع؟" وأخيرًا تهتف السَّيِّدة "ب" مُستنكرةً: "ما كنتُ لأرغب أن أعيشَ في مجتمع كالذي تَصفينَه!"

في هذه المُحادَثة، حاولَت السيِّدة "ب" أن تَتبعَ جون راوْلز وتَجِدَ حُجَجًا "حياديَّة وموضوعيَّة" مقبولةً عمومًا من شأنها أن تُقنعَ الجميع بأنَّه يجب علينا ألَّا نُميتَ الفقراءَ جُوعًا. وهي قد أخفقت؛ لأنْ لا حُجَّةَ من هذا النَّوع. وفي الأخير أكَّدَتِ السيِّدة "ب" مساواةَ الأفراد البشريِّين وكرامتَهم لمُجرَّد كَونها تؤمن بأنَّ هذا صحيحٌ وحَقّ. وقد اعتمدَتْ مادَّةً تؤمن بأنَّ الناسَ أكثرُ قيمةً من الصُّخور أو الأشجار- رُغم عجزها عن بَرهنة مُعتقَد كهذا علميًّا. فإنَّ مُقترَحاتها بشأن السِّياسة العامَّة مؤسَّسةٌ كُلِّيًّا على موقفٍ دينيّ.[٢٣]

وهذا يؤدِّي بمُنظِّر قانونيٍّ يُدعى مايكل جاي. پري (Michael J. Perry)، لأنْ يَستنتجَ أنَّه "من ضروب التهوُّر الخياليّ، على أيَّة حال، أن نحاولَ إنشاءَ سَدٍّ مُحكَم بين الخطاب الخُلُقيِّ ذي الأساس الدينيّ، والحديث العَلمانيِّ في النِّقاش السياسيِّ العامّ".[٢٤] ويُحاجُّ رُورتي وآخرون بأنَّ المجادلة الدِّينيَّة مثارُ نقاشٍ يفوق الحدّ. إلَّا أنَّ پري يردُّ في كتابه "**في حِمى الله؟ الإيمان**

الدينيُّ والدِّيمُقراطيَّة الليبراليَّة" (Under God? Religious Faith and Liberal Democracy) بأنَّ الأساسات اللَّادينيَّة للمَواقف الخُلُقيَّة ليستْ أقلَّ عرضةً للجَدَل من الأساسات الدِّينيَّة، ويمكنُ إقامةُ قضيَّةٍ قويَّةٍ جدًّا بأنَّ جميعَ المواقف الأخلاقيَّة دينيَّةٌ، على الأقلِّ ضِمنيًّا. ومن دواعي السُّخرية أنَّ الإصرار على إقصاء التَّعليل الدينيِّ من الميدان العامِّ هو في ذاته وجهة نظر "طائفيَّة" مُثيرة للجَدَل.[25]

عندما تخرجُ إلى الميدان العامّ، يَستَحيلُ أن تتخلَّى عن قناعاتك بشأن القيَم المُطلَقة. ولْنَأخُذْ قوانينَ الزَّواج والطَّلاق كحَالةٍ تُدرَس. فهل يمكنُ أن نَسنَّ قوانينَ نتَّفقُ كلُّنا على كَونها "تعمل عملَها" بمعزلٍ عن الْتزاماتٍ خاصَّةٍ لِوجهة نظرٍ مُعيَّنة إلى الكَون؟ لا أعتقدُ ذلك. إذ إنَّ آراءكَ بشأن ما هو صائب ستَكون مؤسَّسةً على ما تعتقدُ أنَّه غايةُ الزَّواج. فإنْ حَسبتَ أنَّ الزَّواجَ هو في الأصل لِتَنشئة الأولادِ لأجل منفعةِ المجتمع كُلِّه، تجعل الطلاقَ عندئذٍ صعبًا جدًّا. وإنْ حسبتَ أنَّ غايةَ الزواج هي من بابٍ أولَى لسعادة الراشدين المُقدِمين عليه وإشباعهم عاطفيًّا، تجعلُ الطلاقَ أسهل بكثير. والرأيُ السابق مؤسَّسٌ على نظرةٍ في الازدهار والرَّفاهيَة البشريَّين تحسبُ العائلةَ أهمَّ من الفَرد، على ما يُرى في المَورُوثات الخُلُقيَّة لدى الكونفوشيوسيَّة واليهوديَّة والمسيحيَّة. أمَّا الأسلوبُ اللاحقُ فهو نظرةٌ أكثرُ فَردانيَّةً في الطبيعة البشريَّة مؤسَّسةٌ على فَهْم حركة التنوير للأمور. وهكذا، فإنَّ قوانينَ الطلاق التي تَعتقدُ أنَّها "تَنفعُ عمليًّا" لا بدَّ أن تتعلَّقَ بمعتقداتك المُسبَّقة بشأن ما يَعنيه كَونُ المرء سعيدًا وإنسانيًّا بكلِّ ما تحملُ الكلمةُ من معنى.[26] وليس من إجماع موضوعيٍّ شامل بشأن ماهيَّة ذلك. فعلى الرُّغم من استمرار الكثيرين في الدَّعوة إلى إقصاء الآراء الدينيَّة عن

الميدان العامّ، تعترفُ أعدادٌ متزايدةٌ من المفكّرين، الدينيِّين والعَلمانيِّين على السَّواء، بأنَّ هذه الدَّعوة هي دينيَّةٌ بحدِّ ذاتها.[٢٧]

المسيحيَّة تستطيعُ أن تُخلِّص العالَم

لقد حاججتُ ضدَّ فعَّاليَّة جميع المجهودات الرئيسيَّة التي تهدفُ إلى التصدِّي للتَّفرقة التي يُنشئها الدِّين في عالَمنا اليوم. غير أنِّي أتعاطَفُ بشدَّة مع غايَتها. ومن المؤكَّد أنَّ التعصُّبَ الدينيَّ قد يكونُ واحدًا من الأخطار الرئيسيَّة التي تُهدِّد السلامَ العالَميّ. وفي مُستهلِّ هذا الفصل، رسمتُ الخطوطَ العريضةَ لذلك "المُنحدَر الزَّلِق" الذي يميل كلُّ دينٍ إلى إقامته في القلب البشريّ. وما أسهل ما يؤدِّي هذا المُنحدرُ الزَّلِقُ إلى الطُّغيان! ولكنَّ في داخل المسيحيَّة- بِصورتِها القويَّة الناشطة وقويمة الرأي- مواردَ غنيَّةً قادرة على جَعْل أتْباعها الحقيقيِّين رُسُلَ سلامٍ على الأرض. إذ تكمُنُ في المسيحيَّة بحدِّ ذاتها قُدرةٌ رائعةٌ على تفسير مُيولِ التَّفرقة والتحزُّب داخلَ القلب البشريِّ، كما أنَّها قادرةٌ على دَحْرها.

تَمدُّنا المسيحيَّة بأساسٍ راسخ لاحترام أهل الأديان الأخرى. فالسيِّد المسيح يفترضُ بديهيًّا أنَّ غيرَ المؤمنين في الحضارة المحيطة بأتْباعه سيُميِّزون بِسُرورٍ قسطًا كبيرًا من السُّلوك المسيحيِّ بِصِفَته من الأمور "الحَسَنة" (متَّى٥: ١٦؛ ١بطرس٢: ١٢). وهذا يفترضُ وجودَ بعض التَّداخُل بين مجموعة القِيَم المسيحيَّة ونظيرتها في حضارةٍ ما[٢٨] وفي ديانةٍ ما.[٢٩] أمَّا سببُ وجود هذا التَّداخُل فهو أنَّ المؤمنين بالسيِّد المسيح يعتقدونَ أنَّ جميعَ الكائنات البشريَّة مخلوقةٌ على صورة الله ومهيَّأةٌ للصَّلاح والحكمة. ومن ثَمَّ فإنَّ عقيدةَ شُمول صورة الله المُستفادةَ

من الكتاب المقدَّس تؤدّي بالمسيحيِّين لأنْ يتَوقَّعوا من غير المؤمنين أن يكونوا أفضلَ ممَّا يستطيعُ أيٌّ من معتقداتِ أولئك غير المؤمنين الخاطئة أن يجعلَهم****. كذلك أيضًا تؤدّي عقيدةُ شمول الخاطئيَّة (الجميع أخطأوا) المُستفادةُ من الكتاب المقدَّس بالمسيحيِّين إلى توقُّع أن يكونَ المؤمنون أسوأَ مُمارَسةً لإيمانهم ممَّا ينبغي أن تجعلَهم مُعتقداتُهم القويمة. وهكذا، فلا بدَّ أن يوجدَ أساسٌ وفير للتَّعاوُن المُتَّسم بالاحترام.

فالمسيحيَّةُ لا تَقودُ أتْباعها إلى الاعتقاد فقط أنَّ لدى أهل الدِّيانات الأخرى صلاحًا وحكمةً يُقدِّمونَهما، بل تؤدّي بهم أيضًا لأنْ يتوقَّعوا أن يعيشَ كثيرون خُلُقيًّا حياةً أسمى من حياتهم أنفسِهم. ومعظمُ الناس في الحضارة الغربيَّة يعتقدون أنَّه إذا كانَ الله مَوجودًا ففي وُسعهم أن يَتواصَلوا معه ثُمَّ يذهبوا إلى السَّماء بعَيشهم حياةً صالحة. ولْنُسَمِّ هذا رأيَ "التَّحسين الخُلقيِّ" (The Moral Improvement View). غير أنَّ المسيحيَّةَ تُعلِّمُ عكسَ هذا تمامًا. فَبِحسب المفهوم المسيحيِّ الصَّحيح، لا يَطلُبُ منَّا السيِّد المسيح أن نعيشَ عيشةً تجعلُنا قادرين على أن نستحقَّ الخلاص، بل بالأحرى جاءَ كي يغفرَ لنا خطايانا ويُخلِّصَنا بحياته ومَوته عِوَضًا عنَّا. فإنَّ نعمةَ الله لا تأتي إلى أناسٍ يَفوقون غَيرهم أداءً في العادة، بل بالحريِّ إلى أولئك الذين يَعترفونَ بِعَجْزهم عن الأداء، فيُقرُّون من ثَمَّ بحاجتهم إلى الخلاص.

لذلك ينبغي أن يتوقَّعَ المسيحيُّون رؤيةَ أشخاصٍ غير مؤمنين يكونون

**** المقصود هنا أنَّه مهما سمَتْ تعاليم غير المؤمنين (وهي تُعدُّ خاطئةً بالنسبة إلى المؤمنين المسيحيِّين)، فإنَّها لن تجعلَهم على صورة الله. لذا فإنَّ الإيمان المسيحيَّ بشمول صورة الله يجعلُ النظرة إلى أولئك غير المؤمنين أسمى من نظرتهم إلى أنفسِهم (الناشر).

أكثرَ منهم بكثير لُطفًا وصلاحًا وحكمةً وفَضلًا. لماذا؟ لأنَّ المسيحيِّين المؤمنين لا يَقبَلُهمُ الله بِفَضل أدائهم الخُلُقيِّ أو حكمَتِهم أو فضيلَتِهم، بل بفضل عمل السيِّد المسيح نيابةً عنهم. إنَّما أغلبُ الأديان وفلسفاتِ الحياة تَفترضُ أنَّ وضْعَ المرء الروحيَّ يتوقَّفُ على إنجازاته الدِّينيَّة. وهذا بطبيعة الحال يَدفَعُ الأتْباعَ إلى الشعور بالتفوُّق على أولئك الذين لا يؤمنون أو يَسلكونَ على غِرارِهم. ولكن لا ينبغي أن يكونَ لإنجيل المسيح، في أيَّة حال، هذا التأثير.

من الشائع أن يُقال إنَّ "الأصوليَّة" تُفضي إلى العُنف. ولكنْ كما سبَقَ أن رأينا، لكُلٍّ مِنَّا التزاماتٌ إيمانيَّةٌ أساسيَّة لا تُبرهَن، نعتقدُ أنَّها أسمى ممَّا لدى الآخرين. فالسؤالُ الحقيقيُّ إذًا: **أيَّة أساسيَّاتٍ ستُؤدِّي بالمؤمنين بها لأنْ يكونوا أكثرَ حُبًّا وتقبُّلًا لأولئك الذين يختلفون عنهم؟** أيَّة مجموعةٍ من المُعتقدات الحصريَّة، التي لا بدَّ منها، تؤدِّي بنا لأنْ نسلكَ سلوكًا مُتَّضعًا مُحِبًّا للسَّلام؟

ومن مُفارَقاتِ التاريخ هي العلاقةُ بين مُعتقداتِ المسيحيِّين الأوَّلين ومُمارساتِهم مُقارَنةً بتلك التي تخصُّ الحضارة المُحيطة بهم.

فإنَّ الآراءَ الدينيَّة في العالَم الإغريقيِّ الرُّومانيِّ كانت مُنفتحة ومُتسامحة ظاهريًّا، حيث كان لكُلِّ فردٍ ذَكَرًا كان أم أنثى إلهُه الخاصّ. غير أنَّ ممارساتِ تلك الحضارة كانت وَحشيَّةً إلى حدٍّ بعيد. فقد كانَ العالَمُ الإغريقيُّ الرومانيُّ مُتمايزًا في طبقاتٍ اقتصاديَّة أيَّ تمايُز، مع هُوَّةٍ سحيقةٍ بين الأغنياء والفُقراء. إنَّما على نَقيضِ ذلك، أصرَّ المسيحيُّون على وجود إلهٍ واحدٍ حقيقيٍّ فقط، هو المُخلِّص يسوع المسيح الذي مات وقام. غير أنَّ حياتَهم وممارساتِهم كانت جميعًا مُرحِّبةً على نحوٍ رائعٍ بأولئك الذين همَّشَتْهم تلك الحضارة.

فالمسيحيُّون الأوَّلون أدْمَجوا أناسًا من أجناسٍ وطبقاتٍ شتَّى بطُرقٍ بَدَتْ مُخزيةً في نظر المُحيطين بهم. وكان العالَم الإغريقيُّ الرُّومانيُّ أميَلَ إلى ازدراء الفقراء، إلَّا أنَّ المسيحيِّين أعطَوا بسخاءٍ ليس فُقراءَهم فقط، بل فُقراءُ الدِّيانات الأخرى. وفي المجتمع الأوسَع، كانَتْ للنِّساء مكانةٌ وضيعةٌ جدًّا؛ إذ كُنَّ عُرضةً لمستوياتٍ عالية من قَتْل الأطفال الإناث، والتَّزويج القَسريّ، والافتقار إلى المُساواة الاقتصاديَّة. غير أنَّ المسيحيَّةَ يسَّرتْ للنِّساء أمانًا ومُساواةً أكثر بكثير ممَّا سبَقَ أن وُجِدَ في العالَم القديم.[٣٠] وفي أثناء الأوبئة التي عَصفَتْ بالمدن في القرنَين الأوَّلَين، اعتنى المسيحيُّون بجميع المرضى والمُحتَضَرين في المدينة، على حساب حياتهم أغلبَ الأحيان.[٣١]

فلماذا كان من شأن نظامٍ إيمانيٍّ حصريٍّ كهذا أن يؤدِّيَ إلى سلوكٍ مُنفتحٍ جدًّا حيالَ الآخرين؟ لقد كان ذلك على هذه الشاكلة لأنَّه كان لدى المسيحيِّين في صُلبِ نظامهم الإيمانيِّ أقوى مصدرٍ ممكنٍ لممارسة الخدمة المُتفانية والسَّخاء وصُنْع السَّلام. ففي لُبِّ نظرتهم إلى الحقيقة كان رجلٌ مات لأجل أعدائه مُصلِّيًا لأجل مُسامحتهم. ولا يُمكن إلَّا أن يؤدِّيَ التفكير في هذا إلى طريقةِ معامَلةٍ مُختلفة جذريًّا للَّذين كانوا مختلفين عنهم. وقد عنى ذلك أنَّهم لا يستطيعون أن يتصرَّفوا تُجاهَ مُناهضيهم تصرُّفَ ظُلمٍ وطُغيانٍ وعُنف.

لا يَسعُنا أن نتخطَّى بخفَّةٍ واقعَ حُصول مَظالِمَ ارتكبَتها الكنيسة بِاسْم السيِّد المسيح، ولكنْ مَن يستطيع أن يُنكِر أنَّ قوَّة معتقداتِ المسيحيِّين الأكثرِ أساسيَّةً يمكن أن تكونَ زَخمًا فعَّالًا لصُنع السلام في عالَمِنا المُضطرِب؟



٢

كيف يمكنُ
أن يسمحَ إلهٌ صالحٌ بالألم؟

قالت هيلاري (Hillary)، وهي طالبةٌ جامعيّةٌ تدرُسُ الأدب: "إنّي حقّا لا أومن بأنّ إله المسيحيّة موجود. إنّ الله يَسمَحُ بمُعاناةٍ رَهيبة في العالم. وهكذا فإنّه قد يَكونُ إمّا كُلِّيَّ القدرة لكنْ غيرَ صالح بما يكفي لِمُلاشاة الشرّ والألم، وإمّا كُلِّيَّ الصّلاح لكن غيرَ قادر بما يكفي لِيُلاشيَ الشّرّ والألم. وفي كِلتا الحالين، لا يُعقلُ أن يكون إلهُ الكتاب المقدّس الكلّيُّ الصّلاح والقُدرة مَوجودًا"[1].

وأضاف رُب (Rob)، صديقُ هيلاري: "ليستْ هذه مسألةً فلسفيّة بالنّسبة إليّ، فهي شخصيّة. فما كنتُ لأومنَ بإلهٍ يَسمَحُ بالألم، حتّى لو كان هو- أو هي أو ذلك- مَوجودًا. ربّما كان اللّه مَوجودًا، وربّما كان غير مَوجود. ولكنْ إذا كان مَوجودًا، فلا يمكن الوثوقُ به".

إنَّ المشكلةَ الكُبرى، في نظر كثيرين، لا تكمُنُ في حَصريَّة المسيحيَّة، بل في وُجود الشَّرِّ والألم في العالَم. فمنهم مَن يَرَون أنَّ التألُّم ظُلمًا هو مُعضلةٌ

فَلسفيَّة، ويُلقون الشُّكوك حول وجود الله بحدِّ ذاته. ومنهم مَن يَعدُّون المسألةَ مسألةً شخصيَّةً صِرفًا. فلا يَعنيهم السؤال المجرَّد: أمَوجودٌ الله أم غير موجود؟ إذ يَرفضونَ أن يَثِقوا أو يؤمنوا بأيِّ إلهٍ يَسمَحُ للتَّاريخ والحياة أن يَستمرَّا على ما هُما عليه.

في كانون الأوَّل (ديسمبر) ٢٠٠٤، قُتِل أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ شخص من جرَّاء أمواج تسُونامي هائلة ضَربَتْ ساحل المحيط الهنديّ. وعلى مدى الأسابيع التالية غَصَّت الصُّحف والمجلَّات برسائلَ ومقالاتٍ تطرحُ السؤال: "أين كان الله؟" وقد كتَبَ أحدُ المُراسلين: "إذا كانَ الله هو الإله، فَهو غيرُ صالح. وإذا كان الله صالحًا، فَهو ليس إلهًا. ولا يُعقَلُ تقبُّل الأمر في كلتا الحالَين، خُصوصًا بعدَ كارثةِ المُحيط الهنديِّ المُفجعة".[٢] إنَّما على الرُّغم من التأكيد الواثق من قِبَل كاتب المقال، فإنَّ الجَهد المبذولَ للبَرهنة بأنَّ الشرَّ يَدحَضُ وجودَ الله "باتَ الآن مُعترفًا به لدى جميع الفُرَقاء تقريبًا بأنَّ هذا الجهدَ قد أفْلَسَ كُلِّيًّا".[٣] لماذا؟

الشرُّ والألم لَيسا دليلًا ضدّ اللّه

يُقيمُ الفَيلسوفُ جاي. أل. ماكي (J. L. Mackie) هذه القضيَّة ضدَّ الله، في كتابٍ له بعنوان "**معجزة توحيد الله**" (The Miracle of Theism, Oxford, 1982). وهو يبسطها على هذا النَّحو: إذا كان إلهٌ صالحٌ وقديرٌ مَوجودًا، فما كان يسمَحُ بالشرِّ العديم الجدوى؛ ولكنْ لأنَّ في العالَم بالفعل كثيرًا من الشرِّ العديم الجدوى والذي لا يُبرَّر، لا يُعقَل أن يكونَ الإله التقليديُّ الصالح والقدير مَوجودًا. قد يكونُ مَوجودًا إلهٌ آخر، أو لا إله، ولكنْ ليس الله التقليديّ.[٤] غير أنَّ فلاسفةً آخرين كثيرين تبيَّنوا في

هذا التعليل عيبًا رئيسيًّا. ففي صُلْب التوكيد بأنَّ العالَمَ ملآنٌ بالشرِّ العديمِ الجدوى تَكمنُ مُقدِّمةٌ مُفترَضة، ألا وهي أنَّه إذا بدا الشرُّ عديمَ الجدوى بالنسبة إليَّ فلا بدَّ عندئذٍ أن يكونَ هو **عديمَ الجدوى**.

وهذا التعليل ينطوي طبعًا على مُغالَطة. فإنَّ مجرَّدَ عدم قدرتك على أن ترى أو تتصوَّر سببًا وجيهًا لسماح الله بحصول شيءٍ ما، لا يعني أنَّه لا يمكنُ أن يوجَدَ سببٌ فعلًا. وهنا أيضًا يَلوحُ لنا في صُلب الشُّكوكيَّة، التي يُفترَضُ أنَّها مُتمسِّكة بالمنطق، إيمانٌ هائلٌ لدى المرء بقُدراته الإدراكيَّة. فإنْ كانتْ عقولُنا عاجزةً عن سَبر أغوار الكَون للاهتداء إلى أجوبةٍ جيِّدةٍ عن الألم، فلا يُعقَلُ إذًا أن يُوجَد أيُّ جواب! إنَّ هذا إيمانٌ أعمى من الصِّنف الأعلى.

وقد أوضحَ المُغالَطةَ الكامنةَ في لبِّ هذه الحُجَّة الفيلسوفُ اَلفِن بلانتنِغا بمَثل البعوض غير المرئيّ. فإن فتَّشْتَ داخل خَيمتك عن سان بِرنار (St. Bernard)، وهو صنفٌ من الكلاب ضخمٌ وذكيّ، ولم ترَ واحدًا، يكونُ منطقيًّا أن تفترضَ عدمَ وجود واحدٍ منها في الخيمة. أمَّا إذا فتَّشْتَ داخلَ خَيمتك عن نُوسِيُومة (no-see-um)، وهي حشرةٌ بالغة الصِّغَر تأثيرُ لسعتِها أكبرُ من حجمها بكثير، ولم تجدْ واحدة، فلَيس من المنطق أن تفترضَ عدمَ وجودِ واحدةٍ هناك. وسببُ ذلك، رُغمَ كلِّ شيء، أنَّ أحدًا لا يستطيعُ رؤيتها. فإنَّ كثيرين يفترضون أنَّه لو وجِدَتْ أسبابٌ وجيهةٌ لِوُجود الشَّرِّ لَكانَتْ في مُتناوَل عقولنا، أشبهَ بالكلب منها بالحشرة. ولكنْ لِماذا ينبغي أن تكون الحال على هذا المنوال؟ [٥]

إنَّ هذه الحُجَّة ضدَّ الله لا تقوم، ليس فقط بالنِّسبة إلى المنطق، بل أيضًا بالنِّسبة إلى الاختبار. فَبِصفَتي راعيًا، وعظتُ كثيرًا عن قصَّة يوسفَ

في سفر التكوين. وقد كان يوسفُ شابًّا شامخًا أبغضَه إخوتُه. وفي غضبهم عليه، حَبَسوه في بئر، ثُمَّ باعوه إلى حياةِ عبوديَّةٍ وبؤسٍ في مصر. لا شكَّ أنَّ يوسفَ صلَّى مُستَغيثًا طالبًا الإنقاذ، ولكنْ لم تأتِه أيَّةُ معونة في الحال، ومضى بذلك إلى العبوديَّة. ومع أنَّ يوسف عانى سِنِيْ عبوديَّةٍ وبؤس، فإنَّ تجارِبَه صقلَتْ خُلُقَه وشدَّدَتْه. وفي آخر المطاف ارتقى لِيَصيرَ الوزيرَ الأكبرَ في مصر، مُنقِذًا آلاف النفوس من المجاعة، ومنهم أيضًا إخوته. فَلَولا سَماحُ الله بسِنِي مُعاناة يوسف، لَما كان على الإطلاق عاملًا فعَّالًا جدًّا في سبيل العدالة الاجتماعيَّة والشِّفاء الروحيّ. وكلَّما وعظتُ على أساس ذلك النصّ، أسمعُ تعليقاتٍ من أشخاص يتوحَّدونَ مع القصَّة. إذ لا يَرى كثيرون بُدًّا من الاعتراف بأنَّ مُعظمَ ما كانوا يحتاجون إليه حقًّا للنَّجاح في الحياة جاءَهم من خلال اختباراتهم الأكثر صعوبةً وإيلامًا. ومنهم مَن يَلتَفتون إلى مرضٍ سبقَ أن ابتُلُوا به، ويُدركونَ أنَّه كان فصلًا لا يُستبدَل في الحياة أدَّى بهم إلى نموِّهم الشخصيِّ والروحيّ. وأنا خرجْتُ سالمًا من مُنازَلة مع السَّرطان، في حين ما تزال زوجتي تُعاني مرض كرُونْز (Crohn's)* طيلةَ سنين، ومن شأننا كلَينا أنَ نشهدَ لصحَّة هذا الأمر. وقد تعرَّفتُ في رعيَّتي الأولى برجُلٍ فقدَ مُعظمَ بَصَره بعد إطلاق النار على وجهه في أثناء قيامه بصفقة مخدِّرات كُشِف أمرُها.

وقال لي إنَّه كان شخصًا أنانيًّا وفَظًّا جدًّا، غير أنَّه ألقى باللَّوم على الآخرين بشأن مَشاكله القانونيَّة والعلائقيَّة الدائمة. ثُمَّ إنَّ فُقدان بَصَره دمَّرَه، إلَّا أنَّه جَعله أيضًا يتَّضعُ اتِّضاعًا شديدًا. وممَّا قاله: "إذ أغمِضَتْ

---

* داء كرونْز هو التِهابٌ يُصيبُ الأمعاء وقد يؤثِّرُ في أيٍّ من أجزاء القناة الهضميَّة من الفم إلى الشرج (الناشر).

عيناي الطبيعيَّتان، فُتحَتْ عيناي الروحيَّتان، إذا جاز التعبير. فقد رأيتُ أخيرًا كيف كنتُ أعامِلُ الناس، وقد تغيَّرت. ولي الآن، للمرَّة الأولى في حياتي، أصدقاءُ– أصدقاءُ حقيقيُّون. كان الثمن الذي دفعتُه رهيبًا، ومع ذلك يجب أن أقول إنَّ الأمرَ كان يستحقُّ عَناءه. فأنا الآنَ أملكُ ما يجعلُ الحياةَ ذاتَ شأنٍ وجدوى".

ومع أنَّ أحدًا من هؤلاء لا يُحبِّذُ المآسيَ بحدِّ ذاتها، فإنَّهم جميعًا ما كانوا ليَستبدِلوا أيَّ شيءٍ بما آتَتهم من بصيرةٍ وخُلُق وقوَّة. ومع الوقت والمنظور الصَّحيح، نستطيعُ بمُعظمنا أن نرى أسبابًا خَيِّرة، على الأقلِّ لبعضٍ من الآلام والمآسي التي تحدُثُ في الحياة. فلماذا لا يُحتمَل أن تكونَ لها جميعًا أسبابٌ خيِّرة، من مَوقع الله المُشرِف؟

فإذا كان لَدَيك إلهٌ عظيمٌ ومُتعالٍ بما يكفي لأنْ تثورَ عليه لأنَّه لم يُوقِفِ الشَّرَّ والألم في العالَم، فإنَّ لدَيك عندئذٍ (في الوقت نفسه) إلهًا عظيمًا ومُتعاليًا بحيث تكون لدَيه أسبابٌ خيِّرة لسماحه باستمرارهما وأنت لا تعرفُ تلك الأسباب. حقًّا إنَّك لا تستطيعُ أن تَصِلَ إلى النتيجة عينِها في كلتا الحالَين!

الشَّرُّ والألمُ قد يكونان (في حقيقة الأمر) دليلًا لمصلحة الله

رُغمَ أنَّ الألمَ المُروِّع الذي يتعذَّر تعليلُه لا يمكنُ أن يَدحَضَ الله، فهو مع ذلك مُشكلةٌ بالنِّسبة إلى المؤمن في الكتاب المقدَّس. غير أنَّه ربَّما كان مُشكلةً أكبرَ بَعدُ بالنِّسبة إلى غير المؤمنين. وقد وصفَ سي. أس. لِويس

كيفَ رفضَ في الأصل فكرةَ وجود الله بسبب قسوة الحياة. ثُمَّ باتَ يدركُ أنَّ الشرَّ أكثرُ إشكالًا بالنِّسبة إلى إلحاده الجديد. وفي الأخير أدرَكَ أنَّ الألمَ يشكِّلُ حُجَّةً لمصلحة وجود الله أفضل من تشكيله حُجَّةً ضدَّه.

> كانتْ حُجّتي ضدّ الله أنّ العالَم بدا غايةً في القساوة والظُّلم. ولكنْ كيف حصلتُ على مفهوم الظُّلم والعدل هذا؟... بماذا كنتُ أقارِن هذا العالم لمّا دعوتُه غير عادل؟... كان من شأني طبعًا أن أتخلّى عن مفهومي للعَدل بقولي إنّهُ ليس شيئًا سوى فكرةٍ خاصّةٍ من بنات أفكاري. ولكنْ لو فعلتُ ذلك، لانهارَتْ أيضًا حُجّتي ضدّ الله؛ لأنّ رُكْنَ تلك الحَجّة كان القولَ إنّ العالَم غير عادل فعلًا، وليس فقط أنّه لم يُرضِ مُيولي قبل الآن... وبناءً على ذلك يتبيّن أنّ الإلحاد ساذجٌ جدًّا.[6]

لقد أدركَ لويس أنَّ الاعتراضات الحديثة على الله مؤسَّسةٌ على مفهوم للعَدل والإنصاف. فنحن نعتقدُ أنَّ الناسَ لا ينبغي أن يتألَّموا ويُنبَذوا ويموتوا جُوعًا أو ظُلمًا. غير أنَّ آليَّةَ الانتخاب الطبيعيِّ التَّطوُّريَّة (The Evolutionary Mechanism of Natural Selection) تعتمدُ على القتل والإفناء والعُنف من جانب القويِّ تُجاهَ الضَّعيف– وهذه كلُّها طبيعيَّةٌ تمامًا. فعلى أيِّ أساسٍ إذًا يحكم المُلحدُ على العالَم الطبيعيِّ بأنَّه ظالمٌ ومُجحِفٌ وغيرُ عادلٍ على نحوٍ رهيب؟ ليس لدى غير المؤمن بالله أساسٌ جيِّد لكَونه ساخطًا على اللاَّعدل الذي كان– كما يُبيِّن لويس– سببَ الاعتراض على الله في المقام الأوَّل. فإن كنتَ مُتيقِّنًا بأنَّ هذا العالَم الطبيعيَّ ظالمٌ وملآنٌ بالشَّرّ، فأنت تَفترضُ حقيقةَ معيارٍ ما خارجَ الطبيعة (أو فَوطبيعيٍّ) بمَوجبه تُصدِرُ حُكمك. وقد عبَّر الفيلسوف آلفِن پلانتنغا عن ذلك على النَّحو التالي:

> هل يُعقلُ أن يوجد حقًّا أيُّ شيءٍ مثل الشرّ المُروِّع [لو كان اللّه غير موجود ونحنُ نشأنا من طريق التطوُّر (النشوء والارتقاء)** فحسْب]؟ لستُ أرى كيف يكونُ ذلك. لا يمكنُ أن يوجَدَ شيءٌ كهذا إلّا إذا كانت ثمّة طريقةٌ بها **يُفترَض** أن تعيش الخلائق العاقلة، بل **تُلزَمُ** أن تعيش... إنَّ أيّة طريقةٍ لادينيّة في النّظر إلى العالَم تخلو من أيِّ مجالٍ للالتزام الخُلُقيِّ مهما كان نوعه... ومن ثَمّ فلا سبيلَ إلى القول بوجود شيءٍ من قَبيلِ الشرِّ الفعليِّ والبغيض. وعلى ذلك، فإنِ اعتقدتَ أنَّ هنالك حقًّا شيئًا مثل الشرّ المُروِّع (لا مجرَّدَ وهمٍ من نوعٍ ما)، تكون لديك إذًا حُجّةٌ قويّةٌ [لحقيقة وجود اللّه].[٧]

وبالاختصار، فإنَّ مُشكلةَ المأساة والمعاناة والإجحاف هي مشكلةٌ عامَّةٌ تُواجِه الجميع. إنَّها على الأقلِّ مشكلةٌ كبيرةٌ أمامَ عدم الإيمان كما هي أمام الإيمان. ولذلك كان من الغَلَط والشَّطَط، رُغمَ تفهُّم الأمر، أنْ تَحسبَ أنَّ نبذَكَ للإيمان بالله سيَجعلُ مشكلةَ الشرِّ أسهلَ تقبُّلًا وعلاجًا بطريقةٍ أو بأخرى.

وقد واجهَتني مرَّةً امرأةٌ في كنيستي بشأن الأمثلة الإيضاحيَّة المستعمَلة في العظات وفيها حوادثُ شرٍّ آلَتْ إلى الخير. كانت تلك المرأة قد فقدَتْ زوجَها بِفِعل عُنفٍ جرى في أثناءِ سَرقة. وكان لها أيضًا بضعة أولادٍ يُعانون مشاكلَ عقليَّةً وعاطفيَّةً حادَّة. وقد أصرَّت على أنَّه مُقابل كلِّ قصَّةٍ واحدةٍ فيها يؤول الشرُّ إلى الخير هنالك مئةٌ ليس فيها جانبٌ مُشرِقٌ يمكنُ تَصوُّره. على هذا المنوال قد يبدو كثيرٌ من النقاش في هذا الفصل

** يستخدِمُ البعضُ مصطلَحَ "التطوُّر" والبعضُ الآخر "النشوء والارتقاء" في ترجمة الكلمة الإنكليزيَّة (Evolution)، وكلاهما صحيحان. وقد ارتأينا استخدام المصطلَح الأوَّل في ما تبقّى من الكتاب. ويكون بذلك عالِم الأحياء الذي يدرُسُ التطوُّر (Evolutionist) عالِمًا تطوُّريًّا (الناشر).

حتَّى الآن باردًا وغيرَ ذي موضوع بالنِّسبة إلى شخص يُعاني في الحياة الفعليَّة. فإنَّ شخصًا كهذا قد يقول: "وماذا يَعْنيني إن كانَ الألمُ والشرُّ لا يَدحضان الله منطقيًّا؟ إنِّي ما أزالُ غاضبًا. فهذا التعليلُ الفلسفيُّ كُلُّه لا يُعفي إله المسيحيَّة من شَرَكِ المسؤوليَّة عن شرِّ العالَم ومُعاناته!" ردًّا على احتجاج كهذا، يُشير الفيلسوف بيتر كريفْت (Peter Kreeft) إلى أنَّ إله المسيحيَّة جاء إلى الأرض لكي يَضَعَ نفسه عَمْدًا في شَرَكِ المُعاناة البشريَّة. ففي يسوع المسيح، عانى الله أعمقَ أعماقِ الألَم. ولذلك، فمع أنَّ المسيحيَّة لا تمدُّنا بالسبب الكامن وراءَ كلِّ مُعاناةٍ للألم، فهي تُزوِّدُنا بمواردَ غنيَّةٍ كي نُواجِهَ فعليًّا الألمَ بِرَجاءٍ وشجاعة بدلًا من المرارة واليأس.

مقارنةُ السيِّد المسيح بالشُّهداء

يُبيِّنُ سَردُ الأناجيل أنَّ السيِّدَ المسيح لم يواجِهْ مَوته المُقتربَ بأيِّ شيءٍ شبيهٍ بِرَباطة الجأش وعدم التهيُّب اللَّذَين كانا يُتَوقَّعان عَمومًا من قِبَل بَطَل روحيّ. أمَّا الشُّهداء المكابيُّون المشهورون الذين قاسَوا الويلاتِ تحت حُكم أنطيوخُس إيبيفانيس (Antiochus Epiphanes) لِسُوريا قديمًا، فكانوا نماذجَ للشَّجاعة الروحيَّة في مواجهة الاضطهاد. وقد اشتُهروا بتحدُّثهم بشأن الله على نحوٍ يَتَّسمُ بالتَّحدِّي والثقة حتَّى حين كانتْ أطرافُهم تُقطَع. فقارِنْ هذا بِسلوك السيِّد المسيح، إذ يُصوَّرُ غايةً في الانزعاج حِيال مَوته الوشيك، حيثُ "... ابتدأ يدهشُ ويكتئب" وقال: "نفسي حزينةٌ جدًّا حتَّى الموت" (مرقس ١٤: ٣٣و ٣٤). ويَصِفُ لوقا السيِّدَ المسيحَ قبل مَوته بأنَّه "كان في جهاد" ويُصوِّر إنسانًا تَظهرُ عليه جميعُ أَماراتِ مَن يُعاني صَدمةً بَدَنيَّة (لوقا ٢٢: ٤٤). ويُظهِرُ متَّى ومرقس ولوقا كلُّهم الربَّ

يسوع كمَن يُحاولُ أن يتجنَّب الموت، سائلًا الآب عن سبيلٍ للتَّفادي منه ("إن شئتَ أن تُجيز عنّي هذه الكأس" مرقس ١٤: ٣٦؛ لوقا ٢٢: ٤٢). أخيرًا، على الصليب نفسه، لم يَدعُ المسيحُ الناظرين بثقة لأنْ يكونوا أمناء تُجاه الله، على غرار الشُّهَداء المكابيِّين، بل بالأحرى صرخَ بِصَوتٍ عظيم مُعبِّرًا عن تَرْك الله له (متَّى ٢٧: ٤٦).

فعلى الصليب قاسى يسوعُ مَوتًا على مدى ثلاث ساعات بالاختناق البطيء وفقدان الدَّم شيئًا فشيئًا. ولئن كان ذلك مؤلمًا على نحوٍ رهيب، فقد حصلَتْ مِيتاتٌ أشدُّ عذابًا وهَولًا واجَهَها الشُّهَداء بقَدرٍ من الثِّقة والهدوء أكبرَ بكثيرٍ. ولنا على ذلك مَثَلان شهيران في هيو لاتيمر (Hugh Latimer) ونيكولاس ردلي (Nicholas Ridley) اللَّذَين أحرِقا مَشدودَين إلى سارية في أكسفورد عام ١٥٥٥ من أجل قناعاتِهما الإنجيليَّة. وبينما تَصاعدَت ألسنةُ اللهيب، سُمعَ لاتيمر يقول بهدوء: "استرِحْ وتَعزَّ، يا سيِّد رِدلي، وكُن رجُلًا بكلِّ ما تحمل الكلمة من معنى! إنَّنا اليومَ سنُضيء في إنكلترا، بنعمةِ الله، شمعةً أثِقُ بأنَّها لَن تُطفأَ أبدًا".

تُرى، لماذا اضطربَ السيِّد المسيح إزاءَ مَوته على نحوٍ فاقَ فيه الآخرين، حتَّى أتباعَهُ أيضًا؟

معاناةُ الله

حتَّى نفهمَ تألُّمَ الربِّ يسوع كما يُوصَف في آخر كلِّ إنجيل، علَينا أن نتذكَّرَ كيف يُقدَّمُ في البداية. فيُوحنَّا كاتبُ الإنجيل، في فَصلِه الأوَّل، يُعرِّفنا بالمفهوم العجيب، لكنِ المُهمّ، بشأنِ الله من حيثُ كَونُه ثُلاثيَّ الأقانيم. فإنَّ

ابنَ الله لم يُخلَق، بل شارَكَ في الخَلْق، وهو مُقيمٌ منذ الأزل "في حضن الآَب" (يوحنَّا١: ١٨)- أي في علاقة مودَّةٍ ومحبَّةٍ مُطلَقتَين. غير أنَّه عند نهاية حياته على الأرض فُصِل عن الله أبيه.

ربَّما لا يوجَدُ كَرْبٌ داخليٌّ أقسى من فقدان علاقةٍ نحتاجُ إليها أمسَّ الاحتياج. فإذا انقلبَتْ عليك فتاةٌ تَعرفُها معرفةً سطحيَّة، ونددَتْ بك وانتقدَتْكَ، وقالت إنَّها لا تُريدُ البتَّة أن تَراك مرَّةً أخرى، يكون ذلك مؤلِمًا. وإذا فعلَتْ مثل ذلك شابَّةٌ تُواعِدُها، كان الأمرُ أشدَّ إيلامًا على المُستوى النَّوعيّ. ولكنْ إذا فعلَتْ بكَ ذلكَ زوجتُك، أو إذا فعلَه بكَ أحدُ أبَوَيك وأنتَ صغيرُ السنِّ بَعدُ، فإنَّ الضَّررَ النفسيَّ يكونُ أسوأ بصورةٍ غير محدودة.

غيرَ أنَّنا لا نستطيعُ أن نسبرَ أغوارَ ما يَعنيه ليس فقدانُ الحبِّ الزوجيِّ فحسب، أو محبةِ الأب أو الأمِّ بعدَ دوام سنينَ معدودة، بل محبَّة الآب غير المحدودة التي تمتَّع بها السيِّد المسيح منذُ الأزل. فإنَّ آلامَ السيِّد المسيح كانت لا تُطاق حتمًا على نحوٍ أزليٍّ أبديّ. وما تَزالُ اللاهوتيَّاتُ المسيحيَّة تُقرُّ دائمًا بأنَّ السيِّد المسيح، بِصِفَته البديلَ الذي أخَذَ مكانَنا، قد عانى الإقصاءَ اللَّانهائيَّ عن الله ذاك الذي استحَقَّه الجنسُ البشريّ. ففي بُستان جَتْسَيماني، بدأَتْ حتَّى بوادرُ هذا الاختبار تَضَعُ يسوعَ في حالةِ صدمة. وقد كتبَ العالمُ بالعهد الجديد بِل لاين (Bill Lane): "أقبلَ يسوعُ ليَختَليَ مع الآَب في لَقاءٍ يسبقُ تسليمَه، ولكنَّه وجَدَ جهنَّم، لا السماء، مُنفتحةً أمامه، فصُعِق".[٨] وعلى الصليب، كانت صرخة يسوع من جرَّاء الهُجران- "إلهي، إلهي ، لماذا تركتَني؟" - عبارةً علائقيَّة في العُمق. وقد كتبَ لاين أيضًا: "تشتملُ هذه الصَّرخةُ على أصالةٍ لا هَوادةَ فيها... فالسيِّد المسيح لم يَمُتْ مُنكرًا الله. فَحتَّى في جحيم النَّبذ لم يتخلَّ عن إيمانه بالله، بل عبَّر عن

صلاةَ ضيقِه بصرخةٍ توكيديَّة "إلهي، إلهي"".[٩] إنَّه استخدم لغةَ المودَّة بَعد- "إلهي"- حتَّى عندما عانى الانفصالَ اللَّانهائيَّ عن الله أبيه.

الفداءُ والآلام

كان موتُ السيِّد المسيح مختلفًا على المستوى النَّوعيِّ عن أيِّ موتٍ آخر. ولم يكُنِ الألمُ البَدَنيُّ شيئًا مُقارنةً بالاختبار الروحيِّ للنَّبذِ الكَونيِّ.[١٠] فالمسيحيَّة وحدها بين أديان العالَم تقول إنَّ الله صارَ إنسانًا في يسوع المسيح، على نحوٍ فريدٍ وكامل، ومن ثَمَّ اختبرَ مباشرةً اليأسَ والرَّفض والوحدة والفقر والحرمان والعذاب والسَّجن. وعلى الصليب جاوزَ حتَّى أسوأ المُعانَيات البشريَّة وقاسى رَفضًا كَونيًّا وألَمًا يفوقُ ألَمَنا كما تَفوقُ معرفتُه وقدرتُه معرفتَنا وقدرتَنا على نحوٍ غير محدود. ففي موته، تألَّمَ الله في محبَّةٍ عجيبة، مُتَوحِّدًا مع حال المنبوذين و"الذين تخلَّى الله عنهم".[١١] ولماذا فعلَ ذلك؟ يقولُ الكتابُ المقدَّس إنَّ السيِّدَ المسيح جاء في مَهمَّةِ إنقاذٍ للخَليقة. وكان عليه أن يدفعَ ثمنَ خطايانا حتَّى يتَسنَّى له ذات يومٍ أن يُلاشيَ الشرَّ والألم بغير أن يُهلكَنا.

فَلْنرَ إلى أينَ أتى بنا هذا. إنْ سألْنا ثانيةً: "لماذا يَسمحُ الله بأن يستمرَّ الشرُّ والألَم؟" ونَظرْنا إلى صليب السيِّد المسيح، فَلَسنا نعرفُ ما هو الجواب بعد. غير أنَّنا نعرفُ الآنَ ما ليس الجواب. فلا يمكنُ أن يكونَ أنَّه لا يحبُّنا. ولا يمكن أن يكونَ أنَّه لامُبالٍ أو غيرُ مَعنيٍّ بحالنا. فالله يأخُذُ بؤسَنا ومعاناتنا على مَحمِلِ الجِدِّ فعلًا، حتَّى إنَّه كان على استعداد لأنْ يأخذَهما على عاتقه. وقد فهم ألبِر كامو (Albert Camus) هذا لمَّا كتب:

> إنّ السيّد المسيح، الإله- الإنسان، يتألّم أيضًا بصبر. فالشرّ والموت ما عاد مُمكنًا بعدُ أن يُنسَبا إليه كلّيًّا، إذ تألّمَ ومات. واللّيلُ الذي اكتنف الجُلجُثة مُهمٌّ جدًّا في تاريخ الإنسان، فقط لأنّ الألوهيّة، في ظلال ذلك الليل، تخلّتْ ظاهريًّا عن امتيازها التقليديّ، وعاشتْ أوجاع الموت، بما فيها اليأس، حتّى النّهاية. هكذا تُفسّر صَرخةُ السيّد المسيح "لَمَا شبَقتَني؟" وارتيابُه المُروِّعُ في كَربه.[١١]

وهكذا، فإذا اعتنَقْنا التعليمَ المسيحيَّ بأنَّ الربَّ يسوع هو الله، وأنَّه مضى إلى الصليب، تكون لنا عندئذٍ تَعزيةٌ وقوَّةٌ عظيمتان في مواجهةِ الحقائق القاسية المنوطة بالحياة على الأرض. إنَّ في وُسعنا أن نعلَمَ أنَّ الله هو حقًّا **عمانوئيل- الله معنا-** حتَّى في أشدِّ آلامِنا هَولًا.

القيامةُ والآلام

أعتقد أنَّنا نحتاج إلى ما هو أكثرُ من المعرفة بوجود الله معنا في بلايانا. إذ نحتاجُ أيضًا إلى رجاءٍ بأنَّ مُعاناتنا "ليستْ عَبَثًا". ألاحظتَ يومًا كيف تَستميتُ أسَرُ الأحبَّاء المفقودين للإفصاح عن ذلك؟ فهي تجتهد لإصلاح القوانين أو تغيير الأحوال التي أدَّتْ إلى الوفاة. إنَّهم يحتاجون إلى التيقُّن بأنَّ مَصرع أحبَّائهم قد أدَّى إلى حياةٍ جديدة، بأنَّ الظُّلم أدَّى إلى عدالةٍ أقوى.

فالإيمانُ المسيحيُّ يُقدِّمُ إلى المُتألِّم مَوردًا لا يتمثَّلُ فقط في تعليمه بشأن الصليب، بل أيضًا في حقيقة القيامة. ويُعلِّمُ الكتابُ المقدَّس أنَّ المستقبلَ ليس "فِردَوسًا" لاماديًّا بل سماءٌ جديدة وأرضٌ جديدة. ففي الأصحاح الحادي والعشرين من سفر الرُّؤيا، لا نرى كائناتٍ بشريَّةً

تؤخَذُ من هذا العالم إلى السَّماء، بل نرى بالأحرى السَّماءَ نازلةً إلى هذا العالم المادِّيّ، مُطهِّرةً ومُجدِّدةً ومُكمِّلةً إيَّاه. إنَّ الرُّؤيةَ اللَّادينيَّة إلى الأمور لا ترى بالطبع أيَّ إصلاح شامل في المستقبل بعد الموت أو التاريخ. والدِّياناتُ الشرقيَّة تؤمنُ بأنَّنا نفقدُ فَردانيَّتنا ونعودُ إلى الرُّوح الكُلِّيّ، وهكذا تَتَبدَّدُ إلى الأبد حياتُنا المادِّيَّة في هذا العالَم. حتَّى الأديانُ التي تؤمن بِفردَوسٍ سماويٍّ، تَحسبُه تعزيةً عن خسائر هذه الحياة وآلامها وجميع الأفراح التي كان يمكنُ أن تحصلَ فيها.

أمَّا الرؤيةُ التي يتضمَّنها الكتاب المقدَّس إلى الأمور فهي القيامة. إذ لا يُرى مُستقبلٌ يكون مُجرَّدَ **تعزية** عن الحياة التي لم نتمتَّع بها قطّ، بل **استردادٌ** للحياة التي طالَما أرَدتَها دائمًا. وهذا يعني أنَّ كلَّ أمرٍ رهيبٍ حدثَ أصلًا لَن يُبطَلَ ويُصلَحَ فحسْب، بل أيضًا- بطريقةٍ من الطُّرق- سيَجعلُ المجدَ والفرحَ النِّهائيَّين أعظمَ بَعدُ.

منذ بضع سنين راوَدَني كابوسٌ رهيبٌ إذ حَلَمتُ أنَّ جميعَ أفراد أسرتي ماتوا. ولمَّا استيقظتُ كان الانفراجُ عظيمًا- ولكنْ حصلَ ما يتعدَّى مجرَّد الانفراج بكثيرٍ جدًّا. فقد تعزَّز على نحو فائق فَرَحي بكلِّ فردٍ في أسرتي. إذ نظرْتُ إلى كُلٍّ منهم وأدركتُ كم أنِّي شَكورٌ من أجلهم، وكم أحببتُهم حُبًّا شديدًا. لماذا؟ لقد كبَّرَ كابوسي الفرحَ الذي انْتابَني أيَّ تكبير. وبهجتي عند الاستيقاظ الْتهمَتْ ذُعري، إذا جازَ التعبير، حتَّى إنَّ محبَّتي لهم في الأخير كانتْ أعظم لمجرَّد أنِّي فقدتُهم ثُمَّ وجدتُهم من جديد. وهذا العُنصرُ الفعَّال عينُه ينشطُ حين تفقدُ مُمتلكًا من المُمتلَكات كنت تقبَله كأمرٍ مُسلَّم به. فعندما تجدُه من جديد (بعدَما حسبتَه ضاعَ إلى الأبد)، تُعِزُّه وتُقدِّره على نحوٍ أعمق بكثير.

اشتملَت الفلسفة اليونانيَّة (لا سيَّما الفلسفة الرِّواقيَّة) على **مُعتقَد** يحسبُ التاريخَ دورةً لا تنتهي. فمن شأن الكَون، في أدوار مُتكرِّرة أن ينهارَ ويحترقَ في حريق هائل يُدعى "**پالينجينيسيا**" (Palengenesia)، على أثَرِه يبدأ التاريخُ من جديد بعدما يُطهَّر. ولكنْ في متَّى ١٩: ٢٨، تحدَّث السيِّد المسيح بشأن عَودته إلى الأرض باعتبارها الـ "**پالينجينيسيس**" (Palengenesis): "الحقَّ أقول لكم... في التجديد (**پالينجينيسيس** في اليونانيَّة) متى جلس ابن الإنسان على كرسيِّ مجده". فهذا كان مفهومًا جديدًا على نحو جذريّ. إذ أكدَّ السيِّدُ المسيحُ أنَّ عَودته إلى الأرض ستَكون ذاتَ قوَّة فائقةٍ حتَّى إنَّ الكونَ والعالَمَ المادِّيَّين بِذاتهما سيُطهَّران من كلِّ فسادٍ وضَعف. فإنَّ الكُلَّ سوف يُشفى، وكلُّ ما كان ممكنًا أن يكون سوف **يَكون**.

بُعيدَ الذُّروة في ثُلاثيَّة **سيِّدُ الخواتم** (The Lord of the Rings)، يكتشف سام غامجي (Sam Gamgee) أنَّ صديقه غاندالْف (Gandalf) لم يكُنْ قد ماتَ (كما اعتقدَ سام) بل هو حيّ. إذ ذاك يهتفُ سام: "ظَنَنتُ أنَّك مُتَّ! ولكنْ عندئذٍ حسبتُ أنِّي أنا نفسي قد مُتُّ! **فهَل كلُّ ما هو مُحزِنٌ سيَتبيَّن أنَّه غيرُ صحيح؟**"[١٣] وجواب المسيحيَّة عن هذا السؤال هو **نعم!** سوف يتبيَّن أنَّ كلَّ ما هو مُحزِنٌ ليس صحيحًا، وسيَكون **أعظمَ** بطريقةٍ أو بأخرى لأنَّه كان في ما مضى قدِ انهارَ وتبدَّد.

إنَّ اعتناقَ عقيدتَي التجسُّد والصليب المسيحيَّتَين يأتي بِتَعزيةٍ عظيمةٍ في مُواجهة المعاناة. وفي وُسع عقيدةِ القيامة أن تَمدَّنا برجاءٍ فعَّالٍ جدًّا. فهي تَعِد بأنَّنا سنَنال الحياةَ التي تُقنا إليها أكثرَ الكُلّ، ولكنَّها ستَكون في عالَمٍ أمجدَ على نحوٍ لانهائيٍّ- عالَمٍ أمجدَ ممَّا كانت عليه الحال لو لم تَدْعُ الحاجةُ

قطُّ (الربَّ يسوع) إلى الشجاعة أو الثَّبات أو التضحيَّة أو الخلاص.[١٤]

وقد أجادَ دوستويفسكي (Dostoevsky) التعبير حين كتب:

أومِنُ كطفلٍ بأنَّ الألَمَ سوف يُشفَى ويُعوَّضَ عنه، وأنَّ سُخفَ التناقُضات البشريَّة المُذِلّ كُلّه سوف يتلاشى كَسَراب هزيل، كالاختلاقات الخسيسة التي يُنشئها عقلُ الإنسان الأقليدسيُّ*** العاجزُ والصغيرُ صغرًا لامُتناهيًا، وأنَّه في خاتمة العالَم، في لحظة التّناغُم الأبديّ، سوف يحدُثُ شيءٌ ثمينٌ جدًّا بحيث يكون مُشبِعًا لكلِّ قلب، وكافيًا للتَّعزية عن جميع الاستياءات، وللتَّفكير عن جميع جرائم البشر، وعن جميع الدّماء التي سفَكها البشر، بحيث يصيرُ ممكنًا ليس الصّفحُ عن كلّ ما قد حصلَ فحسب، بل تبريرُه أيضًا.[١٥]

وبمزيدٍ من الإحكام، كتبَ سي. أس. لِويس:

يقولون عن مُعاناة وقتيّة ما: "لا سعادة مُستقبليّةً يمكن أن تُعوِّض عنها". غيرَ عالمين أنَّ السماءَ ما إن تُبلَغُ حتّى تعملُ بأثرٍ رَجعيٍّ وتُحوِّل حتّى ذلك الكرْبَ إلى مجد.[١٦]

هذه هي هزيمةُ الشَّرِّ والألَم النَّهائيَّة. فهُما لن يتلاشيا فحسْب، بل سوف يُقهران قهرًا جذريًّا حتَّى إنَّ ما قد حصلَ لن يعملَ إلَّا على جَعْل حياتِنا وفرحِنا المُستقبليَّين أعظمَ على نحوٍ لا نهائيّ.

*** "الإقليدسيُّ" نسبةً إلى عالم الرياضيات الإغريقيِّ إقليدس الذي وضعَ مبادئ الهندسة المسطَّحة (الجيومتريَّة). ويُقصَد به هنا العقل الذي يؤمن بالعالَم المادّيِّ المنظور والمحدود بأبعاده الثلاثة، دون الإيمان بالأبعاد اللَّاماديَّة مثل الزمن والنفس والروح (الناشر).



٣

المسيحيَّةُ

سترةُ مَساجين*

قالت كيث (Keith)، وهي فنّانة شابّة تُقيم في برُوكلين: "يؤمنُ المسيحيُّون بأنَّ لديهم الحقيقةَ المُطلَقة التي ينبغي أن يؤمن بها كلُّ شخصٍ آخر، وإلَّا... وهذا الموقف يُعرِّضُ حرِّيَّة كلِّ إنسان للخَطر".

ووافقت كلُوي (Chloe)، وهي فنّانةٌ شابّة أخرى، قائلةً: "نعم، إنَّ فكرةً شعارُها "حقيقةٌ واحدةٌ للجميع" تُقيِّد المرءَ تقييدًا يُجاوزُ كلَّ حدّ. فلا يبدو أنَّ لدى المسيحيّين الذين أعرفُهم الحرِّيَّة للتَّفكير بالأصالة عن أنفُسهم. وأنا أعتقدُ أنَّ على كلِّ فرد- رجُلًا كان أمِ امرأة- أن يُحدِّد الحقيقةَ لنَفسه".

أيكونُ الإيمانُ بحقيقةٍ مُطلَقة عدوًّا للحرِّيَّة؟ مُعظم الذين قابلتُهم في مدينة

---

* سترةُ المساجين (Straightjacket) هي سترةٌ ذات أكمام طويلة مصنوعةٌ من قماشٍ قويّ، مصمَّمةٌ للسيطرةِ على مسجونٍ ثائر وذلك بضمِّ ذراعَيه باتِّجاه جسمه. وتُستخدم أيضًا في المصحَّات النفسيَّة. ويحمل هذا المصطلح في طيَّاته أيضًا معنى التقييد الفكريّ (الناشر).

نيويورك يعتقدون أنَّه كذلك. فالمسيحيَّة تُسمِّي بعض المعتقدات "هرطقة" وبعض الممارسات "لاأخلاقيَّة". وهي تحرم من شَركتها أولئك الذين يتعدَّون حدودَها العقائديَّة والخُلُقيَّة. ويبدو هذا للمُراقبين المُعاصرين أنَّه يُعرِّض الحرِّيَّة المدنيَّة للخطر؛ لأنَّه يَقسمُ الناسَ ولا يُوَحِّدهم. كما يبدو أيضًا أنَّه تزمُّتٌ على الصعيد الحضاريّ، إذ يُخفقُ في الإقرار بأنَّ لمختلف الحضارات وجهاتِ نظرٍ شتَّى بشأن الواقع. وأخيرًا، يبدو أنَّه يستعبدُ الأتْباع، أو على الأقلّ يُعاملُهم كأطفال، إذ يُحدِّد ما يجب أن يؤمنوا به ويمارسوه في كلّ شأنٍ محدَّد. وقد تحدَّث أم. سكوت پَك (M. Scott Peck) بشأن تقديمه المَشُورةَ لامرأةٍ اسمُها شارلين (Charlene) قالت عن المسيحيَّة: "لا مكانَ لي في ذلك. إنَّه سيَعني موتي!... لستُ أريد أن أحيا لله، ولن أفعل. أريد أن أحيا... لأجل ذاتي"[١]. فإنَّ شارلين اعتقدت أنَّ المسيحيَّة ستَعوقُ إبداعَها ونموَّها. وقد سبقَتها إلى ذلك الناشطة الاجتماعيَّة إيما غولدمان (Emma Goldman) التي عاشتْ في أوائل القرن العشرين، إذ دعَتِ إيما المسيحيَّةَ "هادمةَ الجنس البشريّ، كاسرةَ إرادة الإنسان فلا يجرؤ الإنسان ولا يعمل... إنَّها شبكةٌ من حديد، سترةُ مساجينَ لا تَدَعُ الإنسانَ يتمدَّد أو ينمو"[٢].

في نهاية فيلم "**أنا الروبوت**" (I, Robot) المُنتَج في عام ٢٠٠٤، كان الروبوت المدعوُّ سوني (Sonny) قد حقَّق أغراضَ برنامج تصميمه، إلَّا أنَّه أدركَ حالًا أنَّه باتَ بلا غايةٍ بَعدُ. ويُختَم الفيلم بحوار بين سوني والشخصيَّة الرئيسيَّة الأخرى، المُحقِّق سپونر (Spooner).

سوني: ها أنا الآن قد أتْمَمتُ غايَتي، ولا أدري ما أفعل.

المحقِّق سپونر: يُخيَّل إليَّ أنَّك ستُضطرُّ إلى إيجاد سبيلك على غِرارنا

أجمعين، يا سوني... فهذا هو ما يَعنيه أن تكون حُرًّا.

حسبَ هذه النظرة، تعني الحرِّيَّة عدم وجود غاية مُهَيمنة خُلِقنا لأجلها. ولو كانت موجودة، لكُنّا مُلزَمين أن نخضعَ لها ونُتِمَّها، وهذا يُقيِّدنا. فالحرِّيَّة الحقيقيَّة هي حرِّيَّتك بأن تُوجِدَ مَعناك وغايَتك الخاصَّين. وقد ادَّخرَتِ المحكمةُ العليا هذه النظرة لمَّا ارتأتْ أنَّ "قلب الحرِّيَّة هو أن يُحدِّدَ المرءُ مفهومَه الخاصَّ للوجود، لمعنى الكون"[٣]. ويتَّفق ستيفن جاي غولد (Stephen Jay Gould) مع القائلين بهذا الرأي:

> نحن هنا لأنّ طائفةً غريبةً من السّمك كانت زعانفُها ذات تركيبٍ خاصٍّ مكّنها من أن تتحوّل إلى أرجُلٍ لمخلوقات البَرّ؛ لأنّ نيازكَ ضربَتِ الأرض وأزالتِ الدينوصورات، مُتيحةً للثّدييات فرصةً ما كانت لِتُتاحَ لولا ذلك... ربّما نتوقُ إلى جوابٍ "أسمى"- ولكنْ لا جوابَ كهذا. ولئن كان هذا التفسير مُقلِقًا على نحوٍ سطحيّ، إن لم يكُن مروِّعًا، فهو مُحرِّرٌ ومُبهجٌ إلى أقصى حدّ. إنّنا لا نستطيعُ أن نقرأ معنى الحياة بخمولٍ في وقائع الطبيعة. فعلينا أن نُنشئ هذه الأجوبة لأنفسنا...[٤]

تبدو المسيحيَّة وكأنَّها عدوَّةٌ للتَّماسُك الاجتماعيّ، والتكيُّفيَّة الحضاريَّة، بلِ الشَّخصانيَّة الأصيلة أيضًا. ولكنَّ هذا الاعتراض مؤسَّسٌ على أغلاطٍ بشأن طبيعة الحقّ، والجماعة، والمسيحيَّة، والحرِّيَّة نفسها.

الحقُّ لا مفرّ منه

كتبَ الفيلسوفُ الفرنسيُّ فوكو (Foucault): "إنَّ الحقَّ شيءٌ يخصُّ هذه

الدُّنيا. وهو يَنتُجُ فقط بأشكال شتَّى من التقييد تشمل مفاعيلَ السُّلطة المُنتظِمة"[٥]. وباسْتِلهام فوكو، يقول كثيرون إنَّ جميعَ مزاعم الحقِّ هي لُعَبُ سُلطة. فعندما تزعمُ أنَّك تملكُ الحقَّ، فأنت تحاولُ أن تحوزَ السُّلطةَ والسَّيطرةَ على الآخرين. وقد كان فوكو تلميذًا لنِيتْشه (Nietzsche)، وهُما- لصدقيَّتهما- استخدما هذا التَّحليل بالنِّسبة إلى اليساريِّين واليمينيِّين على السواء. فإنْ صرَّحتَ أمام نيتشه قائلًا "على الجميع أن يُنصِفوا الفُقراء". فإنَّه سيَسأل: أقلتَ ذلك لأنَّك تحبُّ العدلَ والفُقراءَ حقًّا، أم لأنَّك تريدُ مُباشرةَ ثورةٍ تؤتيك السَّيطرة والسُّلطة؟

غيرَ أنَّ الاعتراضَ بأنَّ الحقَّ كلَّه لُعبةُ سُلطةٍ يقعُ فريسةً للمُشكلة نفسها التي تُواجهُ الاعتراضَ بأنَّ الحقَّ كُلَّه خاضعٌ للتَّكييف الحضاريِّ والثقافيِّ. فإنْ حاولتَ أن تُسقِطَ بالشَّرح جميع توكيدات الحقِّ بهذه الذَّريعة أو تلك، أو بحُجَّة أخرى، فإنَّك تجدُ نفسك في موقع يتعذَّر الدِّفاعُ عنه. وقد كتب سي. أس. لِويس في كتابه "**إبطالُ الإنسان**" (The Abolition of Man):

> ولكنَّك لا تستطيع أن تستمرَّ إلى ما لا نهاية في "إسقاط الأمور بالشَّرح": إذ سيتبيَّن لك أنَّك أسقطتَ بالشَّرحِ الشَّرحَ عينَه. ولا يَسَعُكَ أن تمضيَ إلى الأبد في "استِشفاف" حقائق الأمور. فبيتُ القصيد في استِشفاف حقيقةِ أمرٍ ما هو أن ترى شيئًا من خلاله. ومن الخير أنَّ النافذة ينبغي أن تكون شفَّافة؛ لأنَّ الشارع أو البُستان وراءها مُعتم (غير شفَّاف). فكيف يكون الوضع لو تمكَّنت أن ترى من خلال البُستان أيضًا؟... إنَّ عالمًا شفَّافًا إلى التَّمام هو عالمٌ غيرُ منظور. فأن "تستشِفّ" جميع الأشياء وأنْ لا ترى أيَّ شيء سِيَّان.[٦]

فإذا قُلتَ إنَّ جميع مزاعم الحقِّ لُعَبُ سُلطة، فكذلك تكون مَقولتُك هذه أيضًا الأمرَ ذاته. وإذا قُلتَ (مثلَ فرُويد [Freud]) إنَّ جميعَ مزاعم الحقِّ بشأن الدِّين والله هي مجرَّد إسقاطات نفسيَّة لأجل التَّصدِّي لقَلَقِك وشعورك بالذَّنْب، فكذلك تكون مَقولتك هذه أيضًا الأمرَ ذاته. فأن ترى من خلال كلِّ شيء هو أن لا ترى شيئًا.

لقد كان فوكو يُشدِّدُ على أن يعتنقَ الآخرون حقَّ تحليلِه، رُغم إنكاره لَمَقُولة الحقِّ ذاتِها. وهكذا، فإنَّ بعضًا من مزاعم الحقِّ يبدو أمرًا لا مَفرَّ منه. والتناقُض الذاتيُّ في مقاومتك الظُّلمَ والطُّغيان عمليًّا، وأنت ترفض الاعتراف بوجود شيءٍ مثل الحقِّ، هو السَّببُ الذي من أجله رُبَّما كان مفهومَا "النظريَّة" (Theory) و"النَّقض" (Deconstruction) اللذان تَلَيَا الفلسفة الحديثة آخِذَين في الضَّعف.[٧] هذه النُّقطة عينُها أوضحَها جي. كاي. تشستَرتون (G.K. Chesterton) منذ مئة سنة تقريبًا:

> الثائرُ الجديد شُكوكيّ، ولن يثق بأيِّ شيء... [ولكنّه] لذلك لا يمكن أن يكون البتَّة ثوريًّا بالفعل. ذلك أنَّ كلَّ تنديدٍ يتضمَّنُ عقيدة خُلُقيَّةً من نوعٍ ما... ولذلك، فإنَّ الإنسانَ الحديثَ في ثورته قد بات من الناحية العلميّة عديمَ النّفع بالنّسبة إلى جميع مَقاصد الثّورة. إذ بثورته على كلِّ شيء فقدَ حقَّه بأنْ يثور على أيِّ شيء... فهنالك فكرةٌ تُوقِفُ كلَّ فكرة. وتلك هي الفِكرةُ الوحيدة التي ينبغي أن تُوقَف.[٨]

الجماعةُ لا يمكنُ أن تكونَ شاملةً كُلِّيًّا

تقتضي المسيحيَّةُ مُعتقداتٍ محدَّدةً لكي يكونَ المرءُ عُضوًا في جماعتها

المُشترِكة. فهي ليستْ مفتوحةً للجميع. ويُحاجُّ النقّاد بأنَّ هذا يدعو إلى الشِّقاق اجتماعيًّا. إنَّما ينبغي بالأحرى للجَماعات البشريَّة أن تكونَ شاملةً كلِّيًّا، مفتوحةً أمام الجميع على أساس بشريَّتنا المشترَكة. ويُشدِّد أنصارُ هذا الرأي على أنَّ أحياءً كثيرةً في المدن تضمُّ سُكانًا من مختلف الأجناس والمُعتقدات الدِّينيَّة، يعيشون ويَعمَلون كجماعةٍ مشترَكةٍ رُغمَ ذلك. وكلُّ ما هو مطلوبٌ لجماعة كهذه أن يحترمَ كلُّ شخصٍ خُصوصيَّةَ الآخرين وحقوقَهم ويعمل في سبيل تَكافؤ الفُرَص للجَميع بالنِّسبة إلى التربية والتعليم والوظائف والأشغال وتقرير الخِيار السياسيّ. ويُقال إنَّ المُعتقَدات الخُلُقيَّة المشترَكة ليستْ ضروريَّةً في "ديمقراطيَّة ليبراليَّة".

ممَّا يؤسَف له أنَّ الرأيَ المُعبَّر عنه توًّا هو إفراطٌ في التَّبسيط واسعُ النِّطاق ومُشوِّهٌ للحَقيقة. فالديمقراطيَّة الليبراليَّة مؤسَّسةٌ على لائحةِ افتراضاتٍ شاملة: تفضيل الحقوق الفرديَّة على الجَماعيَّة، فَصْل بين الأخلاقيَّات الخاصَّة والعامَّة، تقديس الاختيار الشخصيّ. وهذه المعتقدات كلُّها غريبةٌ عن حضارات أخرى كثيرة.[٩] ومن ثَمَّ فإنَّ ديمقراطيَّةً ليبراليَّةً ما (كما في كلِّ جماعةٍ مُشترَكة) مؤسَّسةٌ على جُملةِ معتقداتٍ مُشترَكة خُصوصيَّةٍ جدًّا. والمجتمع الغربيُّ قائمٌ على التِزامات مشترَكة للمَنطق والحقوق والعدالة، رغمَ عدم وجود أيِّ تعريفٍ مقبولٍ بالإجماع لأيٍّ من هذه.[١٠] فكلُّ وصفٍ للعَدل والعقل هو مُدغَمٌ في تشكيلةٍ من المعتقدات الخصوصيَّة بشأن معنى الحياة البشريَّة التي لا يشتركُ فيها الجميع على السواء.[١١] وعليه، فإنَّ فكرةَ وجود جماعةٍ مشترَكةٍ كُلِّيَّةِ الشُّمول هي وَهْم.[١٢] إذ إنَّ كلَّ جماعةٍ بشريَّةٍ مشترَكة تعتنقُ على العموم بعض المعتقدات التي لا بدَّ أن تُوجِدَ حدودًا، فتشملَ بعضَ الناس ضمنَ دائرتها وتُقصيَ آخرين عنها.

وَلْنأخُذْ مثلًا يُوضحُ ذلك. تَصوَّرْ أنَّ واحدًا من أعضاء الهيئة العامَّة في جمعيَّة غربيَّة تُدافِع عن حقوق المِثليِّين والمتحوِّلين جنسيًّا يُصرِّح قائلًا: "لقد حصلَ لي اختبارٌ دينيٌّ، وأنا الآن أعتقدُ أنَّ مُضاجعة النَّظير خطيَّة". وإذ تمرُّ الأسابيع، يُصرُّ على إعلان توكيده. وتَصوَّرْ أنَّ عضوًا من أعضاء الهيئة العامَّة في جمعيَّة أخرى تُناهضُ الشُّذوذ الجنسيَّ يُصرِّح قائلًا: "اكتشفتُ أنَّ ابني مِثليٌّ، وأعتقدُ أنَّ له الحقَّ في الزواج بِشَريكه". فمهما كان أعضاءُ كلتا الجمعيَّتَين لُطَفاء ومَرِنين على الصعيد الشخصيّ، فلا بدَّ أن يأتيَ اليوم الذي فيه تُضطَرُّ الجمعيَّة إلى القول: "عليك أن تخرج من الهيئة؛ لأنَّك لا تُشارِكُنا في التزامنا المشترَك". ولئن كانتْ أولى هاتَين الجمعيَّتين مشهورةً بكَونها اشتماليَّة، والثانية بكَونها حصريَّة، فإنَّ كلتَيهما- في الممارسة- تَتصرَّفان بالطريقة نفسها تقريبًا. فكِلتاهما مؤسَّستان على معتقدات مشترَكة تؤدِّي دوْرَ الحدود، حيث تشمل بعضًا وتُقصي آخرين. وليست أيَّةُ واحدةٍ منهما "ضيِّقةَ أفقِ التفكير" في تصرُّفهما هكذا، إذ إنَّهما تصرَّفتا بِوَصفها جمعيَّتَين لجَماعتَين.

إنَّ أيَّة جماعة مشترَكة لا تُحاسِبُ أعضاءَها على مُعتقدات ومُمارسات مُعيَّنة لن تكونَ لها هُويَّةٌ جَماعيَّة، ولن تُشكِّلَ بالحقيقة جماعةً مشترَكة أبدًا.[١٣] فلا يمكنُنا أن نحسبَ مجموعةً ما حصريَّة لمجرَّد تمسُّكها بمعاييرَ لأعضائها. أفليسَ من سبيلٍ إذًا إلى الحُكم بشأن جماعةٍ ما أهي مُنفتحة ومُبالية، وليست مُتشدِّدة وطاغية؟ بلى! إليكَ صيغةً من الأسئلة أفضل بكثير: أيَّة جماعةٍ تعتنقُ مُعتقَدات تدفعُ أعضاءَها لأنْ يُعاملوا أهلَ الجماعات الأخرى بمحبَّة واحترام، وأن يخدموهم ويُلبُّوا حاجاتهم؟ أيَّة مُعتقداتٍ للجَماعة تدفعُها لأنْ تحسبَ مُنتهكي حدودها شياطين وتُهاجمَهم، بدلَ أن

تُعاملهم بلطفٍ واتّضاع ومَرَح؟ وينبغي أن ننتقدَ المسيحيّين حين يكونون ديّانين وغيرَ لُطَفاء نحو غير المؤمنين.[١٤] إنّما لا ينبغي أن ننتقدَ الكنائسَ حين تتمسَّكُ بمعاييرَ للعُضويَّة تُوافِقُ مُعتقداتِها. فكلُّ جماعة مشترَكة يجب أن تفعلَ الأمر ذاته.

المسيحيَّةُ ليستْ صارمةً حضاريًّا وثقافيًّا

يُشاع عن المسيحيَّة أيضًا أنَّها سترةُ مساجين حضاريَّة وثقافيَّة. ويَزعمون أنَّها تُقحِمُ أهل الحضارات المختلفة في قالبٍ حديديٍّ واحد. ويُنظَر إليها كما لو كانتْ عدوَّةً للتعدُّديَّة والتنوُّع الحضاريّ. غير أنَّ المسيحيَّة ما تَزال في الواقع أكثرَ تكيُّفًا (وربّما أقلَّ هدمًا) حيالَ مختلف الحضارات لدى مقارنتها باللّادينيَّة وبكثيرٍ من فلسفاتِ الحياة الشاملة الأخرى.

إنَّ نموذجَ التوسُّع في المسيحيَّة يختلف عنه في ديانات العالَم الأخرى. فإنَّ مركزَ الإسلام وأكثريّتَه ما يزالان في مكان نشأته، أي الشَّرق الأوسط. والبلدانُ الأصليَّة التي كانت المراكزَ الدِّيمغرافيَّة للهندوسيَّة والبوذيَّة والكونفوشيوسيَّة ما تزال هكذا. وعلى النقيض، كانت الأكثريَّة في المسيحيَّة أوَّلًا من اليهود، وتركَّزتْ في أورشليم. بعد ذلك صارَ السَّواد الأعظم فيها من الهلّينيّين (اليونانيّين)، وتركَّزتْ في منطقة البحر الأبيض المتوسّط. ومن ثَمَّ قَبِلَ المسيحيَّة أجنبيُّو أوروبًّا الشماليَّة، فباتَتْ أكثريَّةُ المسيحيِّين من الأوروبيِّين الغربيِّين، وبعد ذلك من الأميركيِّين الشماليِّين. واليومَ يعيش أغلبُ مسيحيِّي العالَم في أفريقيا وأميركا اللاتينيَّة وآسِيا. وقريبًا ستَتركَّز المسيحيَّة في الأجزاء الجنوبيَّة والشَّرقيَّة للكرة الأرضيَّة.

وهنا تُنوِّرُنا دراسةُ حالتَين. ففي ١٩٠٠، شكَّل المسيحيُّون ٩٪ من سُكَّان أفريقيا، وكان المسلمون يَفوقونهم عددًا بنسبة ٤ إلى ١. أمَّا اليوم، فالمسيحيُّون يُشكِّلون ٤٤٪ من مجموع السُّكَّان،[١٥] وفي ستِّينيَّات القرن العشرين فاقُوا المسلمين عددًا.[١٦] هذا النُّموُّ الانفجاريُّ هو الآن في بدايته في الصِّين،[١٧] حيثُ المسيحيَّة تتنامى ليس فقط بين الفلّاحين، بل أيضًا في أوساط الهيئتَين الاجتماعيَّة والثقافيَّة، بما في ذلك الحزب الشُّيوعيّ. وبمعدَّل النُّموِّ الجاري حاليًّا، فإنَّه في غضون ثلاثين سنة سوف يُشكِّل المسيحيُّون ٣٠٪ من سُكَّان الصِّين البالغ عددُهم مليارًا ونصف مليار نسمة.[١٨]

تُرى، لماذا انتشرَتِ المسيحيَّة انفجاريًّا على هذا النَّحو في تلك الأماكن؟ يُقدِّمُ العالِمُ الأفريقيُّ لمين سانه (Lamin Sanneh) جوابًا آسِرًا جدًّا. فهو يقول إنَّ للأفريقيِّين تقليدًا طويلًا من الإيمان بعالَم فَوطبيعيٍّ زاخرٍ بالأرواح الخيِّرة والشرِّيرة. فلمَّا بدأ الأفريقيُّون يقرأون الكتاب المقدَّس مُترجَمًا إلى لُغاتهم الخاصَّة، أخذَ كثيرون منهم يَرَون في السيِّد المسيح الحلَّ النهائيَّ لأشواقهم وآمالهم التاريخيَّة بِوَصفهم أفارقة.[١٩] وممَّا كتَبَه سانه:

> لَبَّتِ المسيحيّةُ هذا التحدّيَ التاريخيّ بإعادة توجيهها للرؤية إلى العالَم... فقد أحسَّ الناسُ في قلوبهم أنَّ السيِّد المسيح لا يسخَرُ باحترامهم لِما هو مقدَّس ولا بتوقهم الصّارخ إلى **مخلِّص** لا يُقهر. وهكذا قرعوا له طَبولهم المقدَّسة حتّى تواثبت النجوم وتراقصَتْ في الأفلاك. وبعد تلك الرّقصة لم تَعُدِ النجومُ صغيرةً! فقد ساعدَت المسيحيّةُ الأفريقيِّين على أن يصيروا أفارقةً مَولودين من جديد، لا أوروبِّيِّين مُصنَّعين.[٢٠]

ويُحاجُّ سانه بأنَّ العَلمانيَّة، بِرَفضها للفَوطبيعيَّة وفَردانيَّتها هي أكثر من

المسيحيَّة بكثير هَدمًا للحضارات المحلِّيَّة و"للأفرَقة" (African-ness). ففي الكتاب المقدَّس، يقرأ الأفريقيُّون عن سُلطة السيِّد المسيح على الشرِّ الفَوطبيعيِّ والروحيّ، وعن دَحْره له على الصليب. وعندما يصيرونَ مسيحيِّين حقيقيِّين، تهتدي أفرَقتُهم وتُكمَّل وتُوطَّد، دون أن تحلَّ محلَّها الأوربَة (European-ness) أو أيُّ شيءٍ آخر.[٢١] فبالمسيحيَّة، يكتسبُ الأفارقة بُعدًا يكفي لِنَقد تقاليدهم، وللتَّمسُّك مع ذلك بالصَّالح منها أيضًا.[٢٢]

ومن الأمثلة اللافتة على التكيُّف الحضاريِّ والثقافيِّ جُمهورُ المؤمنين في كنيسة الفادي المَشيَخيَّة في مَنهاتن، حيث أخدمُ راعيًا. فإنَّ نموَّها في تلك البيئة قد فاجأ المُراقِبين، بل صعقَهم أيضًا. ويُوجَّه إليَّ تكرارًا هذا السؤال: "كيف تَتَمكَّنون من الوصول إلى آلاف الراشدين الشباب في مكانٍ لادينيٍّ كهذا؟" فالجواب هو أنَّ المسيحيَّة قد فعلَتْ في مدينة نيويورك ما قد فعلَته في جميع الأماكن الأخرى التي تنامَت فيها. ذلك أنَّها تكيَّفت على نحوٍ مهمٍّ وإيجابيٍّ بمُقتضى الحضارةِ المحيطة بها دونَ أن تُساوِمَ على مُعتقداتها الرئيسيَّة.

إنَّ العقائدَ الأساسيَّة في كنيسة الفادي تتَّفقُ مع مثيلاتها من المعتقدات الفَوطبيعيَّة وقويمة الرأي لدى الكنائس الإنجيليَّة والخمسينيَّة في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينيَّة وجنوب الولايات المتَّحدة وغربها الأوسط. وهذه العقائد هي: ألوهيَّة السيِّد المسيح، عصمة الكتاب المقدَّس، وجوب الولادة الثانية الروحيَّة بواسطة الإيمان بموت السيِّد المسيح الكَفَّاريّ. وهي مُعتقدات غالبًا ما تضعُنا في صراع مع الآراء والمُمارسات التي يُراعيها كثيرون من سكَّان مدينة نيويورك. وفي الوقت نفسه، تبنَّينا بِسُرورٍ كثيرًا من النواحي الأخرى في الثقافة المدينيَّة التعدُّديَّة. فنحن نُحبِّذ الفنون، ونُقدِّر التنوُّع العرقيّ، ونُشدِّدُ على أهمِّيَّة العمل في سبيل تمتيع جميع مَواطني

المدينة بالعدالة، ونَتَواصَلُ مع الناس بلُغة حضارتنا المتركِّزة في وسط المدينة وبِوَعيها وإدراكها. ونحن نُشدِّدُ أكثرَ الكلّ على نعمةِ مخلِّصٍ تناوَلَ الطَّعام مع أناسٍ دَعاهم المجتمع "خطاةً"، وأحبَّ أولئك الذين عارَضوه. وهذه الأمور كلُّها مُهمَّة جدًّا عند المُقيمين في مَنهاتن.

نتيجةً لذلك، تجتذبُ كنيسة الفادي وتبلغُ جمهورًا مدينيًّا كثيرَ التنوُّع. ففي إحدى خدمات أيَّام الأحد بكنيسة الفادي، عُرِّفَتْ زَوجتي كاثي برجُل جالسٍ أمامها، أتى به إلى الكنيسة جون ديلوريان (John DeLorean)، كان كاتبَ خُطَبٍ لمُرشَّح رئاسيٍّ جمهوريّ. وبُعيدَ ذلك نَقَرتْ كتفَها امرأةٌ جالسةٌ وراءَها، أرادَتْ أن تُعرِّفها بضَيفٍ آخر. فهي قد أَتَتْ إلى الكنيسة برجُلٍ كان حينذاك كبيرَ كُتَّاب الأغاني لدى مادونا (Madonna). وقد سُرَّت كاثي بِوُجود ذَينِكَ الضَّيفين كلَيهما، إلَّا أنَّها تمنَّتْ ألَّا يلتقيَ أحدُهما الآخر قبل سماع العِظة!

ومنذ بضع سنين زار كنيسةَ الفادي رجُلٌ من ولايةٍ جنوبيَّةٍ في الولايات المتَّحدة. وكان قد سمع أنَّنا توسَّعنا في وسط مدينةٍ لادينيَّةٍ شكوكيَّة، رغمَ تمسُّكنا بالعقيدة المسيحيَّة المستقيمة. وتَوقَّعَ أن يجدَ أنَّنا نجتذبُ الناس بمُوسيقى مُبتكرة، وأجهزة ڤيديو ومقاطع أفلام، وتمثيليَّات دراميَّة، وخلفيَّات مُشوِّقة بصورة استثنائيَّة، وغير ذلك من المشاهد الجاذبة للنَّظر. ولكنْ أدهشَه أنْ وجدَ خدمةً بسيطةً ومألوفة بَدَت في الظاهر مُماثلةً لتلك التي تُقام في مَوطنه الأكثر مُحافَظةً. إلَّا أنَّه استطاعَ أيضًا أن يُلاحظَ أنَّ الجمهورَ ضمَّ أشخاصًا كثيرين ما كانوا ليَرتادوا قَطْعًا الكنائسَ التي يَعرفُها. وبعد الخدمة قابلَني ثُمَّ قال: "هذا لُغزٌ تامٌّ بالنسبة إليَّ. أينَ الدببة الراقصة؟ أين أساليب التأثير المُبتكَرة؟ لماذا احتشدَ هؤلاء القومُ هنا؟"

أَحَلتُه على بعض المُشتغلين بالفنّ في وسط المدينة ممَّن دأبوا في حضور الكنيسة مدَّةً من الزَّمن، فاقتَرَحوا عليه أن ينظرَ ما دون السَّطح (إلى العمق). وقال أحدُهم إنَّ الفرْقَ بين كنيسة الفادي وغيرها جوهريٌّ، وهو يَكمُن في "التَّهكُّم اللطيف والمحبَّة والإحسان والتواضُع". وقالوا لقد أعوَزَ كنيسةَ الفادي اللُّغةُ الطنَّانة، والمُفرطة في الوجدانيَّة، تلكَ التي يجدونَها ذات تأثيرٍ عاطفيٍّ مُصطنَع لدى كنائسَ أخرى. أمَّا أهلُ كنيسة الفادي، بدلًا من ذلك، فكانوا يُخاطبون الآخرين بتهكُّمٍ لطيف. وليس ذلك فقط، بل إنَّ العقائد هنا كانت مُعتنَقة بمحبَّة وإحسانٍ وتواضُع، ممَّا جعل أهل مَنهاتن يشعرون بأنَّهم مَعنيُّون ومُرحَّب بهم، حتَّى لو اختلفوا عن الكنيسة في بعض مُعتقداتها. وقالوا أيضًا إنَّ التعليمَ والتواصُلَ في كنيسة الفادي، في المقام الأوَّل، اتَّصفا بالدِّراية والفطنة والتنبُّه إلى التَّفاوت، مع إبداء الحسَّاسيَّة حيثُ يكون أناسٌ حسَّاسون.

إنَّ نقاطَ التَّشديد هذه كلَّها تَلقى استحسانًا في مَنهاتن، ولكنَّ لكلٍّ منها جذورًا عميقةً في العقيدة المسيحيَّة التاريخيَّة. فالتَّشديد على التنوُّع العرقيِّ مثلًا مُستَمَدٌّ مُباشرةً من الأصحاح الثاني في رسالة بولس الرسول إلى مؤمِني أفسُس، حيث يُبيِّن بولس أنَّ التنوُّعَ العِرقيَّ في الكنيسة هو شهادةٌ مهمَّةٌ لِحَقِّ الرسالة المسيحيَّة. ولنا مَثَل آخر في ما قاله راينهولد نايبُر (Reinhold Niebuhr) إذ أشارَ إلى أنَّ التَّهكُّم أو السُّخرية حيال رؤية الكائنات البشريَّة تحاولُ أن تكون مثلَ الله ولكنَّها تفشل، هي طريقةٌ مسيحيَّةٌ تمامًا في النظر إلى الأمور.[٢٣] ولأنَّ لهذه التوكيدات التكيُّفيَّة كُلِّها جذورًا عميقةً في التعليم المسيحيِّ التاريخيّ، فهي ليسَتْ مجرَّد تِقنيَّات تَرويجيَّة.

لماذا تيسَّرَ للمسيحيَّة، أكثرَ من أيَّة ديانةٍ رئيسيَّة أخرى في العالَم،

أن تتسَّربَ إلى عددٍ كبير من الحضارات المختلفة جذريًّا؟ هنالك بالطَّبع خلاصةُ تعاليمَ جوهريَّةٍ (قانونُ الايمانِ الرسوليُّ، الصَّلاة الربَّانيَّة، الوصايا العشر) تلتزمُها جميعُ أشكال المسيحيَّة. ولكنَّ ثَمَّة قدْرًا كبيرًا من الحرِّيَّة في كيفيَّة التَّعبير عن هذه المُطلَقات وتَشكُّلها داخلَ حضارةٍ معيَّنة. فالكتاب المقدَّس مثلًا يُوجِّه المسيحيِّين إلى الاتِّحاد في ترنيم التَّسابيح، ولكنَّه لا يُحدِّد الوزن الشِّعريَّ أو الإيقاع، أو مستوى التعبير العاطفيِّ، أو استخدام الآلات الموسيقيَّة- فهذا كلُّه متروكٌ كي يجريَ التعبير عنه حضاريًّا بطُرق شتَّى. وممَّا كتبه المؤرِّخ أندرو وُولز (Andrew Walls):

> إنَّ التنوُّعَ الحضاريَّ كمنَ في صُلب المسيحيّة... ففي الأصحاح ١٥ من أعمال الرُّسل، حيثُ أعلنَ أنَّ المسيحيّين الجددَ من أهل الأمم ليسوا مُضطرِّين لأنْ يدخلوا الحضارة اليهوديَّة، تُرِكَ للمُهتدين أن يَصوغوا طريقةً هلّينيّة بها يكونون مسيحيّين. وهكذا، فلا أحدَ يحتكرُ الإيمان المسيحيّ. ولا توجَدُ ’’حضارةٌ مسيحيّة‘‘ بالطريقة التي بها توجَدُ ’’حضارةٌ إسلاميّة‘‘ يمكنك أن تُميّزها من پاكستان إلى تونس إلى المغرب...[٢٤]

في نُصوص من الكتاب المقدَّس مثل إشعياء ٦٠ ورؤيا ٢١و٢٢ وصفٌ لِعالَمٍ مُستقبليٍّ مُجدَّدٍ كامل، فيه نَستبقي فوارقَنا الحضاريَّة (’’**كلَّ قبيلةٍ ولسانٍ وشعبٍ وأمَّة**‘‘). وهذا يعني أنَّ كلَّ حضارةٍ بشريَّة فيها (من عند الله) نقاطُ خيرٍ وقوَّةٍ جليَّةٌ لإغناء الجنس البشريّ. وكما يُبيِّن وُولز، فبَينَما تشتملُ كلُّ حضارةٍ على تحريفاتٍ وعناصرَ لا بدَّ أن تُنقَد وتُراجَع في ضوء الرسالة المسيحيَّة، فإنَّ كلَّ حضارةٍ تَتضمَّنُ أيضًا عناصرَ خيِّرةً وفريدةً تَنسجمُ المسيحيَّةُ معها وتتكيَّفُ بمُقتضاها.

فعلى نقيض الرأي الشائع إذًا، ليست المسيحيَّةُ ديانةً غربيَّة تُقوِّض الحضارات المحلِّيَّة، بل هي بالأحرى قد اتَّخذتْ أشكالًا حضاريَّةً شتَّى أكثر من أيَّة ديانة أخرى.[٢٥] وفيها طبقاتُ تَبصُّرٍ عميقةٌ من الحضارات العبريَّة والإغريقيَّة والأوروبيَّة، وفي غضون المئة سنة الآتية سوف تؤثِّر في تشكيلها أيضًا أفريقيا وأميركا اللاتينيَّةُ وآسيا. وقد تصيرُ المسيحيَّة بالفعل "أشملَ رؤيةٍ إلى العالَم"[٢٦] إذ إنَّها قد فتحَتْ أبوابَ قيادتها على مرِّ القرون لأشخاصٍ من كلِّ لسانٍ وقبيلةٍ وشعبٍ وأمَّة.

الحرِّيَّةُ ليستْ بسيطة

يزعمون أنَّ المسيحيَّةَ قَيدٌ للنموِّ والإمكانيَّة الشخصيَّين لأنَّها تُقيِّد حرِّيَّتنا في أن نختارَ مُعتقداتنا وممارساتنا. وقد عرَّفَ عمانوئيل كانْت (Immanuel Kant) الكائنَ البشريَّ المُستنير بأنَّه شخصٌ يثِقُ بقدرته الشخصيَّة على التفكير، بدلًا من الوثوق بالسُّلطة أو التقليد.[٢٧] وهذه المقاومة للسُّلطة في المسائل الخُلُقيَّة هي الآنَ تيَّار عميقٌ في الثقافة الغربيَّة. فإنَّ حرِّيَّةَ المرء في تحديد معاييره الخُلُقيَّة الخاصَّة تُعدُّ ضرورةً كي يكونَ إنسانًا بكلِّ ما تحمل الكلمة من معنى.

غير أنَّ هذا إفراطٌ في تَبسيط الأمور. فلا يمكنُ تعريف الحُرِّيَّة بلُغةٍ سلبيَّةٍ تمامًا، باعتبارها غيابَ الحجز والتقييد. إذ إنَّ الحجزَ والتقييدَ بالحقيقة يكونان، في أحوالٍ كثيرة، وسيلةً للتَّحرير فعليًّا.

إن كانت لديك مَلَكةٌ موسيقيَّة، فقد تعكفُ كلِّيًّا على الممارسة، فتُمارس عزفَ البيانو مثلًا دون انقطاع سنينَ عديدة. وهذا تقييدٌ أو حدٌّ

لحرِّيَّتك. فثمَّة أمورٌ أخرى كثيرة لن تكونَ قادرًا على القيام بها في الوقت الذي تستثمرُه في الممارسة والتمرُّن. ولكن إذا كانت لك الموهبة، فإنَّ الانضباطَ والتقييدَ سيُحرِّران قدرتك التي لولاها لَتبدَّدت فعلًا. وماذا فعلتَ؟ لقد حرمتَ نفسَكَ عَمْدًا حرِّيَّةَ الاشتغال ببعض الأمور حتَّى تُطلقَ نفسك إلى نوع من الحرِّيَّة أغنى في سبيل إنجاز أمور أخرى.

لا يعني هذا أنَّ التقييدَ والانضباطَ والحجزَ مُحرِّرةٌ تلقائيًّا بصورة جوهريَّة. فإنَّ ذَكَرًا راشدًا وزنُه لا يتخطَّى ٦٠ كيلوغرامًا، مثلًا، لا ينبغي أن يعقدَ عزمَه على أن يصيرَ لاعبَ هجوم رئيسيًّا في مباريات كُرة القدم الأميركيَّة. إذ إنَّ كلَّ ما في الدُّنيا من انضباط وجهد لن يعملَ إلَّا على تخييبه وسَحْقه (حَرفيًّا!). فهو ينطحُ صخرةَ واقع بَدَنيّ، إذ لا يملك مجرَّد الإمكانيَّة. وفي المجتمعات الغربيَّة كثيرون ممَّن بذلوا جهدًا شاقًّا فائقًا لامتهان مهَنٍ تعودُ عليهم بالرِّبح الأوفر بدلَ أن تكونَ مُناسبةً لمَلَكاتهم واهتماماتهم الحقيقيَّة. ولكنَّ مِهَنًا كهذه هي ستراتُ مساجينَ تُقيِّدُنا وتُجرِّدنا من مزايانا الإنسانيَّة في آخِر المطاف.

وهكذا، فإنَّ الضَّوابطَ والقُيودَ تُحرِّرنا فقط حين تُلائمُ حقيقةَ طبيعتنا وقدراتنا. فلأنَّ السَّمكة تستمدُّ الأكسجين من الماء، لا من الهواء، فهي تكون حُرَّةً فقط إذا كانت مُحدَّدة ومُقيَّدة بالماء. وإذا وضعناها على العُشب، فإنَّ حرِّيَّتها في الحركة، بل في الحياة أصلًا، لن تُعزَّز، بل تُبدَّد فعلًا. إنَّ السَّمكةَ تموت إنْ لم نحترمْ حقيقةَ طبيعتها!

ففي ميادينَ كثيرة من الحياة، ليست الحرِّيَّةُ غيابَ القيود بقدْر ما هي إيجادُ القيود الصحيحة- القيود المُحرِّرة. وتلك القيودُ التي تُلائم حقيقةَ طبيعتنا والعالَم تُنتج لقدراتنا طاقةً أكبر ومجالًا أوسع، وفرحًا أعمقَ وإشباعًا

أوفى. ثُمَّ إنَّ التجريبَ والمُخاطرةَ وارتكابَ الأخطاء تؤتينا نموًّا فقط إنْ بيَّنتْ لنا، على مرِّ الزَّمن، حدودَنا وقُدراتِنا على السواء. وما دُمنا لا ننمو فكريًّا ومهنيًّا وبدنيًّا إلَّا بوجود ضوابطَ مُحكَمة، فلماذا لا تكونُ الحال على هذا المنوال أيضًا بالنِّسبة إلى النُّموِّ الروحيِّ والخُلُقيّ، فبدلًا من الإصرار على الحرِّيَّة في سبيل إيجاد الحقيقة الروحيَّة، ألا ينبغي أن نكونَ ساعينَ إلى اكتشافها وضَبْطِ نفوسنا للعَيش بمُقتضاها؟

إنَّ المفهومَ الشائع- ذاك القائل إنَّ على كلٍّ منَّا أن يُحدِّد مبادئَهُ الأخلاقيَّة الخاصَّة- مؤسَّسٌ على الاعتقاد أنَّ العالَم الروحيَّ لا يُشبه في شيء باقيَ الكون على الإطلاق. هل يعتقد أحدٌ ذلك فعلًا؟ دأبتُ طوال سنين كثيرة، بعدَ كلتا خدمتَي الصباح والمساء كلَّ يوم أحد، في البقاء في قاعة الاجتماعات للإجابة عن الأسئلة الفوريَّة. وكان مئاتٌ من الناس يَبقَون لحضور مناقشات تبادُل الآراء. ومن أكثر العبارات التي سمعتُها تكرارًا: "على كلِّ شخص، رجلًا كان أم امرأة، أن يُحدِّد لنَفسه الصوابَ والخطأ". وكنتُ دائمًا أردُّ على المتكلِّمين بسؤالهم: "أفي العالَم الآنَ أيُّ شخص يعملُ أمورًا تعتقدون أنتم أنَّ عليه أن يكفَّ عن القيام بها مهما كان اعتقاده هو الشخصيُّ بشأن صوابِ تصرُّفه؟" فكانوا يجيبون على نحوٍ ثابت: "نعم، طبعًا!" ومن ثَمَّ كنتُ أسأل: "ألا يَعني هذا أنَّكم تعتقدون فعلًا أنَّ هنالك نوعًا من الحقيقة الأخلاقيَّة "موجودًا" حقًّا، لم نُحدِّده نحن، إنَّما تنبغي مُراعاتُه بصرف النظر عمَّا يشعر به المرء أو يفتكره؟" ودائمًا على وجه التقريب، كان هذا السؤال يُقابَل بالصَّمت، مقرونًا إمَّا بالتفكير العميق وإمَّا بالامتعاض الظاهر.

المحبَّة، الحرِّيَّةُ القُصوى، هي أكثر تقييدًا ممَّا قد نظنّ

إذًا، ما الحقيقة الأخلاقيَّة- الروحيَّة التي يجب أن نعترفَ بها لكي نُفلح؟ ما البيئة التي تُحرِّرنا إنْ عهدنا بأنفسنا إليها، كما يُحرِّرُ الماءُ السَّمكة؟ إنَّها المحبَّة. فالمحبَّة هي فقدانُ الحرِّيَّةِ الأكثرُ تحريرًا على الإطلاق.

من مبادئ المحبَّة- سواءٌ هي محبَّةٌ لصديق أم أنَّها حُبٌّ رومانسيّ- أنَّ عليك أن تفقدَ الاستقلاليَّة كي تُحرز حَميميَّةً أعظم. فإنْ طلَبْتَ "حُرِّيَّات" المحبَّة- الرِّضى والأمانَ وما تؤتيه المحبَّةُ من شعور بالقيمة الذاتيَّة- يجب عليك أن تُقيِّدَ حُرِّيَّتك بطُرقٍ كثيرة. إذ لا يَسَعُك أن تدخلَ في علاقة وثيقة، ومع ذلك تُقرِّرُ قراراتٍ من جانبٍ واحد، أو لا تسمحُ لصَديقك أو حبيبتك بإبداء أيِّ رأيٍ بشأن الكيفيَّة التي بها تعيش حياتك. فلِكَي تختبرَ فرحَ المحبَّة وحرِّيَّتها، يجبُ عليك أن تتخلَّى عن استقلاليَّتك الشخصيَّة. وقد أحسنَتِ الرِّوائيَّة الفرنسيَّة فرنسواز ساغان (Françoise Sagan) التعبيرَ عن هذا في مقابلةٍ نشرَتها لوموند (Le Monde). فهي أفصحَتْ عن رضاها بالطريقة التي بها عاشَتْ حياتها، ولم تكُن نادمةً قَطّ:

> مُجري المقابلة: إذًا كانَت لك الحرِّيَّةُ التي أردْتِها؟
> ساغان: نعم... كنتُ أقلَّ حرِّيَّة على نحوٍ جليّ لمّا كنتُ في علاقة حُبٍّ بأحدهم... ولكنَّ الإنسان لا يكونُ واقعًا في الحبّ كلَّ حين. فبِمعزلٍ عن ذلك، أنا حُرَّة.[٢٨]

إنَّ ساغان على حقّ. فعلاقة الحبِّ تضعُ حدودًا لخياراتك الشخصيَّة. وها نحن مرَّةً أخرى في مواجهة مفهوم "الحرِّيَّة" المُعقَّد. فالكائنات البشريَّة

تكون أكثرَ حرِّيَّة وحياةً في علاقاتِ الحُبّ. ونحن إنَّما نصيرُ أنفُسَنا في المحبَّة، ومع ذلك فإنَّ علاقاتِ الحُبِّ السَّليمة تشتملُ على الخدمة اللّاأنانيَّة المُتبادَلة، على فقدان مُتبادَل للاستقلاليَّة. وقد أجاد سي. أس. لِويس التعبيرَ عن هذا الأمر ببلاغته المعهودة:

> أحببْ أيَّ شيء، فيُعصَر قلبُك حتمًا، وربّما يُكسَر. فإنْ أردتَ أن تُبقي قلبك سليمًا من أيِّ أذًى، فيجبُ عليكَ ألّا تُعطيه لأحد، ولا حتّى لحيوان. لفّهُ جيّدًا بالهوايات ووسائل التّرف اليسيرة؛ تجنَّبْ جميع الأشراك. أقفلْ عليه بإحكامٍ داخل صندوق أنانيّتك أو تابوتها. ولكنّه في ذلك الصُّندوق- حيثُ الأمانُ والظّلامُ وسكونُ الحركة والهواء- سوف يتغيَّر. فهو لن ينكسر، بل يصيرُ غير قابلٍ للانكسار والاختراق والافتداء. إنَّ بديلَ المأساة، أو على الأقلّ مُغامرةِ المأساة، هو الهلاك.[٢٩]

فلَيست الحرِّيَّة إذًا غيابَ القيود والضَّوابط، بل هي إيجادُ الصحيحة منها، تلك التي تُلائم طبيعتنا وتُحرِّرنا.

ولكي تكونَ علاقة المحبَّة سليمة، يجب حصولُ فقدانٍ مُتبادَل للاستقلاليَّة. فلا يمكن أن يكونَ سبيلُ الحُبِّ طريقًا ذا اتِّجاهٍ واحد، بل يجب أن يقول كلا الطَّرفين بعضُهما لبعض: "سوف أعدِّلُ ذاتي معك. سوف أتغيَّرُ من أجلك. سوف أخدمُك، حتَّى لو عَنَى ذلك تضحيةً من قِبَلي". فإذا كان جانبٌ واحدٌ فقط يقومُ بجميع أفعال التضحيَّة والعطاء، فيما يقومُ الجانب الآخر بإصدار الأوامر كلِّها ولا يقوم إلَّا بمُجرَّد الأخذ، تكون هذه العلاقة استغلاليَّة، وتُخمِدُ حياةَ كلا الطَّرفين وتُفسدُها.

فَللوهلة الأولى إذًا، تبدو العلاقةُ بالله في جوهرها مُجرِّدةً للإنسان من

الإنسانيَّة. ولا بدَّ أن تكون "على طريقة واحدة"، ألا وهي طريقة الله. فإنَّ الله، الكائنَ الإلهيَّ السماويّ، يملكُ القدرةَ كلَّها. وعليَّ أنا أن أعدِّل ذاتي مع الله- إذ لا سبيلَ لأنْ يُعدِّلَ الله ذاته معي ويخدمني.

لئن صحَّ هذا في أشكالِ أخرى من الدِّين والإيمان بالله، فإنَّه لا يصحُّ في المسيحيَّة. ذلك أنَّ الله، بالطريقة الأكثرِ جذريَّةً، قد عدَّل ذاته معنا- في تجسُّده وكفَّارته. ففي يسوع المسيح، صارَ الله كائنًا بشريًّا محدودًا، معرَّضًا للألم والموت. وعلى الصليب، أخضعَ ذاته لحالتنا- بوَصفنا خُطاةً- وماتَ في مكاننا حتَّى يغفرَ لنا. وبأعمق طريقةٍ على الإطلاق، قال الله لنا، في السيِّد المسيح: "سوف أعدِّلُ ذاتي معكم. سوف أتغيَّر من أجلكم. سوف أخدمكم، حتَّى لو عنى ذلك تضحيةً من قِبَلي". ولمَّا كان الله قد فعلَ هذا من أجلنا، ففي وُسعنا- وينبغي لنا- أن نقولَ مثل هذا القول له وللآخرين. وقد كتب الرسول بولس أنَّ "محبَّة المسيح تحصرنا" (٢كورنثوس ٥: ١٤).

ذاتَ مرَّة سُئل أحدُ أصدقاء سي. أس. لِويس: "أهو أمرٌ سهلٌ أن يُحَبَّ الله؟" فأجاب: "هو سهلٌ على الذين يحبُّونه!"[٣٠] وليس في هذا تناقضٌ كما يبدو. فعندما تَغوصُ في لُجَّة المحبَّة، تُريدُ أن تُسرَّ المحبوب. وأنت لا تنتظرُ حتَّى تطلبَ الحبيبةُ منك أن تفعلَ من أجلها شيئًا ما، بل تُفتِّش بشَوق وتَتعرَّفَ كلَّ أمرٍ يؤتيها السُّرور. ثُمَّ تأتي به إليها، حتَّى لو كلَّفك مالًا أو مشقَّة بالغة. فشعورُكَ هو: "أمنيتُكِ بالنسبة إليَّ هي أمر!" ولستَ تحسبُ ذلك ثقيلَ الوطأة عليك أبدًا. من الخارج، قد يقولُ الأصدقاءُ المشدوهون لأنفسهم: "لقد جعلَتهُ طوعَ أمرها في كلِّ شيء"، ولكنْ في الداخل تشعرُ وكأنَّك في السماء.

وبالنِّسبة إلى المؤمن بالسيِّد المسيح، حاله مع يسوع هي على هذا المنوال. ذلك أنَّ محبَّة السيِّد المسيح تحصر المؤمن حقًّا. فما إن تُدركُ كيف تغيَّرَ السيِّد المسيح من أجلك وبذل نفسه من أجلك، حتَّى لا تعودَ تخشى أن تتخلَّى عن حرِّيَّتك، ومن ثَمَّ تجد حرِّيَّتك فيه.



٤

الكنيسةُ مسؤولةٌ عن مقدارٍ كبيرٍ من الظُّلم

قالت هيلين (Helen) مؤكِّدة، وهي طالبة حقوق: "عليّ أن أشكّ في أيّ دِين يضمّ كثيرين من المُتعصّبين والمرائين. هنالك كثيرون ليسوا مُتديّنين أبدًا وهُم ألطفُ- بل أيضًا أفضل أخلاقيًّا- من كثيرين من المسيحيّين الذين أعرفُهم".

وردّت جيسيكا (Jessica)، وهي طالبة حقوق أخرى: "للكنيسة تاريخٌ حافلٌ بدعم الظُّلم وتقويض الحضارة. فإنْ كانت المسيحيّة هي الدِّين الصحيح، فكيف يمكنُ أن يحصل هذا؟".

كتب مارك لِلا، وهو أستاذٌ بجامعة شيكاغو، مقالةً نشرَتْها مجلّة نيويورك تايمز (New York Times Magazine)، وقد وصفَ فيها اختباره بشأن "الولادة الثانية" في سنّ المراهقة. وفي أثناء دراسته في الجامعة، "رجع عن اهتدائه وتخلّى عن إيمانه المسيحيّ. فكيف حدث ذلك؟ بعد انتقاله من دِيترويْت إلى آن آربور، في ميشيغَن، دخل جماعةً مسيحيّةً مشهورة بحيويّتها الروحيّة، ولكنّ الأمرَ آلَ إلى معاناةِ "خيبةٍ ساحقة". فقد كانت الجماعةُ استبداديّةً

وهَرَميَّة، وكان أعضاؤها "دوغماتيّين (مُتصلّبين في آرائهم)... توّاقين إلى إخضاعي عقائديًّا"، كما قال. وإذ خاب أمَلُه من جرّاء الطريقة الهجوميَّة والاستغلاليَّة التي اعتقد أنّهم بها استخدموا الكتاب المقدَّس للسَّيطرة على حياة الناس، قال: "اخترقَتْ ذهني هذه الفكرة: قد يكون الكتاب المقدَّس على خطأ... وكانت تلك هي خطوتي الأولى إلى خارج عالَم الإيمان".[١]

إنَّ كثيرين ممَّن يقفون موقفًا فكريًّا ضدَّ المسيحيَّة يقومون بذلك على خلفيَّة خيبة أملٍ شخصيَّة من جهة المسيحيِّين والكنائس. ونحن جميعًا نأتي إلى المسائل باستعدادات عقليَّة مؤسَّسة على اختباراتنا. فإنْ كنتَ قد تعرَّفت بكثيرٍ من المسيحيِّين الحُكَماء واللُّطفاء والمُحبِّين والمُتبصِّرين؛ وإنْ كنتَ قد رأيتَ كنائسَ مُلتزمةً نحو العقيدة المستقيمة بوَرَع، ومع ذلك مُهتمَّةً باحتياجات الناس وسخيَّة، فإنَّك ستَجدُ الدَّعوى العقلانيَّة لمصلحة المسيحيَّة أكثر إقناعًا بكثير. أمَّا إذا كان القسطُ الأكبر في اختبارك مع مسيحيِّين اسميِّين (يُطلَق عليهم الاسم ولكنَّهم لا يمارسون مُقتضياته)؛ أو مُتعصِّبين يحسبون أنفُسَهم أبرارًا، فعندئذٍ يجب أن تكونَ الحُجَجُ المؤيِّدة للمسيحيَّة بالغةَ القوَّة حتَّى تُقرَّ بأنَّ فيها شيئًا من الإقناع فعلًا. فإنَّ استقرارَ رأي للا على أنَّ الكتاب المقدَّس "قد يكون... على خطأ"، لم يكن فعلَ تفكيرٍ فلسفيٍّ خالِصًا، بل إنَّ لِلا كان يُقاوِمُ الطريقةَ التي بها حاولَ شخصٌ معيَّن، بِاسْم المسيحيَّة، أن يمارسَ السُّلطةَ عليه.

لذلك ينبغي لنا أن نتطرَّقَ إلى سلوك المسيحيِّين- فرديًّا وجَماعيًّا- ذاك الذي هدَّم إقناعيَّة المسيحيَّة في نظر أشخاص كثيرين جدًّا. فهنالك أوَّلًا مسألةُ العُيوب الأخلاقيَّة الفاضحة لدى بعض المسيحيِّين: إنْ كانَتِ المسيحيَّة هي الحقّ، فلماذا يعيش كثيرون جدًّا من غير المسيحيِّين حياةً

أفضل من تلك التي يعيشها المسيحيُّون؟ وهنالك ثانيًا مسألة الحرب والعُنف: إن كانت المسيحيَّة هي الحقّ، فلماذا أيَّدت الكنيسةُ القائمةُ الحربَ والظُّلم والعُنف على مرِّ السنين؟ ثُمَّ هنالك ثالثًا مسألة التعصُّب: لئن كان لدى المسيحيَّة الكثير ممَّا تُقدِّمه، فلماذا نرغب في أن نكون مع عددٍ كبير جدًّا من المتعصِّبين الخَطِرين المُعتدِّين بأنفُسِهم والمعتقِدين أنَّهم أقوَمُ خُلُقيًّا من الآخرين؟

العيوب الخُلُقيَّة

لا بُدَّ لكلِّ مَعنيٍّ بحياة الكنيسة من أن يكتشفَ سريعًا العُيوبَ الكثيرةَ في خُلُق عامَّة المسيحيِّين المُعترفين بالإيمان مجرَّدَ اعترافٍ شكليّ. فالأوساطُ الكنسيَّة، إن بَدَت على شيء، تبدو مُتَّصفةً بالشِّجار وروح التحزُّب أكثر من المُنظَّمات التطوعيَّة الأخرى. ثُمَّ إنَّ الإخفاقاتِ الأخلاقيَّةَ لدى بعض القادة المسيحيِّين أمرٌ مُشهَّرٌ أيضًا. وربَّما صحَّ أنَّ وسائلَ الإعلام تَستَسيغُ نَشرَها استساغةً بالغة، إلَّا أنَّها لا تختَلِقُها. فإنَّ أصحابَ الوظائف الكنسيَّة يَبدون على الأقلّ فاسدين مثل القادة في العالم كَكُلٍّ (إنْ لم يكونوا أفسدَ منهم).

وهنالك في الوقت نفسه كثيرون من غير المُتديِّنين شكليًّا يعيشون حياةً مثاليَّة على الصعيد الأخلاقيّ. فإنْ كانت المسيحيَّة هي كُلَّ ما تدَّعيه فعلًا، أفلا ينبغي أن يكونَ المسيحيُّون على العموم قَومًا أفضل بكثير من كلِّ شخصٍ سواهم؟

إنَّ هذا الافتراض مؤسَّسٌ على اعتقادٍ غيرِ صحيح بشأن ما تُعلِّمُه المسيحيَّة فعليًّا عن ذاتها. فاللَّاهوت المسيحيُّ علَّم دائمًا ما يُعرَف بأنَّه نعمةٌ

عامَّة (Common grace). إذ يقول يعقوب في رسالته: "كلُّ عطيَّةٍ صالحة وكلُّ موهبةٍ تامَّة هي من فوق... من عند أبي الأنوار" (يعقوب ١: ١٧). ومعنى هذا أنَّ كلَّ فعل من أفعال الصَّلاح والحكمة والعدل والجمال، بصَرفِ النظر عمَّن يؤدِّيه، يمدُّه الله بالتَّمكين. فإنَّ الله يُعطي "بسخاء" هباتِ حكمةٍ ومَوهبةٍ وجمالٍ ومهارة، أي بطريقة لا نستحقُّها كلِّيًّا. وهو يوزِّعهنَّ في أوساطِ البشر **جميعًا**، بغضِّ النظر عن المُعتقَد الدينيِّ أو العِرق أو الجنس، أو أيِّ اعتبارٍ آخر، لكي يُضفيَ على العالَم الغنى المعنويَّ والألَقَ والبَقاء.

كذلك يتحدَّث اللاهوتُ المسيحيُّ أيضًا بشأن الخَلَل الخُلُقيِّ الخطير لدى المسيحيِّين الحقيقيِّين. فالكتاب المقدَّس يتضمَّن رسالةً جوهريَّة مؤدَّاها أنَّنا نستطيع أن ندخلَ في علاقةٍ بالله فقط عبر النِّعمة المحض. ومجهوداتُنا الخُلُقيَّة هي أضعفُ وأسوأ دافعًا من أن نستحقَّ الخلاصَ أدنى استحقاق. إنَّما يسوع المسيح، بموته وقيامته، وفَّر لنا الخلاص، ونحنُ ننال الخلاصَ هبةً من لدنه. وجميع الكنائس تؤمن بهذا، بشكلٍ أو بآخر. ثُمَّ إنَّ النُموَّ في الخُلُق والتغييرَ في السُّلوكيَّات يجريان في عمليَّةٍ تدريجيَّة بعد أن يصيرَ الشَّخص مسيحيًّا حقيقيًّا. أمَّا الاعتقادُ غير الصَّحيح بأنَّ على المرء أن "يُنظِّف" حياتَه ويُرتِّبها لكي يستحقَّ حضورَ الله فهو ليس من المسيحيَّة. غير أنَّ هذا يعني أنَّ الكنيسةَ ستمتلئُ بأشخاصٍ غير ناضجين وضعفاء ما يزال عليهم أن يسلكوا طريقًا طويلةً عاطفيًّا وخُلُقيًّا وروحيًّا. حتَّى لقد صدق القول: "الكنيسةُ مَشفى للخاطئين، وليست متحَفًا للقدِّيسين".

يُمكن أن يُعزى الخُلُق الصَّالح عمومًا إلى بيئةٍ عائليَّة واجتماعيَّة تَتميَّز بالمحبَّة والأمان والاستقرار– إلى أحوال لسنا مسؤولين عنها. ولكنَّ كثيرين كانت لهم بالأحرى خلفيَّةٌ عائليَّة غير مستقرَّة، وقُدوةٌ سيِّئة، وتاريخٌ حافل

بالمآسي والإحباط. ونتيجةً لذلك، يرزحون تحت أحمالٍ ثقيلةٍ من عدم الاستقرار، وفَرْطِ الحسَّاسيَّة، والافتقار إلى الثقة بالنفس. وقد يخوضون بالنتيجة صراعًا مع الغضب غير الخاضع للسَّيطرة، ومع الخجل، والإدمانات، غير ذلك من المصائب.

والآن تَصوَّرِ امرأةً ذاتَ ماضٍ مُحطَّم تَصيرُ مسيحيَّةً حقيقيَّةً وتتحسَّن أخلاقُها تحسُّنًا مهمًّا عمَّا كانت عليه. ومع ذلك، فقد تكونُ أقلَّ استقرارًا وضبطًا للنَّفس من امرأةٍ جيِّدةِ التكيُّف بحيثُ لا تَشعرُ بأيِّ احتياج خاصٍّ إلى الانتساب الدينيِّ أصلًا. وافترِضْ أنَّك قابلتَ كلتا هاتَين المرأتَين في الأسبوع نفسه. فما لم تعرفْ نقطةَ الانطلاق ومسيرةَ الحياة لدى كلتَيهما، يسهلُ أن تَستنتجَ أنَّ المسيحيَّة غير جديرة كثيرًا، وأنَّ المسيحيِّين لا يلتزمون نحو معاييرهم الخاصَّة السامية. وغالبًا ما يكونُ واقعُ الحال أنَّ الأشخاصَ الذين كانت حياتُهم أقسى، والذين هُم "أدنى على سُلَّم الأخلاق" يُرجَّح أكثرَ أن يَدرِكوا احتياجهم إلى الله ويهتدوا إلى الإيمان بالسيِّد المسيح. لذلك لا ينبغي أن نتوقَّعَ أن تكونَ حياةُ كثيرٍ من المسيحيِّين قابلةً للمُقارنَة جيِّدًا بحياة المتديِّنين[٢] (مثلما تكونُ صحَّة نُزَلاء المُستشفى أسوأ نسبيًّا من صحَّة زُوَّار المتاحف).

الدِّين والعُنف

ألا يُفضي الدِّين المُتوارَث إلى العُنف؟ يحاول كريستوفر هتشنز (Christopher Hitchens)، مؤلِّف كتاب "**الله ليس عظيمًا: كيف يُسمِّم الدِّين كلَّ شيء**" (God Is Not Great: How Religion Poisons Everything) أن يُبرهنَ أنَّ الدِّين يُفضي إلى العنف. ففي فَصله المُعنوَن

"الدِّين قتَّال"، يُورِدُ وَقائعَ شخصيَّةً عن العُنف الذي يُحرِّكه الدِّين في بلفاست وبيروت وبومباي وبلغراد وبيت لحم وبغداد. وحُجَّته هي أنَّ الدِّين يتناولُ الفوارقَ العِرقيَّة والحضاريَّة ويُفاقمُها. وقد كتبَ: "لا يختلفُ الدِّين عن العُنصريَّة في شيء. فإنَّ صنفًا منه يُلهبُ الآخر ويُثيره. ولَطالما كان الدِّين مُضاعِفًا هائلًا للارتياب والبُغْضِ القَبَليَّين..."[٣]

إنَّ وجهةَ نظر هتشنز تبدو معقولة. فالدِّين "يُسامي"* الفوارقَ الحضاريَّة المألوفةَ بحيث يشعرُ الأفرقاء بأنَّهم في معركةٍ كَونيَّة بين الخير والشَّرّ. ولهذا يحاولُ هتشنز أن يُبرهنَ أنَّ "الدين يُسمِّم كلَّ شيء". فهكذا قد يبدو الأمر فعلًا. إذ إنَّ الأمم المسيحيَّة نظَّمت الإمبرياليَّة والعُنف والطُّغيان من خلال مَحاكم التَّفتيش وتجارة العبيد في أفريقيا. والإمبراطورية اليابانيَّة ذات الاستبداد والعَسكَرة في أواسط القرن العشرين طلعت من حضارة متأثِّرة بالبوذيَّة والشِّنتويَّة (Shintoism) تأثُّرًا شديدًا. وبينما يُقال إنَّ الإسلام هو التُّربة الخصبة للكثير من الإرهاب في أيَّامنا، ما تزال القوَّات الإسرائيليَّة أيضًا عديمة الرَّحمة كلَّ حينٍ تقريبًا. والقوميُّون الهندوسيُّون، باسْم ديانتهم، يشنُّونَ ضرباتٍ داميةً على الكنائس المسيحيَّة والمساجد الإسلاميَّة جميعًا. فهذه البيِّنات كلُّها تبدو مؤشِّرةً على أنَّ الدِّين يُفاقمُ الفوارق البشريَّة إلى أن تَتَفجَّر حربًا وعنفًا واضطهادًا للأقلِّيَّات.[٤]

غير أنَّ هذا الرأي يَنطوي على إشكالات. فالأنظمة الشيوعيَّة في روسيا والصِّين وكمبوديا إبَّانَ القرن العشرين رفضَتْ كلَّ دينٍ مُنظَّم وإيمانٍ بالله. وكانت رائدةً لهذه كلِّها الثورةُ الفرنسيَّة، إذ رفضَتْ الدِّين المستقيمَ بذَريعةٍ

* المقصود بِالتَّسامي الإدراك بِعَين العقل بشكل بعيدٍ عن المادَّة ومنزَّه عنها (الناشر).

إنسانيَّة. وقد كانت هذه المجتمعاتُ كلُّها عَقلانيَّة ولادينيَّة، غير أنَّ كُلًّا منها أنتجَ عُنفًا هائلًا ضدَّ أهله دون تأثير الدِّين. لماذا؟ يُبيِّن ألستر مَكْغراث أنَّه حين تتبدَّد فكرةُ الله، فإنَّ المجتمع سوف "يُسامي" شيئًا آخر، مفهومًا آخر، في سبيل أن يظهرَ مُتفوِّقًا على الصعيد الأخلاقيِّ والروحيّ. فالماركسيُّون جَعلوا الدَّولة هي الفكرة المُطلَقة، فيما جَعل النازيُّون العِرقَ والدَّم إيَّاها. حتَّى مثَالَا الحرِّيَّة والمساواة يمكنُ أن يُستَخدَما بهذه الطريقة في سبيل إنزال العُنف بالمُناهِضين. وسنة ١٧٩٣، لمَّا سيقَتْ مدام رولان (Madame Roland) إلى المِقصلة بتُهَم مُلفَّقة، انحنَتْ أمامَ التِّمثال الذي يُشخِّصُ الحرِّيَّة في "ساحة الثَّورة" وقالت: "أيَّتها الحُريَّة، أيَّةُ جرائمَ تُرتكَب باسْمك!"[٥]

إنَّ العنفَ المُرتكَب باسْم المسيحيَّة هو حقيقةٌ رهيبة، ويجب التَّصدِّي له وإصلاحه معًا. فلا عُذرَ له. ولكنْ في القرن العشرين كثيرًا ما ألهبَتِ الطائفيَّةُ العُنفَ مثلما ألهبَتْه الاستبداديَّة المعنويَّة. فالمجتَمعات التي تخلَّصَتْ من كلِّ دين مارسَتِ الطُّغيانَ كما مارسَتْه تلك الغاطسةُ في الدِّين. ولا يَسعُنا إلَّا أن نستنتجَ أنَّ في القلب البشريِّ نزعةَ عُنفٍ مُتجذِّرةً في أعماقه بحيث تُعبِّر عن ذاتها بصرف النظر عن أيَّة مُعتقداتٍ قد تكونُ سائدةً في مجتمع محدَّد- سواءٌ أَرأسماليًّا كان أم اشتراكيًّا، متديِّنًا أم غيرَ مُتديِّن، فَردانيًّا أم هَرَميًّا. وعليه، فإنَّ واقعَ وجودِ العُنف والقتال في مجتمعٍ ليس في جَوهره تفنيدًا للمُعتقدات السائدة في ذلك المجتمع.

التَّعصُّب

ربَّما كان أكبر عائقٍ أمام المسيحيَّة عند الشخص العاديِّ اليومَ ليس الكثير من

العُنف والقتال، بل شبح التعصُّب. فكثيرون من غير المؤمنين لهم أصدقاءُ أو أقرباءُ صاروا مسيحيِّين "مولودين ثانيةً" ويَبدون بالغي التطرُّف. إذ لا يلبَثون أن يُعبِّروا بمُنتهى الصراحة عن استهجانهم لجماعاتٍ وقطاعاتٍ شتَّى في المجتمع الغربيّ- ولاسيَّما السينما والتلفزيون، والديمقراطيَّة الطاغية، والمثليِّين ذكورًا وإناثًا، والقائلين بالتطوُّر، والقُضاة الذين يُسوِّغون القُوَّة، وأهل الأديان الأخرى، والقِيَم التي تُعلَّم في المدارس الرسميَّة. وحين يُدافعُ أولئك بالحُجَّة عن حقِّ إيمانهم، فكثيرًا ما يَبدون غيرَ مُتسامحين وأبرارًا في نظر أنفُسهم. وهذا هو ما يميلُ كثيرون إلى وَصفه بالتعصُّب.

إنَّ كثيرين يُحاولون أن يَفهموا المسيحيِّين على طُول طَيفٍ يتدرَّج من "الاسْميَّة" في أحد طرفَيه إلى "التعصُّب" في طرفه الآخر. فالمسيحيُّ الاسْميُّ شخصٌ مسيحيٌّ بالاسْم فقط، لا يمارسُ المسيحيَّة حقًّا ولا يكادُ يؤمنُ بها. والمُتعصِّب شخصٌ يُعدُّ مُتطرِّفًا في إيمانه بالمسيحيَّة وفي ممارستها. وحسب هذا المعيار المُتدرِّج، يكونُ أفضل نوع من المسيحيِّين هو ذاك الذي لا يتماشى مع المسيحيَّة طوالَ الطريق، مَن يؤمنُ بها ولكنْ لا يلتزمُها بصرامةٍ زائدة. ولكنَّ الإشكال في هذا الطَّرح هو أنَّه يَفترضُ أنَّ الإيمانَ المسيحيَّ هو جوهريًّا نوعٌ من التَّحسين الخُلُقيّ. لذلك يُعَدُّ المسيحيُّون المُتشدِّدون دُعاةَ أخلاقٍ مُتزمِّتين، فَرِّيسيِّين، كما كانوا يُدعَون في أيَّام السيِّد المسيح. فالمُتمثِّلون بالفرِّيسيِّين يفترضون أنَّهم في موقفٍ صحيح أمام الله بِفَضل سلوكهم الأخلاقيّ وعقيدتهم القويمة. ويؤدِّي هذا طبيعيًّا إلى مشاعر التفوُّق على أولئك الذين لا يشاركونهم في تديُّنهم، ومن ثَمَّ إلى أشكالٍ شتَّى من التَّعسُّف والانغلاق والطُّغيان. وهذا هو جوهر ما نُفكِّر فيه على أنَّه تعصُّب.

ولكنْ ما الحال إنْ كان جوهرُ المسيحيَّة هو الخلاص بالنِّعمة- الخلاص لا بسبب ما نفعله نحن، بل بفضل ما قد فعله السيِّد المسيح من أجلنا؟ إنَّ إيمانَك بأنَّك مقبولٌ عند الله بمحض النِّعمة أمرٌ يدفعُك للاتِّضاع الجَمّ. فالأشخاصُ الذين هم مُتعصِّبون إذًا ليسوا هكذا لأنَّهم مُلتزمونَ نحو الإنجيل بصرامةٍ زائدة، بل لأنَّهم غير ملتزمين نحوه التزامًا كافيًا.

فكِّرْ في أشخاصٍ تعتبرهم مُتعصِّبين. إنَّهم مُتغطرِسون، أبرارٌ في نظر أنفُسهم، مُتشبِّثونَ بآرائهم، غير حسَّاسين، قُساة. لماذا؟ ليس لأنَّهم مسيحيُّون فوقَ الحدّ، بل لأنَّهم ليسوا مسيحيِّين كفاية. إنَّهم مُتحمِّسون وجَسورون على نحوٍ تعصُّبيّ، ولكنَّهم ليسوا على نحوٍ جذريٍّ مُتواضعين أو حسَّاسين أو مُحبِّين أو مُشجِّعينَ أو مُسامحين أو مُتفهِّمين- مثلما كان السيِّد المسيح. ولأنَّهم يُفكِّرون في المسيحيَّة كما لو كانت برنامجَ تحسينٍ ذاتيّ، فهُم يُحاكون يسوعَ الذي حملَ السَّوط في الهيكل، لا يسوعَ الذي قال: "مَن كان منكم بلا خطيئة فليرَمِها أوَّلًا بحجر" (يوحنَّا ٨: ٧). فإنَّ ما يصدمنا بصفته تعصُّبيًّا بإفراط هو بالفعل إخفاقٌ في الالتزام الكُلِّيِّ تُجاه السيِّد المسيح وإنجيله.

نقدُ الكتاب المقدَّس للتديُّن الزائف

إنَّ التطرُّفَ والتعصُّب اللَّذَين يؤدِّيان إلى الظُّلم والطُّغيان يُشكِّلان خطرًا دائمًا داخلَ أيِّ كِيانٍ يضمُّ مؤمنين دينيِّين. ولكنَّ التِّرياق بالنِّسبة إلى المسيحيِّين ليس أن يُلطِّفوا إيمانهم أو يخفِّفوه، بل بالأحرى أن يحوزوا إيمانًا أوفى وأصدقَ بالسيِّد المسيح. وقد فهمَ أنبياءُ الكتاب المُقدَّس هذا حقَّ الفهم. وفي الواقع أنَّ العالِمَ مَرُولْد وستْفال (Merold Westphal) يُوثِّقُ

كيف أنَّ تحليلَ ماركس للدِّين بِوَصفه أداةَ طُغيانٍ قد سبَقَه أنبياءُ العهد القديم إشعياء وإرميا وعاموس، بل سبَقته أيضًا رسالةُ الأناجيل في العهد الجديد. فإنَّ ماركس، كما يقول وستْفال، كان غيرَ أصليٍّ في نقده للتَّديُّن الزائف، إذ سبَقَه إليه الكتابُ المقدَّس!

لقد وجَّه السيِّد المسيح نقدًا رئيسيًّا للدِّين. فإنَّ مَوعظتَه المشهورةَ على الجبل (متَّى، الأصحاحات٥ و٦ و٧) لا تنتقدُ أشخاصًا غير متديِّنين، بل تنتقدُ بالأحرى مُتديِّنين. وفي حديثه المشهور هذا، يتبيَّن أنَّ القومَ الذين ينتقدهم يُصَلُّون ويتصدَّقون على الفقراء، ويلتمسون أن يعيشوا بحسب التَّوراة، غير أنَّهم يفعلون ذلك كُلَّه لكي يكسبوا الاستحسانَ والسُّلطانَ لأنفسهم. وهم يعتقدون أنَّ كفَّتهم ستَرجَحُ على الآخرين، بل على الله أيضًا، بِفَضل أدائهم الروحيّ ("يظنُّون أنَّهم بكثرة كلامهم يُستجاب لهم" متَّى٦: ٧). وهذا يجعلُهم مُصدِري أحكامٍ ومُجرِّمين، مُسرِعين إلى الانتقاد، غير مستعدِّين لتقبُّله. إنَّهم مُتعصِّبون.

وقد دأبَ السيِّدُ المسيح في تعليمه أن يقول للمُحترَمين والمستقيمين: "إنَّ العشَّارين والزَّواني يسبقونكم إلى ملكوت الله" (متَّى ٢١: ٣١). وهو يشجبُ بلهجةٍ شديدة ناموسيَّتهم، وحسبانَهم أنفُسَهم أبرارًا، وتعصُّبَهم الأعمى، وحُبَّهم للثَّروة والسُّلطة ("تُنَقُّون خارج الكأس والقصعة، وأمَّا باطنكم فمملوءٌ اختطافًا وخُبثًا... وتتجاوزون عن الحقِّ ومحبَّة الله... تُحمِّلون الناس أحمالًا عسرةَ الحمل، وأنتم لا تمسُّون الأحمال بإحدى أصابعكم" لوقا ١١: ٣٩-٤٦). كما قال عنهم أيضًا إنَّهم "يأكلونَ بيوت الأرامل، ولعلَّةٍ يُطيلون الصَّلوات" (لوقا ٢٠: ٤٧). ولا ينبغي أن نُفاجَأ حين نعلَمُ أنَّ المؤسَّسةَ الدينيَّة المؤمنة بالكتاب المقدَّس هي التي قتلَتْ يسوع. وعلى حدِّ

تعبير اللاهوتيِّ السويسريِّ كارل بارْت (Karl Barth)، فإنَّ "الكنيسة"- لا العالم- كانت هي التي صلبَتِ السيِّد المسيح.[٧]

إنَّ السيِّد المسيح سارَ على خُطى الأنبياء العبريِّين، مثل إشعياءَ الذي قال لأهل زمانه:

> إيَّاي يطلبون يومًا فيومًا، ويُسَرُّون بمعرفة طُرقي، كأمَّةٍ عملت برًّا ولم تترك قضاءَ إلهِها. يسألونني عن أحكام البرِّ. يُسرُّون بالتقرُّب إلى الله. يقولون: "لماذا صُمنا ولم تنظر؟ ذلَّلنا أنفُسنا ولم تُلاحظ؟" ها إنَّكم في يوم صومكم تُوجِدون مسرَّة، وبكلِّ أشغالكم تُسخِّرون... أليس هذا صومًا أختاره: حلَّ قيود الشرِّ...إطلاق المسحوقين أحرارًا وقطع كلِّ نير؟ أليس أن تكسر للجائع خبزك، وأن تُدخِل المساكين التائهين إلى بيتك؛ إذا رأيت عريانًا أن تكسوه...؟ (إشعياء ٥٨: ٢-٧).

أيَّ شيءٍ كان الأنبياءُ والسيِّد المسيح ينتقدون؟ إنَّهم لم يكونوا ضدَّ الصلاة والصَّوم وإطاعة وصايا الكتاب المقدَّس بشأن الحياة. ولكنَّ لدى المُتديِّنين مَيلًا إلى استخدام الشعائر الدِّينيَّة كرافعة لإحراز السُّلطة على الآخرين والحُظوة لدى الله، مُسترضين إيَّاه عبرَ الطُّقوس والأعمال الصالحة. وهذا يؤدِّي في آنٍ معًا إلى التشديد على المظاهر الدِّينيَّة الخارجيَّة، وإلى الجشع والمادِّيَّة والطغيان في أنماط التَّعامُل الاجتماعيَّة. فأولئك الذين يعتقدون أنَّهم قد أرضَوا الله بنَوعيَّة تَقواهم وصلاحهم الأدبيِّ يشعرون بأنَّهم وجماعتهم يستحقُّون الاحترامَ والتسلُّطَ على الآخرين. غير أنَّ الإله الذي نادى به السيِّد المسيح والأنبياء يُخلِّصُ كلِّيًّا بالنِّعمة. فلا يمكن التأثير

فيه بالاحتيال عبر الأداء الدينيّ، والخُلُقيّ، بل يمكن الوصول إليه فقط من خلال التَّوبة، والتخلِّي عن النُّفوذ. وما دُمنا نخلصُ بالنِّعمة فقط، فلا يمكنُ إلَّا أن نصيرَ خُدَّامًا شاكرين لله وكُلِّ مَن حولَنا. وقد أوصى السيِّد المسيح تلاميذَه بهذا: "من أراد أن يصيرَ فيكم عظيمًا يكون لكم خادمًا؛ ومن أراد أن يصير فيكم أوَّلًا يكون للجميع عبدًا" (مرقس ١٠: ٤٣-٤٥).

ففي المعيار النَّقديِّ لدى السيِّد المسيح والأنبياء، تتميَّز ديانةُ البرِّ الذاتيِّ دائمًا بعدم الحسَّاسيَّة حيال شؤون العدالة الاجتماعيَّة، أمَّا الإيمانُ الحقيقيُّ فيتميَّز بالاهتمام الشَّديد بالفقراء والمُهمَّشين. وقد قال اللاهوتيُّ السُّويسريُّ جون كالڤن (John Calvin)، في شروحه وتعليقاته على الأنبياء العبريِّين، إنَّ الله يتوحَّدُ مع الفُقراء بحيث يُعبِّر صُراخهم عن الوجع الإلهيّ. فالكتابُ المقدَّس يُعلِّمنا أنَّ معاملتَنا لهم تُساوي معاملتنا لله.[٨]

ولئن كانَت الكنيسة بلا عُذرٍ مُشارِكةً في ظُلم الناس أحيانًا، فمن المهمّ أن ندركَ أنَّ الكتاب المقدَّس يزوِّدنا بأدواتِ التحليل والنَّقد غير المُتردِّد للظُّلم المدعوم دينيًّا من داخل الإيمان. ويذهب المؤرِّخ سي. جون سُمرڤيل إلى أنَّه حتَّى النقَّادُ اللَّادينيُّون الأقوياء الذين انتقدوا المسيحيَّة يستخدمون بالحقيقة مواردَ من داخلها للتَّنديد بها.[٩] فكثيرون ينتقدون الكنيسةَ على كَونها مُتعطِّشةً إلى السُّلطة ومُهتمَّةً بمصالحها الذاتيَّة، ولكنَّ هنالك حضارات كثيرةً فيها يُعدُّ النُّزوع إلى حيازة السُّلطة والاحترام أمرًا خيِّرًا. فمن أين إذًا حصلنا على لائحة الفضائل تلك التي بموجبها نستطيعُ تمييزَ خطايا الكنيسة- كما سألَ سُمرڤيل؟ لقد حصلْنا عليها بالفعل من داخل الإيمان المسيحيّ!

ولكي يشرحَ سُمرڤيل هذه النقطة لطُلَّابه، دعاهم إلى إجراء اختبارٍ

فكريّ. فقد أشارَ إلى أنَّ القبائلَ الأوروبيَّة السابقة للمسيحيَّة، مثل الأنغلوسكسونيِّين (Anglo Saxons)، كانت لها مجتمعاتٌ مؤسَّسة على مفهوم الشَّرَف. إنَّها كانت حضاراتٍ مُركِّزةً على تجنُّب العَيب، حيث شغلَ كسْبُ احترام الآخرين والإصرارُ عليه مكانةً مهمَّة جدًّا. وكان لدى الرُّهبان المسيحيِّين الذين حاولوا هِداية أهل تلك القبائل مجموعةُ قِيَمٍ مؤسَّسة على المحبَّة، أي على طلبِ الأفضل للآخرين. فَلكَي يلمسَ طُلَّابه الفرق، طلب منهم أن يتصوَّروا رؤية سيِّدةٍ مُسنَّةٍ ضئيلة تسيرُ في الشَّارع ليلًا وهي تحملُ حقيبةَ يدٍ كبيرة. فلماذا لا نهاجمها ونقهرها ونأخذ حقيبتَها ومالَها؟ إنَّ جوابَ الحضارة المركِّزة على مفهوم العيب هو أنَّك **لا تأخذُ** حقيبتَها؛ لأنَّك إذا اخترتَ سلْبَ الضُّعفاء تكونُ شخصًا جديرًا بالازدراء. فلَن يحترمَك أحد، ولن تحترمَ أنت نفسَك. وهذا المفهومُ الأخلاقيُّ مَعنيٌّ طبعًا بالمصلحة الشخصيَّة. فأنت مُركِّزٌ على كيفيَّة تأثير هذا الفعل في شرفك وسُمعتك. غير أنَّ هنالك مَجرًى آخرَ من التفكير يمكن أن يُسلَك. فلَكَ أن تتصوَّرَ كم يكونُ مؤلمًا لهذه المرأة أن تُهاجَم وتُسلَب، وكيف يمكن أن يَضرَّ فقدانُ مالِها أشخاصًا تُعيلُهم. وعليه، فأنت لا تأخذُ المالَ لأنَّك تُريد الأفضل لها ولعِيالها. وهذا مفهومٌ أخلاقيٌّ معنيٌّ بمصلحة الآخرين؛ إذ إنَّك تُفكِّر كلِّيًّا في خَير تلك المرأة.

وعلى مرِّ السِّنين، تبيَّن لسُمرڤيل أنَّ أغلبيَّة طُلَّابه علَّلوا الأمور فكريًّا بمُقتضى المفهوم الأخلاقيِّ الثاني المُراعي لخَير الغير. ومن حيث كونُه مؤرِّخًا، بيَّن لهم من ثَمَّ كيف كان توجيهُهم الخُلُقيُّ مسيحيًّا. فإنَّ الإيمانَ المسيحيَّ غيَّر تلك الحضارات المُركِّزة على الشَّرف، حيثُ كانت الكبرياءُ تُقدَّرُ بدلَ التَّواضُع، والهيمنةُ بدلَ الخدمة، والشجاعةُ بدلَ المُسالَمة، والفخرُ

بدلَ الاحتشام، وولاءُ المرء لقَبيلته بدلَ الاحترام المُتساوي للجميع.[١٠]

إنَّ الانتقادات النَّموذجيَّةَ من قِبَل اللَّادينيِّين بشأن طُغيان الكنيسة المسيحيَّة وضُروبِ ظُلمِها مُستمدَّةٌ في الواقع من مصادر الكنيسة الشخصيَّة لنَقد ذاتها. فيمكن فهمُ نقائص الكنيسة تاريخيًّا باعتبارها التبنِّيَ والمُمارسةَ الناقصَين لمبادئ الإنجيل المسيحيّ. ويقول سُمرفِيل إنَّ الأنغلوسكسونيِّين لمَّا سمعوا رسالةَ الإنجيل المسيحيِّ للمرَّة الأولى ساورتهم الشُّكوك بشأنها. فإنَّهم لم يستطيعوا أن يُدركوا كيف يمكن أن يقومَ ويدومَ مجتمعٌ لا يخشى القوَّة ولا يحترمها. ولمَّا اهتدَوا إلى الإيمان المسيحيّ، باتوا بعيدين عن التزامه كما ينبغي. إذ مالُوا إلى إدْماج المفهوم الخُلُقيِّ المسيحيِّ المَعنيِّ بالآخرين في طُرقهم القديمة. وقد سانَدوا الحملات الصَّليبيَّة باعتبارها سبيلًا إلى الحفاظ على كرامة الله وكرامتهم. وسمحوا للرُّهبان والنِّساء وعبيد الإقطاعيِّين أن يتعهَّدوا فضائلَ المحبَّة والإحسان، ولكنَّ هذه الفضائل لم تُعدَّ مؤاتيةً لرجال الشَّرَف والإقدام الفعليّ. فلا عجب إن كانَ تاريخُ الكنيسة حافلًا بكثيرٍ ممَّا ينبغي شَجبُه. ولكنَّ من شأن التخلِّي عن المعايير المسيحيَّة أن يحرمَنا الأساسَ الصَّالح للقيام بالنَّقد.[١١]

فما الردُّ إذًا على الانتقادات البالغة الإنصاف والشدَّة، تلك التي تتناولُ سِجلَّ الكنيسة المسيحيَّة؟ ليس الردُّ أن ننبذَ الإيمانَ المسيحيّ؛ لأنَّ من شأن ذلك أن يحرمَنا المعايير والموارد اللازمة لإجراء التصحيح. إنَّما ينبغي لنا بالأحرى أن نتقدَّمَ إلى استيعابٍ أوفى وأعمق لماهيَّة المسيحيَّة الحقيقيَّة. وقد علَّمنا الكتابُ المقدَّس نفسُه أن نتوقَّعَ حصول تعَسُّفات دينيَّة، كما بيَّن لنا أيضًا ما ينبغي أن نفعلَه بشأنها. لهذا السبب يُزوِّدنا تاريخُ المسيحيَّة بأمثلةٍ رائعةٍ كثيرة على الإصلاح الذاتيّ. فَلْنتأمَّل ربَّما أبرزَ مَثَلَين على هذا.

العدالة باسم السيّد المسيح

تتمثَّلُ وصمةٌ بارزةٌ على التاريخ المسيحيّ في تجارة العبيد الأفريقيَّة. فلمَّا كانت المسيحيَّة سائدةً في البُلدان التي كانت تشتري العبيد وتبيعهم في أثناء ذلك الزَّمان فلا بدَّ أن تتحمَّلَ الكنائسُ المسؤوليَّة إلى جانب مجتمعاتها عمَّا جرى. ولئن كانت العبوديَّة بشكلٍ أو بآخر منتشرةً بالفعل في كلِّ حضارةٍ بشريَّة على مرِّ القُرون، فقد كان المسيحيُّون هم أوَّلَ مَن خلصوا إلى أنَّها غيرُ صحيحة. وقد كتب المؤرِّخ المُجتمعيُّ رُدني ستارْك (Rodney Stark):

> مع أنَّ العادةَ درجَتْ على إنكار الأمر، فإنَّ التعاليمَ المناهضة للعبوديَّة بدأت تظهر في اللاهوتيَّات المسيحيّة بُعَيدَ انحطاط روما، وقد صحبها تلاشي العبوديّة التدريجيُّ في جميع أجزاء أوروبا المسيحيَّة ما عدا أطرافها النائية. ولَمّا شرَّعَ الأوروبيُّون في ما بعدُ العبوديّة في "العالَم الجديد"، فقد فعلوا ذلك رُغم المُعارضة البابويّة الشديدة، وهي حقيقةٌ "غُيِّبتْ" عن التاريخ حتّى عهدٍ قريب ليُلائم ذلك المؤيِّدين للعبوديّة. وفي آخر المطاف، فإنَّ دُعاة العمل المسيحيّين هم من بدأوا إلغاء العبوديّة في "العالم الجديد" وأنجزوها حتّى النهاية.[١٢]

لقد بدأ المسيحيُّون يعملون في سبيل إلغاء العبوديَّة لا بسبب مفهومٍ عامٍّ مُعيَّن لحقوق الإنسان، بل لأنَّهم رأوا فيها انتهاكًا لمشيئة الله. إنَّ أشكالَ الاستخدام والاسترقاق القديمة التي شاعت في أزمنة الكتاب المقدَّس كانت قاسية، ولكنَّ دُعاةَ الإبطال المسيحيِّين خلصوا إلى أنَّ عبوديَّة الاسترقاق ذات الأساس العُنصريّ والمستمرَّة طولَ الحياة، تلك التي ترسَّخت من

طريق الخَطف، لا يمكن أن تتآلفَ مع تعاليم الكتاب المقدَّس في كلا العهدَين، القديم والجديد.[١٣] فإنَّ ناشطين مسيحيِّين أمثال وليام وِلبَرفورس (William Wilberforce) في بريطانيا، وجون وُولمان (John Woolman) في أميركا، وآخرين كثيرين جدًّا، كرَّسوا حياتَهم** كلَّها، باسْم المسيح، لإبطال العبوديَّة. وقد كانت تجارةُ العبيد، أو النِّخاسة، مُربحةً إلى أقصى الحدود، حتَّى توافَرَ حافزٌ هائل داخل الكنيسة على تسويغها. ومن ثَمَّ دافعَ كثيرون من القادة الكنسيِّين عن نظام الاسترقاق. وقد كان الكفاح في سبيل الإصلاح الذاتيِّ مريرًا جدًّا.[١٤]

ولمَّا أفلحَ المناضلون من أجل الإبطال أخيرًا في تَوجيه أهل المجتمع البريطانيِّ إلى إلغاء الاسترقاق في إمبراطوريَّتهم، تنبَّأ المُستعمِرون في مُستعمَراتهم بأنَّ الإعتاقَ سيُكلِّف المُستثمرين مبالغ ضخمة، وأنَّ أسعارَ السِّلَع سترتفعُ فجأةً ارتفاعًا كارثيًّا. ولكنَّ ذلك الأمر لم يَثنِ المنادين بالإبطال في مجلس العموم. فقد تمَّت الموافقةُ على تعويض المستعمرين عن جميع العبيد المُحرَّرين، وكانت الكلفة مذهلةً إذ بلغت نصف الميزانيَّة السنويَّة لدى الحكومة البريطانيَّة. وقد أُجيزَ مرسوم الإعتاق سنة ١٨٣٣، وكانت نفقاتُه باهظةً بالنِّسبة إلى الشَّعب البريطانيِّ حتَّى إنَّ أحدَ المؤرِّخين دعا إبطالَ الاسترقاق البريطانيَّ "انتحارًا اقتصاديًّا طوعيًّا".

ويُلاحِظ رُدني ستارْك كيف عكفَ المؤرِّخون بلا هَوادة على مُحاولة تخمين السبب الذي حملَ المنادين بالإبطال على الاستعداد للتَّضحية

** يذكُرُ التاريخُ أنَّ وِلبَرفورس، بعد جهودٍ مُضنية دامتْ سنوات، شهدَ قرار إلغاء العبوديَّة في مجلس العموم البريطانيِّ. غير أنَّ قرار الإبطال لم يدخلْ حيِّزَ التنفيذ بشكلٍ كامل إلَّا بعدَ وفاته بعدَّة سنوات (الناشر).

إلى أقصى الحدود في سبيل إنهاء العبوديَّة. وهو يقتبس ما قاله المؤرِّخ هُوارد تَمپرلي (Howard Temperley) من أنَّ تاريخَ إبطال الاسترقاق مُحيِّرٌ لأنَّ معظمَ المؤرِّخين يعتقدون أنَّ كلَّ سلوكٍ سياسيٍّ تحفزه المصلحة الشخصيَّة. ولكنْ على الرُّغم من حقيقة كَون مئات الدارسين على مدى آخر خمسين سنة قد فتَّشوا عن طُرقٍ لتفسير الأمر، يقول تَمپرلي: "لم يُفلح أحد في إثبات أنَّ الذين كافحوا إلى النهاية في سبيل إنهاء النِّخاسة توخَّوا الرِّبح بأيَّة طريقة ملموسة... أو أنَّ تلك الإجراءات لم تكُن إلَّا باهظةَ الكُلفة على البلد اقتصاديًّا". إنَّما أبطلَت العبوديَّة لأنَّها كانت غير صحيحة، وكان المسيحيُّون هم السبَّاقين إلى قَولِ ذلك.[١٥] فإنَّ عُدَّة الإصلاح الذاتيِّ في المسيحيَّة، أي نقدَها لأفعال الظُّلم المدعومة دينيًّا، قد أثبتَتْ ذاتَها.

وتتمثَّل حالةٌ كلاسيكيَّةٌ أخرى تؤيِّد ما نحن بِصَدده في حركة الحقوق المدنيَّة في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة أواسطَ القرن العشرين. وفي تاريخ مهمٍّ لهذه الحركة، يُبيِّن ديڤيد أل. تشاپل (David L. Chappell) أنَّها لم تكن حركةً سياسيَّةً في الأساس، بل كانت حركةً دينيَّة وروحيَّة. فإنَّ الليبراليِّين البِيض الذين كانوا حُلَفاء لِقَادة الحقوق المدنيَّة الأميركيِّين الأفريقيِّي الأصل لم يكونوا أنصارًا للعصيان المدنيِّ، ولا لهجوم مُباشر على التَّمييز العُنصريِّ. وبسبب اعتقادهم اللَّادينيِّ بصلاح الطبيعة البشريَّة، ظنُّوا أنَّ التعليمَ والتنويرَ سيؤولان إلى تقدُّمٍ اجتماعيٍّ وعِرقيٍّ حتميّ. ويُحاجُّ تشاپل بأنَّ القادةَ السُّود كانوا أكثرَ تأصُّلًا في المفهوم المستمَدِّ من الكتاب المقدَّس لخاطئيَّة القلب البشريّ، وفي التنديدات بعدم العدالة تلك التي قرأوها في أسفار الأنبياء العبريِّين. كذلك أيضًا يُبيِّنُ تشاپل أنَّ الإيمانَ الحيَّ لدى عامَّة الأميركيِّين الأفارقة هو الذي أمدَّهم بالقوَّة للإصرار على

المُطالَبة بالعدالة، على الرُّغم من المُعارضة العنيفة التي قوبلتْ بها مطالبهم. ومن ثَمَّ يقول تشايل إنَّه ليس من سبيلٍ إلى فَهْم ما حدثَ حقًّا إلى أن ترى حركةَ الحقوق المدنيَّة بوَصفها نهضةً دينيَّة.[١٦]

ولمَّا تصدَّى مارتن لوثر كِنغ الابنُ (Martin Luther King, Jr) للعُنصريَّة في كنائس البِيض بجنوب أميركا، لم يدْعُ الكنائسَ الجنوبيَّة لأنْ تصيرَ أكثرَ عَلمانيَّةً. فما إن تقرأ مواعظه ورسالته من سجن بِرمنغهام، حتَّى تَرَى كيف ناقشَ الأمور. إذ إنَّه استَلهمَ شريعةَ الله الأدبيَّة والكتابَ المقدَّس. وقد دعا كِنغ المسيحيِّين البِيض لأنْ يكونوا أكثرَ وفاءً نحو مُعتقداتهم الخاصَّة، ويُدركوا ما يُعلِّمه الكتابُ المقدَّس حقًّا. وهو لم يقُل: "الحقيقةُ نسبيَّة، وكلُّ امرئٍ حُرٌّ في أن يُقرِّر لنَفسه ما هو حقٌّ وما هو باطل". فلو كان كلُّ شيءٍ نسبيًّا، ما توفَّر للبِيض في جنوب الولايات المتَّحدة حافِزٌ للتَّخلِّي عن نفوذهم. ولكنَّ الدكتور كِنغ بالأحرى استَلْهمَ النبيَّ عاموس إذ قال: "ولْيَجْرِ الحقُّ كالمياه، والبرُّ كنهرٍ دائم" (عاموس ٥: ٢٤). فإنَّ أعظمَ نصيرٍ للحقِّ في القرن العشرين عرفَ أنَّ ترياقَ العُنصريَّة لم يكُنْ مسيحيَّةً أقلَّ، بل كان مسيحيَّةً أعمقَ وأصدق.

إنَّ وِلبَرفورس وكِنغ لم يكونا قطُّ القائدَين الوحيدَين اللَّذَين حوَّلا التيَّار ضدَّ عدم العدالة باسْم المسيح. فبَعدَ إلغاء سياسة التَّمييز العُنصريِّ في جنوب أفريقيا، توقَّعَ الجميعُ حصولَ حمَّام دَم فيه ينتقمُ الضحايا السابقون انتقامًا داميًا من مُضطهديهم، ولُجوءَ ظالِميهم السابقين إلى الدِّفاع عن أنفسهم بالقوَّة. غير أنَّ قادةً مسيحيِّين من أمثال دسموند تُوتو (Desmond Tutu) أنشأوا في أواسط تسعينيَّات القرن العشرين تلك اللَّجنة الرائعة المُسَمَّاة "لجنة جنوب أفريقيا للحقِّ والمُصالحة". وقد عبَّر اسمُها عن مبدإها

ورسالتها. وهي دعَت الضحايا لأنْ يتقدَّموا كي يَروُوا قصصَهم علانيَةً. ودَعتْ أيضًا مُرتكبي الطُّغيان والظُّلم السَّابقينَ لأن يتقدَّموا ويَحكُوا الحقيقة ويَطلبوا الصَّفح. ولم يُعفَ أيُّ الجانبَين من المثول أمام اللَّجنة. وقد سمعَتِ اللَّجنة أخبارَ انتهاكاتِ حقوق الإنسان، ونظرتْ في إجراءات الصَّفح من قِبَل الجميع، من دولة التمييز العُنصريِّ السابقة، ومن الكونغرس الأفريقيِّ الوطنيّ أيضًا. وعلى الرُّغم من بعض التَّقصيرات والانتقادات، أسهمَتِ اللَّجنةُ في تحقيق تحوُّلِ حُكمِ الأكثريَّة بسفك دَمٍ أقلَّ كثيرًا جدًّا ممَّا كان يمكنُ أن يتوقَّعه أحد.

وفي أواخر القرن العشرين أبَتِ الكنيسة الكاثوليكيَّة في أوروبا الشرقيَّة أن تموتَ تحت هَيمَنة الشُّيوعيَّة. فبواسطة "الصبر والشُّموع والصُّلبان"، أطلقَتِ الكنيسة سلسلةَ الأحداث التي أسقَطَتْ جميعَ تلك الأنظمة الديكتاتوريَّة المستبِدَّة. ثُمَّ إنَّ الكاهنَ البولنديَّ جرْزي پوپيَلوجكو (Jerzy Popieluszko)، بوَعظه ونشاطه الفعليّ، قادَ الحركةَ الهادفة إلى إنشاء اتِّحاد عُمَّاليٍّ حُرٍّ في پولندا في أوائل ثمانينيَّات القرن العشرين. ولمَّا لقِيَ مَصرعه على أيدي الشُّرطة السرِّيَّة، حضرَ جنازتَهُ ٢٥٠,٠٠٠ شخص، بينهم لِيش ڤاليسا (Lech Walesa) الذي أسهمتْ حركةُ التَّضامُن التي قادَها لاحقًا في إسقاط الحكومة الشُّيوعيَّة. وكثيرون ممَّن شاركوا في الجنازة ساروا مُتجاوِزين مقرَّ الشُّرطة السرِّيَّة الرئيسيَّ حاملين رايةً كُتِبَ عليها "نحنُ نغفر".[١٧] فأساسُ حركةِ المقاومة المسيحيُّ لم يكُنْ مُلتبَسًا فيه.

وثَمَّة لائحةٌ طويلةٌ من الشُّهَداء الذين ناصَروا المظلومين، باسْم يسوع، مثل رئيس الأساقفة أوسكار رُوميرو (Oscar Romero) في إلْسلڤادور (El Salvador). وكان روميرو قد قُلِّدَ منصبَ رئيس الأساقفة بفضل آرائه

العقائديَّة المُحافظة القويمة. وفي مَنصبه الجديد رأى بيِّناتٍ لا تُدحَض على الانتهاكات المُتمادِية والعُنفيَّة لحقوق الإنسان من قِبَل الحكومة. فباشَرَ التحدُّثَ بشأن تلك البيِّنات بلا خوفٍ أو تردُّد، ونتيجةً لذلك أطلِقَت عليه النَّار فقُتِلَ في ثمانينيَّات القرن العشرين وهو يُقيمُ القُدَّاس.

ثُمَّ إنَّ الشَّهيد اللوثريَّ الشهير دَيترتش بُونُهويفَر (Dietrich Bonhoeffer) كان يتولَّى رعايةَ كنيستَين ناطقتَين بالألمانيَّة في لَندُن حين تسنَّم هتلَر (Hitler) السُّلطة. فأبى بُونُهويفَر أن يبقى على بُعدٍ آمِن، وعادَ إلى بلده لِيَتولَّى رئاسةَ معهدٍ لاهوتيٍّ غير شرعيٍّ تابعٍ **للكنيسة المُعترِفة بالإيمان** (The Confessing Church)، تلك المُكوَّنة من جماعات مسيحيَّة أبتْ أن توقِّعَ على قَسم بالولاء للنَّازيِّين. وقد كتب بُونُهويفَر أثرَهُ الأدبيَّ المُمتاز "**كلفة التَّلمذة**" (The Cost of Discipleship)، وفيه أجرى نقدًا للدِّين والكنيسة في أيَّامه. ففي أصداءٍ تُرجِّع أقوالَ السيِّد المسيح والأنبياء، كشفَ بُونُهويفَر المَواتَ الروحيَّ*** والرِّضى الذاتيَّ الأنانيَّ اللَّذَين يَسَّرا للكثيرين أن يتعاملوا مع هتلر ويُغمِضوا عيونَهم حيالَ أولئك الذين كان النَّازيُّون يُهمِّشونهم ويُدمِّرونهم منهجيًّا. وأخيرًا اعتُقِل بُونُهويفَر وشُنِق.

وفي رسائل بُونُهويفَر الأخيرة من السِّجن، يُبيِّن كيف أمدَّه إيمانه المسيحيُّ بالموارد التي مكَّنته من التخلِّي عن كلِّ شيءٍ لأجل الآخرين. وكان ماركس قد حاولَ أن يُبرهِن أنَّك إذا كنتَ تؤمن بحياةٍ بعد هذه الحياة فلَن تُعنى بجَعلِ هذا العالَم مكانًا أفضل. إلَّا أنَّ في وُسعك أيضًا أن تُقيم

*** استخدم المؤلِّف هنا كلمة (Spiritual Deadness) والتي تُترجَم إلى المَوات الروحيّ ويعني أنَّ المرء لا يكونُ قد حُسِب في عداد الأموات بعدُ، لكنْ لا حياة حقيقيَّة تسري في أفعاله أو أفكاره. ويُطلَق هذا المصطلح في العربيَّة أصلًا على الأرض التي لم تُزرَع ولم تُعمَّر (الناشر).

العقائديَّة المُحافظة القويمة. وفي مَنصبه الجديد رأى بيِّناتٍ لا تُدحَض على الانتهاكات المُتمادية والعُنفيَّة لحقوق الإنسان من قِبَل الحكومة. فباشَرَ التحدُّثَ بشأن تلك البيِّنات بلا خوفٍ أو تردُّد، ونتيجةً لذلك أطلقَت عليه النَّار فقُتِلَ في ثمانينيَّات القرن العشرين وهو يُقيمُ القُدَّاس.

ثُمَّ إنَّ الشَّهيد اللوثريَّ الشهير دَيترتش بُونُهويفَر (Dietrich Bonhoeffer) كان يتولَّى رعايةَ كنيستَين ناطقتَين بالألمانيَّة في لَندُن حين تسنَّم هتلَر (Hitler) السُّلطة. فأبى بُونُهويفَر أن يبقى على بُعدٍ آمِن، وعادَ إلى بلده لِيَتولَّى رئاسةَ معهدٍ لاهوتيٍّ غير شرعيٍّ تابعٍ **للكنيسة المُعترِفة بالإيمان** (The Confessing Church)، تلك المُكوَّنة من جماعات مسيحيَّة أبتْ أن توقِّعَ على قَسم بالولاء للنَّازيِّين. وقد كتب بُونُهويفَر أثرَهُ الأدبيَّ المُمتاز "**كلفة التَّلمذة**" (The Cost of Discipleship)، وفيه أجرى نقدًا للدِّين والكنيسة في أيَّامه. ففي أصداءٍ تُرجِّع أقوالَ السيِّد المسيح والأنبياء، كشفَ بُونُهويفَر المَواتَ الروحيَّ*** والرِّضى الذاتيَّ الأنانيَّ اللَّذَين يَسَّرا للكثيرين أن يتعاملوا مع هتلر ويُغمِضوا عيونَهم حيالَ أولئك الذين كان النَّازيُّون يُهمِّشونهم ويُدمِّرونهم منهجيًّا. وأخيرًا اعتُقِل بُونُهويفَر وشُنِق.

وفي رسائل بُونُهويفَر الأخيرة من السِّجن، يُبيِّن كيف أمدَّه إيمانه المسيحيُّ بالموارد التي مكَّنته من التخلِّي عن كلِّ شيءٍ لأجل الآخرين. وكان ماركس قد حاولَ أن يُبرهِن أنَّك إذا كنتَ تؤمن بحياةٍ بعد هذه الحياة فلَن تُعنى بجَعلِ هذا العالَم مكانًا أفضل. إلَّا أنَّ في وُسعك أيضًا أن تُقيم

*** استخدم المؤلِّف هنا كلمة (Spiritual Deadness) والتي تُترجَم إلى المَوات الروحيِّ ويعني أنَّ المرء لا يكونُ قد حُسِب في عداد الأموات بعدُ، لكنْ لا حياة حقيقيَّة تسري في أفعاله أو أفكاره. ويُطلَق هذا المصطلح في العربيَّة أصلًا على الأرض التي لم تُزرَع ولم تُعمَّر (الناشر).

الدَّليل على العكس. فإنْ كان هذا العالَم هو كلَّ ما في الوجود؛ وإنْ كانت بضائعُ هذا العالَم هي وحدَها كلَّ ما سأنالُه أصلًا من حُبٍّ وعزاء وثراء، فلماذا ينبغي أن أضحّيَ بها من أجل الآخرين؟ غير أنَّه كان لِبُونُهويفَر فرحٌ ورجاءٌ بالله يَسَّرا له أن يفعلَ ما فعلَه:

> ليس هو فعلًا دينيًّا ما يجعلُ المرءَ مسيحيًّا، بل معاناتُهُ آلامَ اللّه في الحياة النّادينيّة. ذلك هو مؤدّى **ميتانويا** (Metanoia)، أي التّوبة: ليس في المقام الأوّل التفكير في حاجات المرء الذاتيَّة، ومشاكله وخطاياه ومخاوفه التي تخصُّه، بل أن يَدَعَ نفسَه تُجتذَب إلى طريق يسوع المسيح... إنَّ الألَمَ ملاكٌ طاهر، بواسطته صارَ الناسُ أعظمَ ممّا صاروه بواسطة أفراح العالَم كلِّها... إنَّ ألَمَ الاشتياق، ذاك الذي غالبًا ما يمكن الشعورُ به جسميًّا، يجب أن يُوجَد، ولا ينبغي لنا– كما لا يُعوِزُنا– أن نهملَه ونقلِّلَ من شأنه. ولكنْ ينبغي أن يُقهَرَ كلَّ مرَّة، وهكذا يكون لدينا ملاكٌ أطهرُ بَعدُ من ملاك الألَم، ألا وهو ملاك الفَرَح باللّه.[١٨]

ما الدَّاعي إلى ذِكر هذه الأمثلة كلِّها؟ إنَّها بيّنات على أنَّ الدكتور كِنغ كان على حقّ. فمتى أنزلَ الناسُ الظُّلم، باسْم السيِّد المسيح، لا يكونون أوفياءَ لِرُوح ذاك الذي مات هو نفسُه ضحيَّةً للظُّلم ودعا إلى الغفران لأعدائه. وعندما يبذلُ الناسُ حياتهم لتَحرير الآخرين، على غرار ما فعله السيِّد المسيح، يُحقّقون المسيحيَّة الصحيحة التي دعا إليها مارتن لوثر كِنغ الابن ودَيترِتش بُونُهويفَر وأصواتٌ مسيحيَّة أخرى.



٥

كيف يُعقَلُ أن يُرسِلَ إلهٌ مُحِبٌّ أناسًا إلى جهنَّم؟

قال هارتْمَت (Hartmut) عابسًا، وهو طالب مُتخرِّج من ألمانيا: "أشكُّ في وجود إلهٍ ديَّان يطلبُ دمًا ليُسكِّن غضبه. فقد وجبَ أن يموتَ شخصٌ قبل أن يرضى إلٰه المسيحيَّة بأن يصفحَ عنَّا. ولكن لماذا لا يُسامحنا فحسْب؟ ثُمَّ هنالك جميعُ تلك المواضع في كتاب العهد القديم حيثُ يأمر اللّٰه بتقتيل الناس".

وردّتْ جُوزي (Josie) التي كانت تشتغل في معرض فنّيٍّ بحيّ سُوهو في منهاتن: "أنا أوافق على أنّ هذا كُلّه مُقلق. ولكنّ لديّ مُشكلةً أكبر بَعدُ بشأن عقيدة جهنّم. فالإله الوحيدُ الذي يمكن الإيمانُ به عندي هو إلهُ محبّة. إنّ إلٰه الكتاب المقدّس لا يعدو كونَهُ إلهًا بدائيًّا يجب أن يُسترضَى بالألم والمُعاناة".

عامَ ٢٠٠٥، حاضَر رِك وارن (Rick Warren)، راعي إحدى الكنائس الكبرى ومؤلِّف الكتاب الرائع جدًّا "**الحياة المنطلقة نحو الهدف**" (The Purpose Driven Life)، في ندوة نقاشيَّة حضرها صحافيُّون بارزون تحت رعاية "مؤسَّسة پيُو" (Pew Foundation). وقدِ ارتبكَ بعضُ الحضور حيال

المضامين اللّادينيَّة لمعتقَد مسيحيٍّ مخصوص، ألا وهو أنَّ الله يُرسِل بعض الناس إلى موضع العقاب الأبديّ. وخاطبَ أحدُ المُتكلّمين وارن قائلًا:

> ربّما يَسعُك أن تُبقيَ في ذهنك التناقُضَ المُتمثِّل بأنَّ وَندي [وهي صحافيَّة بين الحُضور لا تؤمن بالمسيح] هي مُواطنةٌ كاملة تستحقُّ كلَّ حماية يستحقُّها أكبر الأعضاء في كنيستك. ولكنّها عندما تُتوفّى ستذهب إلى جهنّم لأنّها ليست مُخلّصة. فالسؤال هو: أَتعتقدُ أنّ أتْباعك- أو الأشخاص الذين يرتادون الكنيسة والذين يقرأون كُتبك والذين تتكلّم إليهم حول العالم- مُحنَّكون كفايةً بحيثُ يُبقون هذا التناقُض في أذهانِهم؟...[1]

فقالَ وارن إنَّ كنيسته لا ترى تناقُضًا بين هذين الأمرَين، ولكنَّ كثيرين من الصّحافيِّين لم يقتنعوا. إذِ ارتأَوا أنَّ أيَّ مسيحيٍّ يعتقد أنَّ هنالك أناسًا مصيرُهم جهنَّم لا بدَّ أن ينظرَ إلى أولئك الناس باعتبارهم غيرَ مُساوين له في الكرامة والقيمة. وفي ذلك عكسوا الهواجسَ العميقةَ اليوم لدى الكثيرين بشأن المفهوم المسيحيّ عن إلهٍ يَدينُ الناسَ ويُرسلهم إلى جهنَّم. وقد حاجُّوا بأنَّ هذا المُعتقَد يؤدِّي إلى الحصريَّة والتعسُّف والشِّقاق، بل إلى العُنف أيضًا.

إنَّ الدينونة الإلهيَّة، من منظور حضارة الغَرب، تُمثِّل واحدةً من عقائد المسيحيَّة الأكثر إثارةً للاستياء والسُّخط. وبِصِفَتي خادمًا وواعظًا، فكثيرًا ما أجدُ نفسي مُتكلِّمًا بشأن نصوصٍ في الكتاب المقدَّس تُعلِّمُ غضبَ الله والدينونةَ الأخيرة وعقيدةَ جهنَّم. وعلى مدى سنين، أقيمُ دائمًا حلقةً للأسئلة والأجوبة بعد الخدمة مباشرةً. في تلك الحلقات أتعرَّضُ للاستجواب القاسي بانتظام من قِبَل النيويوركيِّين بشأن هذه التَّعاليم.

وقد تبيَّنَ لي أنَّ تضايُقَهم الشديدَ إزاء هذه الناحية من الإيمان المسيحيِّ التاريخيِّ يُمكنُ تفهُّمُه تمامًا. ورُغمَ أنَّ الاعتراضَ على فكرةِ جهنَّم والدَّينونة قد يبدو أقربَ إلى الشُّعور بالاشمئزاز البغيض منه إلى الشكّ، فما زال في وُسعنا أن نجدَ عددًا من المعتقدات المُحدَّدة جدًّا مخبوءًا في داخله. فَلْننظُرْ في كلٍّ منها على التوالي.

إلهُ الدَّينونة لا يمكن أن يوجَد حقًّا

يتحدَّثُ روبرت بِلاه (Robert Bellah)، في مؤلَّفه المؤثِّر "**عاداتُ القلب**" (Habits of the Heart)، عن "الفردانيَّة المُعبِّرة" التي تُهَيمنُ على الثقافة الأميركيَّة. وهو في كتابه هذا يُلاحظ أنَّ ٨٠٪ من الأميركيِّين يُسلِّمون بالمَقولة التالية: "ينبغي للفرد أن يتوصَّلَ إلى مُعتقَداته الدينيَّة الشخصيَّة بالاستقلال عن أيِّ مَجمَع أو كنيسة".[٢] ثُمَّ يخلص بِلاه إلى أنَّ المُعتقَدَ الأكثر أساسيَّةً في الثقافة الأميركيَّة هو أنَّ الحقَّ الخُلُقيَّ نسبيٌّ تبعًا للوَعي الفرديّ. ولذلك لا تواجِهُ تلك الثقافة مشكلةً بشأن إلهٍ محبَّة يُساندنا بِصَرف النَّظر عن الكيفيَّة التي نعيش بحسبها. غير أنَّها تعترضُ بشدَّة على فكرة إلهٍ يُعاقب الناسَ على معتقداتهم التي يعتنقونَها بإخلاص، حتَّى لو كانوا على خطأ. ولكنَّ وراءَ هذا الاعتراض تاريخًا ثقافيًّا طويلًا.

في كتاب سي. أس. لِويس الكلاسيكيِّ "**إبطالُ الإنسان**" (The Abolition of Man)، يرسم الكاتب الخطوطَ العريضة لما يحسبُه فرقًا رئيسيًّا بين النظرة القديمة إلى الحقيقة والنظرة الحديثة إليها. ويُهاجمُ لِويس اعتقادَنا الاعتداديَّ أنَّ الأقدَمين آمَنُوا بالسِّحر ثُمَّ أقبلَ العلم وحلَّ محلَّه. فإذ كان خبيرًا بحضارة القرون الوُسطى وكيف خلفَتها العصريَّة،

علم أنَّ السِّحر في تلك الأزمنة كان قليلًا جدًّا، وأنَّه قد بلغَ أوجَهُ في القرنَين السادس عشر والسابع عشر، في الزَّمن الذي فيه كان العلمُ الحديث آخِذًا في التطوُّر. وقد حاجَّ لِويس بأنَّ السَّبب نفسَه أدَّى إلى بروز كلَيهما.

> إنّ المسعى السّحريّ الجِدّيّ والمسعى العلميّ الجدّيّ توأمان: أحدُهما كان عليلَ الصِّحّة فمات، والآخر كان قويًّا فعاش. غير أنّهما توأمان، وقد وُلِدا من النّزعة نفسِها.[٣]

ويصف لِويس تلكَ النَّزعة المُتبدِّية في مُقارَبةٍ جديدة إلى الحقيقة الخُلُقيَّة والروحيَّة.

> ثمّة شيءٌ يُوحِّدُ السّحر والعِلمَ التطبيقيّ فيما يفصلُهما كلَيهما عن "حكمة" القرون الأولى. فبالنّسبة إلى حُكَماء القِدَم، كانت المسألةُ الرئيسيّة كيف تتكيّف النّفسُ مع الحقيقة، وكان الحلُّ هو المعرفةَ وضبطَ النّفس والفضيلة. أمّا بالنسبة إلى السّحر والعلم التطبيقيّ على السواء فالمسألةُ هي كيف تُخضَع الحقيقةُ لِرَغبات البشر. والحلُّ هو تِقنيّة ما. وهذان كلاهما، في ممارسة هذه التّقنيّة، مُستعدّان لأنْ يفعلا أمورًا كانت تُعدُّ حتّى اليوم مُثيرةً للاشمئزاز ومُنافية للتّقوى...[٤]

كان مفهومًا في الأزمنة القديمة أنَّ هنالك نظامًا أدبيًّا ساميًا خارج الذات مُتداخلًا في نسيج الكون. فإنِ انتهكتَ ذلك النِّظام الفَوطبيعيَّ تتعرَّضُ لعواقبَ صارمة كما لو انتهكتَ الحقيقة الطبيعيَّة بإقحام يدك في النَّار. وكان سبيلُ الحكمة أن تتعلَّمَ العيشَ وَفقًا لهذه الحقيقة الصُّلبة. وقد اعتمدَتْ تلك الحكمة إلى مدًى بعيدٍ على اكتساب الفضائل الخُلُقيَّة، من قبيل التَّواضُع والرَّحمة والشجاعة والتعقُّل والوفاء.

أمَّا العصريَّةُ فقد عكسَتْ ذلك. إذ لم تُرَ الحقيقةُ المُطلَقةُ كنظام فَوطبيعيٍّ بل على أنَّها العالَمُ الطبيعيُّ، وكان ذلك المفهوم طيِّعًا. فبَدَل أن نُحاولَ تشكيلَ رغباتنا لتُوافِقَ الحقيقة، نسعى الآن إلى إخضاع الحقيقة وتشكيلها بحيث تُوافِقُ رغباتنا. فإذا نظرَ الأقدمون إلى شخصٍ قَلِقِ البال، كانوا يَصِفون له تغييرَ الخُلُق روحيًّا. أمَّا العصريَّة فتتحدَّث بدلًا من ذلك بشأن تِقنيَّاتِ تصريفِ الضَّغط.

لقد عَلِمَ لِويس أنَّ القُرَّاء قد يظنُّونه ضدَّ المنهج العلميِّ في حدِّ ذاته، غير أنَّه حاجَّ بأنَّه ليس كذلك. فهو إنَّما أرادَ لنا أن نُدرِكَ أنَّ العصريَّة وُلِدتْ في "أحلام السُّلطة". وإذ كتب لِويس في أثناء الحرب العالميَّة الثانية، كان واقفًا وسطَ بعضٍ من أمرِّ الثِّمار التي أنتجَتْها الروحُ العصريَّة. وقد كتب صديقُ لويس، جاي. آر. آر. تُولكين (J. R. R. Tolkien)، "**سيِّد الخواتم**" (The Lord of the Rings) عن عواقب نُشدان السُّلطة والسَّيطرة بدلًا من الحكمة والتمتُّع البهيج "بما هي عليه" خليقة الله.[٥]

فَروحُ العصريَّةِ إذًا أعطَتْنا مسؤوليَّةَ تحديد الصَّواب والخطأ. وثقتُنا الجديدة بأنَّنا نستطيعُ السيطرة على البيئة الطبيعيَّة قد طفحَتْ، حتَّى بِتْنا الآن نعتقدُ أنَّنا نستطيعُ أيضًا أن نُعيدَ تشكيلَ العالَم الميتافيزيقيّ. لذلك يبدو لعُقولنا أمرًا يفتقرُ إلى الإنصاف أن نقرِّرَ أنَّه لا بأس في ممارسة الجنس خارج الزواج، ثُمَّ يتبيَّن لنا في ما بعد أنَّ هنالك إلهًا سوف يُعاقبُنا على ذلك. فنحن نعتقدُ اعتقادًا راسخًا بحقوقنا الشخصيَّة في هذا المجال بحيث تبدو فكرةُ وجود يوم دينونة إلهيٍّ غير معقولة. ولكنَّ هذا المُعتقد، كما يُبيِّن لنا لِويس، مرتَبطٌ بسَعيٍ إلى السَّيطرة والسُّلطة كانت له عواقبُ رهيبةٌ في تاريخ العالَم الحديث. ولَم يَقبَلِ الجنسُ البشريُّ كلُّه رؤيةَ العصريَّة إلى الأمور اليوم.

فلماذا ينبغي أن نتصرَّفَ كما لو أنَّ هذه الرؤيةَ كانت أمرًا لا مفرَّ منه؟

في واحدةٍ من المُناقَشات التي أجريها بعد خدمات الأحد، قالت لي امرأةٌ إنَّ مُجرَّدَ فكرة إله ديَّان كانت تُثير استياءَها. فقلتُ لها: "لماذا لا تُثير استياءكِ فكرةُ إلهٍ غفور؟" فبدا عليها الارتباك. وتابعتُ: "إنِّي أحثُّكِ باحترامٍ على أن تأخذي في الحسبان مَوقعكِ الحضاريَّ حين تَجدين التعليمَ المسيحيَّ المُتعلِّق بجهنَّم باعثًا على الاستياء". ثُمَّ مضيتُ كي ألاحظ أنَّ الغربيِّين اللَّادينيِّين يمتعضون من التعاليم المسيحيَّة الخاصَّة بجهنَّم، ولكنَّهم يجدون تعليمَ الكتاب المقدَّس عن تحويل الخدِّ الآخر والغفران للأعداء تعليمًا فاتنًا. ومن ثَمَّ طلبتُ إليها أن تأخذَ في الحسبان كيف ينظرُ إلى المسيحيَّة شخصٌ ينتمي إلى حضارةٍ أخرى. ففي المُجتمعات التقليديَّة، لا يعني التعليمُ عن "تحويل الخدِّ الآخر" شيئًا على الإطلاق، إذ يُغيظُ أعمق غرائز القوم بشأن ما هو صواب. ولكنَّ عقيدةَ وجود إلهٍ ديَّان لا تُشكِّلُ لديهم أيَّة مشكلة إطلاقًا. فذلك المجتمع تُنفِّره نواحي المسيحيَّة التي يستمتعُ بها الغربيُّون، وتجذبه النواحي التي لا يستطيع الغربيُّون اللَّادينيُّون أن يحتملوها.

ثُمَّ خلصتُ إلى السؤال: لماذا ينبغي أن تكونَ المُدرَكات الثَّقافية الغربيَّة هي المحكمة النِّهائية التي فيها نَبتُّ في صحَّة المسيحيَّة؟ وسألتُ السيِّدةَ بلُطف إنْ كانت تعتقدُ أنَّ حضارتَها مُتفوِّقةٌ على الحضارات غير الغربيَّة. فأجابت على الفَور: "لا". فسألتُها: "إذًا، لماذا ينبغي لاعتراضات حضارتك على المسيحيَّة أن تتغلَّبَ على اعتراضاتهم؟"

وفي سبيل المُجادلة، فَلْنتصوَّرْ أنَّ المسيحيَّة ليستْ حصيلةَ أيَّة حضارة بِعَينها، بل هي بالفعل حقُّ الله الذي يَتخطَّى الحضارات. فإذا كان ذلك

هو واقعَ الحال، فمن شأننا أن نتوقَّعَ أنَّ المسيحيَّة لا بدَّ أن تُناقِضَ وتُعثرَ كلَّ حضارة بشريَّة في نُقطةٍ ما، لأنَّ الحضارات البشريَّة دائمةُ التغيُّر وغيرُ كاملة. إذًا، إنْ كانت المسيحيَّةُ هي الحقَّ فلا بُدَّ أن تكونَ مُغيظةً لك ومُصحِّحةً لتفكيرك في مكانٍ ما. وربَّما كان هذا هو المكان: العقيدة المسيحيَّة بشأن الدَّينونة الإلهيَّة.

إله الدَّينونة لا يمكن أن يكونَ إله المحبَّة

في المسيحيَّة، الله هو إله محبَّةٍ وإله عدلٍ معًا. وكثيرون يخوضون صراعًا مع هذه الحقيقة. فهُم يعتقدون أنَّ إلهًا مُحِبًّا لا يمكنُ أن يكونَ إلهًا ديَّانًا. وحالي حالُ معظم الخُدَّام المسيحيِّين الآخرين في المجتمع الغربيّ، سُئلتُ حرفيًّا آلاف المرَّات: "كيف يُعقَلُ أن يكونَ إلهُ محبَّةٍ هو أيضًا إلهًا مُمتلئًا بالسَّخَط والغضب؟ إنْ كان مُحِبًّا وكاملًا، فينبغي أن يُسامحَ كلَّ إنسانٍ ويقبلَه، ولا ينبغي أن يغضب".

ودائمًا أباشِرُ إجابتي بالإشارة إلى أنَّ جميعَ الأشخاص المُحِبِّين يمتلئون أحيانًا بالغضب، ليس على الرُّغم من محبَّتهم فحسب، بل بسببها. فإنْ كنتَ تحبُّ شخصًا ورأيتَ أحدًا يُفسده- حتَّى لو كان الشخص هو مَن يفسدُ ذاته- فإنَّك تغضب. وعلى حدِّ تعبير بكي پِپرت (Becky Pippert) في كتابها "**للرَّجاء أسبابُه**" (Hope Has Its Reasons):

> فكِّرْ كيف يكونَ شعورُنا عندما نرى شخصًا نحبُّه يتعرَّض للفساد من جرَّاء أفعالٍ أو علاقاتٍ طائشة. هل نردُّ بالتّساهل اللطيف كما قد نفعل تُجاه الغُرباء؟ كلّا! ليس الغضبُ نقيضَ المحبَّة. بل البُغض هو نقيضُها، وآخرُ شكلٍ من البُغض هو

> اللّامُبالاة... إنّ غضبَ الله ليس انفجارًا مزاجيًّا، بل هو معارضته الثابتة للآفة المُهلكة، تلك التي تلتهمُ أحشاء الجنس البشريّ الذي يحبُّه تعالى بكلّ كِيانه.[٦]

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ غضبَ الله ينبعُ من محبَّته ومسرَّته بخليقته. فهو غاضبٌ على الشرِّ والظُّلم لأنَّهما يُبدِّدان سلامَها وكمالَها.

> الرَّبُّ بارٌّ في كلِّ طُرقه ورحيمٌ في كلِّ أعماله (أو مُحِبٌّ تُجاه جميع مخلوقاته)... يحفظُ الربُّ كلَّ مُحبِّيه، ويُهلك جميع الأشرار (المزمور ١٤٥: ١٧-٢٠).

في هذا المجال يتشكّى كثيرون أنَّ أولئك الذين يؤمنون بإلهِ دينونة لن يُقارِبوا أعداءَهم برَغبةٍ في التَّصالُح معهم. فإنْ كنتَ تؤمنُ بإله يضربُ فَعَلَةَ الشرّ، فقد تحسبُه أمرًا مُبرَّرًا تمامًا أن تقومَ أنت نفسُك بشيءٍ من الضَّرب. إنَّ لاهوتيَّ جامعة يال، ميروسلاف ڤولف (Miroslav Volf)، وهو كُرواتيٌّ شهدَ العنفَ في بلاد البلقان، لا يرى العقيدةَ بشأن إلهِ دينونةٍ بهذا المنظار. فقد كتب:

> لو كان الله **غيرَ غاضب** على الظُّلم والخداع؛ وإن كان **لا** يضعُ حدًّا نهائيًّا للعُنف، لمَا كان ذلك الإلهُ يستحقُّ أن يُعبَد... فالوسيلةُ الوحيدة للحيلولة دون أيِّ لجوء إلى العُنف **من قِبَلنا** هي الإصرارُ على أنَّ العنف يكونُ مشروعًا فقط حين يأتي من عند الله. مَقولتي إنّ ممارسة اللّاعُنف تقتضي إيمانًا بالانتقام الإلٰهيّ لَن تلقى شعبيّةً كبيرة في الغرب. ولكنَّ ولادةَ الفرضيّة القائلة إنَّ اللّاعُنف البشريَّ ينتجُ من الإيمان برَفض الله الديّان تقتضي

> سكينة بيتٍ في ضاحية مدينة (أي حياةً راقيةً ساكنة بعيدًا عن العنف وأعباء الحياة). ففي بلدٍ تَسفعُهُ الشّمس، مغموسٍ بدماء الأبرياء، لا بدّ أن تموتَ تلك الفرضيّة على نحوٍ ثابت، ومعها أمور أخرى سارّة لطالما أسرَتِ العقل الليبراليّ.[٧]

في هذا المقطع الرائع يضع ڤولف الحجَّة بأنَّ عدم الإيمان بإله انتقام هو الذي "يُغذِّي العنف في الخفاء".[٨] فالنزعة البشريَّة إلى جَعْل مُرتكبي العنف يدفعون ثمن جرائمهم تكادُ تكونُ نزعةً طاغية. إذ لا يمكن قهرُها بمُلاحظة تافهة من قَبيل "والآن، أمَا ترى أنَّ العُنف لن يحلَّ أيَّ شيء؟" فإنْ كنتَ قد شاهدتَ بيتَك محروقًا ومهدومًا، وأقرباءَك قد تعرَّضوا للقَتل والاغتصاب، يكون كلامٌ كهذا مدعاةً للضَّحك. إلّا أنَّ ضحايا العُنف يُحمَلون على تخطّي العدالة إلى الثأر الذي يقول: "أنت فقأتَ إحدى عينيَّ، فأنا سأفقأ لك الاثنتَين". إنَّهم يُجَرُّون بلا هَوادة إلى دَورةٍ لا تنتهي من الانتقام، من الضَّربات والضَّربات المُضادَّة، تُغذّيها وتُسوِّغها ذكرى المظالم والإساءات الرهيبة.

أيُمكنُ لتَوقنا إلى العدالة أن يُلبَّى بطريقةٍ شريفة لا تُغذّي تلهُّفَنا إلى الانتقام الدَّامي؟ يقول ڤولف إنَّ أفضل مَوردٍ لذلك هو الإيمان بمفهوم عدالة الله السماويَّة. فإنْ كنتُ لا أومنُ بوجود إلهٍ سيَضعُ الأمور في نصابها الصَّحيح أخيرًا، فإنّي سأحملُ السَّيف وأغوصُ في دوَّامة الانتقام التي لا نهايةَ لها. أمَّا إذا كنتُ على يقينٍ بأنَّ ثَمَّة إلهًا سيُقوِّمُ جميعَ المظالم ويُسوّي جميع الحسابات تمامًا، فعندئذٍ فقط تكون لي القُدرة على الإحجام عن الأَخْذ بالثأر.

إنَّ الشّاعر البولنديَّ الحائزَ جائزة نوبل، تشِسْلاف ميلوتْش (Czeslaw Milosz)، كتبَ مقالةً رائعةً عُنوانُها "**مَفاتِنُ العدميَّة الحذرةُ**"

(The Discreet Charms of Nihilism). وفيها يتذكَّرُ كيف دعا ماركس الدِّين "أفيونَ الشَّعب" لأنَّ الوعدَ بحياةٍ بعد الموت (على حدِّ قَول ماركس) حملَ الفُقراء والطَّبقةَ العاملة على تحمُّلِ الظُّروف الاجتماعيَّة الجائرة. ولكن ميلوتْش يُتابع:

> وها نحن الآن نشهد تحوُّلًا. فأفيونُ الشَّعب الحقيقيُّ هو اعتقادٌ بالعدم بعد الموت- ذلك العزاءُ الضّخم في التفكير بأنّ خياناتنا وجشعنا وجُبننا وجرائم القتل التي ارتكبناها كلّها لن تُدان... غير أنّ جميع الأديان تُسلّم بأنّ أعمالَنا لا تُفنى.[٩]

يتشكَّى كثيرون أنَّ الإيمانَ بإلهٍ دينونةٍ سيُفضي إلى مجتمعٍ أكثر وحشيَّة. وقد رأى ميلوتْش شخصيًّا، في النازيَّة والشيوعيَّة كلتَيهما، أنَّ عدمَ الإيمان بإلهٍ ديَّان يمكن أن يُفضيَ إلى الوحشيَّة. فإنْ كُنَّا أحرارًا في أن نُشكِّلَ الحياةَ والأخلاقَ بأيَّة طريقة نختارها بغَير مُحاسَبيَّة نهائيَّة، يمكنُ أن يؤدِّيَ ذلك إلى العُنف. وقد حاجَّ ڤولف وميلوتْش بأنَّ عقيدةَ دينونةِ الله الأخيرة هي أساسٌ ضروريٌّ لمُمارسات المحبَّة وصُنع السلام وسط النَّاس.

الإلهُ المُحبُّ لن يسمحَ بوجود جهنَّم

لعلَّك تقول: "آه، إنَّ مُكافحةَ الشَّرِّ والظلم في العالَم شيء، أمَّا إرسالُ الناس إلى جهنَّم فشيءٌ آخر. إنَّ الكتابَ المقدَّس يتحدَّثُ بشأن العقاب الأبديّ. فكيف يَتوافق هذا مع محبَّة الله؟ لا يُمكنني أن أُوَفِّقَ مُجرَّدَ فكرةِ جهنَّم مع إلهٍ مُحِبّ". فكيف نتولَّى أمرَ هذا التوفيق المنطقيّ؟

يُفكِّر أهلُ عصرنا حتمًا في مسألة جهنَّم إجرائيًّا على النَّحو التالي: الله

يُعطينا وقتًا، ولكن إن كُنَّا لَم نقُم بالاختيارات الصحيحة في آخر حياتنا، يَطرحُ نفوسَنا في جهنَّم طوال الأبديَّة. وإذ تهوي النفوسُ المسكينة عبرَ الفضاء، تَصرخُ طالبةً الرَّحمة، ولكنَّ الله يقول: "فات الأوان! لقد أتيحَتْ لكِ فُرصَتُك! والآنَ سوف تَتعذَّبين!" غير أنَّ هذه الصُّورة المَمسوخة تُسيءُ فَهمَ طبيعة الشرِّ بحدِّ ذاتها. فالصُّورة التي يُبرِزُها الكتابُ المقدَّس هي أنَّ الخطيَّة تفصلُنا عن حضرة الله التي هي مصدرُ كلِّ فرح، وكلِّ محبَّةٍ وحكمةٍ حقًّا، وكلِّ أمرٍ صالح من أيِّ نوع كان. ولمَّا كنَّا قد خُلقْنا أصلًا للتمتُّع بحضرة الله المباشرة، فأمام وجهه فقط نَنمو ونَزهو ونُحقِّقُ أقصى إمكانيَّاتنا. فإن حُرِمنا حضرتَه كلِّيًّا، كان ذلك هو جهنَّم: أي فقدان قدرتنا على بَذْل المحبَّة أو الفرح أو تلقِّيهما.

من الصُّوَر الشائعة في الكتاب المقدَّس لجهنَّم صورةُ النار.[١٠] فالنَّار تُفسِّخ وتُدمِّر. حتَّى إنَّنا في هذه الحياة نستطيع أن نرى نوعَ تدمير النَّفس ذاك الذي يُحدِثه التَّمَحوُرُ حول الذَّات. ونحن نعلَمُ كيف تؤدِّي الأنانيَّةُ والانهماكُ في الشؤون الذاتيَّة إلى المرارة الحادَّة، والحسد المُقزِّز، والقلق المُشِلّ، وهواجس الارتياب، وما يَصحبُ ذلك كلَّه من إنكاراتٍ وتشويهاتٍ ذهنيَّة. فَاطْرحْ هذا السؤال الآن: "ماذا يكون لو أنَّنا عندما نموت لا ننتهي، بل تستمرُّ حياتُنا روحيًّا طوال الأبديَّة؟" وهكذا، فإنَّ جهنَّم هي المسارُ المستمرُّ لنَفْسٍ تعيشُ حياةً مُتحوِرةً حول الذَّات ومُنهمِكةً في الشؤون الذاتيَّة، ذاك المسارُ الذي يدوم ويدوم إلى الأبد.

إنَّ قصَّةَ لعازَر والغنيِّ التي حكاها السيِّد المسيح في إنجيل لوقا ١٦ تؤيِّدُ النظرةَ التي نعرضها هُنا بشأن جهنَّم. ولعازَر إنسانٌ فقيرٌ يستعطي عند باب غنيٍّ قاسي القلب. ثُمَّ يموتان كلاهما، فيذهبُ لعازَر إلى

السماء، وأمَّا الغنيُّ فيَذهب إلى الجحيم. وهناك ينظرُ إلى فوق فيرى لعازَر في السَّماء "في حضن إبراهيم".

> فنادى وقال يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازَر ليبلَّ طرف إصبعِه بماءٍ لساني لأنِّي معذَّبٌ في هذا اللهيب. فقال إبراهيم يا ابني اذكُر أنَّك استَوفيتَ خيراتك في حياتك وكذلك لعازَر البلايا. والآن هو يتعزَّى وأنت تتعذَّب. وفوق هذا كلِّه بيننا وبينكم هوَّةٌ عظيمة قد أُثْبِتَتْ حتَّى إنَّ الذين يريدون العبور من هنا إليكم لا يقدرون، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا. فقال أسأَلك إذًا يا أَبَتِ أن ترسلَه إلى بيت أبي. لأنَّ لي خمسةَ إخوة حتَّى يشهدَ لهم لكَيلا يأتوا هم أيضًا إلى مَوضع العذاب هذا. فقال لهُ إبراهيم عندهم موسى والأنبياءُ. ليَسمعوا منهم. فقال لهُ إنْ كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياءِ ولا إنْ قامَ واحدٌ من الأموات يصدِّقون (لوقا ١٦: ٢٤-٣١).

ما يُذهِل هو أنَّه على الرُّغم من كَون حالتَي الرَّجُلين قد انعكسَتا الآن، يبدو أنَّ الغنيَّ أعمى بالنِّسبة إلى ما قد حصل. فهو ما يزال يتوقَّعُ من لعازَر أن يكونَ خادمَه، وهو يعامله كما لو كان ساقيَه. إنَّه لا يطلبُ أن يُطلَقَ من الجحيم، إلَّا أنَّه يُلمِّح بقوَّة إلى أنَّ الله لم يُزوِّده هو وعائلتَه قطُّ بمعلوماتٍ كافيةٍ عن الحياة بعد الموت. وقد أشارَ المُفسِّرون إلى المقدار المُذهل من الإنكار وإلقاء اللَّوم والعمى الروحيّ، ذاك الذي كان لدى هذه النَّفس التي تُكابِدُ عذابَ جهنَّم. وقد لاحظوا أيضًا أنَّ الغنيَّ، على خلاف لعازَر،

لم يُسمَّ قطُّ بأيِّ اسمٍ شخصيّ. فهو إنَّما يُعرَّفُ بأنَّه "إنسانٌ غنيٌّ"، ممَّا يلفتُ النظر بقوَّة إلى أنَّه لمَّا كان قد بنى هُويَّته على غناه، لا على الله، فإنَّه ما إنْ فقدَ غناه حتَّى فقدَ كلَّ وعيٍ لكِيانٍ ذاتيٍّ جَليّ.

وبالاختصار، فإنَّ جهنَّم هي حقًّا هُويَّة المرء التي يختارها حُرًّا بمعزلٍ عن الله، في مسارٍ مُستمرٍّ إلى اللَّانهاية. ونحن نرى هذه العمليَّة "مكتوبةً بصورة مُصغَّرة" في إدمانات المخدِّرات والكحول والقِمار والپُورنوغرافيا (الصُّوَر الخلاعيَّة). فأوَّلًا، يحصل تفسُّخ؛ لأنَّه بمرور الوقت يحتاج المرء إلى مقدارٍ متَزايد من مادَّة الإدمان للحصول على المتعة المألوفة، الأمرُ الذي يؤدِّي إلى إشباعٍ مُتناقص. وثانيًا، يحصل الانعزال، إذ يُلقي المرءُ باللَّوم بصورةٍ مُتزايدة على الآخرين والظُّروف لكي يُسوِّغ سلوكه. "لا أحد يفهم! الجميعُ ضدِّي!" دَمدمةٌ تُطلَق بمقدارٍ مُتزايد من رثاء الذات والانهماك في شؤون الذات. وعندما نبني حياتنا على أيِّ شيءٍ سوى الله، فإنَّ ذلك الشيء، رُغمَ كَونه جيِّدًا، يُصبح إدمانًا مُستعبِدًا- شيئًا يجبُ أن نحوزَه لكي نشعرَ بالسُّرور. ثُمَّ يحصل التفسُّخ الشخصيُّ على نطاقٍ أوسَع. وفي الأبدية، يستمرُّ هذا التفسُّخ إلى الأبد. فهنالك يتزايدُ الانعزال والإنكار والانخداع والانهماك في بليَّة الذات. وحين يفقدُ المرءُ كلَّ اتِّضاع، يفقد إذ ذاك الصِّلة بالواقع. فلا أحدَ يطلبُ مغادرةَ جهنَّم أبدًا. حتَّى فكرةُ السَّماءِ ذاتُها تبدو لأهل الجحيم وهمًا.

في الرواية الخياليَّة التي ألَّفها سي. أس. لِويس بعُنوان "الطَّلاق الكبير" (The Great Divorce)، يَصِفُ الكاتبُ مِلْءَ حافلةٍ من أهل الجحيم يذهبون إلى ضواحي السَّماء. وهنالك يُطلَبُ إليهم أن يُقلِعوا عن الخطايا التي أوقَعتْهم في شَرَك جهنَّم... إلَّا أنَّهم يرفضون ذلك. وأوصاف

لِويس لهؤلاء القوم مؤثِّرةٌ جدًّا؛ لأنّنا نلاحظُ فيها خداع الذّات والانهماكَ الذاتيَّ اللَّذَين هُما "مكتوبان بصورة مُصغَّرة" في إدماناتنا.[١١]

> تبدأ جهنّم بمزاجٍ مُتذمّر، دائم التّشكّي ودائم الإلقاء باللّوم على الآخرين... ولكنّك ما تزال مُتميّزًا عنه. حتّى إنّك قد تنتقدُه في نفسك وتودُّ لو يتسنّى لك أن تكفَّ عنه. ولكنْ قد يأتي يومٌ لا تعود فيه قادرًا على ذلك. وعندئذٍ لن يتبقّى "**أنت**" لانتقاد ذلك المزاج، أو حتّى للتمتُّع به، بل يتبقّى التذمُّر ذاتُه، مُستمرًّا إلى الأبد كأنّه آلة. فليستِ المسألةُ مسألة "إرسال اللّه إيّانا" إلى جهنّم. إذ إنّ في كُلٍّ منّا شيئًا ينمو، وهو سوف **يصير جهنّم** إلّا إذا قضينا عليه في مهدِه.[١٢]

إنَّ أهلَ الجحيم بائسون، ولكنَّ لِويس يُبيِّن لنا السبب. فنحن نرى في اضطرامٍ، كألسنةِ لهيب جامحة، كبرياءَهم وارتيابَهم، ورثاءَهم لِذَواتهم، ويقينَهم بأنَّ كلَّ إنسان سواهم على خطأ، بأنَّ كلَّ امرىءٍ عداهم أحمق! فإنَّ كلَّ تواضُعِهم قد تبدَّد، وكذلك سلامةُ عقولهم أيضًا. إنَّهم محبوسون كلِّيًّا ونهائيًّا في سجنٍ من أنانيَّتهم، وكبرياؤهم تنتشرُ بالتَّدريج لتصيرَ غمامةً على شكل فِطر المشروم تَتعاظم وتَتفاقم. وهم يظلُّون يتصدَّعون ويَنقسمون إلى شظايا إلى الأبد، مُلقينَ باللَّوم على الجميع ما عدا أنفسهم. تلك هي جهنَّم، بِصُورتها الكبرى.

ولذلك هي صورةٌ زائفةٌ تلك التي تُصوِّر الله طارحًا أناسًا في هُوَّة سحيقةٍ وهُم يصرخون: "أنا أعتذرُ! أخرِجني من هنا!" فرُكَّابُ الحافلة الخارجة من الجحيم في رواية لِويس الرمزيَّة، يُفضِّلون الحصول على "حرِّيَّتهم"، كما يُعرِّفونها، لا على الخلاص. وهُم يتوهَّمون أنَّهم إذا مجَّدوا

الله فسيَفقدون القُدرةَ والحرِّيَّة بطريقةٍ ما، ولكنْ في سُخريةٍ فائقة ومأساويَّة بدَّد اختيارُهم إمكانيَّةَ إحرازهم للعَظَمة. وكما جاء في رسالة رومية، فقد "أسلمهم الله في شهوات قلوبهم إلى النجاسة" (رومية ١: ٢٤). فكلُّ ما يفعله الله في النِّهاية بالناس هو أن يُعطيَهم ما يُريدونه أكثرَ الكُلّ، ومن ضِمنهُ التحرُّر من العلاقة به. وأيُّ شيءٍ يمكن أن يكون أكثر إنصافًا من ذلك؟ وقد كتب لِويس في هذا الشأن:

> ثمَّة فقط نوعان من الناس: أولئك الذين يقولون لله "لتَكُن مشيئتك"، وأولئك الذين يقولُ اللهُ لكلٍّ منهم في الأخير "لتكنْ مشيئتك". فإنَّ جميع الذين في جهنَّم يختارونها. ولولا ذلك الاختيار الذاتيُّ ما كانت جهنَّمُ على حالها. فما من نفسٍ ترغبُ في الفرح بجدٍّ وثبات سوف تفوتُه على الإطلاق.[١٣]

جهنَّمُ والمُساواة بين الناس

ولْنرجَعْ إلى الصّحافيِّين الشكّاكين في حلقة النِّقاش التي عقدَها رِك وارن. فقد أقلقَهم أنَّ أيَّ مسيحيٍّ يعتقدُ أنَّ بعض الناس مصيرُهم جهنَّم لا بدَّ أن يتصوَّرَ أنَّ أولئك الناس يفتقرون إلى المُساواة وأنَّهم أقلُّ استحقاقًا للحقوق المدنيَّة. ولكنَّ هذا القلقَ يُسيء فَهْمَ ما يُعلِّمه الكتاب المقدَّس عن طبيعة الخلاص والدينونة.

فكما يُشير سي. أس. لِويس، الرِّحلةُ إلى جهنَّم هي عمليَّةٌ يُمكن أن تبدأ بشيءٍ حميدٍ في ظاهره، مثل المزاج المتذمِّر. فلا أحدَ يقدرُ أن يُجيلَ بصره على جماعة المُتعبِّدين في يوم الأحد، أو جمهور المُشاهدين في إحدى المُباريات، أو المُستمعين في حفلةٍ موسيقيَّةٍ كبيرة، ويكونَ على يقينٍ من جهة

مَن سيَذهب في آخر المطاف إلى السَّماء أو إلى جهنَّم. إذ إنَّ المُجاهرَ اليومَ بأنَّه مؤمنٌ قد يكون هو المُرتدَّ غدًا، كما أنَّ المُجاهرَ اليوم بأنه غير مؤمن قد يكون هو المُهتديَ غدًا. فيجب علينا ألَّا نُقرِّرَ قراراتٍ ثابتةً ونهائيَّةً بشأن الحالة الروحيَّة لأيِّ شخص، أو بشأن مصيره الأبديّ.

بعدما تحدَّثتُ مرَّةً بشأن الإيمان المسيحيِّ إلى حَشدٍ مُجتمِعٍ في بيتٍ مَدينيٍّ في مَنهاتن، تقدَّمتْ إليَّ امرأتان سمعتا حديثي. وقالت لي كلتاهما إنَّ الإيمانَ بالدينونة الأبديَّة يجعلُني شخصًا ضيِّق الأفق كثيرًا. فسألتُهما: "أنتما تعتقدان أنِّي مُخطئٌ بشأن هذه الأسئلة الدِّينيَّة، وأنا أعتقد أنَّكما مُخطئتان. فلماذا لا يجعلكما ذلك ضيِّقتَي الأفق على غراري؟" وردَّتْ إحداهما: "هذا الأمر مختلف. فأنت تعتقد أنَّنا هالكتان إلى الأبد! ونحن لا نعتقد أنَّك أنت هالك. وهذا يجعلك أضيقَ مِنَّا أفقًا". إلَّا أنِّي لم أوافق، وإليك ما اقترحتُه عليهما.

إنَّ المسيحيَّ المؤمن والشَّخص اللَّادينيَّ كلَيهما يعتقدان أنَّ للأنانيَّة والقساوة عواقبَ ضارَّةً جدًّا. فلأنَّ المسيحيِّين يؤمنون بأنَّ النُّفوس لا تموت، فهُم أيضًا يؤمنون بأنَّ الأخطاء الخُلُقيَّة والروحيَّة تؤثِّر في النَّفس إلى الأبد. والأشخاصُ الليبراليُّون اللَّادينيُّون يؤمنون أيضًا بأنَّ هنالك أخطاءً خُلُقيَّة وروحيَّة رهيبة، مثل الاستغلال والظُّلم. ولكنْ لأنَّهم لا يؤمنون بحياةٍ بعد الموت، فهُم لا يعتقدون أنَّ عواقبَ ارتكاب الأخطاء تستمرُّ مدى الأبديَّة. فلأنَّ المسيحيِّين يعتقدون أنَّ للإثم عواقبَ أطول أمَدًا ممَّا يعتقد اللَّادينيُّون، أفَيَعني ذلك أنَّهم أضيقُ أفقًا بطريقةٍ ما؟

تخيَّلْ شخصَين يتجادلان بشأن طبيعةِ كعكةٍ مُحلَّاة صغيرة. فَسليم يعتقد أنَّ الكعكة سمّ. وسلمى تعتقد أنَّها ليست كذلك. وسليم يعتقد أنَّ

نظرةَ سلمى الخاطئةَ إلى الكعكة ستُؤدِّي بها إلى المشفى أو إلى ما هو أسوأ. وسلمى تعتقد أنَّ نظرة سليم الخاطئة إلى الكعكة ستَحرمه تناوُلَ كعكةٍ طيِّبة. فهل سليمٌ أضيَقُ من سلمى أفقَ تفكيرٍ فقط لأنَّه يعتقد أنَّ عواقبَ غلطتها أرهَب؟ لستُ أظنُّ أنَّ أحدًا يعتقد ذلك. وهكذا، فإنَّ المسيحيِّين لَيسوا أضيقَ أفقًا لأنَّهم يعتقدون أنَّ للتَّفكير والتَّصرُّف الخاطئَين آثارًا أبديَّة.

"إنِّي أومن بإلهِ محبَّة"

في أثناء سنوات دراستي الجامعيَّة وأوائل عشرينيَّاتي، شأني شأنُ كثيرين غيري، نظرتُ بِعَين الشَّكِّ إلى الإيمان المسيحيِّ الذي تربَّيتُ عليه. وكان لِشُكوكي أسبابٌ ذاتيَّة. فالمسيحيَّة لم تَبْدُ حقيقيَّةً في نظري على الصعيد الاختباريّ. ولم أكُن قد اكتسَبتُ حياةَ صلاة، ولا اختبرتُ الله شخصيًّا قطّ. وساورَتني أيضًا من جهة المسيحيَّة إشكالاتٌ عقلانيَّة سأتطرَّقُ إليها كلِّها في غير هذا الموضِع من الكتاب الذي بين أيديكم. إلَّا أنِّي سأتحدَّث بشأن إحداها هنا.

لقد تضايقتُ من أولئك المسيحيِّين الذين شدَّدوا على نار جهنَّم والدينونة الأبديَّة. فَحالي حالُ الكثيرين من أبناء جيلي، اعتقدتُ أنَّه إنْ كان ثَمَّةَ من نُقطةٍ جوهريَّة في جميع الأديان، فإنَّما هي وجود إله مُحبّ. وقد أردتُ أن أومنَ بإله محبَّةٍ يقبل الناس بصرف النظر عن معتقداتهم وممارساتهم. وباشرتُ دراسة مُقرَّرات في ديانات العالم الرئيسيَّة الأخرى- البوذيَّة والهندوسيَّة والإسلام والكونفوشيوسيَّة واليهوديَّة. وقد أفدتُ من تلك الدراسات حتَّى اليوم. غير أنَّ تحرِّياتي في الأديان الأخرى أثبتتْ أنِّي كنتُ مُخطئًا في هذه النقطة المخصوصة بشأن مَركَزيَّة الإيمان بإله مُحبّ.

لم أجِدْ خارج الكتاب المقدَّس أيَّ نصٍّ دينيٍّ آخر يقول إنَّ الله خلق العالَم بدافع المحبَّة والسُّرور. فمُعظم الدِّيانات الوثنيَّة القديمة آمنَت بأنَّ العالَم خُلِقَ عبرَ نزاعاتٍ ومعاركَ عنيفة بين آلهةٍ مُتخاصمة وقوًى خارقة. ثُمَّ تحوَّلتُ إلى النَّظر من قُربٍ في البوذيَّة، الدِّيانة التي راقتني آنذاك أكثرَ الكُلّ. ولكنْ على الرُّغم من تشديد البوذيَّة البالغ على الغَيريَّة والخدمات المجرَّدة للآخرين، فهي لا تؤمن بإلهٍ شخصيٍّ، والمحبَّة عندها هي من فِعلِ المرء نفسِه.

وفي ما بعد، لمَّا صرتُ خادمًا مسيحيًّا، كنتُ على مدى بضع سنين مُتكلِّمًا ومُشاركًا في برنامج نقاش شهريٍّ بولاية فيلادلفيا بين كنيسة مسيحيَّة وجامع إسلاميّ. ففي كُلِّ شهر كان مُتكلِّم من الكنيسة ومُتكلِّم من الجامع يُقدِّمانِ مَنظورَيهما بشأن موضوعٍ ما وفقًا للكتاب المقدَّس والقُرآن. ولمَّا تناوَلنا موضوع محبَّة الله، كان لافتًا للنَّظر مدى اختلاف مفهومَينا. فقد قال لي المتكلِّمون المُسلمون تكرارًا إنَّ الله حقًّا مُحبٌّ بمعنى كَونه رحيمًا ولطيفًا تُجاهَنا. ولكن لمَّا تكلَّم المسيحيُّون عن الرَّبِّ بوصفه عريسَنا، وعن معرفتنا لله معرفةً وثيقة وشخصيَّة، وعن انسكاب دفقاتٍ من محبَّته في قلوبنا بالروح القدس، توقَّف أصدقاؤنا المُسلمون عن النِّقاش. وقد قالوا لنا إنَّه أمرٌ يفتقرُ إلى الاحترام، في نظرهم، أن يتحدَّث أحدٌ بشأن معرفته لله شخصيًّا.

واليومَ يقول كثيرون من الشُّكوكيِّين الذين أحادثُهم، كما كنتُ أقول أنا في ما مضى، إنَّهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بإله الكتاب المقدَّس، ذاك الذي يُعاقب الناس ويَدينهم، وذلك لأنَّهم "يؤمنون بإله محبَّة". والآنَ أسألُ: ما الذي يجعلهم يعتقدون أنَّ الله محبَّة؟ أيَستطيعون أن ينظروا إلى الحياة في العالَم اليومَ ويقولوا: "هذا يُبرهن أنَّ إله هذا العالَم هو إله



٦

العِلمُ أثبتَ بُطلانَ المسيحيَّة

قال ثوماس (Thomas)، وهو شابٌّ آسيويٌّ يتخصّص في أحد مجالات الطّبّ: "إنّ تنشئتي العلميّة تجعل قبولَ تعاليم المسيحيّة أمرًا صعبًا، إن لم يكُن مستحيلًا. فَلِكَوني مؤمنًا بفكرة التطوُّر، لا أستطيع قبولَ رواية الكتاب المقدّس السّابقة للعلوم بشأن نشأة الحياة".

وأضافت ميشيل (Michelle)، وهي طالبةُ طبّ: "ثُمّ إنّ الكتاب المقدّس حافلٌ بأخبار المُعجزات. وهي لا يمكن أن تكون قد حدثتْ فعلًا".

إنَّ الكُتب الرائجة التي أَلَّفها ريتشارد داوكِنز (Richard Dawkins) ودانيال سي. دَنت (Daniel C. Denett) وسام هَرس (Sam Harris) تفترض أنَّ العلوم، ولا سيَّما العلم القائل بالتطوُّر، قد جعلَت الإيمان بالله أمرًا غير ضروريٍّ وباطلًا. وقد قال داوكِنز قولًا غدا شهيرًا جدًّا: "مع أنَّ الإلحاد ربَّما كان ممكنًا الدِّفاعُ عنه منطقيًّا قبل داروين، فإنَّ داروين يَسَّرَ على المرء أن يكونَ مُلحدًا على نحوٍ وافٍ وفقَ المطلوب عقليًّا".[1] وفي كتاب

"**وهمُ الله**" (The God Delusion) يمضي بَعدُ إلى أبعدَ من ذلك بكثير، إذ يُحاجُّ بأنَّك لا تستطيع أن تكونَ مُفكِّرًا علميًّا فطنًا وتظلَّ مع ذلك مُعتنقًا مُعتقداتٍ دينيَّة. فإمَّا هذا الأمر وإمَّا ذاك. ولكي يدعمَ مَقولته، أشار إلى أنَّ دراسةً أجريَت في عام ١٩٩٨ بيَّنت أنَّ نحوَ ٧٪ فقط من العُلَماء الأميركيِّين في **الأكاديميَّة الوطنيَّة للعلوم** (The National Academy of Science) يؤمنون بإلهٍ شخصيّ.[٢] وهذا عنده بُرهانٌ على أنَّك كُلَّما كنتَ من الناحية الفكريَّة أكثرَ ذكاءً وعقلانيَّةً وعِلميَّةً، كانت قدرتُك على الإيمان بالله أقلَّ.

فهل داوكِنز على حقّ؟ أأثبتَ العلمُ جوهريًّا بُطلانَ المعتقدات المسيحيَّة؟ أوَيَجبُ علينا أن نختارَ إمَّا التفكيرَ علميًّا وإمَّا الإيمان بالله؟

ألَيْست المُعجزات ممكنةً علميًّا؟

أوَّلُ سببٍ من أجله يعتقدُ كثيرون أنَّ العلمَ قد أثبتَ بُطلانَ الدِّين المُتوارَث هو أنَّ معظمَ الدِّيانات الرئيسيَّة تؤمنُ بالمُعجزات، أي تدخُّل الله في النِّظام الطبيعيّ. والأمور المُعجزيَّة هي مهمَّةٌ على وجه الخصوص بالنسبة إلى المعتقد المسيحيّ. فالمسيحيُّون يحتفلون سنويًّا بمعجزة التجسُّد في ولادة الربِّ يسوع، كلَّ عيدِ ميلاد، وبمعجزة قيامة الربِّ يسوع بالجسد من بين الأموات، كلَّ عيدِ فِصح. وكتابُ العهد الجديد حافلٌ بأخبار المعجزات التي أجراها السيِّد المسيح في سياق خدمته. وقد بدأ الارتيابُ العلميُّ حيالَ الكتاب المقدَّس بالاعتقاد الذي رافق حركةَ التنوير والذي قال إنَّ المعجزاتِ لا يمكن التوفيق بينها وبين رؤيةٍ عصريَّةٍ عقلانيَّة إلى العالَم. فإذ تسلَّحَ أهلُ العلم بهذا الافتراض المُسبَّق، التَفتوا ناحيةَ الكتاب المقدَّس وقالوا: "إنَّ روايات الكتاب المقدَّس لا يمكن الإركانُ إليها لأنَّها تشتمل

على وصفٍ كثيرٍ لِمُعجزات". والمُقدِّمة المنطقيّة وراءَ زعم كهذا هي أنَّ "العلمَ قد أثبتَ عدم وجود شيءٍ من قَبيل المعجِزات".[٣] إلّا أنَّ في صُلبِ تصريحٍ كهذا قفزةَ إيمان.

فأن نقولَ إنَّ العلم مُهيَّأٌ فقط لاستقصاء الأسباب الطبيعيَّة، ولا يمكنه أن يتكلَّم بشأن أيَّة أسباب أخرى شيء، ولكنْ أن نُصرَّ على أنَّ العلم يُبرهن أنَّه لا يمكن أن توجدَ أسبابٌ أخرى، على وجه الاحتمال هو شيءٌ آخرُ تمامًا. وقد كتب جون مَكواري (John Macquarrie): "يُبنى العلمُ على الافتراض القائل إنَّ أيَّةَ أحداثٍ تجري في العالَم يمكن تعليلُها بواسطة أحداث أخرى... باعتبارها قائمةً بذاتها ومُرتبطةً بهذه الدُّنيا فحسْب. وهكذا، فإنَّ المُعجزة مُتضاربةٌ مع فهمنا الحديث للعلم والتاريخ كلَيهما".[٤]

إنَّ مَكواري مُصيبٌ تمامًا في جَزمه بأنَّ على العالِم، عند دراسة ظاهرةٍ ما، أن يفترضَ دائمًا وجود أسبابٍ طبيعيَّة لها. وذلك لأنَّ الأسبابَ الطبيعيَّة هي النَّوعُ الوحيد الذي تستطيعُ منهجيَّة العلم أن تتناولَه. أمَّا الإصرار على أنَّ العلم قد أثبتَ أنَّه لا يمكن أن يوجدَ أيُّ نوع آخر، فأمرٌ مختلف. فلَن يكون لدينا نموذجٌ تجريبيٌّ لاختبار صحَّة المَقولة: "إنَّ وجود أيِّ سببٍ فَوطبيعيٍّ لأيَّة ظاهرة طبيعيَّة أمرٌ مُستحيل". ومن ثَمَّ فإنَّ هذا افتراضٌ فلسفيٌّ مُسبَّق، وليس هو نتيجة بحثٍ علميّ. وهكذا تكون حُجَّة مَكواري دائريَّةً تمامًا. فهو يقول إنَّ العلم، بطبيعته، لا يستطيع أن يُميِّزَ الأسباب الفَوطبيعيَّة أو يُجري اختبارًا بشأنها، ولذلك فإنَّ تلك الأسبابَ لا يمكن أن توجَد.

وإليكَ ردَّ الفيلسوف آلڤِن پلانتنغا:

لعلَّ مَكوراي يقصد أنَّ ممارسة العلم بحدِّ ذاتها تقتضي أن

> يرفضَ المرءُ مثلًا فكرةَ إقامة الله شخصًا ما من بين الأموات... فهذه الحُجّة تُشبِه تصرُّفَ السّكران الذي أصرَّ على البحث عن مفاتيح سيّارته المفقودة تحت مصباح الشارع فقط واضعًا أساس أنّ النُّور المتوفّر هناك أفضل. وبالحقيقة أنَّ حُجّةً كهذه ستتفوّق على حُجّة السّكران؛ إذ إنّها تُصِرُّ على أنَّ المفاتيح **يجب** أن توجَد تحت النُّور، لأنّه يصعبُ أن توجَدَ في الظلام.[٥]

أمَّا المُقدَّمة المنطقيَّة الأخرى المخبوءة في القول "إنَّ المُعجزات لا يمكن أن تحدث" فهي أنَّه "لا يمكن أن يوجد إلهٌ يُجري المُعجزات". وإن كان إلهٌ خالق موجودًا، فليس من شيءٍ غير منطقيٍّ البتَّة في إمكانيَّة حصول المعجزات. ومهما يكُن، فإن كان الله قد خلق جميع الأشياء من العَدَم، فالأرجح أنَّه لا يصعب عليه أبدًا أن يُعيدَ ترتيب أجزاءٍ ممَّا خلَقه كما ومتى شاء. ولكي تكونَ على يقين بأنَّ المُعجزات لا يمكن أنْ تحدُثَ، ينبغي لك أن تتيقَّنَ دون أدنى شكٍّ بأنَّ الله غيرُ موجود، وذلك بَندُ إيمان. فإنَّ وجود الله لا يمكن بُرهانُه ولا دحضُه بالدَّليل القاطع على السَّواء.

أليس العلمُ على تعارُضٍ مع المسيحيَّة؟

من الشائع أن يُعتقدَ اليومَ أنَّ حربًا تنشب بين العلم والدِّين. وأحد الأسباب الكامنة وراء هذا المفهوم أنَّ وسائل الأعلام مُضطرَّةٌ إلى سَرْد وقائع الأخبار بِوَصفها قصصًا لها أنصارُها وخصومُها. فتلك الوسائل تنشر دعايةً واسعة للمعارك القائمة بين العَلمانيِّين والمُتديِّنين حول ما يشهده الغَرب من تعليم لفكرة التطوُّر في المدارس، وبحوثٍ في الخلايا الجَذعيَّة (Stem Cells)، وتلقيحٍ داخلَ أنابيب الاختبار، ومجالاتٍ كثيرة أخرى في

الطبّ والعلم. وهذه المعارك تُضفي صدقيّةً على ادّعاءات داوكنز وهَرس وغيرهما أنَّ المسألة هي مسألةُ "إمَّا... وإمَّا...": ففي وسعك أن تكون إمَّا علميًّا وعقلانيًّا وإمَّا مُتديِّنًا.

على مرِّ السنين في "كنيسة الفادي"، تكلَّمتُ إلى كثيرين من المُختصِّين في العلوم والبيولوجيا ممَّن ساوَرَهم الحَذَرُ الشَّديد حيال العقيدة المسيحيَّة العريقة. فقد قال لي طالبُ طبٍّ شابٌّ: "إنَّ الكتاب المقدَّس يُنكر فكرة التطوُّر التي يقبلها مُعظَم المُثقَّفين. ويُزعجُني على نحوٍ رهيب أنَّ مسيحيِّين كثيرين جدًّا، بسبب إيمانهم بالكتاب المقدَّس، يَسَعُهم أن يقفوا هذا الموقف العقليَّ غيرَ العلميّ". وقَلَقُه ممكنٌ تفهُّمه حقًّا. وإليكَ طريقةَ إجابتي له.

يفترض العلم القائل بفكرة التطوُّر أنَّ أشكالًا من الحياة أكثرَ تعقيدًا تطَّورتْ من أشكالٍ أقلَّ تعقيدًا بواسطة عمليَّة انتخابٍ طبيعيّ. ويعتقد مسيحيُّون كثيرون أنَّ الله أحدَثَ الحياة بهذه الطريقة. مثلًا أصدرتِ الكنيسة الكاثوليكيَّة، كُبرى الكنائس في العالَم، بياناتٍ تؤيِّد التطوُّرَ بِوَصفه مُتناغمًا مع العقيدة المسيحيَّة.[٦] غير أنَّ المسيحيِّين قد يقولون بالتطوُّر كعمليَّة دون أن يعتنقوا "المذهبَ الطبيعيَّ الفلسفيّ"- الرأيَ القائل إنَّ لكلِّ شيءٍ سببًا طبيعيًّا وإنَّ الحياة العُضويَّة هي فقط حصيلة قوًى عشوائيَّة لم يوجِّهْها أحد. فعندما يُحوَّل التطوُّر إلى **نظريَّةٍ شاملة** تُفسِّر على الإطلاق كلَّ شيءٍ نعتقده ونُحسُّه ونفعله باعتباره حصيلةَ الانتخاب الطبيعيّ، لا نكونُ عندئذٍ في ميدان العلم، بل في ميدان الفلسفة. ذلك أنَّ فكرة التطوُّر، بِوَصفها **نظريَّةً شاملة**، ينطوي على صعوباتٍ لا تُذلَّل باعتبارها رؤيةً فلسفيَّة إلى الكون. وسنَنَظر في هذه الصُّعوبات في الفصل التاسع.

يحاجُّ داوكِنز بأنَّك إذا آمنتَ بالتطوُّر باعتباره ميكانيكيَّةً بيولوجيَّة تُضطَرُّ أيضًا إلى الإيمان بالمذهب الطبيعيِّ الفلسفيِّ (Philosophical Naturalism). ولكنْ لماذا؟ في السنة نفسها التي فيها نُشر كتاب داوكنز "وهمُ الله"، نَشر فرنسيس كولنز (Francis Collins) عملًا بعنوان "لُغَةُ الله" (The Language of God). وكُولنز هو عالمُ بَحثٍ بارزٌ ورئيسُ **مشروع الجينوم البشريّ** (Human Genome Project). وهو يقولُ بعلم التطوُّر وينقد حركة **التَّصميم الذكيِّ** (Intelligent Design) التي تُنكر تحوُّلَ الأنواع. غير أنَّ كُولِنز يؤمن بأنَّ دَوزَنة الطبيعة وجمالها ونظامها تشيرُ رغمَ ذلك إلى خالق إلهيٍّ، ويَصفُ اهتداءه من الإلحاد إلى المسيحيَّة. فهُنا إذًا ما يقول داوكِنز إنَّه لا يُمكن أن يُوجَد- شخصٌ راسخٌ بالإيمان بالتطوُّر كميكانيكيَّة بيولوجيَّة ولكنْ رافِضٌ تمامًا للطبيعيَّة الفلسفيَّة. وليس كُولنز وحيدًا بالطَّبع.[٧]

وعلى نقيض خُطَّة داوكِنز المُفرطة في التَّبسيط، ثَمَّة عدَّة نماذج مختلفة مُقترَحة بشأن كيفيَّة تداخُل الله في تطوُّر أشكال الحياة التي نراها اليوم. ويَبْسِطُ إيان بَربُور (Ian Barbour) أربعَ طرائق يمكن بها أن يُربَط العلم والدِّين أحَدُهما بالآخر: التَّضارُب، الحوار، التَّكامُل، الاستقلال. فعلى أحد طَرَفي الطَّيف، يقوم "التضارُب" بين أنصار "علم الخَلق" ومُفكِّرين مثل داوكنز- ويا للسُّخرية!- على السَّواء. إذ إنَّ كلا الفريقَين قد تبنَّى نموذج الحرب في العلاقة بين العلم والإيمان. فنظرةُ كثيرين من القائلين بالخَلق إلى الأصحاح الأوَّل من سِفر التكوين تجعل أيَّ نوع من العلميَّة التطوُّريَّة مستحيلًا، في حين أنَّ طبيعيَّة داوكنز الفلسفيَّة تجعل الإيمان الدينيَّ بلا أساسٍ من الصحَّة كليًّا. وفي الطَّرف الآخر من الطَّيف، يوجَدُ أولئك الذين يعتقدون أنَّ الإيمان هو بصورةٍ رئيسيَّة أمرٌ شخصيٌّ ذاتيٌّ،

ولذلك لا يمتُّ بأيَّة صلةٍ إلى المجال التجريبيّ إطلاقًا. وفي هذا المنظور ليس للعلم ولا للدين أبدًا ما يقولُه أحدُهما للآخر. ويعتقد بَربُور نفسُه أنَّ هذا المنظور يُضحّي (بنقاط تقارُب) بشكل يفوق الحَدّ، مُفضِّلًا طَيف المُقارَبات الأكثر اعتدالًا وتعقيدًا ذاك الذي فيه يعترف العلم والإيمان الدينيُّ بنطاقَي سُلطَتَيهما الخُصوصيَّين.[٨]

غير أنَّ نموذج النضارُب هذا هو الذي يُحرز أوفَر دعاية. ومن الخير أنَّ هذا المنظور يَفقد الصِّدقيَّة لدى عددٍ مُتزايد من العُلماء. وثَمَّةَ كتابٌ مهمٌّ ومؤثِّر يتناول تاريخَ عَلمَنة المؤسَّسات الأميركيَّة حرَّره كريستيان سميث (Christian Smith).[٩] وفيه يُحاجُّ سميث بأنَّ نموذجَ التضارُب في علاقة العلم بالدِّين كان تضخيمًا مُتعمَّدًا استخدمه العُلماء ورُوَّاد التربية معًا في نهاية القرن التاسع عشر لتقويض سيطرة الكنيسة على مؤسَّساتهم وزيادة نفوذهم الثقافيِّ الخاصّ.[١٠] فإنَّ نَموذجَ الحرب المُطلقة التي شَنَّها العلم والعقل لم يكن حصيلةَ الضَّرورة الفكريَّة أصلًا، بل كان بالأحرى حصيلة استراتيجيَّةٍ ثقافيَّة مخصوصة، إذ إنَّ عُلماء كثيرين لا يَرَون أيَّ تعارُضٍ بين الإيمان بالله وعملهم.

وهنالك دراستان شهيرتان تؤيِّدان هذا النِّزاع أجريَتا في العامَين ١٩١٦و ١٩٩٧. فإنَّ العالِم النَّفسي جيمس لوبا (James Leuba) أجرى أوَّل استِطلاع للعُلماء، سائلًا إيَّاهم إنْ كانوا يؤمنون بإلهٍ يتواصل مع البشر على نحوٍ فعَّال، من خلال الصلاة على الأقلّ. وأجاب ٤٠٪ بالإيجاب، فيما أجاب ٤٠٪ بالنَّفي، وقال ٢٠٪ إنَّهم غيرُ مُتيقِّنين. ثُمَّ في ١٩٩٧، أعاد إدوارد لارسُن (Edward Larson) ولاري وتهام (Larry Witham) الاستطلاع عينَه، سائلَينِ العُلماء السؤال نفسه. وقد أفادا في مجلَّة نيتشر

(Nature Magazine) العلميَّة أنَّه تبيَّن لهما أنَّ الأرقام لم تتغيَّر على نحوٍ مهمٍّ في غضون ثمانين سنة.[١١]

فما القولُ إذًا في زعم داوكنز أنَّ جميع العُلماء البارزين تقريبًا لا يؤمنون بالله؟ إنَّه في "**وهمُ الله**" يستشهدُ بُراسلة المتابَعة من قِبَل لارسُن ووِتهام في مجلَّة **نيتشر** بعد مرور سنة. فهُناك ذَكَرا أنَّه لمَّا طرحا السؤال نفسه عن الإيمان بالله على أعضاء **الأكاديميَّة الوطنيَّة للعلوم** أجاب بالإيجاب ٧٪ فقط.[١٢] ويذكر داوكِنز هذا البند الإحصائيَّ كدليلٍ على أنَّ التفكير العلميَّ الذكيَّ يكاد يُفضي كلَّ حين إلى استنتاج عدم وجود الله. غير أنَّ هنالك إشكالاتٍ أساسيَّةً بشأن الطريقة التي بها يُفسِّر داوكنز- بل لارسُن ووِتهام أيضًا- المعطَياتِ المستمدَّةَ من هاتَين الدِّراستَين أساسًا.

أوَّلًا، لا يَغِبْ عن بالك السؤالُ الأصليُّ المطروح على العُلماء في كلا الاستطلاعَين. إذ سُئل العلماءُ هل يؤمنون بإلهٍ يتواصل شخصيًّا مع البشر. فأنْ يعتقدَ المرءُ أنَّ إلهًا مُتعاليًا خلق الكونَ أمرٌ لا يكفي كي يُحسَب "مؤمنًا". ومن ثَمَّ، فإنَّ أيَّ عالمٍ في **الأكاديميَّة الوطنيَّة للعلوم** يؤمن بإلهٍ لا يتواصل مع البشر مباشرةً يوضع أوتوماتيًّا في خانة غير المؤمنين. وقد صُمِّم الاستطلاعان فقط "لرؤية" العُلماء ذوي الإيمان المأثور المُحافِظ. فأصحابُ الإيمانِ الأعمِّ بالله قد استُثْنوا بالطريقة التي صيغ السؤال بها. ثانيًا، قرأ داوكنز المُعطَيات كما لو كانت تُرسِّخ علاقةً سببيَّة بين التفكير العلميِّ والإلحاد. فافتراضُه هو أنَّ عُلماء **الأكاديميَّة** لا يؤمنون لأنَّهم ذوو تفكير علميّ. ولكنَّ الدراسة لا تُبيِّن- ولا يُمكِنها أن تُبيِّن- ماذا كان السبب الحقيقيُّ لعدم إيمان عُلماء **الأكاديميَّة** بالله. وقد كتب أليستر مَكغْراث- وهو لاهوتيٌّ يحمل دُكتوراه في الفيزياء الحيويَّة من جامعة أكسفورد- أنَّ مُعظم

العُلماء غير المؤمنين الذين يعرفهم هم مُلحدون على أسُس أخرى غير علمِهم. فإنَّ عدَّة عوامل مُعقَّدة تؤدِّي بالمرء إمَّا إلى الإيمان بالله وإمَّا إلى عدمه. ومنها ما يعود إلى الاختبار الشخصيّ، كما أنَّ منها ما هو فكريّ، ومنها ما هو اجتماعيّ. وقد بيَّن علماءُ اجتماع عارفون، مثل پيتر بيرغَر، أنَّ جماعةَ أقراننا وعلاقاتنا الأساسيَّة تُشكِّل مُعتقداتِنا أكثرَ بكثير ممَّا نُريد الاعتراف به. فالعلماء وغير العلماء، على السَّواء، يتأثَّرون جدًّا بالمعتقدات والمواقف التي لدى الأشخاص الذين يَبتغون منهم الاحترام. وحسب خبرة مَكغْراث، فإنَّ أغلب زُملائه المُلحدين أتَوا بافتراضاتهم المتعلِّقة بالله إلى علمهم، بدل أن يؤسِّسوها على علمهم.[١٣]

كذلك أيضًا يُعطي داوكنز القُرّاءَ الانطباعَ بأنَّ جميع العلماء الملحدين سيتَّفقون معه على أنَّه ما من عقلٍ علميٍّ منطقيٍّ يمكن أن يؤمن بالله. ولكنْ ليس هذا هو واقع الحال فعلًا. فإنَّ ستيفن جاي غُولد، العالِمَ والتطوُّريَّ الهارڤارديَّ الراحل الذي كان هو نفسُه مُلحدًا، عَلِم بكلِّ ما تضمَّنته هاتان الدِّراستان ومثيلاتُهما، ولكنَّه لم يستطِع أن يَخلص مع داوكنز إلى أنَّ العلم يتصادم بالضَّرورة مع الإيمان المسيحيّ. وممَّا كتبه غُولد:

> إمّا نصفُ زملائي مُغفّلون على نحوٍ رهيب، وإمّا علمُ الداروينيّة مُتناغمٌ تمامًا مع المعتقدات الدينيّة المُتوارَثة، ومُتناغمٌ مع الإلحاد على حدٍّ سواء.[١٤]

ولمَّا تحدَّث غُولد بشأن "نصف زُمَلائه"، يُرجَّح أنَّه لم يكُن يُفكِّر بمُعطياتٍ استطلاعيَّة على نحوٍ صارم. فهو إنَّما عَلِم أنَّ لدى عددٍ كبير من زُمَلائه العُلَماء الأوفر احترامًا مُعتقداتٍ دينيَّةً تقليديَّة بشأن الله. وأحدُ

الأسباب وراءَ عدم اتّفاق غُولد مع داوكنز هو أنَّ غُولد كان أكثر استعدادًا بكثير للإقرار بأنَّ العَلم ربّما لا يكون قادرًا على تعليل كلّ ما يتعلّق بالوجود البشريّ على نحوٍ يُرضي كلَّ مُفكّر.

وثَمَّةَ عالِمٌ آخر يقول بهذا الرأي، هو الفيلسوف ثوماس ناجِل (Thomas Nagel) الذي نقد مُقاربة داوكنز في مقالةٍ تَقييميَّة لكتابه **"وهمُ الله"** نُشرت في **مجلّة ذا نيو ريپَبليك** (The New Republic). وناجِل أيضًا مُلحد، إلّا أنّه يعتقد أنَّ داوكنز على خطإٍ في تأكيده أنّنا إذا أردْنا أن نكون عِلميّين أصلًا فلا بدَّ لنا من أن نعتنقَ "الطبيعيَّة الفيزيائيَّة التي ترى أنَّ التفسير الأقصى لكلّ شيء يجب أن يكمنَ في فيزياء الجُسَيمات، أو نظريَّة الخيطيّات (الجُزيئات المُتناهية الصِّغر)، أو أيّة قوانين إضافيَّة تتحكَّم في العناصر التي منها يتكوَّن العالَم المادّيّ". و يسأل ناجِل مثلًا: أَنعتقدُ حقًّا أنَّ بديهيّاتنا الأخلاقيَّة- مثلَ اعتبار الإبادة الجَماعيَّة خاطئة خُلُقيًّا- ليست حقيقيَّة، بل هي مجرَّد نتيجة للكيمياء العصبيَّة المُركَّبة في كِياننا؟ أَيَستطيعُ العلم الفيزيائيُّ أن يُنصِفَ الحقيقة تمامًا كما تختبرها الكائنات البشريَّة؟ إنَّ ناجِل يشكُّ في ذلك. و ممّا كتبَه:

> إنَّ المشروعَ التّقليصيّ أو التبسيطيّ* يَحاول عادةً أن يستعيدَ بعضًا من مزايا العالَم التي استبعدها أصلًا، وذلك بتحليلها على أساسٍ فيزيائيّ، أي سلوكيٍّ أو فيزيولوجيٍّ عصبيّ. ولكنَّ هذا المشروع يَنكر حقيقة ما لا يمكن تقليصُه على هذا النّحو. إنّي أعتقدُ أنَّ المشروعَ محكومٌ عليه بالفشل- أنَّ الاختبار

* الرأيُ التقليصيُّ أو التبسيطيّ (Reductionism) هو رأيٌ يُنادي بأنَّ المعقَّد يمكن فهمه من أجزائه أو عناصره البسيطة (الناشر).

الواعيَ والاهتمامَ ومفهوم القيَم، وما إليها، ليست توهُّمات، حتّى لو كان من غير الممكن أن تُصنّف وتُوصَّف في إطار الوقائع الفيزيائيّة.[١٥]

لهذا السبب يعتقد حتّى مُلحدون كثيرون أنَّ داوكنز على خطأ، وأنَّ العلمَ لا يستطيعَ أن يُفسِّر كلَّ شيء؛ ولهذا أيضًا يمكن التوفيق بين التفكير العلميِّ والإيمان الدينيّ.

ولئن كان مفهومُ الصِّراع بين العلم والدِّين ما يزال يلقى قبولًا شعبيًّا واسعًا، فمن الواجب أن نُحرِّر أنفسَنا من وَهْم الفكرة القائلة إنَّ علينا أن نختارَ واحدًا من الاثنَين دون الآخر، أو إنَّ عليك أن تكونَ على تَعارُضٍ مع العلم إذا أردتَ أن تكون مسيحيًّا حقيقيًّا. فإنَّ أغلبيَّةً من العُلَماء يَحسبون أنفُسَهم مُتديِّنين على نحوٍ عميق أو معتدل، وقد تضاعفتْ أعدادُهم في العقود الأخيرة.[١٦] وليس من انفصالٍ حتميٍّ بين العِلم والإيمان الدينيّ.

ألا يَدحَضُ التطوُّر الكتاب المقدَّس؟

ماذا نقول في المسألة الأكثر تحديدًا بشأن كيفيَّة التَّوفيق بين فكرة التطوُّر ووصْف الكتاب المقدَّس للخَلق في الفصلَين الأوَّلين من سفر التكوين؟ يقينًا أنَّ لدينا هناك تصادُمًا مباشرًا. لا، ليس ذلك واقعَ الحال.

يعتمد مُفكِّرون مسيحيُّون مختلفون جميع النماذج الأربعة التي أبرزها بَربُور بشأن العلاقة بين العلم والإيمان: التضارُب، الحوار، التكامُل، والاستقلال. فبعض المسيحيِّين في حركة **علم الخَلق** (Creation Science) التي تحظى بدعايةٍ عالية يَتبنَّون نموذج التَّضارُب ويؤكِّدون أنَّ الأصحاح

الأوَّل من سفر التكوين يُعلِّم أنَّ الله خلق جميع أشكال الحياة في مُدَّة ستَّة أيَّام ذات أربع وعشرين ساعة، قبل بضعة آلافٍ من السنين فقط. وعند الطَّرف الآخر من الطَّيف مسيحيُّون يَتبنَّون نموذج الاستقلال، ويقولون ببساطةٍ إنَّ الله كان السبب الأوَّل في ابتداء العالَم، ومن ثَمَّ سادَتِ الأسبابُ الطبيعيَّة. ثُمَّ إنَّ مُفكِّرين آخرين يحتلُّون الموقعَين المُتوسِّطَين. فمنهم مَن يَعتقدون أنَّ الله خلق الحياة ثُمَّ وجَّه الانتخاب الطبيعيَّ لتطوير جميع أشكال الحياة المعقَّدة من أشكال أبسط. حسب هذا الرأي، يتصرَّف الله بصفته سببًا أوَّليًا أعلى دون خَرقٍ لعمليَّة التطوُّر. وإذ يعتقد آخرون أنَّ في سجلِّ الأحافير ثَغَراتٍ ويزعمون أنَّ أنواع الأحياء يبدو أنَّها "تظهر"، بدل أن تَتطوَّر من أشكالٍ أبسط، يؤمنون بأنَّ الله أجرى أفعالَ خَلقٍ واسعةَ النِّطاق في مراحلَ شتَّى على مدى فتراتٍ زمنيَّة أطول.

إنَّ علاقة العلم بالكتاب المقدَّس لا تتوقَّف فقط على كيفيَّة قراءتنا للسجلِّ العلميّ، بل أيضًا على كيفيَّة تفسيرنا لنُصوصٍ مِفتاحيَّة في الكتاب المقدَّس، كالأصحاح الأوَّل من سفر التكوين مثلًا. فالمسيحيُّون الذين يقبلون سلطةَ الكتاب المقدَّس يُقِرُّون بأنَّ الهدفَ الأساسيَّ لتفسير الكتاب المقدَّس هو أن نتبيَّنَ المعنى الأصليَّ الذي التَمَس الكاتبُ المَعنيُّ أن يفهمَه قُرَّاؤه. وما يزال هذا يعني دائمًا تفسيرَ نصٍّ ما بمُقتضى نوعه الأدبيّ. فعندما يقرأ المسيحيُّون مثلًا سفر المزامير يقرأونه باعتباره شِعرًا. وعندما يقرأون إنجيل لوقا الذي يُصرِّح بأنَّه تقريرُ شاهد عِيان (راجع لوقا ١: ١-٤)، يقبلونه باعتباره تاريخًا. وفي وُسع أيِّ قارئ أن يَعيَ أنَّ السَّرد التاريخيَّ ينبغي أن يُقرأ على أنَّه تاريخ، وأنَّ التصوير البيانيَّ الشِّعريَّ يجب أن يُقرأ على أنَّه مجازيّ.

إنَّما تظهر الصُّعوبة في تلك المواضع القليلة من الكتاب المقدَّس حيث

يصعب تحديد النَّوع الأدبيّ، ولا نكون مُتيقّنين إلى التَّمام كيف يتوقَّع الكاتب أن يُقرأ النصّ. والأصحاح الأوَّل من سفر التكوين نصٌّ يشهد تفسيرُه نقاشًا بين المسيحيّين، حتَّى أولئك الذين لديهم نِظرةُ "إجلال" للكلمة المقدَّسة المُوحى بها.[١٧] وأنا شخصيًّا أتبنَّى الرأيَ القائل إنَّ الأصحاحَين الأوَّل والثاني من سفر التكوين يترابط أحدُهما بالآخر مثلما يترابط الأصحاحان الرابع والخامس من سفر القُضاة، والأصحاحان الرابع عشر والخامس عشر من سفر الخروج. ففي كلِّ ثُنائيَّة يصف أحد الأصحاحَين حادثةً تاريخيَّة، أمَّا الآخر فهو قصيدة أو نشيد في معنى الحادثة اللاهوتيّ. وعند قراءة الأصحاح الرابع من سفر القُضاة، يتَّضح أنَّه سردٌ واقعيٌّ لما جرى في المعركة. ولكنْ عند قراءة الأصحاح الخامس من القُضاة، حيثُ نشيدُ دَبُورة عن المعركة، نجد اللُّغةَ شعريَّةً ومجازيَّة. وحين تقول دَبُورة إنَّ كواكب السماء نزلتْ لتُحارِب عن بني إسرائيل، نُدرِك أنَّها تعني ذلك مجازيًّا. فأنا أعتقد أنَّ الأصحاح الأوَّل من التكوين يتَّسم بعلامات الشِّعر المميِّزة، ولذلك فهو "نشيد" عن روعة خليقة الله ومدلولها. أمَّا الأصحاح الثاني من التكوين فهو وصفٌ لكيفيَّة حدوثها. وسيَبقى النِّقاش قائمًا كلَّ حين بشأن كيفيَّة تفسير بعض نصوص الكتاب المقدَّس- بما فيها الأصحاح الأوَّل من سفر التكوين. إلَّا أنَّه مَنطقٌ خاطئ أن نحاجَّ بأنَّه إذا كان جزءٌ من الكتاب المقدَّس لا يُمكن أن يؤخذ حرفيًّا فلا جُزءَ منه يُمكن أن يؤخذ كذلك. فإنَّ ذلك لا يصحُّ على صعيد أيِّ تواصُلٍ بشريّ.

إلامَ يمكن أن نَخلص؟ ما دام المؤمنون المسيحيُّون يَشغلون مواقعَ شتَّى بالنِّسبة إلى معنى الأصحاح الأوَّل من سفر التكوين وبالنِّسبة إلى التطوُّر على حدٍّ سواء، فإنَّه لا ينبغي للذين ينظرون في المسيحيَّة ككُلٍّ

أن يسمحوا لأنفسهم بأن يُلهِيَهم هذا النقاشُ الدائر بين أهل البيت. فالباحث الشُّكوكيُّ غيرُ مُضطرٍّ إلى تبنّي أيٍّ واحدٍ من هذه المواقع لكي يعتنقَ الإيمان المسيحيّ. إنّما ينبغي له بالأحرى أن يُركِّز على الدَّعاوى المركزيَّة في المسيحيَّة ويزِنَها مقيِّمًا إيَّاها. فبعد أن يستخلصَ المرءُ حصائلَ تتعلَّق بشخص السيِّد المسيح، وبالقيامة، وبالمعتقدات الأساسيَّة في الرسالة المسيحيَّة، بعد ذلك فقط ينبغي له أن يُمعنَ في النَّظَر في مختلف الخيارات المُتعلِّقة بالخَلق والتطوُّر.

غالبًا ما يُشير مُمثِّلو هذه الآراء المختلفة ضمنيًّا إلى أنَّ مُقارَبتهم هي "الموقفُ المسيحيُّ الحقيقيُّ الوحيد من مسألة التطوُّر".[18] وفي الواقع أنّي على يقينٍ بأنَّ كثيرين ممَّن يقرأون هذه السُّطور سيَستاؤون من كَوني لا أتروَّى هنا للتحكيم بين الآراء المُتنافسة. مع العلم بأنّي أعتقدُ أنَّ الله وجَّه نوعًا ما عمليَّةَ الانتخاب الطبيعيّ، ومع ذلك أرفضُ مفهوم التطوُّر كنظرية كلِّيَّةِ الشمُّول. وقد أحسنَ أحد مُفسِّري سِفر التكوين في تصوير هذا التَّوازُن:

> إذا رُفِّعتْ فكرة "التطوُّر" إلى منزلةِ رؤيةٍ كَونيَّة إلى واقع الأمور، فهُنالك عندئذٍ تَضارُبٌ مباشر مع الإيمان المبنيّ على الكتاب المقدَّس. ولكنْ إذا بقيتْ هذه الفكرة على مستوى الفَرضيَّة البيولوجيَّة العلميَّة، يمكن أن يبدوَ أنَّ ثمَّة سببًا ضئيلًا للتضارُب بين مضامين الإيمان المسيحيّ بالخالق والاستكشافات العلميّة للطريقة التي بها- على مَستوى البيولوجيا- أجرى الله عمليّات خَلقه.[19]

شفاءُ العالَم

لا أريد أن أقسُوَ كثيرًا على الأشخاص الذين يخوضون صراعًا مع فكرة تدخُّل الله في النِّظام الطبيعيّ. فالمُعجزات صعبُ الإيمان بها، وينبغي أن تكونَ هكذا. ففي إنجيل متَّى نقرأ أنَّ الرُّسل لاقَوا السيِّد المسيح المُقام من بين الأموات على سفْح جَبلٍ في الجليل، وأنَّهم "لمَّا رأَوه سجدوا له، ولكنَّ بعضهم شكُّوا" (متَّى ٢٨: ١٧). وهذا إقرارٌ رائع. فهَهُنا كاتبُ وثيقة مسيحيَّة باكرة يقول لنا إنَّ بعضًا من مؤسِّسي المسيحيَّة لم يستطيعوا تصديقَ مُعجزة القيامة، حتَّى لو كانوا ناظرين إلى السيِّد المسيح مباشرةً ولامسين إيَّاه بأيديهم. ولَيس من سببٍ آخر لذِكر هذا في السِّجلِّ إلَّا إذا كان قد حدث فعلًا.

تُبيِّن لنا هذه الآية بضعة أمور. فهي تُحذِّرنا من أن نظُنَّ أنَّنا وحدَنا، نحنُ أهلَ العلم العصريِّين، مُضطرُّون إلى الصِّراع مع فكرةِ المُعجزيِّ، في حينَ لم يُضطرَّ إلى ذلك الأقدمون الأكثرُ بدائيَّةً. إذ إنَّ الرُّسلَ استجابوا كأيَّة مجموعة من القَوم العصريِّين- فبعضُهم صدَّقوا ما شاهدَته أعيُنهم، وبعضُهم لم يُصدِّقوا. ولنا في هذه الآية أيضًا تشجيعٌ على الصَّبر. فإنَّ جميع الرُّسل صاروا في الأخير قادةً كبارًا في الكنيسة، ولكنَّ بعضَهم واجهوا في التصديق صعوبةً أكبر بكثير ممَّا واجهَ الآخرون.

غير أنَّ الأمر الأكثر تنويرًا في ما يتعلَّق بهذه الآية هو ما تقوله عن غاية المُعجزات المذكورة في الكتاب المقدَّس. فهي لا تؤدِّي إلى مجرَّد التَّصديق الإدراكيّ، بل إلى السُّجود، إلى التهيُّب والتخشُّع والتعجُّب. ولم تكُن معجزات السيِّد المسيح على الخصوص حِيَلًا سحريَّةً قَطّ، مُصمَّمةً فقط بحيثُ تُحدِثُ انطباعًا مؤثِّرًا وتحمِل على الإذعان. فإنَّك لا تجدُه أبدًا يقول

قولًا كهذا: "أتَرون تلك الشجرة هناك؟ راقبوني كيف أجعلُ ألسنة اللهيب تتصاعد منها حالًا!" بل إنَّه بالأحرى استخدمَ القُدرة المُعجزيَّة كي يَشفيَ المرض ويُشبع الجياع، ويُقيم الموتى. لماذا؟ إنَّنا نحن القَومَ العصريِّين نُفكِّر في المعجزات باعتبارها تعطيلًا وقتيًّا للنِّظام الطبيعيّ، غير أنَّ السيِّد المسيح استخدمَها لإصلاح النظام الطبيعيّ. فالكتاب المقدَّس يُفيدُنا أنَّ الله لم يصنع العالَم أصلًا كي يحتضنَ المرضى، والجوع والموت. وقد جاء السيِّد المسيح لكي يُصلِحَ مواضع الخطإ مُفتديًا ومُحرِّرًا، ويشفيَ العالَم حيث هو مُحطَّم. فليست معجزاته مُجرَّدَ براهين على أنَّ له القدرةَ أو القوَّة، بل هي أيضًا خبراتٌ أوليَّةٌ عجيبةٌ ممَّا سيَفعله بتلك القدرة الفائقة. إنَّ معجزات السيِّد المسيح ليست مُجرَّد تَحَدٍّ لعُقولنا، بل هي وعدٌ لقلوبنا بأنَّ العالَمَ الذي نَنشدُهُ كلُّنا آتٍ، لا مَحالة.



٧

لا يَسَعُكَ أن تأخذَ الكتابَ المقدَّس بحَرفيَّته

قال تشارلز (Charles)، وهو مصرفيٌّ استثماريّ: "أرى أنّ قسطًا كبيرًا من تعليم الكتاب المقدّس غيرُ دقيق تاريخيًّا. فلا يمكننا أن نكونَ على يقينٍ بأنَّ رواية الكتاب المقدَّس للأحداث هي ما حدثَ فعلًا".

وأجابتْ جاكلين (Jaclyn)، وهي أيضًا تعمل في القطاع الماليّ: "أنا على يقين بأنّك مُصيبٌ، يا تشارلز. ولكنّ مشكلتي الكُبرى بشأن الكتاب المقدّس هي أنّه قديم الطِّراز ثقافيًّا. فإنّ قسطًا كبيرًا من تعليم الكتاب المقدّس على الصَّعيد الاجتماعيّ (عن النّساء مثلًا) رجعيٌّ اجتماعيًّا. وهكذا يستحيلُ أن نقبلَ الكتاب المقدّس بصفته المرجع الكامل ذا السُّلطان على حدّ ما يعتبره المسيحيُّون".

لمَّا كنتُ في الجامعة أواخرَ ستِّينيَّات القرن العشرين، درستُ بعض المُقرَّرات حول الكتاب المقدَّس بِوَصفه أثرًا أدبيًّا، وواجهتُ الحكمةَ السائدة في ذلك الزَّمان. وقد علَّم أساتذتي أنَّ أناجيلَ العهد الجديد نشأت بِوَصفها الأخبار

المُتداوَلة شفهيًّا في أوساط جماعاتٍ كنسيَّة شتَّى حول البحر الأبيض المتوسِّط. هذه الأخبار المختصَّة بيَسوعَ صاغتها تلك الجماعاتُ بحيث تتصدَّى لأسئلةِ كلِّ كنيسةٍ واحتياجاتها المخصوصة. وقد أكَّد القادة أنَّ يسوعَ الوارد في تلك الأخبارِ يؤيِّد سياساتِ جماعاتهم ومُعتقداتِها. بعد ذلك تناقَلَ الأفراد التقاليد الشفهيَّة على مرِّ السنين، وقد طُوِّرتْ بإضافة موادَّ خُرافيَّة شتَّى. وأخيرًا، بعد زمانٍ طويل من وقوع الأحداث الفعليَّة، أضفيَ على الأناجيل شكلُها المكتوب. وفي ذلك الحين كان شِبهَ مُستحيلٍ أن يُعرفَ إلى أيَّة درجة مثَّلَتِ الأناجيلُ الأحداثَ التاريخيَّة الفعليَّة، هذا إذا كانتْ قد حَوَت شيئًا منها.

فمَن كان إذًا يسوعُ الأصليّ؟ ارتأى الباحثون الذين قرأتُ نتاجهم أنَّ "يسوع التاريخيَّ" الحقيقيَّ كان مُعلِّمَ حكمةٍ وعدالةٍ أسِرًا أثارَ معارضةً ولقيَ الإعدام. وزعموا أنَّه بعدَ موته برزتْ فِرَقٌ وآراءٌ مختلفة بين أتباعه بشأنِ حقيقةِ هُويَّته. فذهب بعضٌ إلى أنَّه كائنٌ إلهيٌّ وقد قام حقًّا من بين الأموات، وآخرون إلى أنَّه مجرَّد مُعلِّم بشريٍّ استمرَّ حَيًّا على نحوٍ روحيٍّ في قلوب تلاميذه. وفي أعقابِ صراعٍ على النُّفوذ، فازت فِرقة "يسوع الإلهيِّ" وأَوجدَتْ نصوصًا تُروِّج رأيها. ويُزعَم أنَّهم قمَعوا جميع النُّصوص البديلة التي تُرينا يسوعَ من نوعٍ آخر وأتلفوها أيضًا. ومؤخَّرًا، برزَ إلى النُّور بعضٌ من تلك الآراء البديلة المقموعة بشأن يسوع، مثل إنجيلَي توما ويهوذا "الغنُوصيَّين". وهذا، في زَعمهم، يُبيِّن أنَّ المسيحيَّة الباكرة كانت كثيرةَ التنوُّع في معتقداتها التَّعليميَّة.

لو صحَّت هذه النَّظرة إلى أصول أسفار العهد الجديد وتطوُّرها، لغيَّرت جذريًّا فهمَنا لمضمون المسيحيَّة بحدِّ ذاتها ولِمَعناها. فمن شأن ذلك

أن يعنيَ أنَّ أحدًا لا يقدرُ أن يعرفَ حقًّا ما قاله يسوع وفعلَه؛ وأنَّ الكتاب المقدَّس لا يمكن أن يكونَ هو القاعدةَ ذات السُّلطة لحياتنا ومُعتقَداتنا، ومن شأنه أن يعنيَ أنَّ مُعظم العقائد المسيحيَّة المأثورة- ألوهيَّة المسيح وكفارته وقيامته- غيرُ صحيحةٍ ومؤسَّسةٌ على أساطير.

وإذْ كنتُ طالبًا، ضَعضعَني هذا أوَّلَ الأمر. كيف يمكن أن يكونَ أولئك العلماءُ المشهورون كلُّهم على خطأ؟ ولكنّي بعد ذلك، عندما قمتُ بأوَّل بحثٍ مُباشَرٍ أجريتُه، فاجأتني قلّةُ البيِّنات الضئيلة جدًّا بالفعل على هذه التَّلفيقات التاريخيَّة. وممّا شجَّعني أنَّ البيِّنات على هذه الرؤيَّة الشُّكوكيَّة غير الحديثة إلى الكتاب المقدَّس ما تزالُ تنهار باطِّراد طوال الثلاثين سنةً الماضية، حتَّى فيما روَّجتها وسائلُ الإعلام العامَّة من طريق كُتبٍ وأفلام على غِرار "**شفرة دافنشي**" (The Da Vinci Code).

وقد كانت آن رايْس (Anne Rice) واحدةً ممّن أذهلَهم أن يكتشفوا مدى الضَّعف الفعليّ في دعوى وجود "يسوع تاريخيٍّ" بَشَريٍّ فحسب. وكانت رايْس قد غَدَت مشهورةً بصفتها مؤلِّفةَ "**مقابلةٌ مع مصّاص الدِّماء**" (Interview with the Vampire) وآثارٍ أخرى يمكن أن تُصنَّف في خانة "الرُّعب الشهوانيّ" (Horror-erotica). فبعدما تربَّت رايْس تربيةً كاثوليكيَّة، فقدتْ إيمانها في كُلِّيَّةٍ لادينيَّة، وتزوَّجَت مُلحدًا، وكتبتْ بغزارة روايات عن لِستات (Lestat)، مصّاص الدِّماء ونجم الروك معًا. وقد صُدِمَ عالَما الأدب والإعلام لمّا أعلَنت رايْس أنَّها رجعتْ إلى المسيحيَّة.

تُرى، لماذا فعلَت آن رايْس ذلك؟ في التذليل الذي ختمَت به روايتها الجديدة "**المسيحُ الربّ: خُروجًا من مصر**" (Christ the Lord: Out of Egypt)، شرحَت أنَّها سبق أن باشرَت دراسةً شاملةً عن يسوع التاريخيِّ

بقراءة آثار "عُلَماء يسوع" في المؤسَّسات الأكاديميَّة التي تَحظى بأوفرِ احترام. وقد كانَت فَرضيَّتُهم الرئيسيَّة أنَّ وثائق الكتاب المقدَّس التي لدينا لا يُركَن إليها تاريخيًّا. فأذهلَ رايْس مدى ضَعفِ حُجَجِهم البالغ.

> كانت بعضَ كُتبهم لا تتعدّى كونَها افتراضاتٍ مكدّسةً على افتراضات... وقد بَلغوا الاستنتاجات على أساس مُعطَياتٍ قليلةٍ أو معدومة تمامًا... فلَم يَقم أيُّ دليلٍ يؤيّد الدّعوى القائلة بيسوعَ لاإلٰهيٍّ دخل أورَشليم مُتعثّرًا وصُلب بطريقةٍ ما... كاملَ تلك الصُّورةِ التي حامَت حول الدوائر الليبراليّة التي تردّدتُ إليها بصفتي مُلحدة على مدى ثلاثين سنة. ولم يقف الأمر عند حدِّ سقوط الدّعوى، بَل اكتشفتُ أيضًا في هذا الميدان بعضًا من أسوإ ما قرأتُه على الإطلاق من علمٍ رديءٍ وشديد التحيُّز.[١]

إنَّ الإيمان المسيحيَّ يقتضي إيمانًا بالكتاب المقدَّس.[٢] وهذا حجرُ عثرةٍ كبيرٌ عند كثيرين. فأنا أقابِل نيويوركيِّين كثيرين بعد أن يكونوا قد دُعُوا إلى إحدى خدمات كنيسة الفادي، حيث يكون الجزءُ المركزيُّ في كُلِّ عظة مؤسَّسًا على نصٍّ من الكتاب المقدَّس. ويُفاجَأ الزائر العاديُّ، بل أيضًا يُصدَم، إذ يجدُنا مُصغين إلى الكتاب المقدَّس بصورة غاية في الانتباه. ومن شأن كثيرين أن يقولوا إنَّهم يعرفون أنَّ في الكتاب المقدَّس قصَصًا وأقوالًا عظيمة، لكن "لا يَسَعُ المرءَ أن يأخذَها بحرفيَّتها" اليوم، قاصدين أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُركَن إليه بكامله؛ لأنَّ بعض أجزائه- أو ربَّما الكثير منها أو معظمها- غيرُ معقولة علميًّا، وغير جديرة بالاعتماد تاريخيًّا، ورجعيَّة ثقافيًّا. وقد نظرنا في أولى هذه المسائل- تلك المتعلِّقة بالعلم والكتاب المقدَّس- في الفصل السابق. أمَّا الآن فننظر في المسألتَين الأخريَين.

"لا يمكننا الاعتماد على الكتاب المقدَّس تاريخيًّا"

يسود على نطاق واسع اعتقادٌ يقول إنَّ الكتاب المقدَّس هو مجموعةٌ من الأساطير لا يُركَن إليها تاريخيًّا. وثَمَّة مُنتدَى عُلماء يحظى بدعايةٍ قويَّة، يُدعى "سَمينار يسوع" (The Jesus Seminar)، أفاد أنَّ نسبةً لا تتعدَّى ٢٠٪ من أقوال يسوع وأعماله المدوَّنة في الكتاب المقدَّس يمكن إثباتُها تاريخيًّا.[٣] فما ردُّنا على ذلك؟ إنَّ النَّظر في الدِّقَّة التاريخيَّة المُتعلِّقة بكلِّ جزءٍ من الكتاب المقدَّس أمرٌ أوسَعُ من نطاق هذا الكتاب. فسَنطرح بالأحرى سؤالًا عن مدى إمكانيَّة وثوقنا بالأناجيل - أي سيرة حياة السيِّد المسيح المدوَّنة من أربعة بَشيرين والتي يتضمَّنها العهد الجديد- من الناحية التاريخيَّة.[٤] والمقصود طبعًا هو الأناجيل القانونيَّة (متَّى ومَرقُس ولُوقا ويوحنَّا) التي قَبِلَتها الكنيسة في زمنٍ باكرٍ جدًّا باعتبارها أصيلةً وذاتَ سُلطان.

غالبًا ما يؤكَّد أنَّ أناجيلَ العهد الجديد كُتِبت بعد حصول الأحداث بسِنينَ كثيرةٍ جدًّا، بحيثُ إنَّ أخبارَ كُتَّابها عن حياة يسوع لا يمكن الرُّكون إليها- لِكَونها مُزَخرَفةً كثيرًا، إن لم تكُن كلُّها من نَسْج الخيال. ويعتقد كثيرون أنَّ الأناجيلَ القانونيَّةَ كانتْ فقط أربعةً من عشرات النُّصوص المُتوافرة، وأنَّها كُتِبَت كي تدعمَ سُلطةَ الكنيسة الهَرَميَّةَ، في حين أنَّ الباقيَ (ومن جُملته ما يُسمَّى "الأناجيل الغُنُوصيَّة") قد قُمِعت. وقد أضفيَتْ على هذا الاعتقاد مَقبوليَّةٌ ظاهريَّة جديدة لدى الخَيالِ الشعبيِّ بفضل ذلك الكتابِ الذي لقيَ رواجًا كبيرًا، أعني به "**شفرة دافنشي**". ففي هذه الرِّواية، يصوَّر يسوعُ الأصليُّ مُعلِّمًا عظيمًا، لكنْ بَشَريًّا على نحوٍ جليّ، جُعِلَ بعد سنينَ كثيرةٍ من مَوته إلهًا مُقامًا من بين الأموات، بِمَسعًى من قادة الكنيسة الذين فَعَلوا ذلك لكي يَكسِبوا مَنزلةً رفيعةً في الإمبراطوريَّة

الرُّومانيَّة.[٥] ولكنْ تَتوافر بِضعةُ أسبابٍ وجيهة من أجلها ينبغي اعتبار الأناجيل جديرةً بالثقة تاريخيًّا، لا أساطير.[٦]

توقيتُ الأناجيل أبكرُ من أن يُتيح لها أن تكونَ أساطيرَ.

كُتبت الأناجيلُ القانونيَّة على الأكثر بعدَ مَوت السيِّد المسيح بأربعين إلى ستِّين سنة.[٧] ثُمَّ إنَّ رسائل بولس، وقد كُتِبت بعد مَوت يسوع بخمس عشرة إلى خمسٍ وعشرين سنة فقط، تُزوِّدنا بتصميم لجميع الأحداث المذكورة في الأناجيل بشأن حياة يسوع: معجزاته وأقوالهً وصَلْبه وقيامته. وهذا يعني أنَّ أخبارَ الكتاب المقدَّس عن حياة يسوع كانت مُتداوَلةً في أثناء حياة المئات ممَّن كانوا حاضرين عند قيام يسوع بأحداث خدمته. والبشير لوقا يذكر في إنجيله أنَّه تلقَّى أخبار حياة السيِّد المسيح من شهودِ عِيانٍ كانوا ما يزالون أحياء (لوقا ١: ١-٤).

في كتابٍ بارز عُنوانه "**يسوع وشهودُ العيان**" (Jesus and the Eyewitnesses)، يحشد الكاتبُ ريتشارد بَوكْهام (Richard Bauckham) كثيرًا من الأدلَّة التاريخيَّة ليُبيِّن أنَّه في زمن كتابة الأناجيل كان شهودُ عِيانٍ مشهورون كثيرون شهدوا تعاليم يسوع وأحداث حياته ما يزالون على قَيْد الحياة. وكان هؤلاء قد حَفِظوا ذلك كلَّه وظلُّوا يُمارِسون نشاطهم في حياة الكنائس العلنيَّة طوالَ أعمارهم، مُؤدِّينَ دَورَ مصادرِ تلك الأخبار وضامنين لصدقها. كذلك يُورِد بَوكْهام أدلَّةً من داخل الأناجيل ذاتها ليُبيِّن أنَّ كُتَّاب الأناجيل سَمَّوا مصادرَهم من شهود العِيان في مَتن النصِّ لِطَمأنة القُرَّاء إلى صدقيَّة أخبارهم.

مثلًا، يقول مَرقُس إنَّ الرَّجُل الذي ساعدَ يسوع في حَمْل صليبه إلى الجلجثة هو "أبو ألكَسندَرُوس ورُوفُس" (مرقس ١٥: ٢١). فلا داعيَ لأنْ يذكرَ البشيرُ مَرقُس هذَين الاسمين إلَّا إذا كان القُرَّاء يعرفونهما أو يستطيعون الوصول إليهما. وإلى مؤدَّى ما يقولُه مَرقُس: "إنَّ ألَكسنَدروس ورُوفُس يشهدان لصحَّة ما أقوله لكم، إنْ أردتُم أن تسألوهما". كذلك أيضًا يُناشِد بولس قُرَّاءه أن يُراجِعوا شهودَ العِيان الأحياءَ إنْ أرادوا أن يتيقَّنوا بحقيقة ما يقولُه عن أحداثِ حياة يسوع (١كورنثوس ١٥: ١-٦).[٨] فبولس يُشير إلى جمهورٍ من خمس مئة شاهِد عيان شاهدوا دفعةً واحدةً المسيحَ القائمَ من الموت حيًّا. وليس في وسعك أن تكتبَ ذلك في وثيقة مُصمَّمة للقراءة العامَّة إلَّا إذا وُجِد فعلًا شهودُ عيانٍ أحياءٌ تتوافَق شهادتُهم ويستطيعون تأييد ما قاله الكاتب. فهذا كلُّه يَدحَضُ الفِكرة القائلة إنَّ الأناجيل كانت تقاليدَ شفهيَّة مجهولةَ المصادر جرى جمعُها وتطويرها. ولكنَّها كانت بالأحرى تواريخَ شفهيَّةً مأخوذةً من أفواه شهودِ عِيانٍ حفظوا أقوال يسوع وأعماله بأدقِّ تفاصيلها.

ولم يكن مؤيِّدو يسوع وحدَهم ما يزالون أحياءً، بل كان ما يزال على قَيْد الحياة أيضًا كثيرون من المُتفرِّجين ومُوظَّفي الدَّولة والخُصوم الذين كانوا فعلًا قد سمعوه يُعلِّم ورأَوا أفعاله وشاهدوه يموت. وكان من شأنهم أن يكونوا ذوي استِعدادٍ خاصٍّ ليَتَحَدَّوا أيَّة أخبار مُلفَّقة. ففي سبيل روايةٍ عاليةِ التَّحوير والحَبك الرِّوائيِّ، لا بدَّ أن يكون شهود العِيان (وأولادهم وحُفَداؤهم) قد ماتوا جميعًا من مُدَّة طويلة. إذ إنَّ من الواجب أن يكونَ هؤلاء قد تَوارَوا عن المسرح بحيث لا يستطيعون أن يُناقِضوا أو يفضحوا كلَّ ما اشتملت عليه الرِّوايةُ من زخرفةٍ وتزييف.

غير أنَّ الأناجيل كُتِبت في وقتٍ أبكرَ بكثيرٍ من أن يُتيحَ حصولَ ذلك.

فلو أنَّ يسوع لم يقُلِ الأمور المذكورة في نصوص الأناجيل أو يفعلها، لَكانَ من المستحيل أن ينتشرَ الإيمانُ الجديد كما انتشر فعلًا. وقد كان في وُسع بولس أن يؤكِّدَ بثقةٍ لأصحاب المناصب أنَّ أحداث حياة يسوع كانت من المعارف الشائعة، إذ قال للملك أغريبياس إنَّ شيئًا من تلك الأمور "لم يُفعَل في زاوية" (أعمال الرُّسل ٢٦: ٢٦). فإنَّ أهل أورَشليم كانوا حاضرينَ هُناك، وسطَ الجُموع التي سمعَت وشاهَدت يسوع. وما كان في وُسع وثائق العهد الجديد أن تقول إنَّ يسوع قد صُلب، لولا بقاءُ آلافٍ من الناس على قَيْد الحياة من الذين يعرفونَ حقيقةَ ذلك. ولو لم تحصلْ ظُهوراتٌ من قِبَل السيِّد المسيح الحيّ بعد موته؛ ولو لم يُوجَد قبرٌ فارغ، ولو أنَّه ما صرَّح بتلك التَّصريحات، ثُمَّ زعمتْ هذه الوثائق العلنيَّة أنَّ ذلك كلَّه قد حدث، لَمَا كانَتِ المسيحيَّة قد نهضتْ وانطلقَت. إذ كان من شأن السامعين إذْ ذاك أن يضحَكوا إزاء تلك الرِّوايات.

إنَّ الأناجيل القانونيَّة الأربعة كُتِبت قبل زمنٍ طويل من كتابة تلك المُسمَّاة "الأناجيل الغنُوصيَّة". فإنجيل تُوما، الأشهرُ بين الوثائق الغنوصيَّة، مُترجَمٌ عنِ السُّريانيَّة، وقد بيَّن العُلماء أنَّ التقاليد السُّريانيَّة فيه يمكن أن تُرَدَّ إلى تاريخٍ يُناهِز السنة ١٧٥ ميلاديَّة على الأبكر، أي بعدَ أكثرِ من مئة سنة من وَضْع الأناجيل القانونيَّة قيْدَ الاستعمال الواسع النِّطاق.[٩] وقد كتب آدم غُوپنِك (Adam Gopnik) في **ذا نيويوركر** (The New Yorker) أنَّ الأناجيلَ الغُنوصيَّة أُلِّفتْ في زمن مُتأخِّر جدًّا بحيثُ إنَّها "لا تُشكِّل تحدِّيًا لإيمان الكنيسة أكثرَ ممَّا يمكنُ أن يُشكِّلَ تحدِّيًا لأساس الديمقراطيَّة الأميركيَّة اكتشافُ وثيقةٍ من القرن الثامن عشر في أوهايو تُدافع عن الملك

جورج".[10] فرُغمَ كلّ شيء، اعتُرِفَ بأناجيل متّى ومَرقُس ولوقا ويوحنّا بأنّها وثائقُ ذاتُ سلطان كتبَها شُهودُ عِيان في الحال تقريبًا، وهكذا فإنّ لدينا إيرينايوس أسقُفَ ليون (Irenaeus of Lyons) في السنة ١٦٠ ميلاديّة مُعلِنًا أنّه لم توجَد إلّا أناجيلُ أربعة، أربعةٌ فقط. فالفكرة الواسعة الانتشار، والتي روّجتها رواية "**شفرةُ دافنشي**"، تلكَ القائلة إنّ الإمبراطور قُسطنطين حدّد كتابَ العهد الجديد القانونيّ، نابذًا الأناجيل الغنُوصيّة الأقدمَ عهدًا والمزعوم أنّها أكثرُ أصالةً، هي فكرةٌ غيرُ صحيحةٍ فعلًا.[11]

وفي ما خصّ رواية "**شفرة دافنشي**"، يعلَمُ الجميعُ أنّ حبكةَ الكتاب والفيلم خياليّة، غيرَ أنّ كثيرين يحسبونَ أنّ الخلفيّةَ التاريخيّة التي يدّعيها المؤلّف، دان براون (Dan Brown)، صحيحة. فهذا الكتاب الذي لَقِيَ رواجًا كبيرًا جدًّا يُصوِّر قُسطنطين سنة ٣٢٥ ميلاديّة مُصدِرًا مرسومًا ينصُّ على ألوهيّة يسوع، وطامِسًا جميع الأدلّة على أنّه كان مُجرّدَ مُعلّم بشريّ. ولكنْ حتّى في وثيقةٍ كرسالةِ بولس إلى مؤمني فيلبّي، وجميعُ المؤرِّخين يُرجِعون كتابتها إلى زمن لا يتعدّى عشرين سنةً بعد مَوت السيّد المسيح، نرى أنّ المسيحيّين كانوا يتعبّدون للربّ يسوع بصفته الله (فيلبّي ٢). فإنّ الإيمان بألوهيّة السيّد المسيح كان جزءًا من الحركة الناشطة منذ البداية في نموّ الكنيسة أوّلَ عهدها. وإليكَ تعليقَ أحد المؤرِّخين:

> يزعم دان براون أنّ الإمبراطور قُسطنطين فرض تفسيرًا جديدًا تمامًا على المسيحيّة في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلاديّة. وذلك بأنْ شرّع الإيمان بألوهيّة المسيح وأخمدَ كلَّ دليلٍ على بشريّته. فمن شأن هذا أن يعنيَ أنّ المسيحيّة فازتْ في المُنافسة الدّينيّة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة بمُمارسة للسّلطة لا بأيّة جاذبيّةٍ أحرزَتْها. ولكنْ حسبَ الحقيقة

التاريخيّة الواقعة. كانت الكنيسةُ قد فازتْ في المُباراة قبل ذلك الزّمن بمدّة طويلة، أي قبل حيازتها أيّ نُفوذ، حين كانت ما تزال تحت الاضطهاد المُتقطّع. ولو جاز للمؤرّخ أن يلجأ إلى السُّخرية، لَقُلتُ إنّ قُسطنطين اختارَ المسيحيّة لأنّها كانت قد فازت أصلًا ولأنّه أراد أن يؤيّدَ فائزًا.[٢١]

مُحتوى الأناجيل مُعيقٌ جدًّا للإنتاج حتّى تُعدَّ أساطير.

إنَّ النظريَّة الدَّارجة لدى كثيرين اليوم هي أنَّ الأناجيل كتبها قادةُ الكنيسة أوَّل عهدها كي يُروِّجوا سياساتِهم ويُعزِّزوا سُلطَتهم ويَبنُوا حركتهم.

لو صحَّت هذه النّظرة الشائعة، لَتَوقَّعنا أن نرى في الأناجيل مواضِعَ كثيرةً فيها يؤيد السيِّد المسيح بعض الآراء في النّقاشات التي كانتْ جاريةً في الكنيسة أوَّلَ عهدها. فتلك هي الطريقة التي يزعم الزاعمون أنّه بها صاغ القادة المسيحيُّون الأناجيل بحيثُ تُساندُ فِرقتَهُم. غير أنّنا لا نجد ذلك. فنحن نعرف مثلًا أنَّ واحدةً من المُجادَلات الكبيرة التي دارتْ داخل الكنيسة في أبكَرِ عهودها كانت أنَّ قومًا اعتقدوا أنَّ على المسيحيِّين الأمميِّي الأصل أن يَختَتِنوا. وفي ضوء ذلك النِّزاع الشديد، فإنَّ ما يلفتُ النظر هنا هو أنَّ السيِّد المسيح لا يقول أيَّ شيء عن الختان في نُصوص الأناجيل. فالسَّبب الأرجح لِسُكوته في موضوع الختان هو أنَّ الكنيسةَ الباكرة لم تشعر بأنَّها حُرَّة في أن تنسجَ الأمور وتَضَعَ في فم السيِّد المسيح كلامًا لم يقُله.

فلماذا كان من شأن القادة في الحركة المسيحيَّة الباكرة أن يُلفِّقوا قصَّةَ الصَّلب لو لم تَحدُث فعلًا؟ إنَّ أيَّ مُستمِعٍ للإنجيل في الحضارة اليونانيَّة أو

اليهوديَّة كان من شأنه أن يَشتَبهَ في الحال بأنَّ أيَّ شخص يُصلَب هو مُجرِم، مهما قال المتكلِّمُ خلافَ ذلك. ولماذا يعمدُ أيُّ مسيحيٍّ إلى اختلاق خبرِ طلبِ السيِّد المسيح من الله في بستان جَثسيماني أن يُعفى من مَهمَّته إنْ أمكن؟ أو لماذا يُلفِّق أصلًا ذلك الجُزءُ الذي فيه يصرخ يسوع من على الصليب مُعبِّرًا عن تَرْك الله له؟ إنَّ هذه الأمور ما كانت إلَّا لتُثيرَ الاستياء أو الارتباك الشديد لدى الذين كان يُرجى اهتداؤهم إلى الإيمان المسيحيِّ في القرن الأوَّل. فقد كان من شأن أولئك أن يستنتجوا أنَّ يسوع كان ضعيفًا وخاذِلًا لإلهه. ولماذا تُختَرعُ نساءٌ ليكُنَّ أوَّلَ شُهودٍ للقيامة في مجتمع أحلَّتِ النِّساءُ فيه في مرتبةٍ وضيعة بحيثُ لم تكُن شهادتُهنَّ تُعدُّ بيِّنةً مقبولةً في المحكمة؟[١٣] كان أكثر معنًى وشأنًا بكثير (لو كانت القصَّة مُلفَّقةً تلفيقًا) أن يُجعَل ذُكورٌ من أعمدة المجتمع حاضرينَ بصفة شهود عند خروج السيِّد المسيح حيًّا من القبر. فالسبب الوحيد المقبول منطقيًّا لتضمين هذه الأحداث كلِّها في هذه الوثائق هو أنَّها حصلت فعلًا.

ثُمَّ لماذا أيضًا يُصوَّر الرُّسل- وهم قادَةُ الكنيسة الباكرة في نهاية المطاف- أخِسَّاءَ وحسودين أغلبَ الأحيان، ومُتبلِّدي الذِّهن على نحوٍ غير معقولٍ تقريبًا، وفي الأخير جُبَناء خذلوا مُعلِّمَهم إمَّا فعلًا وإمَّا إهمالًا؟ إنَّ ريتشارد بَوكْهام يُورِد حُجَجًا مماثلة بشأن تصوير إنكار بطرس لِيَسوع، حتَّى إلى حدِّ استنزاله لعنةً على مُعلِّمه (مرقس ١٤: ٧١). فلماذا يلجأ أيُّ شخص في الكنيسة أوَّلَ عهدها إلى إبراز سقطات قادتها المُتقدِّمين؟ ما كان أحدٌ ليَختَلِق قصَّةً كهذه. وحتَّى رُغمَ كَونها صحيحة- حسبَما يُعلِّل بَوكْهام- ما كان أحدٌ سوى بطرس نفسِه ليَجرؤ على الإخبار بها إلَّا إذا كان بطرس هو مصدرَها وقد سمح بحفظها ونشرها.[١٤]

وهنا أيضًا تُنوِّرنا مقارنةٌ "بالأناجيل الغنُوصيَّة". فإنَّ إنجيل توما ووثائقَ مشابهةً تُعبِّرُ عن فلسفةٍ تُدعى "الغُنوصيَّة" (الأدريَّة) تُصوِّر العالَم الماديَّ مكانًا شرِّيرًا مُظلمًا يجب إنقاذُ أرواحنا منه بالاستنارة السرِّيَّة، أو الباطنيَّة، المَدعوَّة "غنُوسِز" (Gnosis). هذه الفلسفة تتلاءم جيِّدًا جدًّا مع الرُّؤية إلى الكون عند اليونانيِّين والرومانيِّين، ولكنَّها تختلف كلِّيًّا عن تلك التي كانت سائدةً في العالَم اليهوديِّ الذي كان السيِّد المسيح جزءًا منه في القرن الأوَّل.[١٥] وهكذا، فعلى نقيض ما ورد في "**شفرة دافنشي**" وروايات مُماثلة، ليست الأناجيل القانونيَّة هي التي "تملَّقَتِ السُّلطاتِ القائمةَ" في العالَم القديم، بل هي النُّصوصُ الغنُوصيَّة التي فعلت ذلك. وقد كانت الأناجيل القانونيَّة، بنظرتها الإيجابيَّة إلى الخليقة الماديَّة وبتركيزها على الفُقراء والمسحوقين، هي التي انتهكت الآراء السائدة في العالم اليونانيِّ-الرومانيّ. فإنَّ الأناجيلَ القانونيَّة لا تقتصر فقط على تزويدنا بصورةٍ لِهُويَّة يسوع الأصليِّ الحقيقيَّة جديرةٍ جدًّا بالتَّصديق تاريخيًّا، بل إنَّها أيضًا تتحدَّى بجسارةٍ الرؤيةَ الكونيَّة لدى قرَّائها اليونانيِّين والرومانيِّين.

شكلُ الأناجيل الأدبيُّ أكثرُ تفصيلًا من أن تكونَ أساطير.

كان سي. أس. لِويس ناقدًا أدبيًّا من الطِّراز الأوَّل. وعند قراءته الأناجيل، كتب مُعلِّقًا:

> ما زلتُ أقرأ القصائد والحكايات الرومانسيّة والأدب الخياليّ والأساطير. فأنا أعرف حقيقة هذه كلّها، وأعلم أنّ أيّ فنٍّ منها ليس مثل نصِّ الأناجيل. فبالنّسبة إلى هذا النّصّ، ثمّة رأيان مُحتمَلان لا ثالث لهما. إنّه إمّا تقريرٌ دقيقٌ عمّا جرى، وإمّا أنّ كاتبًا

قديمًا مجهولًا، لا يعرَف أسلافُه ولا أخلافُه، استبق فجأةً كاملَ تِقنيَّة السَّرد الواقعيّ الرّوائيّ العصريّ.[16]

لقد قصد لِويس أنَّ الأدب القَصَصيَّ القديم لم يكُن يُشبِه نظيرَه الحديثَ في شيء. فالفنُّ القَصَصيُّ الحديث يتوخَّى الواقعيَّة، إذ يحوي تفاصيلَ دقيقةً وحِوارًا، حتَّى لَيَحسَبُهُ القارئُ روايةَ شاهدِ عِيان. غيرَ أنَّ هذا النَّوع من الأدب القَصَصيِّ لم يَنشأ إلَّا في آخِر ثلاث مئة سنة. ففي الأزمنة القديمة، كانت حكايات المُغامرات، أوِ الملاحم، أو الأساطير، عاليةً ونائية، إذ كانت التفاصيلُ نادرةً ولم يؤتَ بها إلَّا إذا أسهمَتْ في تظهير الشخصيَّات أو دفعت الحبكة قدُمًا. ولهذا، فإذا قرأتَ "**الإلياذةَ**" (The Iliad) أو "**بيُوَلْف**" (Beowulf)* مثلًا، لا ترى أشخاصَ المَلحمَة يُلاحِظون المطر أو يستَسلمون للنوّم مُتنهِّدين. أمَّا في الروايات الحديثة، فإنَّ التفاصيلَ تُضاف لإضفاء هالةٍ من الواقعيَّة، ولكنَّ الحال لم تكن على هذا المنوال في الأدب القَصصيِّ القديم.

إنَّ نصوص الأناجيل ليست قصَصًا من نسج الخيال. ففي الأصحاح الرابع من إنجيل مَرقُس نُفادُ أنَّ يسوع كان نائمًا على وسادة في مؤخَّر سفينة. وفي الأصحاح الحادي والعشرين من إنجيل يوحنَّا نقرأ أنَّ بطرس كان على بُعد نحو مِئتَي ذراع في مياه البُحيرة لمَّا رأى يسوع على الشاطئ، ثُمَّ ألقى نفسه في الماء، وجذب مع رفقائه شبكةً فيها ١٥٣ سمكةً كبيرة. وفي الفصل الثامن من إنجيل يوحنَّا، فيما كان السيِّد المسيح يستمع إلى الرِّجال الذين

* "بيُولَف" هي ملحمة شعريَّة من الأدبِ الأنغلوساكسونيّ تتألَّف من أكثر من ٣١٠٠ سطرٍ شعريّ، بينما "الإلياذَة" فهي ملحمةٌ شعريَّة إغريقيَّة نَظَمَها الشاعر هوميروس في أيَّام حصار طروادة المشهور (الناشر).

جاءوا إليه بامرأةٍ أمسِكَتْ وهي تزني، يُقال لنا إنّه انحنى وأخذَ يكتبُ بإصبعه على الأرض. لا نُفادُ ماذا كتب ولماذا فعل ذلك. وليس لشيءٍ من هذه التفاصيل كلِّها أيّة صِلَةٍ بالحَبكة أو تظهير الشخصيَّات. فلو كُنّا، أنا أو أنت، نؤلِّف قصَّةً مؤثِّرة عن يسوع، لَضمَّنّاها مُلاحظاتٍ من هذا النَّوع فقط لكي نُضفيَ عليها مسحةً من الواقعيَّة. غير أنَّ نوعًا كهذا من الكتابة القصَصيَّة لم يكن معروفًا في القرن الأوَّل. فالتعليل الوحيد لذِكر كاتبٍ قديمٍ الوسادةَ، و ال ١٥٣ سمكةً، والكِتابةَ بالإصبع على الأرض، هو لأنَّ التفاصيل كانت راسخةً في ذاكرة كلِّ شاهدٍ من شهود العِيان.

لقد جمع ريتشارد بوكْهام قسطًا كبيرًا من البحوث التي أجراها علماءُ نفسيُّون حول علامات الذاكرة الاسترجاعيَّة**. وهو يتأمَّل علامات أخبار شهود العِيان عن الأحداث، وكيفيَّة اختلافها عن أخبار الحَزْر والتخمين والتخيُّل، أو عن الرِّوايات التاريخيَّة المَصوغة من جديد. فالذاكرة الاسترجاعيَّة انتقائيَّة؛ إذ إنَّها تُركِّز على الأحداث الفريدة والمُترابِطة منطقيًّا، وتَستبقي التفاصيل التي لا صلةَ لها بالموضوع (كما لاحظ سي. أس. لويس)، وتقف في نقطة استِشراف شخصٍ شاركَ في الحَدَث لا راوٍ عالِمٍ بكلِّ شيء، وتنمُّ عن أمارات (علامات) التلاوة المُتكرِّرة.[١٧] ثُمَّ يُظهِر بوكْهام جميع هذه العلامات في نصوص الأناجيل. فالأحداث الحيَّة والمهمَّة يمكن أن تبقى حاضرةً لديك طيلةَ عُقود، إن تُلِيَت و/ أو سُرِدَتْ من جديد. ومن عوامل الواقعيَّة الفعليَّة أنَّ التلاميذ في العالَم القديم كان مطلوبًا منهم أن يحفظوا تعاليم مُعلِّميهم، وأنَّ كثيرًا من تصريحات السيِّد

** الذاكرة الاسترجاعيَّة (The Recollective Memory) هي علاماتُ قدرة الذاكرة على استجماع المعلومات والأحداث (الناشر).

المسيح معروضٌ في شكلٍ مُصمَّم للحفظ فعلًا، بحيث يتوافر لك كلُّ سببٍ يدعو إلى تصديق الأخبار.

كذلك يلتفتُ بوكْهام أيضًا إلى الأنثروپولوجيا (علم الأجناس البشريَّة) لتقديم الدَّليل على أنَّ كَتَبة الأناجيل لم يشعروا بأنَّهم أحرارٌ في أن يُزَخرِفوا أو يؤلِّفوا الكلام أو الأحداث في سيرة حياة السيِّد المسيح. وقد افترض عُلماء النَّقد منذ أوائل القرن العشرين أنَّ المسيحيِّين الأوَّلين كان من شأنهم أن يستخدموا عمليَّةً مَرِنةً نسبيًّا لِنَقْل أساطيرَ شعبيَّة شائعة، حاسبين أنفسهم أحرارًا في تغيير حكايات الماضي بحيث توافِقُ واقعَهم وأوضاعهم الحاضرة. غير أنَّ بَوكْهام يستشهد بدراسة يان ڤانسينا (Jan Vansina) للتقاليد الشفهيَّة في الحضارات الأفريقيَّة البدائيَّة، حيث أمكنَ التمييزُ بين الأساطير الخياليَّة والوقائع التاريخيَّة بكلِّ وضوح وبُذِلَت عنايةٌ أوفرُ جدًّا لحفظ الوقائع التاريخيَّة بدقَّة. وقد قوَّض هذا الاكتشافُ مئة سنة من جهد عُلَماء نَقْد الأناجيل.

> إنَّ عُلَماء الأناجيل، منذ نُقَّاد الشَّكل (Form critics) فما بَعد، اعتقدوا أنَّ المسيحيِّين الأوَّلين، في تناقُلهم للتقاليد المختصَّة بيسوع، ما كانوا قطُّ ليُميِّزوا بين ماضي الزمان في تاريخ يسوع وحاضِرِهم هُم، لأنَّ المجتمعات القائمة على المُشافهة لا تُجري تمييزاتٍ من هذا النَّوع. ولكنَّ هذا الاعتقاد خاطئ.[١٨]

وبينما أكتبُ هذه السُّطور اليوم، يبدو أنَّ هنالك سَيلًا مِمَّا سَمَّاه ديڤيد ڤان بيما (David Van Biema) في "**مجلَّة تايم**" (Time Magazine) "حركة تعديل الكتاب المقدَّس" (Biblical Revisionism) على خُطى دان براون و"**شفرة داڤنشي**". ويُشير ڤان بِيما إلى الزَّعم الحديثِ العهد بأنَّه قد عُثِر على قبر يسوع، وأنَّه تزوَّج مريمَ المجدليَّة وأنجبَ أولادًا. وقد

نشر عُلَماء آخرون كُتبًا تحوي مزاعمَ تبصُّراتٍ جديدة مُماثِلة من الأناجيل الغنُوصيَّة. ويبدو أنَّ المزيد سيَظهرُ حتمًا. ويستشهد ڤان بِيما بما يقوله لِن غارت (Lynn Garrett)، كبيرُ مُحرِّري الشُّؤون الدينيَّة في پَبْلِشَر وِيكلي (Publisher Weekly)، إذ يتحدَّث بما دعاه "**تأثير شِفرة داڤنشي**": "وُجِدت تواريخُ حدسيَّة قبل كتابة دان براون لهذه الرِّواية. غير أنَّها لَم تُحرِز رواجًا نادرًا، ولم يشغل مؤلِّفوها البرامج الثقافيَّة اليوميَّة".[١٩]

إنَّ هذه التواريخ التَّعديليَّة كلَّها تتجاهل كلِّيًّا المجموعةَ المُتعاظِمة من الدراسات العلميَّة الدَّقيقة التي تُبيِّن أنَّ عددًا كبيرًا من شهود العِيان لحياة السيِّد المسيح ظلَّ على قَيد الحياة سنينَ كثيرة. وكما علَّق العالِم البريطانيُّ ڤِنسَنت تايلُر (Vincent Taylor) في قَولٍ مشهور له، فإنَّه لو أنَّ الشُّكوكيِّين كانوا على حقٍّ في موقفهم من الكتاب المقدَّس "لكان واجبًا نَقْلُ التلاميذ إلى السَّماء بُعيدَ قيامة السيِّد المسيح".[٢٠] إذ إنَّ تلك هي الطريقة الوحيدة التي بها كان يتيسَّر إقحامُ العناصر الأسطوريَّة في قصَّة يسوع قبل زمن كتابة الأناجيل- غير أنَّ ذلك لم يحدُث. وهكذا، فمن دواعي السُّخرية أنَّه بينما تُروِّج وسائل الإعلام الشعبيَّةُ في الغرب أخبارًا عن سيرة يسوع مؤسَّسةً على مساعي عُلماء بالكتاب المقدَّس، شُكوكيِّين إلى حدودٍ قُصوى، نَشطوا قبل قرنٍ من الزَّمان، فإنَّ أساساتِ تلكَ المساعي تتآكل وتتداعى سريعًا.[٢١]

"لا نستطيع أن نثق بالكتاب المقدَّس حضاريًّا".

لَمَّا جئتُ إلى مدينة نيويورك للمرَّة الأولى، قبل نحو عشرين سنة، كان الإشكال الرئيسيُّ الذي أربكَ الكثيرين بشأن الكتاب المقدَّس ينحصر في المَيدانَين اللذين نظرنا فيهما توًّا، وأعني العلم والتاريخ. ولكنَّ الأمورَ اليوم

قد تغيَّرت إلى حدٍّ ما. إذْ أجدُ أناسًا أكثرَ الآن مُنزعجين خصوصًا ممَّا يُسمُّونه "تعليمَ الكتاب المقدَّس العتيقَ الطِّراز والرَّجعيّ". فهو يبدو مؤيِّدًا للعبوديَّة واستعباد المرأة. ومواقفُ من هذا النَّوع تبدو مُهينةً جدًّا في نظر المُعاصِرين بحيثُ يستصعبون أن يقبلوا أيَّة أجزاءٍ أخرى من رسالة الكتاب المقدَّس.

في أوائل عهدي بكنيسة الفادي، قضيتُ كثيرًا من الوقت مع أشخاصٍ كانوا يقرأون الكتاب المقدَّس للمرَّة الأولى. ومن جرَّاء ذلك وجدتُ نفسي دائمًا أجاوِب أشخاصًا يكادون يختنقون بآيةٍ معيَّنة يتعذَّر هضمُها. وأذكرُ فنَّانًا شابًّا مُرتديًا ثيابًا سوداءَ تقدَّم إليَّ بعد إحدى الخدمات، وقد اكتشف توًّا الآية القائلة "أيُّها العبيد، أطيعوا سادتكم" (أفسُس ٦: ٥ وما يلي)، فكاد يُصابُ بسكتة دماغيَّة. وإليكَ الطريقةَ التي بها نصحتُه، هو وسواه، كيف ينظر إلى آيةٍ من الكتاب تثير عندهم الاعتراض أو الامتعاض.

يكتفي كثيرون بأن ينفروا غريزيًّا من أيِّ تفكيرٍ في الكتاب المقدَّس حالَما يُصادِفون فيه آياتٍ كهذه. فأشيرُ عليهم أن يتمهَّلوا بالأحرى ويمتحنوا بضع وجهات نظر مختلفة تتناول المسائل التي تُزعجِهم. وبتلك الطريقة يستطيعون أن يُتابِعوا قراءة الكتاب المقدَّس ويتعلَّموا ويستفيدوا منه، رغمَ استمرارهم في الصِّراع مع بعض المفاهيم التي يتضمَّنها.

فمن الاحتمالات التي ألحُّ عليهم أن يُفكِّروا فيها أنَّ المقطع الذي يُقلِقُهم ربَّما لا يُعلِّم ما يبدو لهم أنَّه يُعلِّمه. وكثيرٌ من النُّصوص التي يجدُها الناس مُهينةً يمكن أن يُجلى غموضُها بالرجوع إلى تفسيرٍ مُحترَم يضعُ المسألة في سياقها التاريخيّ. خُذْ مثلًا الآية "أيُّها العبيد، أطيعوا سادتكم". فالقارئُ العاديُّ اليوم يُفكِّر حالًا، وعلى نحوٍ معقولٍ، في تجارة العبيد الأفارقة التي كانت رائجةً في القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر،

أو في المُتاجرة بالبشر والاسترِقاق الجنسيِّ كما هي جاريةٌ في أماكنَ كثيرةٍ اليوم. ومن ثَمَّ يُفسِّر القارئُ مثلَ هذا النَّصِّ على أنّه يُعلِّم أنَّ استعبادًا كهذا مسموحٌ به، بل مرغوبٌ فيه.

هذا مَثَلٌ مُمتاز على تجاهُل المسافة الحضاريَّة والتاريخيَّة بيننا وبين كاتب النَّصِّ الأصليِّ وقُرَّائه. ففي الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، أثناءَ القرن الأوَّل، لمَّا كُتِبت أسفارُ العهد الجديد، لم يكُن بين العبيد والحرِّ مُتوسِّط الحال فَرقٌ كبير. ولم يكُن ممكنًا تمييزُ العبيد من الآخرين بواسطة العِرق أو اللُّغَة أو اللِّباس. فقد كانت هيئتُهم وعيشتُهم على غرار أيِّ شخصٍ آخر تقريبًا، ولم يكونوا مَعزولين عن باقي المُجتمع بأيَّة طريقة. ومن وجهة نظرٍ اقتصاديَّة، كان العبيد يَكسِبون مثلَ أجرة العُمَّال الأحرار، ولذلك لم يكونوا فُقراءَ عادةً. كذلك كان في وُسع العبيد أيضًا أن يجمعوا مالًا شخصيًّا كافيًا يُمكِّنهم من شراء حرِّيَّتهم. وأهمُّ كُلِّ شيءٍ أنَّ عبيدًا قليلين جدًّا كانوا عبيدًا مدى حياتهم. إذ كان في وُسع مُعظَمهم أن يَرجُوا إعتاقهم في غضون عشرِ سنين أو خمسَ عشرةَ سنة، أو في أواخر ثلاثينيَّاتهم كحدٍّ أقصى.[٢٢]

وعلى نقيض ذلك، كان الاسترِقاق في "العالَم الجديد" أكثر وحشيَّةً بكثير على نحو منهجيٍّ ومُتجانِس. فقد كان عبوديَّةَ "استِملاك"، فيها كان شخصُ العبد بمُجمَله ملكًا منقولًا لسيِّده، حيثُ كان ممكنًا أنَّ العبد- ذكرًا كان أم أنثى- يُغتصَبُ أو يُشوَّه أو يُقتلُ وفقًا لإرادة مالِكه. أمَّا في خادميَّة الاسترِقاق أوِ التَّعاقُد القديمة، فقد كان السيِّد يملك فقط إنتاجيَّة العبيد، أي وقتَهم ومهاراتِهم، وذلك إلى أجَلٍ مُعيَّنٍ فحسْب. غير أنَّ الاسترِقاق الأفريقيَّ كان مؤسَّسًا على العِرق، وكان أُسلوبه المَعيب الاستعبادَ مدى الحياة. ثُمَّ إنَّ المُتاجرة بالعبيد الأفارقة أيضًا كانت تُباشَر وتُموَّن بواسطة

خَطْف الناس. والكتاب المقدَّس يَدين بلا تحفُّظ خطفَ الناس والاتّجار بالعبيد (١تيموثاوس ١: ٩-١١؛ راجِع تثنية ٢٤: ٧). ولذلك، فبينما لم يشنَّ المسيحيُّون المُبكِّرون حملةً لإبطال الاسترقاق في القرن الأوَّل نهائيًّا، فعلَ المسيحيُّون المُتأخِّرون ذلك لمَّا واجهَهُم استرقاقُ "العالَم الجديد"، ذاك الذي لا يمكن أن يُجعَل بأيَّة طريقة مُوافِقًا لتعليم الكتاب المقدَّس.[٢٣]

إنَّ بعض مَقاطع الكتاب المقدَّس ربَّما لا تُعلِّم ما يبدو أنَّها تُعلِّمه للوهلة الأولى. ولكنَّ بعضَ الناس قد درسوا بالتدقيق نصوصًا مَخصوصةً من الكتاب وباتوا يفهمون ما تُعلِّمه، ومع ذلك ما **يزالون** يجدونها مُهينةً ورجعيَّة. فماذا ينبغي أن يفعلوا إذًا؟

إنِّي أناشِدُ الناس أن يُفكِّروا في أنَّ مُشكِلتَهم بشأن بعض النُّصوص قد تكون مؤسَّسةً على اعتقادٍ غير مَدروس بتفوُّق لحظتهم التاريخيَّة على جميع ما عداها. فيجب علينا ألَّا نُعمِّمَ زمانَنا كما لا ينبغي أن نُعمِّمَ حضارتَنا. فكِّرْ في مدلول اللفظة "رجعيٌّ" بحدِّ ذاتها. فأن ترفضَ الكتاب المقدَّس باعتباره رجعيًّا هو أن تفترضَ أنَّك الآن قد بلغتَ اللحظةَ التاريخيَّة القصوى التي منها يمكن تمييزُ كلِّ ما هو رجعيٌّ وتقدُّميّ. وهذا الاعتقاد يقينًا ضيِّقُ الأفق وحصريٌّ مثلَ وجهات النَّظر التي تَعدُّها مُهينةً في الكتاب المقدَّس.

تأمَّلْ آراء الشَّعب البريطانيِّ المُعاصِر، وكيف تختلف عن آراء أجدادهم الأنغلوسكسونيِّين قبلَ ألفِ سنة. وتصوَّر أنَّ هؤلاء وأولئك جميعًا يقرأون الكتاب المقدَّس ويَصِلون إلى الأصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقس. فأوَّلًا يقرأون تصريحات يسوع بأنَّه **ابنُ الإنسان** الذي سيَأتي مع الملائكة في آخر الزَّمان لكي يَدين العالَم كُلَّه بحسب برِّه (الآية ٦٢). وبعد ذلك يقرأون عن بطرس، الشجاع بين الرُّسل، إذ يُنكِر

سيِّده ثلاث مرَّات، وأخيرًا يلعنه لكي ينجوَ بحياته (الآية ٧١). غير أنَّ بطرس في ما بعد يُسامَح ويُرَدُّ إلى القيادة (مرقس ١٦: ٧؛ يوحنَّا ٢١: ١٥ وما يلي). فإنَّ الخَبَر الأوَّل يجعل الشعب البريطانيَّ المعاصر يَرتعِد، إذ يبدو فائق الحَسميَّة والحصريَّة. غير أنَّهم سيُعجَبون بالخَبَر الذي يصف كيف يمكن حتَّى لبُطرس أن يُرَدَّ ويُسامَح. أمَّا الأنغلوسكسونيُّون فلَن يُزعِجَهم الخَبَرُ الأوَّلُ أبدًا. فهم يعرفون جيِّدًا يومَ الحِساب، ويَسرُّهم أن يعرفوا مزيدًا من المعلومات عنه! غير أنَّهم سيُصدَمون حيالَ الخَبَر الثاني. ففي رأيهم أنَّ عدمَ الوفاءِ والخيانةَ على مُستوى ما فعله بطرس يجب ألَّا يُغتفَرا البتَّة. إنَّه لا يستحقُّ أن يظلَّ حيًّا، ناهيكَ بأنْ يصيرَ الرسولَ المُقدَّم. ولَسوف يُروِّعهم ذلك جدًّا بحيثُ يرغبون في إلقاء الكتاب المقدَّس وعدم قراءة المزيد منه.

إنَّنا بالطَّبع نُفكِّر في الأنغلوسكسيِّين باعتبارهم قَومًا بدائيِّين، ولكنْ يومًا ما سيُفكِّر آخرون فينا، وفي آراء حضارتنا السائدة، باعتبارنا بدائيِّين. فكيف يمكن أن نستخدمَ مقياس زماننا بشأن ما هو "تقدُّميٌّ" بصفته المِعيار الذي بموجبه نُقرِّر أيَّةُ أجزاء من الكتاب المقدَّس صحيحة وأيَّةٌ غير صحيحة؟ إنَّ كثيرًا من مُعتقدات أجدادنا وآبائهم يبدو الآن تافهًا، بل مُخيِّبًا أيضًا، بالنِّسبة إلينا. وهذه العمليَّة لن تتوقَّفَ الآن. فإنَّ حُفَداءنا سيَحسبون قسمًا كبيرًا من آرائنا عتيقَ الزِّيِّ أيضًا. أفلا يكون أمرًا مأساويًّا إذا رمَينا الكتاب المقدَّس بعيدًا بسببِ مفهوم سيَبدو بعد حينٍ ضعيفًا أو خاطئًا إلى حدٍّ ما؟ فأنْ تبقى بعيدًا عن الإيمانِ المسيحيِّ لأنَّ جزءًا من تعليم الكتاب المقدَّس يُنَفِّرك هو أمرٌ ينطوي على هذا الافتراض: إذا كان الله موجودًا، فلَن تكونَ لديه أيَّةُ آراءٍ تُغيظك. أفهذا الاعتقاد معقول؟

لديَّ نصيحةٌ صغيرة بَعدُ للأشخاص الذين يخوضون صراعًا مع بعضٍ من تعاليم الكتاب المقدَّس. ينبغي أن نحرصَ على التمييز بين مواضيع الكتابِ المقدَّس الرئيسيَّة ورسالته الأساسيَّة وبين تعاليمه الأقلِّ أهمِّيَّة. إنَّ الكتابَ المقدَّس يتكلَّم عن شخص السيِّد المسيح وعمله، وأيضًا عن الطريقة التي بها ينبغي أن تُكرَم الأرامل في الكنيسة. فأوَّل هذين الموضوعَين أكثرُ أساسيَّةً بكثير. ولولاه ما كان للتعاليم الإضافيَّة معنًى. لذلك ينبغي أن نأخذ في الحسبان تعاليم الكتاب المقدَّس بحسب ترتيبها الصحيح.

ولْنأخُذْ مسألةً حاميةً اليومَ مثلًا جيِّدًا. فإنْ قُلتَ: "لا أستطيع أن أقبلَ ما يقوله الكتاب المقدَّس عن دورِ كلٍّ من الجنسَين"، يجب أن يبقى ماثلًا في ذهنك أنَّ المسيحيِّين أنفسهم يختلفون بشأن ما تعنيه بعضُ الآيات أو المقاطع، كما يختلفون بشأن أمورٍ أخرى كثيرة جدًّا. غير أنَّهم جميعًا، بكلمات قانون الإيمان الرسوليّ، يعترفون بأنَّ يسوع المسيح قد قام من بين الأموات في اليوم الثالث. فلا تقلقْ بشأن دورَيِ الجنسَين قبل أن تُقرِّر ما تعتقده بشأن تعاليم الإيمان الأساسيَّة.

غير أنَّك قد تستأنف: "ولكنِّي لا أستطيع أن أقبلَ الكتابَ المقدَّس إذ إنَّ ما يقوله عنِ الجنسَين قديم الطِّراز". فأنا أردُّ على هذا بالسؤال التالي: أأنتَ قائلٌ إنَّ السيِّد المسيح لا يمكن أن يكون قد قام من بين الأموات لأنَّ ما يقوله الكتاب المقدَّس عن الجنس لا يَروقك؟ وأنا على يقين بأنَّك ما كُنتَ لِتُصرَّ على مثل هذا التَّعليل غير المنطقيّ. فإنْ كان يسوع هو ابن الله، نُضطَرُّ عندئذٍ إلى أخْذ تعليمه على مَحمِل الجِدّ، بِما في ذلك ثِقتُه بسُلطان الكتاب المقدَّس. وإن لم يكُن يسوعُ مَن قال عن نفسه إنَّه هو، فلماذا ينبغي أن يَعنِيَنا ما يقوله الكتاب المقدَّس بشأن أيِّ أمرٍ آخر؟

فكِّر في الأمر على هذا النَّحو. إن غطستَ في الطَّرَف الضَّحل من بِركة الكتاب المقدَّس، حيث تقوم مُجادلاتٌ كثيرة حول التفسير، يمكن أن يُصيبَك ضَرَر. ولكن إذا غطستَ في قلب بِركة الكتاب- حيث يقوم إجماعٌ على ألوهيَّة السيِّد المسيح وموته وقيامته- تكون في أمان. فمن المُهمّ إذًا أن تنظر بعين الاعتبار إلى تصريحات الكتاب المقدَّس الرئيسيَّة بشأن هُويَّة السيِّد المسيح وقيامته من بين الأموات قبل أن ترفضَ الكتاب بسبب تعاليمَ أقلَّ أهميَّةً وأكثرَ إثارةً للجدل.

كتابٌ مقدَّسٌ جدير بالثِّقة

أم إلهٌ من "ستيفورد" (Stepford)؟

إذا أتَحنا لمعتقداتنا غير المدروسة أن تُقوِّض ثقتنا بالكتاب المقدَّس، فقد يكون ثمن ذلك أكبرَ ممَّا نظنّ.

فإن لم تكن لك ثقةٌ بالكتاب المقدَّس كافيةٌ لأنْ تَدَعه يتحدَّى تفكيرك ويُصحِّحهُ، فكيف يمكنك أصلًا أن تحوزَ علاقةً شخصيَّةً بالله؟ إذ إنَّه في أيَّة علاقة **شخصيَّة** بحقّ، ينبغي أن يكونَ الشَّخص الآخر قادرًا على مُناقضتك. مثلًا، إذا كان غير مَسموح للزَّوجة بأن تتعارض مع زوجها، فلَن تكون لهما علاقةٌ حميمة. أتَذكُرُ الفيلمَين*** **زوجات** ستيفورد (The Stepford Wives)؟ فإنَّ أزواج ستيفورد، بمنطقة كُنكْتِكَت (Connecticut)، يُقرِّرون أن

*** ثَمَّة فيلمان يحملان الاسم ذاته أُنتِج أحدُهما في عام ١٩٧٥، فيما أُنتِج الآخر في عام ٢٠٠٤. وحريٌّ بالذكر أنَّ هناك روايةً تحملُ العنوانَ ذاته من تأليف إيرا ليفن (Ira Levin) نُشرَت في عام ١٩٧٢م (الناشر).

تُحوِّل زوجاتُهم إلى رُبُوتات (نساء آليّات) لا يخالِفنَ أبدًا إرادات أزواجهنّ. وكانت الزوجة الاستيفورديَّة مُذعِنةً وجميلةً بصورةٍ رائعة، ولكنَّ أحدًا لا يستطيعُ أن يَصِفَ زواجًا كهذا بأنَّه حميمٌ أو شخصّي.

والآن، ماذا يجري إن أسقَطتَ من الكتاب المقدَّس أيَّ شيءٍ يتحدَّى إدراكك ويُخالِف إرادتك؟ إذا انتقَيتَ واخترتَ ما تُريد أن تؤمن به ورفضتَ الباقي، فكيف يكون لديك إلهٌ يمكن أن يُناقِضَك؟ لن يكونَ لك إلهٌ كهذا، بل سيَكون لك إلهٌ من ستيفُورد! إلهٌ من صُنع يدك على نحوٍ جوهريّ، وليس إلهًا تستطيعُ أن تحوز علاقةً به وتفاعُلًا أصيلًا معه. فإذا كان إلهك يستطيعُ أن يقولَ أشياءَ تُغضِبُكَ وتجعلُكَ تخوضُ صراعًا (كما في صداقةٍ أو زيجةٍ حقيقيَّة!)، فعندئذٍ فقط تكون قد تمسَّكتَ بإلهٍ حقيقيّ، لا إلهٍ من نَسْج خيالك. وهكذا، فإنَّ كتابًا مقدَّسًا ذا سُلطانٍ حاسمٍ ليس عدوًّا لعلاقةٍ شخصيَّةٍ بالله، بل هو شرطٌ مُسبَّق لها.



استراحة

هلمّ نتحاجَج!

إشعياء ١: ١٨

الاستراحةُ فترةٌ تفصل بين رحلةٍ وأخرى، أو مَهمَّةٍ وتاليَتها. وهذا هو موضعُنا الآن. ففي أساس جميع الشُّكوك بشأن المسيحيَّة مُعتقداتٌ بديلةٌ تتمثَّل في افتراضاتٍ تتعذَّر بَرْهَنَتُها بشأن طبيعة الأمور. وحتَّى الآن نظرتُ في المعتقدات الكامنة في أساس أكبرِ سبعة اعتراضاتٍ أو شكوك تُساوِرُ أهل الحضارة الغربيَّة من جهة الإيمان المسيحيّ. ومع احترامي لقسط كبير من التَّعليل العقلانيّ وراءها، فأنا في نهاية المطاف لا أعتقد أنَّ أيًّا منها يجعل حقَّ المسيحيَّة غيرَ معقولٍ، أو حتَّى غيرَ مُحتمَل. إنَّما ينبغي لنا أن نقوم برحلةٍ أخرى. فأنْ نُحاجَّ بعدم وجود أسبابٍ كافية لإنكار المسيحيَّة هو شيء، أمَّا أن نُحاجّ بوجود أسبابٍ كافية **للإيمان** بها فشيءٌ آخَر. وهذا هو ما سأحاول القيام به في الجزء الباقي من هذا الكتاب.

ولكنْ قد يسأل سائلٌ: "مهلًا، أنت تَنوي أن تُقدِّمَ لنا أُسُسًا كافيةً

للإيمان بالمسيحيَّة! فكيف تُعرَّف المسيحيَّة؟ وكيف تُعرَّف الصِّفة كافية''؟ فَلْننظُرْ في هذين السؤالَين على التوالي.

أيّةُ مسيحيّة؟

من الخارج، يمكن أن تبدوَ الكنائسُ والطرائق المسيحيَّة المختلفة مُتباينةً إلى أبعد الحدود، شأنُها شأنُ الحال في معظم الأديان المُتمايزة تقريبًا. ويعود سببُ ذلك جزئيًّا إلى كَون خدمات العبادة العامَّة تبدو مُتباينةً غاية في التباين. كما يعود أيضًا، حسبَما قلتُ في الفصل الثالث، إلى كَون المسيحيَّة الدِّينَ الأكثر انتشارًا بين حضارات العالَم ومناطقه. ولذلك أضفِيَ عليها عددٌ ضخم من الأشكال الحضاريَّة المتنوِّعة. ويتمثَّل سببٌ آخر لكَون المسيحيِّين يَبدون كثيري التبايُن بعضُهم عن بعض في الانشقاقات اللّاهوتيَّة الكبيرة التي حصلتْ على مرِّ القُرون. وقد كان أوَّل انشقاق كبير بين الرُّوم الشرقيِّين وكنيسة روما الغربيَّة في القرن الحادي عشر. وتُعرَف الجماعتان اليوم بالكنائس الأرثوذكسيَّة الشرقيَّة والكاثوليكيَّة الرُّومانيَّة. أمَّا ثاني انشِقاقٍ كبير فكان داخل الكنيسة الغربيَّة، بين الكاثوليكيَّة والپروتستانتيَّة.

من شأن جميع المسيحيِّين الذين ينظرون بعين الجِدِّيَّة إلى الحقِّ والعقيدة أن يتَّفقوا على اعتبار هذه الفُروق بين الكنائس بالغةَ الشأن والدَّلالة. فهي تُحدِث اختلافًا بارزًا في كيفيَّة اعتناق المرء لعقيدته الإيمانيَّة وممارسته لها. غير أنَّ جميع المسيحيِّين، الأرثوذكس والكاثوليك والپروتستانت، يُوافقون معًا على إقرارت الإيمان الرئيسيَّة في السنوات الألف الأولى من تاريخ الكنيسة، كقانون الإيمان الرسوليِّ، والنِّيقَويِّ، والخلقيدونيِّ، والأثناسيوسيّ. ففي إقرارت الإيمان هذه تُبسَط النظرة المسيحيَّة الجوهريَّة إلى الحقيقة. وهي

تشتمل على التعبير الكلاسيكيِّ العريق عن المفهوم المسيحيِّ لله بصفته ثلاثةً في واحد. والاعتقاد بالثالوث يُوجِدُ رؤيةً إلى الكَون مختلفةً بصورة أساسيَّة عن رؤية القائلين بتعدُّد الآلهة، والموحِّدين المُنكِرين للثالوث، والمُلحِدين، على ما سأبيِّن في الفصل الثالث عشر. وتشتمل الإقرارتُ أيضًا على تصريح قويٍّ بلاهُوت يسوع المسيح وناسُوته الكاملَين. وعليه، فإنَّ المسيحيِّين لا ينظُرون إلى السيِّد المسيح باعتباره معلِّمًا أو نبيًّا إضافيًّا، بل ينظرون إليه بصفته **مخلِّص العالَم**. وتعاليمُ من هذا النَّوع تجعلُ المسيحيِّين يُشبِهون بعضهم بعضًا أكثرَ بكثيرٍ ممَّا يختلفون بعضُهم عن بعض.

فما تعريفُ المسيحيَّة؟ في سبيل أهدافنا، سأعرِّف المسيحيَّة بأنَّها مُجمَل المؤمنين الذين يُوافِقون على هذه الإقرارت الإيمانيَّة الجامعة. فإنَّهم يؤمنون بأنَّ الإله الواحد المُثلَّث الأقانيم قد خَلق الكون، وأنَّ البشريَّة قد سقطت في الخطيَّة والشَّرّ، وأنَّ الله قد رجعَ لإنقاذنا في شخص يسوع المسيح، وأنَّ السيِّد المسيح بموته وقيامته قد أتمَّ لنا خلاصَنا حتَّى يمكن أن يَقبلَنا الله بالنِّعمة، وأنَّه قد أنشأ كنيستَهُ- جماعتَهُ أو شعبَه- باعتبارها الأداة التي بواسطتها يُواصِل مَهمَّتَه الخاصَّة بالإنقاذ والمُصالَحة والخلاص، وأنَّه في آخر الزَّمان سيَرجع كي يُجدِّدَ السَّماوات والأرض، مُزيلًا من العالَم كلَّ شرٍّ وظُلمٍ وخطيَّةٍ ومَوت.

إنَّ جميعَ المسيحيِّين يؤمنون بهذا كُلِّه، ولكنْ ليس من مسيحيِّين يؤمنون بهذا فقط. فما إن تسأل: "كيف تتصرَّف الكنيسة بوَصفها أداةً لأداء عمل السيِّد المسيح في العالَم؟" و"كيف يُتِمُّ موتُ السيِّد المسيح خلاصَنا؟" و"كيف يقبلُنا الله بالنِّعمة؟" حتَّى يُعطيَكَ الكاثوليكُ والأرثوذكس والپروتستانت (الإنجيليُّون) أجوبةً مختلفة. وعلى الرُّغم من

تصريحات الكثيرين بأنَّهم مسيحيُّون لاطائفيُّون، لا يوجَدُ مَن تنطبقُ عليهم هذه الصِّفة بكامل معناها. فلا بدَّ لكلِّ امرئٍ من أن يُجيبَ عن أسئلةِ "كيف" هذه لكي يعيشَ حياةً مسيحيَّة، وهذه الأجوبة تضعُك في الحال ضمنَ أحَد التُّراثات وإحدى الطوائف أو سواهما.

من المُهمّ أن يَعيَ القُرَّاء هذا الأمر: أنِّي أدافع في هذا الكتاب عن حقِّ المسيحيَّة على وجه العُموم، لا عن سِلكٍ مُعيَّن فيها. ولا بدَّ أن يُلاحظَ بعض القُرَّاء المَشيَخيِّين الفُطَناء أنِّي أسكتُ عن بعضٍ من معتقداتي اللاهوتيَّة الخاصَّة لمصلحة قيامي بكلِّ ما في وسعي لتمثيل المسيحيِّين أجمعين. ولكنْ حين أتطرَّق إلى وَصْفِ الإنجيل المسيحيِّ في ما يتعلَّق بالخطيَّة والنِّعمة، أفعلُ ذلك حتمًا بصفتي مسيحيًّا إنجيليًّا، ولا أردِّد أصداءَ مُعتقداتٍ من شأنِ مؤلِّف كاثوليكيٍّ مثلًا أن يُردِّدها.

أيَّة معقوليَّة؟

أريد أن أبيِّنَ وجودَ أسبابٍ كافية للإيمان بالمسيحيَّة. إنَّ أشخاصًا بارزين في الغرب بين مُنكِري الإيمان المسيحيِّ اليوم- أمثال ريتشارد داوكنْز (Richard Dawkins) ودانيال دَنت (Daniel Dannett) وسام هَرس (Sam Harris) وكريستوفر هتشنْز (Christopher Hitchens)- يُصرُّون على عدم وجود أسبابٍ كافية تُعلِّلُ وجودَ الله. فيقول داوكِنْز مثلًا إنَّ دعوى وجود الله هي فَرضيَّةٌ علميَّة ينبغي أن تخضعَ للبرهنة العقليَّة.[١] فهو وزملاؤه الشكَّاكون يريدون برهنةً منطقيَّةً أو تجريبيَّة على وجود الله تكون مُحكَمةً ومُتماسِكة، ومن ثَمَّ تُقنعُ الجميعَ تقريبًا. وهم لن يؤمنوا بالله قبل الحصول عليها.

فهل من خطبٍ أو خَلَل في ذلك؟ أجل، حسبَما أعتقد. فإنَّ هؤلاء الكُتَّاب يُقيِّمون البراهين المسيحيَّة بواسطة ما سمَّاه بعضُهم "عقلانيَّة قويَّة" (Strong Rationalism).[٢] وقد أَرسى أنصارُ هذه ما سُمِّي "مبدأ الإثبات" (Verification Principle)، أي أنَّ أحدًا لا ينبغي أن يعتنقَ أيَّ افتراض إلَّا إذا أمكَنَتْ بَرْهَنَتُه عقليًّا بالمنطق، أو تجريبيًّا بالاختبار الحسِّيّ.[٣] فما المقصود "بالبَرهَنة"؟ إنَّ البُرهان، حسبَ هذا الرأي، هو تقديمُ حُجَّةٍ قويَّة جدًّا بحيث لا يتوافر أيُّ سببٍ لعدم تصديقها لدى أيِّ شخص تعمل قُدراتُه العقليَّة بطريقة سليمة. فالمُلحِدون واللَّاأدريُّون يطلبون "برهانًا" من هذا النَّوع، غير أنَّهم ليسوا مُنفَردين في التمسُّك بالمعقوليَّة القويَّة. ويؤكِّد مسيحيُّون كثيرون أنَّ حُججَهم المؤيِّدة للإيمان قويَّةٌ جدًّا بحيثُ إنَّ جميع الذين يرفضونَها إنَّما يُقفِلون أذهانَهُم حِيالَ الحقِّ بداعي الخوف أو العناد.[٤]

على الرُّغم من جميع الكُتب التي تدعو المسيحيِّين إلى تقديم البراهين على مُعتقَداتهم، فإنَّك لن تجِدَ الفلاسفةَ يفعلون ذلك، ولا حتَّى أكثَرَهم إلحادًا. فالغالبيَّة العُظمى تَرى أنَّ المعقوليَّة القويَّة يكادُ يَستحيل الدِّفاعُ عنها.[٥] وذلك لأنَّها، في المقام الأوَّل، لا يمكن أن ترتقيَ هي ذاتها إلى مُستوى معاييرها الخاصَّة. فكيف تستطيعُ أن تُبرهِن تجريبيًّا أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يؤمن بشيءٍ ما دون بُرهان تجريبيّ؟ إنَّك لا تستطيع ذلك، وهذا يُبيِّن أنَّ المسألة في آخِر المطاف مسألةُ إيمان.[٦] كذلك تفترضُ المعقوليَّةُ القويَّة أيضًا أنَّه يمكن إحراز "إطلالةٍ من لامَكان"، أي موقفٍ موضوعيَّةٍ بشكلٍ كامل تقريبًا، ولكنَّ جميع الفلاسفة اليوم يتَّفقون فعليًّا على أنَّ ذلك مستحيل. فنحنُ نُقبِل على كُلِّ تَقييم فرديٍّ بكلِّ نوعٍ من الاختبارات والمُعتقدات السابقة التي تؤثِّر تأثيرًا قويًّا في تفكيرنا وفي

طريقة قيام عقولنا بعملها. وعليه، فليس من الإنصاف أن نطالبَ بحُجَّة يُضطرُّ جميع الأشخاص العاقلين لأنْ يَنحَنوا لها.

إنَّ الفيلسوف ثوماس ناجِل (Thomas Nagel) مُلحِدٌ، ولكنَّه في كتابه **الكلمةُ الفَصل** (The Last Word) يعترف بأنَّه لا يستطيعُ أن يُقبِلَ على مسألة الله بأيَّة طريقة توصَف بأنَّها منعزلةٌ أو غير مُتحيِّزة. فهو يُقِرُّ بأنَّ لديه "خوفَ الدِّين" ويشكُّ في أنَّ أحدًا يستطيع أن يتطرَّقَ إلى هذه القضيَّة بغيرِ دوافعَ قويَّةٍ جدًّا إلى رؤية الحُجَج تنحازُ إلى جهةٍ أو أخرى.

> إنّي أتحدّث بشأن... خوف الدِّين في ذاته. وأنا أتكلَّم انطلاقًا من خبرةٍ شخصيَّة، لكَوني عُرضةً لهذا الخوف على نحوٍ قويّ: أريد للإلحاد أن يكون صحيحًا... ليس أنّي لا أومِن بالله فحسْب، وآمل على نحوٍ طبيعيٍّ أن أكونَ على حقٍّ في اعتقادي، بل أنّي أرجو ألّا يكونَ الله موجودًا! لستُ أريد أن يكون الكَون على ذلك المنوال... ويُساوِرُني الفُضولُ بشأن وجود أيِّ إنسانٍ لامُبالٍ حقًّا بكَون الله موجودًا أو غير موجود- أيِّ إنسانٍ لا **يُريد** على وجه الخصوص أن يكون أيٌّ الجوابَين صحيحًا، مهما كان اعتقاده الشخصيُّ الفعليُّ في المسألة.[٧]

تَصوَّرْ قاضيًا تُعرَض أمامه دعوى أَحَدُ فريقَيها شَرِكةٌ له فيها استثمارٌ ماليٌّ ضخم. فلأنَّ لديه رغبةً شديدة في رؤية الدَّعوى تجري في مجرًى مُعيَّن، يستعفي من الجلوس للنَّظر فيها. فإنَّ ناجِل يقول إنَّنا جميعًا مثلُ هذا القاضي في ما يخصُّ مسألة الله. إذ على أساس اختباراتنا المُتعلِّقة بالدِّين، ومعتقداتنا والتزاماتنا الأخرى، وكيفيَّة عَيشِنا لحياتنا، نحن جميعًا مُهتمُّون جدًّا برؤية الدَّعوى المُختصَّة بالله تجري في سبيلٍ أو آخر. إنَّما المُشكلة تكمنُ

في كَوننا لا نستطيع أن نستعفيَ. فلأنَّ ناجل يرفضُ المعقوليَّة القويَّة، فقد كان له- على الرَّغم من شكوكيَّته- احترامٌ جزيلٌ تُجاه الإيمان والدِّين. وهو يختلفُ على نحوٍ مُبين، من حيثُ اللهجَةُ والمُنطلَق، عن كُتَّابٍ مثل داوكِنْز وهَرِس.

ثُمَّ إنَّ عدم القدرة على الدِّفاع فلسفيًّا عن "المعقوليَّة القويَّة" هو السبب الذي من أجله ما تزال كُتب داوكِنْز ودَنِت تَلقى مُعامَلةً خشنةً على نحوٍ مدهش في المجلَّات الثقافيَّة المُحترَمة. فمثلًا، كتبَ العالم الماركسيُّ تَري إيغِلتون (Terry Eagleton) مراجعةً نقديَّة قاسية لكتابَ ريتشارد داوكِنْز "وهمُ الله" في مجلَّة **لندن ريڤيو أف بُوكس** (London Review of Books). وقد انتقد إيغِلتون كلتا فكرَتي داوكِنْز الساذجتَين، أي أنَّ الإيمان لا ينطوي على أيِّ مُكوِّن عقلانيٍّ وأنَّ العقلَ غيرُ مؤسَّس إلى حدٍّ بعيد على الإيمان.

> يَحسب داوكنْز أنّ كلّ إيمانٍ هو إيمانٌ أعمى، وأنّ أولادَ المسيحيّين والمَسلمين يُرَبَّون حتّى يؤمنوا دونَ تساؤل أو شكّ. ولكنْ حتّى رجالُ الدِّين المُتزمّتون الذين انهالوا عليّ بآرائهم في المدرسة الثانويّة لم يُفكّروا هكذا. فبالنّسبة إلى المسيحيّة الأساسيّة، ما يزال المنطق والبُرهان والشكّ الصادق تؤدّي كلّها دورًا لا يتجزّأ في العقيدة الإيمانيّة... إنّ العقل، من غير رَيب، لا يسير الطريقَ كلّها عند المؤمنين (لا يُفهم تمامًا من المؤمنين)، ولكنّه لا يفعل ذلك أيضًا عند أغلب الأشخاص اللّادينيّين المتمدّنين الحسّاسين. حتّى ريتشارد داوكنْز نفسه يسلك بالإيمان أكثر منه بالعقل. فنحن نعتنق مُعتقَداتٍ كثيرةً ليس لها تسويغٌ عقلانيٌّ معصوم، غير أنّ قبولَها- رُغمَ ذلك- معقول.[٨]

وإن رفَضنا المعقوليَّة القويَّة، فهل نَعلَق عندئذٍ في النِّسبيَّة، حيث لا سبيلَ إلى الحُكم على مجموعة من المُعتقدات دون الأخرى؟ كلَّا البتَّة. وقد بيَّنتُ في الفصلَين الثاني والثالث أنَّ المحافظةَ على النِّسبيَّة الكاملة أمرٌ مستحيل.[٩] أمَّا الأسلوب الذي سأنتَهجُه في ما تبقَّى من هذا الكتاب فيُسمَّى "المعقوليَّة النقديَّة" (Critical Rationality).[١٠] وهي تفترض وجودَ بعض الحُجج التي سيَجدها كثيرون من ذوي التفكير المنطقيّ- أو حتَّى مُعظَمُهم- مقنعةً، على الرُّغم من عدم وجود حُجَّةٍ واحدة تكون مُقنعةً لكلِّ إنسان دونَما اعتبار لِوجهة النَّظر. كذلك تفترضُ أنَّ بعض أنظمة الإيمان أكثرُ معقوليَّةً من غيرها، ولكنَّ جميع الحُجَج يمكن تجنُّبها منطقيًّا في الأخير. ذلك أنَّ في وسعك دائمًا أن تجدَ داعيًا إلى التَّملُّص منها لا يكونُ مجرَّد انحياز أو عناد. غير أنَّ ذلك لا يعني أنَّنا لا نستطيعُ أن نُقيِّم المعتقدات، بل فقط أنَّه لا ينبغي لنا أن نتوقَّع بُرهانًا حاسمًا، ومن عدم الإنصاف أن نطلبَه. فحتَّى العُلَماءُ لا يسلكون هذا السبيل.

إنَّ العلماء مُعارِضون جدًّا للقول بصورةٍ جازمة إنَّ نظريَّةً ما قد "تَبرهَنت". حتَّى ريتشارد داوكنْز يعترفُ بأنَّ نظريَّة داروين تَتعذَّر بَرهَنَتُها على نحوٍ نهائيّ، وبأنَّه "قد تَبرُزُ إلى النُّور حقائقُ جديدةٌ تَضطرُّ أخلافَنا إلى التَّخلِّي عن الدَّاروينيَّة، أو إلى تعديلها بحيثُ لا تكاد تُعرَف".[١١] ولكنَّ ذلك لا يعني أنْ ليس في وسع العِلم أن يفحصَ النَّظريَّات ويَجِدَ بعضًا منها أسهلَ إثباتًا من سواها بكثير بواسطة التجريب. وتُعدُّ نظريَّةٌ ما مُثبَتةً تجريبيًّا إذا كانت تُنظِّم البيِّنات وتُفسِّر الظَّواهر أفضلَ ممَّا تفعل ذلك أيَّةُ نظريَّة بديلة يمكن تَصوُّرها. أي إذا أفضَت بنا، من طريق الاختبار، إلى أن نتوقَّعَ بدقَّةٍ حوادثَ كثيرةً ومُتنوِّعة أفضلَ من أيِّ تفسيرٍ مُنافِس للمُعطَيات ذاتها، فهي

عندئذٍ تكونُ مقبولةً، وإن لم "تَتبرهَن" (بالمعنى المعقوليّ القويّ).

وفي الكتاب "**أهُنالِك إله؟**" (Is There a God?) يُحاجُّ الفيلسوفُ الأكسفورديُّ ريتشارد سُوينبورن (Richard Swinburne) على نحوٍ فعَّال بأنَّ الإيمانَ بالله يمكنُ أن يُفحَص ويُسوَّغ بالطريقة نفسها (إنَّما لا يُبرهَن).[١٢] فهو يقول إنَّ الرأي القائل بوجود الله يُفضي بنا إلى أن نتوقَّعَ الأمور التي نُلاحظها: أنَّ هنالك كَونًا بالفعل، وأنَّ قوانينَ علميَّةً تشتغلُ في داخله، وأنَّه يَضمُّ كائناتٍ بشريَّةً ذاتَ وعيٍ وحسٍّ أخلاقيٍّ يتعذَّر مَحوُه. وهو يُحاجُّ بأنَّ النظريَّة القائلة بعدم وجود الله لا تُفضي بنا إلى أن نتوقَّعَ أيًّا من هذه الأمور. وعليه، فإنَّ الإيمانَ بالله يُقدِّمُ مُلاءمةً تجريبيَّةً فُضلى، إذ يشرحُ ويُعلِّلُ ما نراه أفضلَ من التَّفسير البديل للأمور. ما من نظرةٍ في الله يُمكن أن تُبرهَن، ولكنَّ ذلك لا يعني أنْ ليس في وسعنا أن نُمحِّصَ ونُوزِنَ أُسُسَ مختلَفِ المُعتقدات الدينيَّة لِنَجدَ أنَّ بعضَها، أو حتَّى أَحَدَها، أكثرُ معقوليَّةً من الأخرى.

اللهُ الرِّوائيُّ

إنَّما لا أريدُ أن يعتقدَ أَحَدٌ أنِّي أتبنَّى "المعقوليَّة النقديَّة" كما لو كانتْ نَوعًا من ثاني أفضل شيء. فإنْ كان إلهُ الكتاب المقدَّس موجودًا بالفعل، تكونُ "المعقوليَّة النقديَّة" تمامًا هي الطريقة التي بها ينبغي أن نُقاربَ مسألةَ كَينونتِه ووجودِه.

لَمَّا عادَ رائدُ فضاءٍ روسيٌّ من الفضاء وقال إنَّه لم يَجدِ الله، ردَّ سي. أس. لِويس بأنَّ ذلك كان مِثلَ صعود هاملِت إلى علِّيَّة قصره للبحث عن شكسبير. فإنْ كان الله موجودًا، فهو لَن يكونَ غرضًا آخر من جملة أغراض

الكَون يُمكن أن يُوضَعَ في مُختبَرٍ ويُحلَّلَ بالأساليب التجريبيَّة. إنَّه يَتواصلُ معنا بالطريقة التي بها يتواصل الرِّوائيُّ مع الأشخاص الذين تشتمل عليهم مسرحيَّتُه. ففي مقدورنا (نحن الأشخاصَ) أن نعرفَ مقدارًا لا بأس به عنِ الروائيِّ، ولكنْ فقط إلى الدَّرجة التي بها يختارُ الكاتب أن يُضمِّن الروايةَ معلوماتٍ عن ذاته. ولذلك، فلَيس في وسعنا بأيَّة حال أن "نُبَرهِن" وجودَ الله كما لو كان غرضًا داخِلَ عالَمنا كُلِّيًّا، مثلَ الأكسجين والهيدروجين أو جزيرةٍ في المحيط الهادئ.

ويُعطينا لِويس صورةً بيانيَّة أخرى لمعرفة الحقيقة بشأن الله إذ يكتب: "إنِّي أومِن بالله مثلما أصدِّق أنَّ الشمسَ قد أشرقتْ ليس فقط لأنِّي أراها، بل لأنِّي بها أرى كلَّ شيءٍ آخر".[١٣] تَصوَّرِ النظر إلى الشمس مُباشرةً لكي تتعلَّم عنها. إنَّك لا تستطيعُ أن تفعلَ ذلك. فهي ستُحرِق شبكيَّتَي عينَيك تمامًا وتُدمِّر قُدرتك على استيعابها. ولكنَّ طريقةً أفضل بكثير للتعلُّم عن وجود الشمس وَقوَّتها ونوعيَّتها تَتمثَّل في النَّظر إلى العالَم الذي تُريك إيَّاه، كي تعرفَ كيف تدعمُ كلَّ ما تَراه وتُمكِّنك من رؤيته.

فهُنا إذًا لنا سبيلٌ للتقدُّم. إذ لا ينبغي لنا أن نحاولَ "النظر إلى داخل الشَّمس"، إنْ جازَ التَّعبير، مُطالبين ببراهينَ لا تُدحَض عن الله. إنَّما ينبغي لنا بالأحرى أن "ننظرَ إلى ما تُرينا الشمسُ إيَّاه". فأيُّ تفسيرٍ للكَون يحوزُ "القُدرة التعليليَّة" الأقوى لإضفاء معنًى على ما نراه في العالَم وفي ذواتنا؟ لدينا إحساسٌ بأنَّ العالَم ليس على الصُّورة التي ينبغي أن يكون عليها. ولدينا إحساسٌ بأنَّنا ناقصون كثيرًا، وعُظَماءُ جدًّا رغم ذلك. ولدينا تَوقٌ إلى المحبَّة والجمال لا يمكنُ أن يُلبِّيَه أيُّ شيءٍ في هذا العالَم. ولدينا حاجةٌ ماسَّةٌ جدًّا إلى معرفة المعنى والغاية. فأيَّة رؤيةٍ إلى الكون تُعلِّل هذه الأمور أفضلَ تعليل؟

لا يدَّعي المسيحيُّون أنَّ إيمانهم يُزوِّدهم بِعلمٍ كلِّيٍّ أو معرفةٍ مُطلقة للحقيقة. فالله وحدَه حائزٌ ذلك. غير أنَّهم يؤمنونَ بأنَّ التفسير المسيحيَّ للأمور- الخَلْق والسُّقوط والفداء والإصلاح الشامل- يُضفي على العالَم معناهُ الأكمل. فأطلبُ إليك أن تَّتخذَ المسيحيَّة كنظَّارة وتنظرَ إلى الكَون بها. وانظُر مقدارَ القُدرة التي تحوزها على تفسير ما نعرفه ونراه.

إن كان إله الكتاب المقدَّس موجودًا، فهو ليس رجُلًا في العِلِّيَّة، بَل هو الرِّوائيّ. وهذا يعني أنَّنا لن نتمكَّنَ من أن نجده كما يمكنُ أن نجدَ غَرَضًا مُستترًا بواسطة قُدرات الاستقصاء التجريبيّ، بل يجب علينا بالأحرى أن نجدَ المفاتيح المُفضية إلى معرفة حقيقته تلك التي كتبَها في صُلْب الكَون وفي داخلنا أيضًا. ولذلك السبب، إنْ كانَ الله موجودًا، نتوقَّع أن نَجدَ أنَّه يُخاطِبُ مَلَكاتنا العقليَّة. وإنْ كُنَّا قد خُلقنا "على صورته" باعتبارنا كائناتٍ شخصيَّةً عاقلة، ينبغي أن يوجَدَ شيءٌ من الرَّنين (وجود التردُّد نفسه بين شَيئين) بين فكره وفكرنا. ويعني ذلك أيضًا أنَّ العقل أو المنطق وحدَه لن يكون كافيًا. فإنَّ الرِّوائيَّ لا يمكن أن يُعرَف إلَّا من طريق الإعلان الشخصيِّ وحدَه. لِذا وجبَ علينا أن نُلقيَ نظرةً على ما يقوله الكتاب المقدَّس عن الله والحالة البشريَّة.

ولكنَّ الدَّليلَ الحاسمَ على وجود الله، حسبَ الرأي المسيحيّ، هو يسوعُ المسيح نفسُه. فإنْ كانَ الله موجودًا، فلا بُدَّ لنا نحنُ الأشخاصَ في مسرحيَّته من أن نرجوَ أنَّه قد ضمَّن المسرحيَّةَ بعضَ المعلومات عن ذاته. غيرَ أنَّ المسيحيِّين يؤمنون بأنَّه فعلَ ما يتخطَّى إعطاءَنا المعلومات. فهو قد كتبَ ذاتَه في صُلْب المسرحيَّة بصفته الشخصَ الرئيسَ في التاريخ، حينما وُلِد يسوعُ في مِذوَد وقامَ من بين الأموات. وهو الشخصُ الذي ينبغي أن نتعاطى معه.



القسم الثاني

دواعي الإيمان



٨

مفاتيحُ مسألة اللّه

إذا وضع المرءُ جانبًا وُجودَ اللّه والبقاءَ بعد هذه الحياة باعتبارهما من الأمور المشكوك فيها جدًّا، فعليه أن يُحدّد رأيه في فائدة الحياة. فإذا كان الموتُ هو نهاية كلّ شيء؛ وإن لم يكن عليّ أن أرجوَ الخيرَ ولا أن أخشى الشَّرّ، فيجب أن أسألَ نفسي: لأيّة غايةٍ أنا هنا، وكيف ينبغي أن أتصرَّف في هذه الظُّروف؟ والآن، فإنَّ الجواب بسيط، ولكنّه بَغيضٌ جدًّا بحيث يأبى الأكثرون أن يُواجِهوه: ليس للحياة معنًى، وهكذا فلا معنى في الحياة.

شومرست موم (Somerset Maugham)، **التلخيص (The Summing Up)**

كان ذلك صحيحا، ولَطالما أدركتُه دائمًا: لم يكُن لي أيُّ "حقٍّ" في أن أوجَد على الإطلاق. لقد ظهرتُ صدفةً، ووُجدتُ كحَجَر، أو نبتة، أو جُرثومة. وما كان في وسعي أن أشعر حِيال ذاتي بأيِّ شيءٍ سوى الأزيز الذي لا موضوعَ له. وكنتُ أفكّر أنّنا نحنُ هُنا، نأكل ونشرب للحفاظ على وجودنا الثمين، وأفكّر أنّه لا شيء، لا شيءَ، لا داعيَ للوجود على الإطلاق.

جان پول سارتر (Jean-Paul Sartre)، **غَثَيان (Nausea)**

كيف يمكنُنا أن نؤمنَ بالمسيحيَّة إنْ كُنَّا لا نعرفُ حقًّا إنْ كان الله موجودًا؟ مع أنَّه لا يمكن الإتيان ببُرهان لا يُدحَض على وجود الله، فإنَّ كثيرين قد وَجَدوا مفاتيحَ مُهِمَّةً تؤيِّد حقيقتَهُ- بَصَماتِ أصابعَ إلهيَّةً- في أماكنَ كثيرة.

دأبْتُ ذاتَ حينٍ في التَّحاوُر دَوريًّا مع عالِمٍ شابٍّ لامع الذكاء ساورَه شعورٌ عامٌّ بأنَّ الله مَوجود. وكثيرٌ ممَّا أنا كاتبُهُ في هذا الفصل وتاليه اكتشفتُه في أثناء مُحادَثاتي معه. فإنَّه نظرَ في الحُجَج الداعمة لوجود الله واحدةً بعد الأخرى، ومع أنَّ عددًا كبيرًا منها تميَّز بحسنات كثيرة، فقد تبيَّن له أنَّ كلَّ واحدةٍ منها يمكن تجنُّبها منطقيًّا عند نُقطة ما في نهاية المطاف. وقد أقلقَه ذلك كثيرًا، حتَّى قال لي: "لا أستطيع أن أومِن إلَّا إذا وجدتُ على الأقلِّ بُرهانًا **واحدًا** مُحكَمًا تمامًا يؤيِّد وجود الله". فبيَّنتُ له أنَّه يَفترضُ "معقوليَّة قويَّة"، وانفرَجَ قليلًا لمَّا تبيَّنَ لنا كِلَينا أنَّه لا يملكُ بُرهانًا مُحكمًا يؤيِّد **ذلك** الافتراض. ثُمَّ بدأنا نُراجِعُ خُطوطَ التَّعليل التي ما يزالُ يَدعوها "براهين"، وأخَذْنا نَنظر إليها بالأحرى على أنَّها مفاتيح. حتَّى إذا تطرَّقنا إلى الموضوع من هذا المنظور، بدأ صاحبي يرى على نحوٍ تصاعُديٍّ أنَّ مفاتيحَ مسألةِ الله تتميَّزُ بقوَّةٍ غير يسيرة.

يعتقدُ الفيلسوف آلڤن پلانتِنغا أنَّه لا تُوجَدُ براهينُ على حقيقة الله من شأنها أن تُقنع كلَّ الأشخاص العقلانيِّين. غيرَ أنَّه يعتقدُ أنَّ هنالك على الأقلِّ ما بين دزِّينتَين وثلاث دزِّينات من الحُجَج الجيِّدة جدًّا على وجود الله.[1] ومعظم القُرَّاء الذين يتمهَّلون ليُنعموا النَّظر في لائحة پلانتِنغا سيَجدون بعضَ بُنودِها قويَّةً جدًّا وبعضَها ضعيفة. ولكنَّ الوزنَ المتراكمَ للبُنود التي تَجدُها جذَّابةً يمكن أن يكون هائلًا جدًّا. وها أنا أرسمُ الخطوط العريضة لعددٍ ضئيلٍ منها.

الانفجارُ الغامض

لَطالما خَلَبَ ألبابَ ذَوي التفكير الأكثر عقلانيَّةً هذا السؤالُ: "لماذا يُوجَدُ شيءٌ ما بدلًا من عدم وجود أيِّ شيءٍ؟" وقد بات ذاك السؤالُ أكثر تشويقًا للناس في أعقاب نظريَّة الانفجار الكبير (The Big Bang Theory). فثَمَّة بيِّناتٌ على أنَّ الكَونَ يتوسَّع انفجاريًّا ونحوَ الخارج من نُقطةٍ منفردة. وقد كتب ستيفن هاوكِنغ (Stephen Hawking): "يكاد كلُّ امرئٍ الآنَ يعتقدُ أنَّه كانَ للكون، والزَّمن نفسِه، بدايتُهما عندَ الانفجار العظيم".[٢] وقد عبَّر العالمُ فرنسيس كُولنْز (Francis Collins) عن هذا المفتاح بلغة الإنسان العاديِّ، في كتابه "**لغةُ الله**" (The Language of God):

> لدينا هذا الاستنتاجُ الصُّلب جدًّا بأنَّ الكونَ كان له نشوؤه في الانفجار العظيم. فقَبل خمسة عشر مليار سنة، بَرَزَ الكونُ إلى الوجود بِدَفقِ طاقةٍ مُتوهِّج من نقطةٍ مُتناهية الصِّغر. ويعني ذلك ضمنيًّا أنَّه قبل ذلك لم يكُن شيء. فلَيس في وسعي أن أتصوَّرَ كيف كان ممكنًا للطبيعة، وفي هذه الحالة للكون، أن يَخلقا ذاتَهما. ثُمَّ إنَّ حقيقةَ وجود بداية للكَون تَعني ضمنيًّا أنَّ أحدًا استطاع أن يبدأه. ويبدو لي أنّ ذلك **الأحد** وَجبَ أن يكون من خارج الطبيعة.[٣]

إنَّ كلَّ ما نعرفُه في هذا العالَم "معلول"، أي حاصلٌ نتيجةً لعلَّةٍ أو سبب خارجَ ذاته. وعليه، فإنَّ الكون- وهو مجرَّدُ كومةٍ هائلة من كياناتٍ مَعلولةٍ هكذا- لا بدَّ من أن يكونَ هو ذاتُه مُتوقِّفًا على علَّةٍ ما خارجَ ذاته. فقد وَجبَ أن يُحدِثَ الانفجارَ الكبيرَ شيءٌ ما- ولكنْ ما ذلك الشيء؟ ماذا يمكن أن يكونَ ذلك سوى شيءٍ خارجَ الطبيعة،

كائنٍ فائقٍ للطبيعة، غيرِ معلول، موجودٍ من تلقاء ذاته؟

ولكنَّ سام هَرس، في مراجعته النقديَّة لكتاب فرنسيس كُولنْز- يُقدِّم الاعتراضَ الكلاسيكيَّ على هذا الخطِّ التَّعليليّ، إذ يكتب: "على أيَّة حال، حتَّى لو قَبِلْنا أنَّ كونَنا وجبَ أن يَخلقَه كائنٌ عاقِل، فليس في هذا ما يُوحي أنَّ هذا الكائن هو الإله الموصوف في الكتاب المقدَّس".[٤] وهذا صحيحٌ تمامًا. فإنْ كُنَّا ننظرُ إلى هذا الأمر باعتباره بُرهانًا يُثبتُ وجودَ إلهٍ ذي شخصيَّة، فإنَّه لا يُوصِلُنا إلى هذه الغاية. أمَّا إذا كُنَّا نبحثُ عن مِفتاحٍ يؤدِّي بفكرنا إلى وجودِ شيءٍ ما فضلًا عن العالَم الطبيعيّ، فإنَّ هذا الأمرَ يَستَنهِضُ قَومًا كثيرين جدًّا.

الترحيب الكونيّ

لكي تأتي الحياةُ العُضويَّة إلى الوجود، ينبغي للانتِظامات والثوابت الفيزيائيَّة الأساسيَّة- سرعة الضوء، ثابت الجاذبيَّة، قوَّة القوى النَّوويَّة الضعيفة والقويَّة- أن تكونَ لها قِيَمٌ تَندرج معًا في سلسلة ضيِّقة إلى أقصى حدّ. فإنَّ احتماليَّة حُدوث هذه المُعايَرة الكاملة بالصُّدفة ضئيلةٌ جدًّا بحيث لا يُعتَدُّ بها البتَّة من الناحية الإحصائيَّة.[٥] وهنا أيضًا أجادَ كُولنْز التعبير:

> عندما تنظُرُ من منظورِ عالِمٍ إلى الكَون، سيَبدو وكأنّ الكون كان عارفًا أنَّنا مُزمِعون أن نأتي. فهنالك خمسة عشر ثابتًا لكلٍّ منها قيمةٌ دقيقةٌ جدًّا: ثابت الجاذبيَّة، وثوابت شتَّى متعلِّقة بالقوَّة النَّوويَّة الضعيفة والقويَّة...إلخ. ولو اختلف أيٌّ واحدٍ من تلك الثوابت اختلافًا مقدارُه فقط جزءٌ واحد من مليون، أو في بعض الحالات جزءٌ واحدٌ من مليون مليون، ما كان الكَونُ قد

وصل فعلًا إلى الوَضْع الذي نراه عليه. فما كانت المادّة لِتقوى على الاندماج والالتحام، وما كانَ وُجِدَ مجرّةٌ أو كواكبُ أو نجومٌ أو بشر[٦].

وقد قال بعضٌ إنَّ ذلك يُشبِهُ وجودَ عددٍ كبيرٍ من المقاييس المُدرَّجة التي وَجبَ أن تتمَّ مؤالفتُها جميعًا حتَّى أضيقِ الحدود- وقد تمَّت فعلًا. ويبدو غيرَ مُرجَّحٍ على الإطلاق تقريبًا أن يَحدُثَ ذلك بالصّدفة. حتَّى إنَّ ستيفن هاوكِنغ يخلص إلى القول: "إنَّ العقبات التي تَحولُ دون بُروز كونٍ نظير كوننا إلى الوجود من شيءٍ يُشبه الانفجار العظيم هائلةٌ حقًّا. وأنا أعتقدُ أنَّ هنالك مَضامينَ دينيَّةً على نحوٍ واضح". كذلك يقول هاوكِنغ في مَوضعٍ آخر: "لا بدَّ أن يكونَ من الصَّعب جدًّا أن نُفسِّر سببَ انطلاقة الكَون بهذه الطريقة تحديدًا، ما عدا حصول ذلك بفعل إلهٍ قَصَدَ أن يخلقَ كائناتٍ نظيرنا"[٧].

لقد دُعِيَت هذه الحُجَّة باسْم "برهان المؤالَفة الدقيقة" (Fine-Tuning Argument) أو "المبدأ الأنثروبيّ" (Anthropic Principle)، أي أنَّ الكون أعِدَّ للكائنات البشريَّة. ولا بدَّ أنَّ هذه الحُجَّةَ قويَّةٌ إلى حدٍّ بعيد؛ لأنَّ مقدارًا كبيرًا من الرُّدود العنيفة عليها قد نُشِر. أمَّا الدِّفاع الأكثر انتشارًا، والذي يُقدِّمه ريتشارد داوكِنْز في كتابه "**وهمُ الله**"، فهو أنَّه قد تُوجَد تريليونات من الأكوان. وبالنظر إلى عدد الأكوان الهائل الموجود على مدى مقاديرَ هائلةٍ من الزمان والمكان، من المحتوم أن يكونَ بعضُها دقيقَ المؤالَفة بحيث يَدعم حياةً من نوع حياتنا ويُعيلها. والكونُ الذي نحن فيه هو أحدُها، ولذلك نحنُ هنا[٨].

ولكنَّ بُرهان المؤالَفة الدقيقة، باعتباره "حُجَّةَ إثبات"، يُمكن أيضًا

التملُّص منه منطقيًا. فعلى الرُّغم من عدم توافر أدنى بُرهان على وجود عدَّة أكوان، فليس من سبيلٍ أيضًا إلى بَرهنة عدم وجودها.

غير أنَّ خَطَّ التفكير هذا، باعتباره مفتاحًا، يَحظى بقوَّةٍ لا تُنكَر. وقد قدَّم آلفِن بلانتِنغا المَثَل الإيضاحيَّ التالي. إذ تَصوَّرَ بلانتِنغا رجُلًا يُبقي لنفسه في لعبة پُوكَر واحدة أربعةَ أوراق لعب (٤ أصوص) على مدى عشرين دورةً مُتواصلة. وفيما يمدُّ شُركاءُ اللَّعِب أيديَهم إلى مُسدَّساتهم السُّداسيَّة الطَّلَقات، يقول لاعبُ اليُوكَر ذاك: "أنا أعلم أنَّ الأمر يُثير الشكّ! ولكنْ ماذا لو وُجِدت سِلسلةٌ من الأكوان بِلا نهاية، حتّى إنَّه لكلِّ توزيعةٍ من أدوار البوكَر يوجَد كَونٌ واحد يتحقَّق فيه هذا الاحتمال؟ وقد صدف أنَّنا وجَدْنا أنفُسَنا في كونٍ يُتاحُ لي فيه دائمًا أن أحظى بأربعة أصوص دونَ غِشّ!"[٩] إنَّ هذه الحُجَّة لن تكونَ ذاتَ تأثير بالنِّسبة إلى لاعِبي اليُوكَر الباقين. فمن المحتمل تِقنيًا أنَّ ذلك الرَّجُل حَظِيَ صدفةً بأربعة أصوص في عشرين دورةٍ متواصلة. ولمَّا لم يكُنْ في وسعك أن تُبرهِنَ أنَّه قد غشّ، فسَيكونُ من غير المنطقيِّ أن تستنتجَ أنَّه لم يغشّ.

كذلك يأتي الفيلسوف جون لَزلي (John Leslie) بمَثَل إيضاحيٍّ مشابِه. فهو يتصوَّر رجُلًا مَحكومًا عليه بالإعدام على أيدي فرقة إطلاق نارٍ قِوامُها خمسون من الرُّماة البارعين.[١٠] هؤلاء جميعًا يُطلقون النار من مسافةٍ لا تتعدَّى مِترَين، ولا تُصيبُ الرَّجُلَ رصاصةٌ واحدة. ولمَّا كان من المُمكِن أن يُخطِئَ الهَدَفَ حتّى الرُّماةُ المَهَرةُ من مسافةٍ قريبة جدًّا، يُحتمَل تِقنيًّا أنَّ الخمسينَ كُلَّهم لم يُصيبوا الهَدَفَ في اللحظة عينها من طريق الصُّدفة. ولمَّا لم يكُن في وسعك أن تُبرهِنَ أنَّ الرُّماة قد تآمروا على إخطاء الهَدَف، فسَيكونُ من غير المنطقيِّ أن تستنتج أنَّهم لم يفعلوا ذلك.

من المُحتمَل تقنيًّا أنَّنا قد وُجِدنا صدفة في الكَون الوحيد الذي نشأتْ فيه الحياةُ العضويَّة. ولمَّا لم يكُن في وسعك أن تُبرهِنَ أنَّ مؤالَفة الكَون الدَّقيقة تمَّتْ بفضل تصميم من نوع ما، فسيَكونُ من غير المنطقيِّ أن نخلصَ إلى الاستنتاج أنَّها لم تتمَّ كذلكَ. ومع أنَّه يُحتمَل أن تكون الحياة العُضويَّة قد نشأت تلقائيًّا دون خالق، فهَل يُعقَل أن نعيشَ كما لو كان ذلك الاحتمال الضئيل إلى ما لا نهايةَ صحيحًا؟

انتِظامُ الطبيعة

تَتَّسمُ الطبيعة بشيءٍ يَفوقُ تصميمَها بكثيرٍ جدًّا من حيث روعتُه وتعذُّرُ تفسيرِه. ذلك أنَّ كلَّ تعليلٍ علميٍّ استدلاليٍّ مؤسَّسٌ على افتراضِ انتظام الطبيعة (""قوانينها"")، فالماءُ غدًا سيَغلي تحت الظروف الموافِقة اليومَ مثلًا. ويقتضي أسلوب الاستدلال، أو الاستِقراء، الانطلاقَ من الحالات المُلاحَظة والتَّعميمَ على جميع الحالات المُنتمِية إلى النَّوع نفسه. فلولا التَّعليل الاستقرائيُّ، ما كان ممكنًا أن نتعلَّمَ من الاختبار، ولا أن نستخدمَ اللُّغة، ولا أن نتَّكِلَ على ذاكراتِنا.

إنَّ معظمَ الناس يَجدونَ ذلك مَألوفًا وغير مُقلِق. أمَّا الفلاسفة، فلا! فإنَّ ديڤيد هيُوم (David Hume) وبرتراند رَسل (Bertrand Russel)، وهُما شخصان لادينيَّان مُحترَمان، أقلقَتْهما حقيقةُ كونِنا دون أن يحصلوا على أدنى فكرةٍ عن سبب حصول انتظام الطبيعة في الوقت الحاليّ، فضلًا عن عدم حيازتنا أدنى مُبرِّر عقلانيٍّ يُبيِّن أنَّ الانتظامَ سيَستمرُّ غدًا. وإذا قال أحدٌ: ""إنَّ المستقبَلَ سيَظلُّ دائمًا مِثلَما كان الماضي في الماضي""، يُجيبُ هيُوم ورَسِل بأنَّك تفترضُ الشَّيءَ ذاته الذي تُحاوِلُ إثباته. وبتعبيرٍ آخر، لا

تقع تلك اللّحظة وفي ذلك السّياق، يُرجّح احتمالُ كونك تستمعُ لبيتهوفن. أمّا الألحان والانسيابات والإيقاعات فاترُكْها لأمثال تشايكوفْسكي (Tshaikovsky) وهندَمث (Hindemiths) وراڤيل (Ravels). إنّ صاحبنا يملك البضاعة الحقيقيّة، المادّة الهابطة من السماء، القُدرة على جعْلك تَشعر عند الختام بأنّ شيئًا ما صائبٌ في العالَم. فهنالك شيءٌ ما يُوَفِّرُ الضَّبط طوالَ المقطوعة خاضعًا باطّرادٍ لناموسه الخاصّ- شيءٌ يُمكنُنا الإركانُ إليه ولَن يُخيِّبنا أبدًا."[١٣]

فلو كان الله غيرَ موجود؛ وكان كلُّ ما في هذا العالَم حصيلةَ "انتظام عَرَضيٍّ للذرَّات" (على حدِّ التعبير المشهور الذي وضعَه برتراند رَسِل)، لَمَا كانت إذًا غايةٌ فعليَّةٌ صُنِعنا لأجلها، ولَكُنَّا حوادثَ مفاجئة. وإذا كُنَّا حصيلةَ قوًى طبيعيَّة اتِّفاقيَّة، فإنَّ ما ندعوه "جمالًا" لا يكونُ عندئذٍ سوى استجابةٍ عصبيَّة تُثيرُها مُعطَياتٌ مُعيَّنة، قائمة في صُلبِ كِياننا. فأنت إنَّما تجدُ بعض المناظر المخصوصة جميلةً لأنَّه كان لديك أسلافٌ علموا أنَّك ستَعثرُ على طعام هُنالك، وظلُّوا على قَيد الحياة بِفَضل تلك الميزة العصبيَّة التي نملكُها نحنُ الآن أيضًا. وعلى المنوال عينه، فمع أنَّ الموسيقى تبدو للمشاعر مُهِمَّة، فلَيست أهمِّيَّتُها سوى وهم. كذلك يجبُ أن ننظرَ إلى الحُبِّ أيضًا في ضوء هذا المفهوم. فإذا كُنَّا نتيجةَ قوًى طبيعيَّةٍ عمياء، يكون ما ندعوه "حُبًّا" إذْ ذاك مجرَّدَ استجابةٍ بَيوكيمياويَّة مَوروثةٍ من أجدادٍ ظلُّوا على قَيد الحياة لأنَّ هذه الميزة ساعدتَهم على البقاء.

إنَّ برنشتاين ودانتُو يشهدان لهذه الحقيقة: حتَّى لو كُنَّا كأشخاصٍ لادينيِّين نعتقدُ أنَّ الجمالَ والحُبَّ هما مجرَّد استجابتَين بيوكيمياويَّتَين، فلا بدَّ لنا في حضرة الفنِّ الرائع والجمال الباهر من أن نشعر بأنَّ في الحياة معنًى

حقيقيًّا بالفعل، وأنَّ هنالك حقًّا وعدلًا لن يُخيِّبانا أبدًا، وأنَّ الحبَّ يَعني كلَّ شيء. ولْنُلاحظْ أنَّ برنشتاين، رغمَ كَونِه غيرَ متديِّن بالمفهوم المعهود، فهو لا يستطيعُ أن يُحجِم أيضًا عن استخدام لفظة "السماء" عند تحدُّثه عن بيتهوفِن. وهكذا، فإنَّنا قد نكونُ قومًا مادِّيِّين لادينيِّين يعتقدون أنَّ الحقَّ والعدلَ والخيرَ والشرَّ هي مجرَّدُ أوهام، ولكنْ في حَضرة الفنّ، أو الجمال الطبيعيِّ الخلَّاب، تَحكي لنا قلوبُنا قِصَّةً أخرى.

وثَمَّة فنَّانٌ بارزٌ آخر يَبدو أنَّه يقول لنا الشيءَ ذاته، واسمُه جون أپْدايك (John Updike). ففي قصَّته القصيرة "**ريشُ الحَمام**" (Pigeon Feathers)، يقول مُراهِقٌ شابٌّ لأمِّه: "ألا تَرَينَ أنَّه إذا لم يكُنْ ثَمَّة شيءٌ عندما نَموت، فإنَّ شمسَك وحقولَك وما شابه هي كلُّها رُعبٌ، ويا للهول؟ إنَّ ذلك كُلَّه هو مجرَّد مُحيطٍ من الرُّعب". وفي ما بعد، في حضرةِ جَمالِ حفنةٍ من رِيشِ الحَمام، وجمال تركيبها ولونها، يَغمرُ الولدَ يقينٌ بوجود إلهٍ وراءَ هذا العالَم سوف يجعلُه حيًّا إلى الأبد.[١٤] فيبدو أنَّ أپْدايك يقول إنَّنا- بصرف النَّظر عن معتقدات عقولنا بشأن تَفاهة الحياة العشوائيَّة- نعرف معرفةً أفضل في هيبة الجمال.

رُبَّ مُعترِض يقول: "وماذا يهمّ؟ إنَّ مجرَّدَ شعورنا بأنَّ شيئًا ما حقيقيٌّ لا يَجعلُه حقيقيًّا فعلًا!" مهما يكُن، أفنحَنُ مُتحدِّثون هنا بشأن المشاعر فحسْب؟ إنَّ ما تُثيره اختباراتٌ من هذا النَّوع هو- بتعبيرٍ أدقّ- شهيَّةٌ أو اشتياق. ويُشير غوته (Goethe) إلى ذلك بأنَّه "تَوقٌ مُبارَك". فنحن لا نشعر بالحقيقة فقط، بل بغيابِ ما نتوق إليه أيضًا.

وقد حاجَّ القدِّيس أغسطينوس في كتابه "**اعترافات**" (Confessions) بأنَّ هذه الأشواقَ غيرَ المُلبَّاة هي مفاتيحُ إلى حقيقة الله. فكيف ذلك؟

صحيحٌ (على حدِّ اعتراض المعترضين) أنَّ مجرَّدَ شعورنا برغبةٍ في غداءٍ من شرائح اللَّحم لا يعني أنَّنا سنَحصلُ عليه، فإنَّه في حين لا يُبرهِنُ الجوعُ أنَّ الوجبة المعيَّنة المُشتهاة ستَتيَسَّر، أفلا تَعني الشهيَّة للطَّعام فينا أنَّ الطَّعام موجود؟ أوَلَيسَ صحيحًا أنَّ الرَّغباتِ الفطريَّة تتوافق مع أغراضٍ حقيقيَّة يمكن أن تُشبِعَ تلك الرَّغبات، مثل الشهوة الجنسيَّة (تتوافق مع الجنس)، والشهيَّة الطبيعيَّة (تتوافق مع الطَّعام)، والشُّعور بالتَّعب (يتوافق مع النوم)، والأشواق المختصَّة بالعلاقات (تتوافق مع الصداقة)؟

ألا يَصحُّ أن يُوصَفَ التَّوقُ غيرُ المُلبَّى والذي يُثيرُه الجمال بأنَّه رغبةٌ فطريَّة؟ إنَّ لدينا تَوقًا إلى الفرح والحُبِّ والجمال لا يمكن أن يُشبِعَه أيُّ مقدارٍ من الطعام أو الجنس أو الصداقة أو النجاح. فنحن نطلبُ شيئًا لا يستطيعُ أن يُلبِّيَهُ أيُّ شيءٍ في هذا العالم. أوَلَيس ذلك على الأقلِّ مِفتاحًا يُبرزُ فكرةَ أنَّ ذلك "الشيء" الذي نطلبه موجودٌ حقًّا؟[١٥]

فهذا التَّوق غير المُلبَّى يَتوصَّفُ إذًا بكَونه رغبةً بشريَّة فطريَّة شديدة، وذلك يجعلُه مِفتاحًا مُهِمًّا يُشير إلى أنَّ الله موجود.[١٦]

مُطيحُ المفاتيح

يَشيعُ في الحضارة الغربيَّة مذهبٌ فكريٌّ بالغُ التأثير يَزعُمُ أنَّ لديه رُدودًا على جميع هذه الإشارات الموصوفة بأنَّها مفاتيح، وهو مذهبُ البيولوجيا التطوُّريَّة (Evolutionary Biology) الذي يزعمُ أنَّ كلَّ ما يتعلَّق بنا يمكن تفسيره باعتباره حصيلةً للانتخاب الطبيعيّ. وقد ألَّف دانيال دنِت (Daniel Dennett) كتابًا يتوخَّى أن يُفسِّر مفاتيحَ مسألةِ الله كلَّها بهذه

الطريقة، عنوانُه ''فكُّ السِّحر: الدِّين باعتباره ظاهرة طبيعيَّة'' (Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon). ويزعمُ دنِت أنَّنا إذا كُنَّا حائزينَ مشاعرَ دينيَّةً فذلك فقط لأنَّ تلك السِّمات ساعدتْ في ما مضى أناسًا معيَّنين على البقاء في بيئتهم بأعدادٍ كبيرة، ومن ثَمَّ ورَّثونا هذه الشِّفرة الجينيَّة. وهو يُلخِّص رأيَه إذ يكتب:

> كلُّ ما نُقدِّره- من السُّكَّر والجنس والمال إلى الموسيقى والحُبِّ والدِّين- نُقدِّره لأسبابٍ معلومة. وتكمنُ وراءَ أسبابنا، وبالاستقلال عنها، أسبابٌ تطوُّريّة، مبادئُ أساسيَّةٌ تطفو من تلقاء ذاتها، صدَّقَ عليها الانتخاب الطبيعيّ.[١٧]

وفي مجلَّة نيويورك تايمز (The New York Times Magazine)، نشر رُوبِن مارانتْز هنغ (Robin Marantz Henig) دراسةً عمَّا يعتقده القائلون بالتطوُّر بشأن الدِّين، في مقالة عنوانُها: ''لماذا نؤمن؟ كيف يُفسِّر علمُ التطوُّر الإيمانَ بالله؟''[١٨] نحن نعلَمُ أنَّ ''فكرةَ وجود إلهٍ مَعصومٍ مريحةٌ ومألوفة، شيءٌ يقبلُه الأولادُ بسرور''.[١٩] فلماذا؟ إنَّ بعضَ التطوُّريِّين، أمثال ديفيد سلُوان ويلسون (David Sloan Wilson)، يعتقدون أنَّ الإيمان بالله جعلَ الناسَ أكثرَ سعادةً ولاأنانيَّةً، ممَّا عنى أنَّ عائلاتِهم وعشائرَهم تمكَّنتْ من البقاء وأنَّهم حصلوا على شُرَكاء حياةٍ أفضل. ولكنَّ آخرين، أمثال سكُوت أتران (Scott Atran) وريتشارد داوكنْز، يفترضون أنَّ الإيمانَ بالله هو نتيجةٌ ثانويَّةٌ عَرَضيَّةٌ لمزايا أخرى وفَّرتْ بالفعل حَسَناتِ تكيُّف. فإنَّ أجدادَنا الذين تمكَّنوا من البقاء كانوا ميَّالين جدًّا إلى اكتشافِ عِلَلٍ أو عواملَ في محيطهم، حتَّى لو لم تكُن تلك العوامل هناك، وكانوا ميَّالين أيضًا إلى إضفاءِ حكاياتٍ وتعليلٍ سَبَبِيٍّ وفَرْضها على كلِّ ما يجري حوالَيهم. ثُمَّ

إنَّ تلك السِّماتِ ذاتَها تجعلنا أكثرَ مَيلًا لأنْ نؤمن بالله- أن نرى عوامِلَ وحكاياتٍ ودلائلَ ذكاءٍ حيث لا تُوجَد فعليًّا.[٢٠]

وعلى الرُّغم من المجادلات الضَّارية داخلَ الميدان، يتَّفق القائلون بنظريَّة التطوُّر جميعًا على أنَّ قدرتَنا على الإيمان بالله باتَتْ قائمةً في صُلب تركيبَتنا الفيسيولوجيَّة لأنَّها ارتبطتْ، مُباشرةً أو بشكلٍ غير مباشر، بميزات ساعدَتْ أجدادَنا على التكيُّف مع بيئتهم. ولذلك السبب تروقُ الحُجَجُ المؤيِّدة لله كثيرين جدًّا منَّا. وذلك كلُّ ما في الأمر. فالمفاتيح إشاراتٌ لا تؤدِّي إلى شيء.

غير أنَّ هنالك كثيرين يعتقدون أنَّ البرهان المُطيحَ للمفاتيح لا ينطوي فقط على تناقُضٍ مُهلِك بل هو يُشيرُ فعليًّا إلى مِفتاحٍ آخر يؤدِّي بفكرنا إلى الله.

ففي القسم الأخير من كتاب داوكِنْز ''**وهمُ الله**''، يعترف المؤلِّف بأنَّنا ما دُمنا حصيلةَ الانتخاب الطبيعيِّ لا نستطيع أن نثق كلِّيًّا بحواسِّنا. وبعدُ، فإنَّ التطوُّرَ معنيٌّ فقط بالحفاظ على السلوك المُتَّسِم بالقدرة على التكيُّف، لا على المُعتقَد الصَّحيح.[٢١] وفي مقالة **مجلَّة نيويورك تايمز**، يقول عالِمٌ آخر: ''في بعض الأحوال، ينجحُ على نحوٍ أفضلَ مُعتقَدٌ رمزيٌّ ينأى عن الحقيقة الفعليَّة''.[٢٢] وبعبارةٍ أخرى، فإنَّ المُعتقَدات الزائفة التي يُساوِرُها الارتياب غالبًا ما تكون فعَّالةً في مساعدتك على البقاء أكثرَ من المعتقدات القويمة.

لستُ أعتقد أنَّ داوكِنْز أو سواه من القائلين بنظريَّة التطوُّر يدركون كاملَ مضامينِ هذا التبصُّر الحَرِج. إذ يمكن فقط الوثوقُ بأنَّ التطوُّرَ يُزوِّدنا بقُدراتٍ إدراكيَّة تُساعدُنا على البقاء أحياءً، لا بأنَّه يُزوِّدنا بقُدراتٍ تعطينا صورةً دقيقةً وصحيحة عن العالَمِ حوالَينا.[٢٣] وتُعبِّر پاتريسيا تشِرشلاند

(Patricia Churchland) عن الفكرة على الوجه التالي:

> إنّ مهمّة العقل الأصليّة هي أن يُوصل أجزاء الجسم إلى حيث تكون منتظمة بحيث يتمكّن الكائن العضويّ من البقاء حيًّا. فالتّحسينات في السّيطرة الحِسّيحَرَكيّة (Sensorimotor) تؤتي مزيّة تطوّريّة: أنّ أسلوبًا مبتدئًا في تمثيل العالَم يبقى مُفيدًا ما دام يُعزّز فُرَص بقاء الكائن العُضويّ حيًّا. أمّا الحقيقة، مهما كانت تلك، فإنّها تحلّ في المنزلة الأخيرة.[٢٤]

يُصدِّقُ على هذا ثوماس ناجل، الفيلسوفُ والمُلحِدُ البارز، في آخِر فصلٍ من كتابه "**الكلمة الفصل**". فهو يكتب أنّه لكي أكونَ على يقين بأنَّ عقلي يقول لي ما هو موجودٌ حقًّا وفعلًا في العالَم خارِجَ ذاتي، يجب عليَّ "أن أتّبِع أصول المنطق لأنَّها صحيحة، وليس لأنّي مُبَرمَجٌ بيولوجيًّا للقيام بذلك". ولكنْ حسبَ البيولوجيا التطوُّريَّة ينبغي أن تكونَ قوانينُ التعليل المنطقيّ ذات معنًى عندنا فقط لأنَّها تُساعِدُنا على البقاء أحياءً، وليس بالضَّرورة لأنَّها تُطلِعُنا على الحقيقة. وهكذا يسأل ناجِل:

> أفي وُسعِنا أن نملكَ أيّة ثقة مستمرّة بالعقل مَصدرًا للمعرفة بشأن طبيعة العالَم غير البادية للعِيان؟ أعتقد أنّ قصّة تطوّريّة عن الجنس البشريّ- بحدّ ذاتها- تنمّ عمّا يُعاكِس هذه الثقة.[٢٥]

يقول التطوُّريُّون إنَّه إذا كان الله يَبدو معقولًا بالنِّسبة إلينا، فلَيس ذلك لأنَّه موجودٌ فعلًا، بل فقط لأنَّ ذلك المُعتقَد ساعدَنا على البقاء أحياءً بحيثُ بات قائمًا في صُلب كِياننا. ولكنْ إذا كُنَّا غيرَ قادرين على الوثوق بقدراتنا المكوِّنة للإيمان من جهة إطْلاعنا على الحقيقة بشأن الله، فلماذا ينبغي لنا

أن نثقَ بها من جهة إطْلاعنا على الحقيقة بشأنِ أيِّ أمر كان، ومن جُملتها علمُ التطوُّر؟ وإنْ كانت قُدراتُنا الإدراكيَّة تقول لنا فقط ما نحتاجُ إليه للبقاءِ أحياءً، لا ما هو صحيح، فلماذا نثقُ بها بشأن أيِّ شيءٍ على الإطلاق؟

يبدو أنَّ القائلين بالتطوُّر مُضطرُّون إلى القيام بواحدٍ من أمرَين: فإنَّ في وسعهم أن يتراجعوا ويُقِرُّوا بأنَّنا نستطيعُ أن نثق بما تقوله لنا عقولُنا عن الأمور، ومن جُملتِها الله. فإذا وَجدنا حُجَجًا أو مفاتيحَ تؤدِّي بفكرنا إلى وجود الله وتبدو لنا مُلزِمة، فلَعلَّهُ إذًا موجودٌ فعلًا. وإلَّا، ففي وسعِهم أن يَمضُوا قُدمًا ويُقِرُّوا بأنَّنا لا نستطيع أن نثقَ بعقولنا من جهة أيِّ شيء. ولكنَّ من غير الإنصاف أن يفعلوا ما يفعله الآن كثيرونَ من العُلماء التطوُّريِّين. ذلك أنَّهم يستعملونَ مِشرطَ شُكوكيَّتِهم التشريحيَّ بالنِّسبة إلى ما تقولُه لنا عقولنا عنِ الله، ولكنْ ليس بالنِّسبة إلى ما تقولُه لنا عقولُنا عن العلمِ التطوُّريِّ بذاته.

وهذه نُقطةُ ضعفٍ مُهلِكةٌ في كاملِ مشروع بيولوجيا التطوُّر ونظريَّته. وقد بيَّن أَلفِن پلانتِنغا أنَّ تشارلز داروين نفسَه أدركَ هذا الخَلَلَ الأساسيّ. فإنَّ داروين كتب إلى أحد أصدقائه:

> إنَّ الشكَّ المُروِّع يثورُ دائمًا حولَ قناعات عقل الإنسان الذي ارتقى من عقلِ الحيوانات الدُّنيا: أهي ذاتُ قيمةٍ ما، أو جديرةٌ بأن يُركَن إليها بشكلٍ مُطلَق؟[٦]

ثُمَّ يمضي پلانتنغا ليُحاجَّ بأنَّه من غير المعقول منطقيًّا بالتَّمام أن يُقبَلَ "المذهبُ الطبيعيُّ" التطوُّريّ، تلك النظريَّة القائلةَ إنَّ كلَّ ما فينا ناتجٌ من الانتخابِ الطبيعيّ. ولو كان هذا هو واقعَ الحال، لَما كان في وُسعنا أن نعتمدَ

الأساليب التي بها توصَّلْنا إلى تلك النظريَّة أو إلى أيَّة نظريَّة علميَّة على الإطلاق.[٢٧]

> يرى أمثالُ داوكِنْز أنّ بين العِلم والدِّين تضارُبًا. غير أنّ حقيقة الأمر هي أنّ التضارُب قائمٌ بين العلم والمذهب الطبيعيّ، لا بين العلم والإيمان بالله. فبالنَّظر إلى التطوُّر غير المُوجَّه (Unguided evolution)، يُحتمَلُ أيضًا أنَّنا نعيش في عالَمِ أحلامٍ من نوعٍ ما، كما أنَّنا نعرفُ بالفعل شيئًا ما عن أنفُسِنا وعالَمِنا.[٢٨]

وعلى الرُّغم من الكتب الشائعة مثل التي ألَّفها دَنت وداوكِنْز وهَرس، والتي تُحاوِل أن تستخدمَ مُطيحَ المفاتيح التطوُّريَّ بالنسبة إلى الدِّين، فإنَّ عددًا مُتزايِدًا من المُفكِّرين آخِذٌ في إدراك حقيقة الأمر؛ ولا يقتصر ذلك العَدَد على المؤمنين ذوي العقيدة العريقة، بل يشمل أيضًا أشخاصًا مثل ثوماس ناجِل. ويُبيِّن ليون وايزِلتَير (Leon Wieseltier)، المُحرِّرُ الأدبيُّ في ذا نيو ريپَبلك (The New Republic)، الخَلَلَ الفاضحَ في البُرهان المُطيح للمفاتيح، وذلك في مراجعته النقديَّة لكتاب دَنت "فكُّ السِّحر".

> يُصوِّر دَنت العقلَ خادمًا للانتخاب الطبيعيّ، وحصيلةً لهذا الانتخاب. ولكنْ إذا كان العقل حصيلةً للانتخاب الطبيعيّ، فأيُّ مقدار من الثقة إذًا يكون لنا في بُرهانٍ منطقيٍّ على الانتخاب الطبيعيّ؟ إنّ قدرة العقل تعود إلى استقلال العقل، وليس إلى أيِّ شيءٍ سواه. ولا تستطيع البيولوجيا التطوُّريّة أن تحفز قُدرة العقل فيما هيَ تُدمِّرُها أيضًا.[٢٩]

فخلاصةُ القول إذًا هي هذه: إذا كان ما تقولُه لنا عقولُنا- حسبَما

يزعم العُلَماء القائلون بالتطوُّر– عن الفضيلة والمحبَّة والجمال ليس حقيقيًّا؛ وإذا كان ذلك مجرَّد تشكيلةٍ من التفاعُلات الكيمياويَّة مُصمَّم لها أن تنتقلَ إلى شِفرتنا الجينيَّة، فتلك أيضًا حالةُ ما تقولُه لهم **عقولُهم** عنِ العلم. فلماذا إذًا ينبغي أن يَثِقوا بها؟

مُطيحُ المفاتيح هو في الواقع مِفتاح

أعتقد أنَّ مُطيحَ المفاتيح المُفترَض سيؤول في الأخير إلى إبداء مِفتاحٍ إضافيٍّ يؤدِّي بفكرنا إلى الله، ولا بدَّ أن يُوضَع في عِداد المفاتيح الأخرى.

إنَّ أوَّل مفتاح هو وجود الكون بحدِّ ذاته من طريق الانفجار العظيم. إنَّما يَردُّ اللادِينيُّ بالصَّواب: "ولكنَّ ذلك لا يُبرهِن أنَّ الله موجود. فربَّما سبَّبَ الانفجار العظيم ذاتَه بذاته". وثاني مِفتاح هو مؤالَفةُ الكون الدَّقيقة، تلك الفرصة التي هيَ واحدةٌ من تريليونِ تريليونٍ بأنَّ كونَنا يُدعِّم الحياة العُضويَّة والبشريَّة. وهنا أيضًا يستطيع اللادِينيُّ أن يردَّ بإنصاف: "ولكنَّ ذلك لا يُبرهِن حقيقةَ الله. فربَّما كان من طريق حادثٍ عشوائيٍّ محض أنَّ هذا الكَون هو الكونُ الذي تشكَّل". ثُمَّ إنَّ مفتاحًا آخر يتمثَّل في انتظام الطبيعة. فإنَّ كلَّ تعليل استِدلاليٍّ علميٍّ مؤسَّسٌ على افتراضِ هذا الأمر، رُغمَ افتقارِنا إلى أدنى تسويغ منطقيٍّ كي نفرضَ أنَّه سوف يستمرُّ على حالِه. حتَّى إذا ردَّ المؤمنون بأنَّ هذا مِفتاحُ يؤدِّي بفكرنا إلى وجود الله، أجابَ غيرُ المؤمنين، على نحوٍ صائب: "لسنا نعلمُ سبب انتظام الطبيعة، إلَّا أنَّه قائم. فهذا لا يُبرهِن الإيمانَ بالله".

هذا، ويتمثَّل مفتاحٌ آخر في حقيقة الجمال والمعنى. فالمؤمنون يسألون:

إذا كنَّا حصيلةَ قوى الطبيعة العشوائيَّة العديمة المعنى، فكيف نُعلِّل الشعور الذي لدينا بأنَّ الحُبَّ والحياة مهمَّان؟ وهنا يجيب العَلمانيُّ: "إنَّ هذا لا يُثبِت حقيقةَ الله. ففي وُسعنا أن نُفسِّر كلَّ شعور" وكلَّ قناعةٍ من هذا القبيل بواسطة البيولوجيا التطوُّريَّة. ذلك أنَّ كلَّ حَدْسٍ لدينا مُتعلِّقٍ بالدِّين والجماليَّات والأخلاق إنَّما هو قائمٌ لأنَّه ساعدَ أسلافَنا على البقاء أحياء". ولكنْ إن أثبتَتْ هذه الحُجَّةُ شيئًا في الأساس فهي تُثبِت الكثير. فإذا لم نستطِع أن نتَّكلَ على قُدراتِنا المُكوِّنة للاعتقاد في مَيدانٍ واحد، فلا ينبغي أنْ نتَّكلَ عليها في أيِّ ميدانٍ كان. ولو كان الله غير موجود، لَمَا وَجَبَ أن نثقَ أبدًا بقدراتنا الإدراكيَّة.

غيرَ أنَّنا في الواقع نثق بتلك، وهذا هو المِفتاح الأخير. فإن كُنَّا نؤمن بأنَّ الله موجود، فإنَّ رؤيتنا إلى الكون عندئذٍ تزوِّدنا بأساسٍ للثِّقة بأنَّ القُدرات الإدراكيَّة تقوم بعملها، ما دام في وُسع الله أن يجعلَنا قادرين على تكوين معتقداتٍ سليمة ومعرفةٍ صحيحة؛ وإنْ كنَّا نؤمن بالله، فعندئذٍ لا يكون الانفجارُ العظيم لغزًا غامضًا، وكذلك أيضًا مؤالَفةُ الكون الدقيقة، وانتظاماتُ الطَّبيعة. إذ إنَّ جميع الأشياء التي نراها تكون ذاتَ معنًى كامل. كما أنَّ وجودَ الله يجعلُ كلَّ حَدْسٍ لَدَينا بشأنِ انطواء الجمال والحُبِّ على معنًى عميق أمرًا متوقَّعًا.

وإنْ كنتَ لا تؤمن بالله، فإنَّ الأمرَ لن يقتصرَ فقط على أن تصيرَ جميع هذه الشؤون مُتعذِّرةَ التفسير إلى أبعد مدى، بل إنَّ رأيَك- بأنَّ الله غير موجود- لا بدَّ أن يؤدِّيَ بك إلى عدمِ توقُّع تلك الشؤون. فرُغمَ حيازتِكَ سببًا ضئيلًا لاعتقادك أنَّ مداركَكَ العَقليَّة تؤدِّي عملًا ثابتًا، فإنَّك تستمرُّ في استخدامها. ولا أساسَ لديك كي تعتقدَ أنَّ الطبيعة سوف تستمرُّ على انتِظامها، غير أنَّك ما تزالُ تستعملُ اللُّغة والتعليل الاستِدلاليَّ أو

الاستقرائيّ. وليس لديك سببٌ وجيهٌ للوثوق بأحاسيسك بأنَّ للحُبِّ والجمال شأنَهما، غير أنَّك تمضي في مُراعاتِها. وقد أجادَ سي. أس. لِويس التعبيرَ عن هذه الفكرة على نحوٍ نابض:

> ليس في وسعك، إلَّا بالمعنى البهيميِّ الأدنى، أن تكونَ مُغرَمًا بفتاة إذا كنتَ تعلم (وتظلُّ تَتذكَّر) أنَّ جميع جمالات شخصها وخُلُقها على السّواء هي نموذجٌ عرَضيٌّ واتّفاقيٌّ نتج من تصادُم الذرّات، وأنّ استجابتك لتلك الجمالات ليست إلَّا نوعًا من الوميض الفوسفوريِّ النفسيِّ ناشئًا من سُلوك جيناتك. وليس في وسعك أن تمضي في جنْيِ المتعة الجدّيّة جدًّا من الموسيقى إذا كنتَ تعلَمُ وتتذكّر أنَّ مسحة أهمّيّتها مُجرّدُ وهم، وأنّها تروقك لأنَّ جهازك العصبيّ مُتكيّفٌ على نحوٍ لاعقلانيٍّ للإعجاب بها.[٣٠]

طبعًا، لا يُبرهِنُ على حقيقة الله أيٌّ من هذه المفاتيح التي استعرَضْناها. فكلُّ واحد منها يمكن تَجنُّبه منطقيًّا. غير أنّي أرى أنَّ تأثيرَها التَّعزيزيَّ حاثٌّ ومُقنع. ولَئن كانت الرؤيَّةُ اللَّادينيَّةُ إلى العالَم مُمكِنةً منطقيًّا، فهي لا تُضفي على جميع هذه الأمور مقدارَ المعنى الذي يُضفيه عليها اعتقادُ وجودِ الله. ولذلك فنحن ندعو تلك مفاتيح. فالنظريَّة التي ترى أنَّ هنالك إلهًا خلقَ العالَمَ تُعلِّل البيِّنات التي نراها هي أفضلُ من النظريَّة القائلة بعدم وجود إله. ثُمَّ إنَّ الذين ينكرون بالحُجَج وجودَ الله يَمضون قُدُمًا مُستخدمين الاستِدلال واللُّغة ومَدارِكَهم المعرفيَّة، ويُضفَى على هذه كلِّها معنًى أغنى بكثيرٍ في كَونٍ خلقها الله كلَّها فيه وهو يدعمُها بقُدرته.

ما وراءَ المفاتيح

أستطيع أن أتصوَّرَ شخصًا يقول عند هذا الحدّ: "إذًا القضيَّةُ كلُّها تفتقرُ إلى البّينات الحاسمة! فكلُّ ما تظنُّه هو أنَّه يُحتمَل بالإجمال أن يكونَ الله موجودًا، ولكنْ لا يستطيع أحدٌ أن يُقيمَ قضيَّةً مُحكمَةً دامِغةَ الإقناع. وهذا يعني أنَّه ليس في وُسع أحدٍ أن يعلمَ هَلِ الله موجودٌ أو لا".

إنّي لا أوافِق على هذا.

وفي الفصل التالي أريد أن أقومَ بأمرٍ شخصيٍّ جدًّا. فلستُ أريد أن أجادلَ في براهينِ وجود الله، بل أبتَغي أن أبرهِنَ أنَّك تعرفُ أصلًا أنَّ الله موجودٌ فعلًا. إنّي أودُّ أن أقنعَ القارئ بأنَّه مهما كان إقرارُه على الصعيد الفكريّ، يبقى اعتقادُ وجودِ الله مُعتقدًا "أساسيًّا" لا مناصَ منه، لا نستطيع أن نُبرهِنَه ولكنْ لا يمكن ألَّا نعلَمَه. فنحن نعلمُ أنَّ الله موجود. وذلك هو السبب الذي من أجله، حتَّى حينَ نعتقد بكلِّ عقولنا أنَّ الحياة عديمةُ المعنى، لا نستطيعُ حقًّا أن نعيشَ على أساسِ اعتقادنا أنَّها عديمة المعنى، فنحن نعرفُ ما هو أفضل.



٩

معرفةُ حقيقة اللّه

تشارلي (Charlie): طبعًا، اللّه موجود! نحن جميعًا نعرفُ ذلك أساسًا.

سِنثيا (Cynthia): أنا لا أعرف أمرًا كهذا.

تشارلي (Charlie): طبعًا تعرفين! عندما تُفكّرين بينكِ وبين نفسك- ومعظم حياتنا في أثناء اليقظة يُطوى ونحنُ نُفكّر هكذا- فلا بدَّ أن يُخالِجَكِ ذلك الشعورُ بأنّ أفكارَكِ لن تذهبَ هَباءً إلى التّمام، وأنّها بمعنًى ما مسموعة. وأنا أعتقدُ أنّ هذا الإحساس بأنّنا نُسمَع بإدراكٍ كلّيٍّ هو الذي يُمثّل إيمانَنا الفِطريّ بكائنٍ أسمى ذي عقلٍ مُدرِكٍ لكلّ شيء. وما يُبيِّنه هذا هو أنَّ إيمانًا من نوعٍ ما موجودٌ بالفِطرة فينا جميعًا. عند حدٍّ ما، يَفقد معظمُنا هذا، وبعد ذلك لا يمكن استردادُه إلّا بفعلِ إيمانٍ واعٍ.

سِنثيا (Cynthia): وهلِ اختبرتَ أنت ذلك؟

تشارلي (Charlie): لا، لم أختبره بعدُ، وأرجو أن أختبرَه ذات يوم.

مِتروپوليتان (Metropolitan)
(يو أس أي، وِت ستِلمَن، ١٩٩٠، [USA, Whit Stillman, 1990])

يشكو الكُتّابُ والمتكلّمون المُحافِظون بصورةٍ دائمة، في حضارة الغَرب، أنّ شبابَ تلك الحضارة ذوو توجُّهٍ نسبيٍّ وغير مَعنيٍّ بالأخلاق. وما دمتُ قِسّيسًا في مَنهاتن، فقد تعاطَيتُ على نحوٍ عميقٍ ووثيق، مُدّةً ناهزَت عقدَين من الزمان، مع شُبّانٍ وصبايا مُثقّفين جاوَزوا سنَّ العِشرين، ولم أجدِ الحال على هذا المِنوال. ذلك أنّ الراشدين الشباب من العَلمانيّين الذين عرفتُهم يملكون حسًّا مُرهَفًا جدًّا بشأن الصّواب والخطأ. فثمّة أمورٌ كثيرةٌ حادثة في العالَم تُثير غضبَهم الأخلاقيّ. غير أنّ استِشرافَهُمُ الخُلُقيَّ يُعاني مشكلة.

الأخلاقيّاتُ الهائمة

أضطَرُّ في حالاتٍ كثيرة إلى اعتِمار قُبَّعةِ أستاذي في مادّة الفلسفة كي أحسِن إرشادَ الناس في خدمتي كراعٍ في الكنيسة. وقد جاءني مرّةً زوجان شابّان يطلبان بعضَ التّوجيه الروحيّ، قائلَين إنّهما لا يؤمنان "بقسطٍ كبير من أيِّ شيء". فكيف يستطيعان أن يبدأا بفَهم حتّى إمكانَ وجود الله؟ وطلبتُ منهما أن يُطلِعاني على أمرٍ يشعران حقًّا وفعلاً بأنّه خطأ. فأفصحَتِ المرأةُ في الحال عن شَجبِها للمُمارسات التي تُهمّش النّساء. فقلتُ لها إنّي أوافِقُها في الرأي تمامًا لأنّي مؤمنٌ بالمسيح يعتقدُ أنّ الله خلقَ جميعَ الكائنات البشريّة، ولكنّي أودُّ أن أعرفَ السببَ الذي حملَها على اعتبار ذلك الأمر خطأً. أجابتْ: "النّساء كائناتٌ بشريّة، وللكائنات البشريّة كلّها

حُقوق، فمن الخطإ أن تُداسَ حقوقُ أحد". فسألتُها كيف عرفَتْ ذلك.

قالت مُرتبكةً: "كلُّ إنسانٍ يَعرفُ أنَّ من الخطإ أن تُنتهَك حقوق أحد" فقُلتُ: "إنَّ معظم الناس في العالم لا "يَعرفُون"، ذلك. فليست لديهم رؤيةٌ غربيَّة إلى حقوق الإنسان. تصوَّري أنَّه إذا قال لك أحدٌ: "الجميع يعرفون أنَّ النِّساء تابعات"، تقولين: "ليس هذا بُرهانًا، بل هو مجرَّد توكيد"، وتكونين على حقّ. فَلْنبدَأْ من جديدٍ إذًا. إذا كان الله غير موجود، كما تعتقدين، وكلُّ إنسانٍ إنَّما تطوَّر وارتقى من الحيوانات، فلماذا يكون خطأً أن تُداسَ حقوقُ أحد؟" عندئذ ردَّ زوجُها: "أجَل، صحيحٌ أنَّنا مُجرَّد حيوانات عقلُها أكبرَ، ولكنّي أودُّ أن أقولَ إنَّ للحيوانات حقوقًا أيضًا. فيجب ألَّا تُداسَ حقوقها على السَّواء". فسألتُه إن كان يحسبُ الحيواناتِ مُذنِبةً بانتهاكِها حقوق حيواناتٍ أخرى إذا أكلَ الأقوى بينَها الأضعف. أجاب: "لا أستطيعُ أن أفعلَ ذلك". إذًا، هو يُعدُّ الكائنات البشريَّة فقط مُذنِبةً إذا داست حقوق الضُّعفاء؟ "نعم!" فسألتُه عن سبب اعتماد هذا المعيار المزدَوج: لماذا أصرَّ الزَّوجان على أنَّ البشر لا بدَّ أن يكونوا مختلفين عن الحيوانات، بحيثُ **لم يكُن** مَسموحًا لهم بأن يتصرَّفوا مثلَ التصرُّف الطبيعيّ بالنِّسبة إلى باقي عالَم الحيوان؟ ولماذا ظلَّ الزَّوجان يُصِرَّان على تَمتُّع البشر بالكرامة والأهمِّيَّة الفريدتَين والعظيمتَين للفرد؟ ولماذا يؤمنان بحقوق الإنسان؟ فما كان من الزوجة إلَّا أن قالت: "لستُ أدري. ففي اعتقادي أنَّ هذه الحقوق قائمةٌ فحسْب، وذلك كلُّ ما في الأمر".

لقد كان الحديثُ أكثرَ وِدِّيَّةً وطَبَعيَّةً بكثيرٍ ممَّا يُعبِّر عنه هذا المَرويُّ هُنا. فإنَّ الزَّوجَين الشابَّين ضَحِكا لِضَعْف بعض إجاباتهما، الأمرُ الذي بيَّن لي انفِتاحَهما للاستكشاف وشجَّعني على أن أكونَ أكثر تحديدًا وتسديدًا مِمَّا

درجتُ عليه عادةً. على أنَّ هذا الحديث يُبيِّن كيف تختلفُ الحضارةُ الغربيَّة الحديثةُ عن جميع الحضارات التي سبقَتْها. فما زال لدى الناس قناعاتٌ أخلاقيَّةٌ قويَّة، ولكنْ- على خلافِ أهل الأزمنة والأمكنة الأخرى- ليس لديهم أيُّ أساسٍ منظور للسَّبب الذي من أجله يَجدون بعضَ الأمور رديئةً وبعضَها صالحة. إذ تبدو بديهيَّاتُ حدسِهم الأخلاقيَّةُ كما لو كانت هائمةً في الهواء، بعيدةً جدًّا عن الأرض.

وقد تحدَّث بهذا الأمر الشاعرُ البولنديُّ تشِسلاف ميلوتْش:

> إنَّ ما كان مُفاجئًا في الفترة التي تَلَت الحرب الباردة هو تلك الكلمات الجميلة والمؤثِّرة جدًّا مَنطوقًا بها بِوَقارٍ في أماكنَ مثل براغ ووارسو، وهي كلماتٌ تنتمي إلى الذَّخيرة القديمة المتعلِّقة بحقوق الإنسان وكرامة الشَّخص. فالارتياب يُساوِرُني حِيالَ هذه الظَّاهرة لأنَّ هُوَّةً قد تكون تحتَها. وبَعدَ، فإنَّ هذه الأفكار كان لها أساسُها في الدِّين، ولستُ مُفرِطَ التفاؤل من جهة استِدامة الدِّين في حياة مدينيَّةٍ علميَّة تكنولوجيَّة. فهُنا مفاهيمُ بدا أنَّها دُفِنَت إلى الأبد وقد أُحيِيَتْ فجأةً. ولكنْ حتَّى متى يمكن أن تظلَّ عائمةً إذا كانت قاعدتُها مَنْزوعة؟[1]

لستُ أعتقدُ أنَّ ميلوتْش على حقّ. فأنا أرى أنَّ الناس سوف يستمرُّون في التمسُّك بمعتقداتهم بشأن كرامة الإنسان، حتَّى لو تبدَّد الإيمانُ الواعي بالله. ولماذا الحال على هذا المِنوال؟ إنَّ لديَّ مَقولةً جوهريَّة، إذ أحسبُ أنَّ أهل الحضارة الغربيَّة يعلَمون على نحوٍ لا مناصَ منه أنَّ الله موجودٌ ولكنَّهم يكبِتون ما يعلَمون.

مفهومُ الواجبِ الأخلاقيّ

من الشائع أن نسمعَ الناس يقولون: "لا ينبغي لأحد أن يفرضَ على الآخرين آراءه في الأخلاق؛ لأنّ لكلِّ شخص- رجُلًا كان أم امرأة- الحقّ في أن يجدَ الحقيقةَ داخلَ ذاته". ولكنّ هذا المُعتقَد يُعرِّضُ المتكلِّمَ لسلْسِلةٍ من الأسئلة غير المُريحة جدًّا. أَفَلَيسَ في العالَم أناسٌ يقومون بأمورٍ تعتقدُ أنت أنّها خاطئة- أمورٍ يجب أن يَكفُّوا عن القيام بها بصرْف النَّظر عمَّا يعتقدونه شخصيًّا بشأن صوابيَّة تصرُّفهم؟ وإذا كنتَ تعتقدُ ذلك (وكلُّ إنسان يعتقده!) أفَلا يَعني ذاك أنَّك تعتقد حقًّا أنَّ هنالك معِيارًا أخلاقيًّا من نوعٍ ما ينبغي للناس أن يُراعوه بصرْف النَّظر عن قناعاتهم الفرديَّة؟ وهذا يُثِير سؤالًا: لماذا يستحيلُ (في الممارَسة) على أيِّ شخصٍ أن يكونَ من القائلين بالنسبيَّة على الصعيد الأخلاقيِّ بصورةٍ ثابتة، حتَّى حين يدَّعي أنَّه كذلك؟ الجواب هو أنَّ لدينا كلَّنا اقتناعًا عامًّا قويًّا لا مفرَّ منه ليس فقط بالقِيَم الأخلاقيَّة، بل أيضًا بالواجب الأخلاقيّ. ويعبِّر العالِمُ الاجتماعيُّ كريستيان سميث عن هذا الأمر على النَّحو التالي:

> "الأخلاقيّات" توجُّهٌ نحو مفاهيمَ بشأن ما هو صوابٌ وخطأ، وعادلٌ وجائر، لا تُرسِّخها رغباتُنا أو تفضيلاتُنا الشخصيّة الفعليّة، بل بالأحرى يُعتقَد أنّها موجودةٌ بمعزلٍ عن هذه، مُوَفِّرة معاييرَ بواسطتها يمكن أن يُحكَم على رغباتنا وتفضيلاتنا بذاتها.[٢]

إنَّ لدى الكائنات البشريَّة كلِّها مشاعرَ أخلاقيَّة. ونحن ندعوها "الضمير". فعند التفكير في القيام بما نشعرُ بأنَّه سيَكون خطأً، نميل إلى التراجُع عنه. غير أنَّ حِسَّنا الخُلُقيَّ لا يتوقَّف عند ذلك الحدّ. فنحن نعتقدُ أيضًا أنَّ هنالك معاييرَ "موجودةً بمعزلٍ عنَّا" بها نُقيِّم المشاعرَ الأخلاقيَّة.

والواجب الأخلاقيُّ هو اعتقادُ أنَّ بعض الأمور لا ينبغي أنْ تُفعل، بغضِّ النظر عن كيفيَّة شعور المرء بشأنها داخلَ ذاته، وبغضِّ النظر عمَّا يقوله الآخرون في مجتمعه وحضارته بشأنها، وبغضِّ النظر عن كَون تلك الأمور لمصلحته أو لا. فالزَّوجان الشابَّان لم تُساورْهما شكوكٌ بأنَّ أهل الحضارات الأخرى يجب أن يحترموا حقوقَ المرأة.

ولَئن عُلِّمَ أهلُ الغرب أنَّ جميع القِيَم الأخلاقيَّة نسبيَّةٌ بالنظر إلى الأفراد والحضارات، فإنَّهم لا يستطيعون أن يعيشوا بموجب ما عُلِّمُوه. وفي الممارسَة الفعليَّة، لا بدَّ لهم من أن يُعامِلوا بعضَ المبادئ باعتبارها معاييرَ مُطلقةً بها يحكمون على سلوك أولئك الذين لا يُشارِكُونَهم في قِيَمِهم. فما الذي يُعطيهم الحقَّ في القيام بذلك، إذا كانت جميع المُعتقدات بشأن الأخلاق نسبيَّة؟ لا شيءَ يعطيهم هذا الحقّ. ومع ذلك فهم لا يستطيعون أن يحولوا دون ذاك. فالذين يسخرون من دعوى وجود نظام أخلاقيٍّ سامٍ لا يعتقدون أنَّ الإبادةَ العُنصريَّة الجَماعيَّة مجرَّدُ أمرٍ غيرِ عمليٍّ أو هازمٍ للذَّات، بل أنَّها خطأٌ على وجه التَّحديد. ولرُبَّما ادَّعى النازيُّون الذين أبادوا مُضطهَدِيهم أنَّهم لم يشعروا بأنَّ ذلك عملٌ لاأخلاقيّ. فذلك لا يهمُّنا... لا يهمُّنا إذا كانوا قد شعروا عن إخلاصٍ بأنَّهم كانوا يؤدُّون خدمةً للبشريَّة. إذ كان لا ينبغي أن يقوموا بذلك.

فلا يقتصرُ الأمرُ على حيازتنا مشاعرَ أخلاقيَّة، بل إنَّ لدينا أيضًا اعتقادًا يتعذَّر استئصالُه بأنَّ المعاييرَ الأخلاقيَّة قائمةٌ خارجَ ذواتنا، وبموجبها تُقيَّم مشاعرُنا الأخلاقيَّة الداخليَّة. فلماذا؟ لماذا نعتقد أنَّ تلك المعايير الأخلاقيَّة موجودة؟

نظريّة التطوُّر بشأن الواجب الأخلاقيّ

يأتي جوابٌ شائعٌ اليوم ممَّا دعَوتُه في الفصل السابق "مُطيح المفاتيح"، أي من البيولوجيا الاجتماعيَّة أو السيكولوجيا التطوُّريَّة. فهذه الرؤيةُ تذهبُ إلى أنَّ الأشخاص الغَيريّين، أولئك الذين يتصرَّفون على نحوٍ لاأنانيٍّ وتَعاوُنيّ، ظلُّوا على قَيد الحياة بأعدادٍ أكبر من عدد أولئك الذي كانوا أنانيّين ووحشيّين. ولذلك وُرِّثْنا الجينات الغَيريَّة، والآن تشعر الغالبيَّة العُظمى منَّا بأنَّ السلوك اللّاأنانيَّ "صائب".

ولكنَّ في هذه النظريَّة عُيوبًا كثيرة، وقد تعرَّضَت لمقدار كبير من النَّقد الفتَّاك.[٣] فإنَّ السلوكَ المُضَحّيَ بالذات واللّاأنانيَّ من قِبَل الفرد- رجُلًا كان أم امرأة- من نحو أقربائه بالدَّم قد يؤدِّي إلى مُعدَّلِ بقاءٍ أعلى لدى عائلةِ المرء أو عشيرته الواسعة، ومن ثَمَّ يُفضي إلى عددٍ من المُتحدِّرين أكبرَ يحملون المادَّةَ الجينيَّة التي كانت لدى ذلك الشَّخص. ولكنْ لأغراضٍ تطوُّريَّة ينبغي للاستجابة المُعاكِسة- أي العِداءِ تُجاهَ جميع الذين ينتمون إلى جَماعاتٍ أخرى غير جماعة الشَّخص- أن تُعَدَّ على نِطاقٍ واسِعٍ بالمِثل أيضًا سلوكًا أخلاقيًّا وصائبًا. غير أنَّنا اليومَ نعتقدُ أنَّ التَّضحية بالوقت والمال والعاطفة، بل بالحياة أيضًا- ولا سيَّما لأجل شخصٍ "لا ينتمي إلى جماعتنا" أو قبيلتنا- هي أمرٌ "صائب". فإنْ رأيْنا شخصًا غريبًا تَمامًا يَسقُطُ في النَّهر، نَقفزُ وراءَه لإنقاذه، وإلَّا شعرْنا بالذَّنْب لعدم القيام بذلك. وفي الواقع أنَّ أغلبَ الناس سيَشعرون بواجب القيام بذلك، حتَّى لو كان الشخص الساقط في الماء عدوًّا لهم. فكيف يُعقَل أن تكونَ تلك السِّمةُ قد تحدَّرَتْ إلينا بعمليَّةِ انتخاب طبيعيّ؟ إنَّ أناسًا من هذا الصَّنف من شأنهم أن يكونوا أقلَّ من سواهم استِعدادًا للبَقاء أحياءً وتوريثِ جيناتِهم. فعلى

أساس المذهب الطبيعيّ التطوُّريّ الصّارم (القول إنَّ كلَّ ما يتعلَّق بنا هو قائمٌ بسبب عمليَّة انتخاب طبيعيّ)، كان ينبغي لذلك النَّوع من الغَيريَّة أن ينقرضَ من الجنس البشريّ منذ عهدٍ بعيدٍ جدًّا. وبدلًا من ذلك فإنَّه الآن أقوى من أيِّ وقتٍ مضى.

ثُمَّ إنَّ حُجَجًا أخرى لإثبات الفوائد الإنتاجيَّة التي تَنطوي عليها الغَيريَّة قد وَقعتْ في الإشكال أيضًا. فقد حاجَّ بعضُهم بأنَّ السُّلوك الغَيريَّ يأتي بفوائدَ انعكاسيَّةٍ غيرِ مباشرة لِمُمارِسه من قِبَل الآخرين، ولكنَّ ذلك لا يمكنُ أن يُعلِّلَ دافِعَنا إلى ممارسة أفعالٍ كهذه عندما لا يَعلَم بها أحَد. وحاجَّ آخرون بأنَّ السُّلوك المُتَّسِم بالتَّضحية يُفيد جماعةً بكاملها أو مُجتَمعًا برُمَّته، مُمكِّنًا المجتمعَ كلَّه من تَوريث شِفرته الجينيَّة. غير أنَّ ثَمَّةَ إجماعًا على أنَّ الانتخاب الطبيعيَّ لا يؤدِّي وظيفتَه على مجموعات سُكَّانيَّة كاملة.[٤]

ولذلك لا يمكن أن يُفسِّر التطوُّر أصلَ مشاعرنا الأخلاقيَّة، ناهيك بواقع كَونِنا كُلِّنا نعتقدُ أنَّ هنالك معاييرَ أخلاقيَّةً خارجَ ذواتنا بِها تُقيَّمُ المشاعرُ الأخلاقيَّة.[٥]

مشكلةُ الواجب الأخلاقيّ

إنَّ هذا الشُّعورَ بالواجب الأخلاقيِّ يُثيرُ مشكلةً لأولئك الذين يَفهمونَ العالَمَ فَهمًا لادينيًّا. فإنَّ كارولين فلَيُر- لُبان (Caroline Fleuhr-Lobban) هي عالِمةٌ في علم الأجناس البشريَّة (الأنثروبولوجيا) يُهَيمِنُ على ميدان مِهنتها ما تدعوه "النِّسبيَّة الحضاريَّة" (Cultural relativism)- وهي وجهة نظرٍ ترى أنَّ جميع المُعتقَدات الأخلاقيَّة تُوجِدها الحضارة (أي أنَّنا

نَعتنقُها لأنَّنا جزءٌ من جماعةٍ مُشتركة تُضفي عليها المعقوليَّة والمقبوليَّة)، وأنْ لا أساسَ للحُكم موضوعيًّا بأنَّ أخلاقيَّاتِ حضارةٍ ما أفضلُ من أخلاقيَّاتٍ أخرى. ومع ذلك، فقد اشمأزَّتْ هذه العالِمةُ من مُمارَساتِ ظُلم النِّساء في المجتمعات التي عَكفَت على دراسةِ أحوالِها. ومن ثَمَّ عقدَتْ عزمَها على وُجوب دَفْع مصالح المرأة قُدُمًا في المجتمعات حيثُما اشتغلتْ بصفتها عالمةَ أجناس (أنثروپولوجيَّة).

إلَّا أنَّ ذلك أثار في الحال لغزًا حيَّرَها. لقد كانتْ تَعلَمُ أنَّ لإيمانِها بمساواة النِّساء جُذورَه في نهج فكريٍّ فَردانيٍّ مرتبطٍ بظرفٍ مُجتَمعيٍّ (أوروپا الشَّماليَّة، القرن الثامن عشر). فأيُّ حقٍّ لها في ترويج آرائها بدلًا من تلك الشائعة في المجتمعات غير الغربيَّة، حيثُ كانت تشتغل؟ وإليكَ جوابَها:

> يمضي الأنثروپولوجيُّون قُدمًا في التعبير عن التأييد القويّ للنِّسبيّة الحضاريّة. وتترتَّبُ واحدةٌ من أكثر المسائل إثارةً للنِّزاع على السُّؤال الأساسيّ: أيُّ سلطانٍ لنا نحن الغربيِّين في أن نفرضَ مفهومَنا بشأن الحقوق العامَّة على باقي البشر؟... ولكنَّ حُجَّة القائلين بالنِّسبيّة الحضاريّة غالبًا ما تَتذرَّعُ بها الحكوماتُ القَمعيّة لتَسفيهِ الانتقاد الدُّوليّ لمعاملة مواطِنيها بالقمع والعَسْف والخَسْف... أعتقد أنّه لا ينبغي لنا أن نَدَعَ مفهومَ النسبيّة يَمنعُنا من استخدام المُنتَدياتِ الوطنيّة والدُّوَليّة للنظر في طُرقٍ لحماية أهل كلّ حضارةٍ وكرامتهم... فحين يقوم اختيارٌ بين الدِّفاع عن حقوق الإنسان والدِّفاع عن النسبيّة الحضاريّة، ينبغي للأنثروپولوجيِّين أن يختاروا الدِّفاع عن حقوق الإنسان وتعزيزها. إذ لا يمكنُنا أن نقفَ مُتفرِّجين فحسْب.[6]

إنَّ الكاتبةَ تطرحُ سؤالًا صعبًا: "إذا كانت جميع الحضارات نسبيَّة، فهكذا تكون أيضًا فكرة حقوق الإنسان العامَّة، فكيف أقرِّر إذًا أن أفرضَ قِيَمي على هذه الحضارة بعَينها؟" غير أنَّها لا تُجيب عن السؤال الذي طرَحَتْه هي نفسُها. لقدِ اكتفَت بالقول إنَّ تُهمة الاضطهاد التي تسوقُها هي مؤسَّسةٌ على مفهوم غربيٍّ للحرِّيَّة الفرديَّة، ولكنْ ليس لديها حلٌّ لهذا اللغز المُحيِّر. فهي إنَّما تُصرِّح بأنَّ النِّساء يتعرَّضنَ للاضطهاد، وتشعر بأنَّ عليها أن توقفَه. ولسانُ حالِها: علينا نحنُ الغربيِّين أن نُعمِّم قِيَم حضارتِنا على تلك الأمم الأخرى؛ إذ إنَّ قِيَمَنا أفضلُ من قِيَمِهم، وكفى!

مسألةُ حقوقِ الإنسانِ الصَّعبةُ

تخوضُ فلَيُر- لُبان صراعًا مع أزمة رئيسيَّة في ميدان حقوق الإنسان. وقد كتب يُورغَن هَبرماس (Jürgen Habermas) أنَّه بالرُّغم من أصول "حقوق الإنسان" الأوروبيَّة، ففي آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبيَّة "تُشكِّل هذه الحقوقُ الآن اللُّغةَ الوحيدة التي بها يستطيع مُناهِضو الأنظمةِ القتَّالةِ والحروبِ الأهليَّةِ وضحاياها على السَّواء أن يرفعوا أصواتَهم مُندِّدين بالعُنف والقمع والاضطهاد".[٧] وهذا يُبيِّن الأهمِّيَّة الهائلةَ المُضفاةَ على أخلاقيَّةِ حقوق الإنسان، تلك التي يُعرِّفها مايكل جاي. پري (Michael J. Perry) بكَونها الاعتقاد المزدوَجَ أنَّ لكلِّ كائنٍ بشريٍّ كرامةً مُتأصِّلة، وأنَّنا مُلزَمون أن نُنظِّم حياتنا بمُقتضى هذه الحقيقة. فمن غير الصائب أن ننتهكَ الكرامةَ المُساوِية لدى الكائنات البشريَّة الأخرى.[٨] ولكنْ لماذا ينبغي أن نعتقد ذلك؟ وعلامَ تتوقَّف هذه الكرامة؟

إنَّ أستاذَ الحُقوق في جامعة هارڤارد ألان دِرشُوِتز (Alan Dershowitz)

يَبسِطُ الاحتمالاتِ في مقالته "من أين تأتي حقوقُ الإنسان؟" (Where Do Rights Come From)[٩] يقول بعضُهم إنَّ حقوق الإنسان تأتي من عند الله. فإنْ كنَّا كلُّنا مخلوقين على صورة الله، يكون كلُّ كائنٍ بشريٍّ عندئذٍ ذا حُرمةٍ وغير قابلٍ للانتهاك. غير أنَّ دِرشُوتز يرفض هذا الرأيَ جوابًا، ما دام ملايين كثيرةٌ من البَشَر لاأدريُّون. ويقول آخرون إنَّ حقوقَ الإنسان تأتي من الطبيعة، أو ممَّا دُعي "القانون الطبيعيّ". هؤلاءِ يحاجُّون بأنَّ الطبيعة البشريَّة، عند البحث والنظر، لا بُدَّ أن تُبيِّنَ أنَّ بعض أنواع السُّلوك "تُناسِب" الأمور القائمة، ومن ثَمَّ فهي صائبة. إلَّا أنَّ دِرشُوتز يؤكِّد أنَّ الطبيعة تَزدهرُ بواسطة العُنف والافتراس، أو ببقاء الأصلح. فلا سبيل إلى استمداد المفهوم الخاصّ بكرامة كلِّ فردٍ من الطريقة التي بها تَجري الأمور فعلًا في الطبيعة.

إنَّما تذهبُ نظريَّةٌ أخرى إلى أنَّ حقوقَ الإنسان ابتدعناها نحن القومَ الذين يكتبون القوانين. فكثيرون يحاجُّون بأنَّ استِنباطَ حقوقِ الإنسان يصبُّ في مصالح المُجتَمعات؛ لأنَّ احترامَ كرامة الفَرد يعني في خاتمة المطاف أن يكونَ كلُّ شخصٍ في الجماعة المشترَكة أفضلَ حالًا. ولكنْ ماذا يكون لو قرَّرتْ أكثريَّةٌ ما أنَّه ليس من مصلحتِها أن تمنحَ حقوقًا إنسانيَّة؟ فإذا كانت الحقوقُ ليست سوى ابتداعِ أكثريَّة، فلا يوجد إذ ذاك ما نحتكمُ إليه عندما يُبطَل وجودُ تلك الحقوق من طريق التشريع القانونيّ. وهكذا، فإنَّ دِرشُوتز، مُستشهِدًا بما قاله رونالد دُواركِن (Ronald Dworkin)، يُحاجُّ بأنَّ هذه النَّظرة الثالثة لحقوق الإنسان لا تَفي بالغَرَض:

> ليس جوابًا أن نقول إنَّه إذا كانت للأفراد هذه الحقوق فإنَّ المجتمعَ عندئذٍ يكون أفضلَ حالًا في نهاية المطاف... لأنَّنا حين

> نقولُ إنَّ لأحدٍ ما **حقًّا** بأن يُعبِّر عن رأيه بحرّيّة، نعني أنّه مُخوّلٌ أن يفعل ذلك حتّى لو لم يكُن الأمرُ يصبُّ في المصلحة العامّة.

وإذا كانت الأكثريّات تبتدعُ حقوق الإنسان، فأيُّ نفع لحقوق الإنسان؟ إنَّ قيمتها تكمنُ في إمكانيَّة استخدامنا لها للإصرار على أنَّه يجبُ على الأكثريّات أن تحترمَ كرامةَ الأقلّيَّات والأفراد بالرُّغم من تصوُّرها "خيرَهم الأعظم". إنَّ الحقوقَ لا يمكن أن تُبتدَع، بل يجب أن **تُكتشَف**، وإلّا كانتْ عديمةَ القيمة. وكما يَستنتجُ دُواركِن، فإنْ شئنا حمايةَ حقوق الأفراد، يجب علينا أن نحاولَ اكتشاف **شيءٍ خارج نطاق المَنفعة** يكون حُجَّةً مؤيِّدةً لهذه الحقوق.[١٠]

تُرى، ماذا يمكنُ أن يكونَ ذلك "الشيء"؟ ليس في وُسع دُواركِن ولا دِرشُوِتز كلَيهما أن يُقدِّما جوابًا شافيًا. وعلى كلِّ حال، ينتهي الأمرُ بدُواركِن لأنْ يحتكمَ إلى نوعٍ من حُكم الأكثريَّة. ذلك أنَّه كتبَ في "**سلطانُ الحياة: مُحاجَّةٌ في الإجهاض والقتل الرحيم والحرِّيَّة الفرديَّة** (١٩٩٥)" (Life's Dominion: An Argument About Abortion, Euthanasia, and Individual Freedom):

> إنَّ حياةَ كائنٍ عضويٍّ بشريٍّ واحد تستحقُّ أن تنالَ الاحترام والحماية، بسببٍ من إعجابنا بالعمليَّة التي تُنتِج حَيَواتٍ (جَمعُ حياة) جديدةً من أخَرَ قديمة. إنَّ غضبَ ما هو ذو حُرمة يكمن في القيمة التي نربطُها بعمليَّةٍ أو مُغامرةٍ أو مشروع، وليس فقط بنتائجها منظورًا إليها بمعزلٍ عن الكيفيّة التي أنتجت بها.[١١]

ويردُّ أستاذ الحقوق مايكل جاي. پري:

> إنّ المصدر غيرَ الدِّينيِّ للمعياريّة، في نظر دُواركن، هو القيمةُ

العظيمة التي نربطها "نحن" بكلّ كائنٍ بشريٍّ إذ يُفهَم باعتباره رائعةً إبداعيَّة. إنّه إعجابُنا "نحن" بالعمليّة التي تُنتِج حيواتٍ جديدةً من أخَرَ قديمة... ولكنْ إلى مَن يُشير دُواركِن بالضمير "نحن"؟ هل كان لدى النازيّين تقديرٌ جوهريٌّ لمضطهِديهم. إنّ العلّة النافرة في حجّة دُواركن اللّادينيَّة لتأييد الحقوق هي أنّه يفترضُ إجماعًا بين المُمثِّلين البشريّين ليس موجودًا ولا كان قطُّ موجودًا."[11]

لقد كتب پري كتابًا جديدًا مهمًّا، عنوانُه "**نحوَ نظريَّةٍ في حقوق الإنسان**" (Toward a Theory of Human Rights)، وفيه يخلصُ إلى أنّه على الرُّغم من كَون "وجود أساسٍ دينيٍّ لأخلاقيَّة حقوق الإنسان" أمرًا واضحًا، "يبقى من البعيد عن الوضوح أنَّ لحقوق الإنسان أساسًا غيرَ دينيّ،[13] أو أساسًا دُنيويًّا أو عَلمانيًّا".[14] ويبسط پري إصرارَ نيتشه المشهورَ على أنّه إذا كان الله قد مات، فلا أساسَ لأيَّةِ- ولكلٍّ- أخلاقيَّاتٍ تقول بالمحبَّة وبحقوق الإنسان. فإذا كان الله غير موجود، كما يُحاجُّ نيتشه وسارتر وآخرون، فلا يمكن أن يوجدَ سببٌ وجيهٌ لأن يكونَ الإنسانُ لطيفًا أو صالحًا أو مُحبًّا أو ساعيًا إلى السَّلام. ويستشهد پري بقول فيليپا فوت (Philippa Foot) إنَّ المفكِّرين اللَّادينيِّين قبلوا الفكرةَ القائلةَ بعدم وجود إلهٍ ومعنًى معلوم للحياة، ولكنَّهم "لم يخوضوا الحربَ بالحقيقة إلى جانب نيتشه بشأن الأخلاقيَّات. فنحن على العموم قد مَضَينا في سبيلنا حاسبين الأحكام الأخلاقيَّة من المُسلَّمات وكأنَّه لم يحدث أيُّ شيء".[15] فلماذا نستمرُّ في القيام بهذا الأمر؟

جلالةُ "مَن يقولُ؟"*

يُبسَط السَّببُ في مقالةٍ ممتازة كتَبها أستاذ الحقوق الراحل آرثر لف (Arthur Leff). فإنَّ أغلبَ الناس يشعرون بأنَّ حقوق الإنسان لم نَبتدِعها نحن، بل اكتشَفناها اكتِشافًا- فهي قائمةٌ بذاتها ويجب أن نحترمَها الأكثريّات، سواءٌ أعجبَتهم أم لم تُعْجِبهم. إنَّما يقول لف:

> ولكنْ متى لا يكون جائزًا أن نَصوغ المُعادِلَ الفِكريَّ الرسميَّ لما يُعرَف في الحانات وملاعب المدارس، على سبيل الكناية، بالتعبير الدَّارج "جلالةُ من يقولُ" (Who Sez)؟ ففي غياب اللّه، لا بدّ أن يُميِّزَ كلُّ نظام أخلاقيٍّ أو حُقوقيٍّ بالجواب الذي يختارُ أن يُقدِّمه عن سؤالٍ مفتاحيٍّ واحد: من مِن بيننا **يجبُ** أن يكون قادرًا على إعلان "قانون" **يجبُ** أن يُطاع؟ لئن طُرح هذا السؤال بهذه الصِّيغة الصريحة والبسيطة، فهو مُقلِقٌ ومُزعزِعٌ فكريًّا إلى أقصى حدٍّ بحيثُ يتوقَّع المرء أن يجدَ عددًا ملحوظًا من المفكّرين الحقوقيّين والأخلاقيّين يحاولون ألّا يُنازلوا هذا السؤال بحثًا عن إجابة... ذلك أنّ اللّه إمَّا يكون موجودًا وإمَّا يكون غير موجود، ولكنْ إذا لم يكُن موجودًا، فلا شيءَ ولا شخصَ سواه يستطيع أن يحلَّ محلَّه.[16]

إذا لم يكُنِ الله موجودًا، فلا سبيلَ عندئذٍ للقول إنَّ أيَّ تصرُّف بعينه هو "أخلاقيّ" وإنَّ آخَرَ هو "لاأخلاقيّ"، بلْ فقط "يُعجِبُني هذا". وإنْ كانت الحال على هذا المِنوال، فمَن يحوز الحقَّ بأن يصوغ مشاعره الذاتيَّة

---

* تعبير عامّيٌّ يُراد به السؤال عن السلطة العظمى في أمرٍ ما. مثلًا، حينما نخبرُ فردًا بأمرٍ ما قد سمعناه، فربّما يردُّ بالقول: "مَن يقول هذا"؟ فيكونُ طالبًا مصدرَ السلطة العظمى التي بتَّتِ في الأمر (الناشر).

الاعتباطيَّة في قانون؟ قد تقول: "للأكثريَّةِ الحقُّ في سَنِّ القانون"، ولكنْ هل تَعني تاليًا أنَّ للأكثريَّة الحقَّ بأن تقترع بالموافقة على إبادة الأقلِّيَّة؟ فإن قلت: "لا، إنَّ ذلك خطأ"، تعود عندئذٍ إلى الخانة الأولى. "مَن يقول" إنَّ على الأكثريَّة واجبًا أخلاقيًّا يقضي بعدم قَتْل الأقلِّيَّة؟ لماذا ينبغي أن تكون اقتناعاتك الأخلاقيَّة إلزاميَّة عند مَن يُعارِضُونك؟ ولماذا ينبغي أن يستظهر رأيُك على إرادة الأقلِّيَّة؟ إنَّ الحقيقة- حسبَما يقول لف- هي أنَه إذا لم يكُنِ الله موجودًا، تكونُ إذ ذاك جميعُ المَقُولات الأخلاقيَّة اعتباطيَّة، وجميعُ التقييمات الخُلُقيَّة ذاتيَّةً وشخصيَّة، ولا يمكن أن يقومَ أيُّ مِعيارٍ أخلاقيٍّ خارجيٍّ بموجبه يمكن الحُكْم على مشاعرِ شخصٍ ما وقِيَمِه. ومع ذلك يَختَتِم لف مقالته الفكريَّة على نحوٍ يُوقِعُ في النَّفس أقصى الرَّهبة والخيبَة:

> بالنَّظر إلى واقع الأمور الآن، يبقى كلُّ شيءٍ عُرضةً للتَّخمين الاعتباطيّ. ومع ذلك، فإنَّ قصفَ الأطفال بقنابل النَّيبَم سيِّئ، وتجويع الفُقَراء فظيع. وبيعُ الناس وشراؤهم بعضُهم بعضًا أمرٌ فاسد... إنّ هنالك ما يُوصف بأنّه شرّ. ولسانُ حال الجميع الآن ينادي: "مَن يقولُ؟"، اللّهُمّ أعنّا!

لقد فهم نِيتشِه هذا طبعًا. "تَطرِفُ عيونُ الجماهير ويقولون: "نحن جميعًا مُتساوُون- الإنسان ما هو إلَّا إنسان؛ أمامَ الله نحنُ جميعًا مُتساوُون". أمامَ الله! ولكنِ الآن قد مات هذا الإله". [١٧] ثُمَّ إنَّ رَيموند غايتا (Raimond Gaita)، وهو مُفكِّرٌ مُلحِد، يكتب على مَضَض:

> فقط مَن كان شخصًا مُتديِّنًا يستطيع أن يتكلَّم بجديَّة عمَّا له حُرمة... ولنا أن نقول إنّ لجميعِ الكائنات البشريَّة قيمةً نفيسةً جدًّا، وإنَّ البشر هُم غاياتٌ في ذواتهم، وإنَّهم يَستَحقُّون

> احترامًا غير مشروط، وإنَّ لهم حقوقًا غير قابلة للتّحويل، وإنَّ لهم بالطبع كرامةً غير قابلة للتّحويل. ففي رأيي أنَّ هذه طُرقٌ بها نُحاوِلُ أن نقولَ ما نشعر بحاجةٍ إلى قوله حينَ نُقصَى عن المصادر المفاهيميَّة [أي الله]... وليس لأيِّ واحدٍ من هذه التصريحات المتعلّقة بالكائناتِ البشريَّة قُوَّةُ طريقة الكلام الدينيَّة: أنّنا ذوو حُرمةٍ لأنَّ الله يحبُّنا، نحنُ أولادَه.[١٨]

إنَّ لف لا يستنتجُ فقط أنَّه لا أساسَ لحقوق الإنسان بمعزلٍ عن الله، فهو أيضًا يلفِتُ النظر (كما يفعل دِرشُوِتز ودُواركِن على طريقتهما) إلى أنَّه على الرُّغم من كوننا لا نستطيع أن نُبرِّرَ حقوقَ الإنسان أو نُرسِّخَها في عالَمٍ ليس الله فيه، فما نزالُ نعلمُ أنَّها موجودة. ولا يتكلَّمُ لف على نحوٍ شموليٍّ، بل على نحوٍ شخصيّ. فَبِمعزلٍ عن الله، لا يستطيعُ أن يُبرِّرَ الواجبَ الأخلاقيّ، ومع ذلك لا يستطيع **ألّا يعلَم** أنَّ هذا الواجب موجود.

حُجَّة مؤيِّدة للّه مُستمَدَّة من عُنف الطبيعة

لماذا لا بُدَّ أن نعلَمَ ذلك؟ لكي نَزيدَ التركيزَ على أهمِّيَّة هذه المعرفة التي يتعذَّر استئصالُها، فلْنَتأمَّلْ مُلاحظاتِ الكاتبة آني دِلارد (Annie Dillard). فإنَّ دِلارد عاشت مدَّةَ سنةٍ بقُربِ جدولٍ في جبال ڤرجينيا، مُتوقِّعةً أن تحظى بالإلهام والانتعاش في أحضان "الطبيعة" ولكنَّها بدلًا من ذلك باتَتْ تُدرِكُ فعلًا أنَّ الطبيعة يَحكمُها كلِّيًّا مبدأٌ أساسيٌّ واحدٌ يتمثَّل في ممارسةِ القويِّ العُنفَ تُجاه الضعيف.

> ليس في العالَم شخصٌ يتصرَّفُ تصرُّفًا سيِّئًا كما تتصرَّف حشراتُ السّراعيف المُفترسة. ولكنَّك تقول: مَهلًا! ليس

> في الطبيعة حقٌّ أو باطل؛ فالحقُّ والباطل مفهومٌ إنسانيّ! صحيح! نحن مخلوقاتٌ أخلاقيّة في عالَمٍ غير مَعنيٍّ بالأخلاق... أو لنأخُذِ البديلَ بالاعتبار: أنّ الشّعورَ الإنسانيّ وحدَه هو الخاطئ على نحوٍ غريب... حَسَنٌ إذًا، إنّ مشاعرَنا هي الخاطئة. فنحن مَسوخ، والعالَم سليم. فَلْنخضَعْ جميعًا لعمليّات جراحيّة في فصوص الدّماغ الأماميّة تُعيدُنا إلى حالةٍ طبيعيّة. ومن ثَمّ يمكننا أن نُغادرَ بعد إجراء الجراحة، ونعودَ إلى الجدول، حيث نعيش على ضفافه كأيّ حيوان فأرِ مِسكٍ أو نباتِ قَصَبة. إنّما افعلْ ذلك أنت أوّلًا [١٩].

لقد رأتْ آني دِلارد أنَّ الطبيعةَ كُلَّها مؤسَّسةٌ على العنف. ومع ذلك فنحن نعتقد على نحوٍ لا مناصَ منه أنَّه من غير الصائب أن يَعمدَ مَن كان أقوى بين أفرادِ البشر، أو الجماعات البشريَّة، إلى قَتْل مَن كان أضعف. فإنْ كان العنفُ طبيعيًّا على وجه الإجمال، فلماذا يكون من غير الصائب أن يدوسَ أقوياءُ البَشَر ضُعفَاءَهم؟ ليس من أساسٍ للواجب الأخلاقيّ، إلَّا إذا كانت حُجَّتُنا أنَّ الطبيعة في جزءٍ ما غيرُ طبيعيَّة. فلا يَسَعُنا أن نعرفَ أنَّ الطبيعة مَعطوبةٌ بطريقةٍ ما إلَّا إذا وُجِدَ معيارٌ ما للحالة السَّويَّة فائقٌ للطبيعة، ومستَقِلٌّ عنها، نستطيع بموجبه أن نُمَيِّزَ بين الصواب والخطأ. وذلك يعني أنَّه لا بُدَّ من وُجود سماءٍ أو إلهٍ أو نظامٍ إلهيٍّ من نوعٍ ما، خارجَ الطبيعة، كي نقومَ بذلك التمييز.

ثَمَّة سبيلٌ واحدٌ فقط للخروج من هذا المأزق المُحيِّر. ففي وُسعنا أن نتناولَ وَصْفَ الكتاب المقدَّس للأمور القائمة ونتحقَّقَ كَونَه يُفسِّر حِسَّنا الأخلاقيَّ على نحوٍ أفضلَ من أيَّة وجهة نظر لادينيَّة. فإنْ كانَ العالَمُ قد صنَعه إلهُ سلامٍ وعدالةٍ ومحبَّة، يكون ذلك إذ ذاك هو سببَ معرفتنا أنَّ العُنفَ

والظُّلمَ والبُغضَ أمورٌ خاطئة. وإنْ كانَ العالَمُ ساقطًا ومعطوبًا ومحتاجًا إلى إصلاحٍ شامل بواسطة الفداء، فذلك يُفسِّر العُنف واللّانظام اللذَين نراهما.

إذا كنتَ تعتقد أنَّ حقوقَ الإنسان حقيقة، فوجود الله إذ ذاك يُضفي معنًى أغنى من عدم وجودِه. وإذا أصررتَ على رؤيةٍ لادينيَّةٍ إلى العالَم؛ واستمررتَ معَ ذلك في إصدار حُكم على بعض الأمور بأنَّها صائبة وعلى أمورٍ أخرى بأنَّها خاطئة، فأرجو عندئذٍ أن ترى التضارُبَ الشديد بين العالَم الذي ابتدعَهُ فِكرُك والعالَم الحقيقيِّ الذي يَعرفُ قلبُك أنَّه موجودٌ (شأنُه شأنُ الله). وهذا يؤدِّي إلى سؤالٍ حاسم: إذا كانتْ مُقدِّمةٌ منطقيَّة ما ("ليس من إله") تؤدِّي إلى استنتاج تعلَمُ أنَّه غير صحيح ("قصفُ الأطفال بقنابل النَّيبَم قضيَّةٌ نسبيَّةٌ حضاريًّا") **فلماذا إذًا لا تُغيِّر تلك المُقدِّمة المنطقيَّة؟**

مُحاكَمةُ الوجودِ اللّاهائيَّةُ التّافهة

لم أحاوِلْ أن أبرهِنَ لكَ وجودَ الله. فلَطالما كانتْ غايتي أن أبيِّنَ لك أنَّك تعرف أصلًا أنَّ الله موجود. وما أزالُ إلى حدٍّ ما أتناولُ عدمَ وجود الله كإشكاليَّة فِكريَّة، غيرَ أنَّه أكثرُ من ذلك بكثير. فإنَّه لا يجعلُ جميعَ الخيارات الأخلاقيَّة عديمةَ المعنى فحسب، بل أيضًا يجعل الحياة كلَّها عديمةَ المعنى. وقد بيَّن الكاتبُ المسرحيُّ آرثر ميلر (Arthur Miller) ذلك بطريقةٍ نابضة زاهية من خلال شخصيَّة كُوينتِن (Quentin) في "**بعدَ السُّقوط**" (After the Fall). إذ يقول كُوينتِن:

على مدى سنينَ كثيرة، ظللتُ أنظر إلى الحياة كما لو كانت

قضيَّة قيدَ المُحاكَمة. وقد كانت سلسلةً من البراهين. فحين تكون شابًّا تُبرهِنُ كم أنت قويّ، أو ذكيّ؛ ثُمَّ أيّ مُحِبٌّ صالحٍ أنت، ثُمَّ أيُّ أبٍ صالح، وأخيرًا كم أنت حكيمٌ أو مُقتدِر، أو ما شابه. ولكنّي أرى الآن أنَّ افتراضًا بديهيًّا كان في أساسِ ذلك كلّه. وقد تحرَّك ذاك الافتراض على طريقٍ صاعدٍ باتّجاه ارتفاعٍ معيَّن، حيثُ- يعلَمُ الله ما سيَكون- سوفَ أبَرَّر، أو أدانُ حقًّا. فإنّ حُكمًا سيَصدرُ على كلّ حال. وأنا الآن أعتقد أنّ بليّتي ابتدأتْ فعلًا لمّا رفعْتُ نظري ذاتَ يوم... فإذا مقعدُ القاضي خالٍ. إذ لم يبدُ أيُّ قاضٍ للعيان. وكان كلُّ ما بَقي هو المُحاجَّة اللّانهائيَّة مع الذّات، هذه المُحاكَمة التافهة للوجود أمام منصّة قضاءٍ خاليَة... وما هذه طبعًا إلّا طريقةٌ أخرى لِقول كلمة اليأس![٢٠]

فماذا هو قائل؟ إنَّنا جميعًا نعيش كما لو كان نشدانُ السَّلام أفضلَ من الحرب، والنُّطقُ بالصدق أفضلَ من الكذب، والعناية والرعاية أفضلَ من التبديد والتدمير. ونحن مُقتنِعون بأنَّ هذه الخيارات ليست تافهة، وأنَّه يهمُّ أن نختارَ العَيش بطريقةٍ دون الأخرى. ومعَ ذلك، فإذا كان مقعدُ القضاءِ الكونيُّ خاليًا حقًّا، فعندئذٍ "مَن يقول" إنَّ خيارًا بعَينه أفضلُ من سواه؟ قد نُحاجُّ في الأمر، ولكنَّ ذلك يكون مُجرَّد مُحاجَّةٍ تافهة، أو مُحاكَمة لانهائيَّة. وإذا كان ذلك المقعد خاليًا حقًّا، فعندئذٍ يكون كاملُ مدى الحضارة الإنسانيَّة، حتَّى لو دامت بضعة ملايين من السِّنين، مجرَّدَ ومضةٍ وجيزة مُتناهية الصِّغَر بالنِّسبة إلى مُحيطات الزَّمن المُبدَّد الذي سبقها وسوف يلحقُها. فلن يكونَ في الوجود أيُّ شخصٍ ليتذكَّرَ أيَّ شيءٍ من ذلك. وسواءٌ أَلُطَفاءَ كُنَّا أم عُنَفاء، فلن يُحدِثَ الواقعُ أيَّ فرقٍ أبدًا في نهاية المطاف.[٢١]

وما إنْ نُدرِك هذا الوضع، حتَّى نجدَ أنفُسَنا في مواجهة خِيارَين: أحدُهما أنَّه يمكن أن نَرفضَ كلِّيًّا التفكُّر في مضامينِ ذلك كُلِّه. ففي وسعنا أن نتمسَّك بمُعتقَدنا الفكريِّ بشأن فراغ منصَّة القضاء، ومع ذلك نَعيش كما لو كانت اختياراتنا مُفعَمةً بالمعنى، وكما لو أنَّ بين اللُّطف والعُنف فرقًا. ولماذا نفعل ذلك؟ قد يقول الشكوكيُّ السَّاخر إنَّ ذلك عبارةٌ عَن "حيازةِ المرءِ كعكتَهُ، وأكلِها أيضًا". أي أن تَجنِيَ فائدةَ وجودِ إلهٍ بغير أن تتحمَّلَ نَفقةَ اتِّباعه. ولكنْ ليس في هذا التصرُّف أيَّةُ استقامة.

أمَّا الخَيار الآخر فهوَ أن تُدرِكَ أنَّك تعلَم **فعلًا** أنَّ الله موجود. إذ تستطيع أن تعيشَ باعتبارِ أنَّ للجمال والحُبِّ معناهما، وأنَّ في الحياة معنًى، وأنَّ للكائنات البشريَّة كرامتَها المُتأصِّلة- وذلك كلُّه لأنَّك تعلَمُ أنَّ الله موجود. فمن النِّفاق أن تعيشَ على أساسِ أنَّه موجود، ومع ذلك تُخفِقُ في الاعتراف به، وهو الذي أعطاك جميع هذه العطايا الصالحة.



١٠

مُشكلةُ الخطيَّة

هل يمكن أن نشكَّ في أنَّ جنسنا البشريَّ حاليًّا سيُحقِّق أيَّ تحقيقِ أجرأَ تصوُّراتنا، وسيُحرِزُ الوحدة والسلام، وأنَّ أولادنا سيَعيشون في عالَمٍ جُعِل أبهى وأحبَّ من أيِّ قصرٍ أو بُستانٍ عرفناهما، ماضينَ من قوَّة إلى قوَّة في دائرةٍ من الإنجاز تتوسَّع دائمًا أبدًا؟ إنَّ ما قد فعلَه الإنسان، أي الانتصاراتِ اليسيرةَ المُحرَزة في حالته الحاضرة، إنَّما يُشكِّل مُجرَّد بداية الأمور التي سيَفعلُها بَعدُ.

هربرت جورج ولز (H. G. Wells)

"تاريخٌ وجيز للعالَم (١٩٣٧)" (A Short History of the World)

إنَّ المذابحَ الوحشيَّة لِمَن لا حمايةَ لهم؛ وعودةَ الاضطهادِ المُتعمَّد والتعذيب المُنظَّم، والعذاب الفكريّ، والخوف، إلى عالمٍ فيه كانت أمورٌ كهذه قد بَدَت على عتبة الزَّوال نهائيًّا- أمورٌ كادت تُحطِّمُ روحي كلِّيًا... ها هو "الإنسان العاقل"، كما كان يَسرُّه أن يَدعُوَ نفسَه، قد أُصيبَ بالإرهاق والانهيار.

هربرت جورج ولز (H. G. Wells)

"عقلٌ عند نهاية نطاقه (١٩٤٦)" (A Mind at the End of Its Tether)

من الصَّعب أن نتجنَّبَ الاستنتاجَ أنَّ العالَمَ يُعاني خَلَلًا جَوهريًّا من نوعٍ ما. وبحسب الإيمان المسيحيّ، تُشكِّلُ الخطيَّةُ مشكلتَنا الكُبرى. غير أنَّ مفهومَ "الخطيَّة" يُثيرُ استياءَ الكثيرين أو استهزاءَهم. وغالبًا ما يكونُ سببَ ذلك عدمُ فَهمِ ما يعنيه المسيحيُّون بهذه اللفظة.

الخطيَّة ورجاء البشر

لدى كثيرينَ انطباعٌ بأنَّ العقيدةَ المسيحيَّةَ بشأن الخطيَّة تَتَّسِمُ بالكآبة والتشاؤم حِيالَ الطبيعة البشريَّة. ولكنْ لا يمكن أن يكونَ أيُّ شيءٍ أبعدَ من ذلك عن الحقّ. وفي أوَّل عهدي بالخِدمة، قصدَ إليَّ شابٌّ يُريد مقابلتي بُعَيدَ مغادرة زوجته له. وقد ساوَره شعورٌ بالغضب إزاءَ ما فعلَتْه، وبالذَّنْب حِيالَ نقائصه الشخصيَّة التي دفعَتْها للرَّحيل، وبالكآبة في مُواجهة الوَضْع كلِّه. فقلتُ له إنَّ ما يحتاج إليه أكثر من كلِّ شيءٍ هو الرَّجاء. وسرعان ما وافق، وسألني كيف يحصل على شيءٍ منه. وبكلِّ ما تيسَّر لي من اللُّطف، قلتُ له إنَّ الخبر الطيِّب هو أنَّه خاطئ. فلأنَّه كان خاطئًا، لم يكُن مجرَّد ضحيَّةٍ بِلا عونٍ للحوافز السيكولوجيَّة أو الأنظمة الاجتماعيَّة. وبعد مرور سنين على ذلك، وقعتُ على فقرة في خطابٍ لبربارة براون تايلور (Barbara Brown Taylor)، حيث قالت ما حاولتُ قولَه يومذاك، إنَّما بِبيانٍ أجلى:

> ليستْ لغةُ الطِّبِّ ولا لغة الحقوق بديلًا وافيًا من لغة "الخطيَّة". فعلى نقيضِ النَّموذج الطبِّيّ، لسنا كُلِّيًّا تحت رحمة أمراضنا. والخِيار هو أن ننخرطَ في عمليَّة التَّوبة. وعلى نَقيض النَّموذج الحقوقيّ، ليس جوهرَ الخطيَّة بالدَّرجة الأولى انتهاكَ الشرائع، بل علاقةٌ مُنهارةٌ بالله، وبعضِنا ببعض،

> وبكامل النّظام المخلوق. "إنّ جميع الخطايا هي محاولات لسدٍّ فراغات"، كما كتبَتْ سيمون وايل (Simone Weil). فلأنّنا لا نستطيع أن نتحمّلَ الفراغ الذي له شكلُ اللّه في داخلنا، نُحاوِلُ أن نحشُوَه حتّى يمتلئَ بأمورٍ من كلّ نوعٍ، ولكنّ اللّه وحده يستطيع أن يملأه تمامًا.[1]

إنَّ أندرو دِلبانكو (Andrew Delbanco) هو أستاذ الدراسات الإنسانيَّة في جامعة كولومبيا. ومنذ بضع سنين قام ببحوثٍ تَتناول إدمانَ الكحول، ودأبَ في حضور اجتماعات المُكاشفة التي يعترف فيها المُدمِنون بأحوالهم، في أماكن شتَّى من البَلَد. وصباحَ ذاتِ سبت، في كنيسةٍ بمدينة نيويورك، كان يستمع إلى "شابٍّ أنيق اللِّباس" كان يتحدَّث بشأن مشاكله. وقد بدا ذلك الشابُّ، حسب روايته الخاصَّة، خاليًا من العيوب تمامًا. فإنَّ جميع أخطائه كانت بسبب ظُلم الآخرين وخياناتهم. ووصَفَ كيف كان ينوي الانتقام من جميع الذين أساءوا إليه. وقد كتب دِلبانكو: "ثمَّت كلُّ إشارةٍ قام بها عن كبرياءَ جُرِحَتْ في الصميم" وبدا أنَّ ذلك الشابَّ كان عالقًا في فخٍّ احتياجه إلى تبرير ذاته، وأنَّ الأمور كان يمكن فقط أن تسوءَ أكثر فأكثر في حياته، حتَّى أدرك واقعَ حاله. وبينما هو يتكلَّم، إذا برجلٍ أسودَ في أربعينيَّاته، لابسٍ ثيابًا خشنة ونظّارةً سوداء، يميل نحو دِلبانكو هامسًا في أذنِه: "كان شعوري أنا أيضًا هكذا قبلما أحرزتُ احترامًا قليلًا للذّات". وفي ما بعد كتب دِلبانكو في كتابه "**الحلمُ الأميركيُّ الحقيقيّ: تأمُّلٌ في الرجاء**" (The Real Amercian Dream: A Meditation on Hope):

> تخطّى ذلك كونه تعبيرًا موفّقًا. إذ كانت تلك اللحظةُ بالنسبة إليّ هي اللحظة التي فيها فهمتُ بطريقةٍ جديدة الدِّين الذي

> طالما ادَّعيتُ بأنّي أعرف شيئًا عنه. فبينما المتكلِّم يقصفُنا بعباراتٍ من قبيل "كان عليّ أن أتولّى السيطرة على حياتي" و"كان لا بدّ لي من الثقة بنفسي فعلًا"، وجد الرجُل الذي بجانبي ملاذهُ في العقيدة الكالڤينيّة العريقة (نسبةً إلى جون كالڤن) القائلة إنَّ الكبرياء عدوّةُ الرجاء. فما قصدَهُ بعبارته الظريفة عن احترام الذات كان أنّه تعلَّم أنْ ليس في وُسع أحدٍ أن يخلِّصَ نفسَه بفضل مجهوداته الذاتيّة. وقدِ اعتقدَ أنَّ المتكلِّمَ كان ما يَزال ضالًّا، هائمًا في ذاته، إنّما دون أن يدركَ ذلك.[٢]

إنَّ الرَّجُلَ الخَشِنَ الثياب، بقوله "احترامًا قليلًا للذَّات"، لم يَعنِ أنَّه كان على الشابِّ أن يصلَ إلى حيثُ يُبغِضُ ذاته، بل عنى أنَّ الشابَّ الأنيقَ اللباس يبقى "هائمًا في ذاته" حتَّى يتسنَّى له أن يعترفَ بأنَّه كائنٌ بشريٌّ كثيرُ النَّقص والعيوب، أيْ خاطئ، وإلَّا فلن يتحرَّرَ أبدًا حتَّى يَرى نقائصه في ضوئها الحقيقيّ، أو حتَّى يُسامحَ أولئك الذين أساءوا إليه، أو يلتمسَ الصَّفْحَ باتِّضاعٍ ويقبلَه من الآخرين. حقًّا إنَّ التعليمَ المسيحيَّ بشأن الخطيَّة، إذا فُهِمَ فهمًا صحيحًا، يمكن أن يكونَ مَصدرًا عظيمًا لرجاء البشر، ولكنْ ما ذلك التعليم المسيحيّ؟

معنى الخطيّة

كتبَ الفيلسوفُ الدَّانمركيُّ المشهور سُورين كيركغارد (Soren Kierkegaard) كتيِّبًا رائعًا عنوانُه "**المرضُ المؤدِّي إلى الموت**" (The Sickness Unto Death)، سنة ١٨٤٩. وفيه عرَّف "الخطيَّة" بطريقةٍ لها جُذورُها في الكتاب المقدَّس ولكنَّها أيضًا في مُتناوَلِ أهل العَصْرِ الحديث. "الخطيَّة هي ألَّا يُريد

الإنسان، في يأس، أن يكونَ ذاتَه أمام الله... الإيمان هو أنَّ النَّفس، إذ تكونُ ذاتَها وتُريدُ أن تكونَ ذاتَها، تتأصَّلُ في الله بصورةٍ شفَّافة". فالخطيَّة هي الرفضُ اليائس لأنْ تَجِدَ هُويَّتك العُمقَى في علاقتِكَ بالله وخدمتِكَ له. هي طَلبُكَ أن تصيرَ ذاتَك، أن تحصلَ على هُويَّة، بالاستقلالِ عنِ الله.

ماذا يعني هذا؟ إنَّ كلَّ إنسانٍ يحصلُ على هُويَّته، على إحساسه أنَّه مُتميِّزٌ وذو قيمة، من مكانٍ ما أو من شيءٍ ما. ويؤكِّدُ كيركغارد أنَّ البَشَر صُنِعوا ليس فقط ليؤمنوا بالله بطريقةٍ عموميَّة من نوعٍ ما، بل ليُحِبُّوه محبَّةً ساميةً قُصوى، ويُركِّزوا حياتهم فيه فوق أيِّ شيءٍ آخَر، ويَبنوُا عليه هُويَّاتِهم بذاتها. وأيُّ شيءٍ سِوى هذا هو خطيَّة.

يُفكِّر معظم الناس في الخطيَّة جوهريًّا بوصفها "انتهاكَ القواعد الإلهيَّة"، ولكنَّ كيركغارد يعلَمُ أنَّ أولى الوصايا العشر هي "لا يكُن لك آلِهةٌ أخرى أمامي". وعليه، فإنَّ الطريقة الأساسيَّة لتعريف الخطيَّة- حسب الكتاب المقدَّس- ليست أنَّها مُجرَّدُ فعلِ الأمور الرديئة، بل تحويلُ الأمور الجيِّدة إلى أمورٍ **أساسيَّة**. إنَّها السَّعيُ إلى إحراز شأنٍ للنَّفس بِجَعلِكَ أيَّ شيءٍ آخرَ أكثر مركزيَّةً من علاقتك بالله نسبةً إلى أهمِّيَّتك وغايتك وسعادتك.

في فِلم "روكي" (Rocky)، تسألُ صديقة الشخصِ الذي دُعيَ الفِلمُ باسمِه عن السبب الذي من أجله يُضفي أهمِّيَّةً قُصوى على "بلوغ نهاية الشَّوط" في مباراة المُلاكمَة. فيُجيب: "عندئذ يتأكَّد لي أنِّي لستُ مُتسكِّعًا تافهًا". وفي فِلم عنوانُه "مركباتٌ من نار" (Chariots of Fire)، يشرحُ واحدٌ من الشخصيَّات الرئيسيَّة لماذا يَبذلُ قُصارى جهده في عَدْوِ سباق ١٠٠م في أثناء المُباريات الأولمبيَّة. إذ يقول إنَّه حين يبدأ كلُّ سباق،

"تُتاحُ لي عشرُ ثوانٍ مُوحِشة كي أبرِّرَ وجودي". فكِلا هذين الرَّجُلَين نَظَرَا إلى الفوز الرِّياضيِّ باعتباره القوَّة المُحدِّدة التي تُضفي على حياتهما معنى.

فاز إرنست بَكر (Ernest Becker) بجائزة پوليتزر (Pulitzer Prize) بفضل كتابه "**رَفضُ الموت**" (The Denial of Death). وهو يبدأ هذا الكتاب بالإشارة إلى أنَّ حاجةَ الولد إلى القيمة الذاتيَّة "**هي الشَّرط** المؤاتي لحياته" إلى حدٍّ أنَّ كلَّ شخص يطلبُ باستِقْتالٍ ما يدعوه بَكِر "الاعتبارَ الكَونيّ" (Cosmic significance). ثُمَّ يُحذِّر القارئَ في الحال من أن يستخفَّ بهذا التعبير.[٤] فإنَّ احتياجَنا إلى الاعتبار قويٌّ جدًّا بحيثُ إنَّ أيَّ شيءٍ نُركِّز عليه هُويَّتَنا وقيمتَنا "نؤلِّهُه" جوهريًّا. إذ سنَنْظرُ إليه بكلِّ ما تتميَّز به العبادة والتَّقوى من شَغَفٍ وحِدَّة، حتَّى لو كُنَّا نحسبُ أنفُسَنا غيرَ مُتديِّنين إلى أقصى حدّ. ويستخدم بَكِر الحُبَّ الرومانسيَّ مثلًا إيضاحيًّا.

> إنَّ تمجيدَ الذاتِ الذي احْتاجَ إليه الإنسانُ الحديثُ في أعمقِ أعماق طبيعته باتَ يلتمسُه الآن في شريك الحُبّ. فإنَّ شريك الحُبّ يصبح المِثال الإلٰهيّ الذي في إطاره يُحقِّق المرءُ حياته، وقد باتت الحاجاتُ الرُّوحيّة والخُلُقيّة الآن مُتركِّزة على فردٍ واحد.[٥]

لا يقول بَكِر إنَّ كلَّ امرئٍ يَنشدُ الحبَّ والغرامَ طَلَبًا للشُّعور بأهمِّيَّة الذات. فكثيرين لا يَنشدون الغرامَ بل بالأحرى العمل والمهنة الْتِماسًا للاعتِبار الكَونيّ:

> لا بدَّ أحيانًا من أن يحملَ عَمَلُه عبءَ تبريره. وما معنى "تبرير" هنا؟... يعني أنّه يعيشُ وهمَ السَّيطرة على الحياة والموت- السيطرة على المصير.[٦]

ولكنَّ هذا كلَّه إنَّما يُعِدُّ المسرحَ للخَيبة المستمرَّة فحسْب.

ما من علاقةٍ بشريَّة يمكن أن تحمل عبءَ الألوهيّة هذا... فإذا كان شريكُكَ في الحُبّ هو "الكُلّ" لديك، يصير أيُّ تقصيرٍ عندئذٍ خطرًا رئيسيًّا يتهدّدك... ما الذي نُريده عندما نُرفّع شريك الحُبّ إلى هذا المقام؟ إنّنا نُريد التخلُّص من شعورنا باللّاشيئيّة... أن نعلمَ أنَّ وجودَنا ما كان باطلًا. فنحن نُريد الفداء أو التحرير، ولا نريد شيئًا أقلّ. وغنيٌّ عن البيان أنَّ البشر لا يستطيعونَ إعطاءَنا هذا.[٧]

هذا تمامًا بيتُ القصيد عند كيركغارد. فلا بدَّ لكلِّ شخص من أن يجد سبيلًا ما كي "يُبرِّرَ وجودَه" ويدْرَأَ الخوفَ الكُلّيَّ من أن يكون "مُتسكِّعًا تافهًا" أو نَكِرة. وفي الحضارات الأكثر تقليديَّةً، يأتي الشعورُ بالاعتِبار والهُويَّة من إتمام المرء واجباته تُجاه عائلته وخدمته للمجتمع. وفي الثقافة الغربيَّة الفَردانيَّة، يميل الناس إلى تحقيق الإنجازات، أو المقام الاجتماعيّ، أو المواهب، أو علاقات الحُبّ. وهنالك تشكيلةٌ غير محدودة من قواعد الهُويَّة. فمِنهم مَن يحصلون على الشُّعور بالأهمِّيَّة الذاتيَّة من إحراز السُّلطة ومُمارستها، فيما يحصل عليه آخرون من كَسْبِ الاستحسان البشريّ، وآخرون من ضَبْط النفس والسَّيطرة. غير أنَّ كلَّ إنسان يبني هويَّته على شيءٍ ما.[٨]

عواقبُ الخطيَّةِ الشخصيَّةُ

أمَا وقد عرَّفنا الخطيَّة بهذه الطريقة، يمكننا أن نرى بِضعَ طُرقٍ بها تُدمِّرنا الخطيَّةُ شخصيًّا. فالهُوِيَّة بمعزلٍ عن الله غيرُ ثابتةٍ فِطريًّا. وبغيرِ الله، قد يبدو

شعورُنا بالاعتِبار متينًا في الظاهر، ولكنَّه ليس هكذا البتَّة، إذ قد يُفارِقُك في لحظة. فإذا بَنيتُ هُويَّتي مثلًا على كَوني أبًا صالحًا، لا تكونُ لي "ذاتٌ" حقيقيَّة، إذْ أكون مجرَّدَ أبٍ، ليس غير. وإذا حصل خَلَل لدى أولادي، أو في أبوَّتي، لا يبقى لي أيُّ "أنا". وإليكَ ما كتبَه اللاهوتِيُّ توماس أدِن (Thomas Oden):

> ولْنَفرِضْ أنَّ إلهي هو الجنس أو صحّتي البَدَنيّة أو الحزب الديمُقراطيّ. فإذا اختبرتُ خطرًا فعليًّا يتهدّد أيًّا من هذه الأمور، أشعرُ بأنَّ ذاتي مُزعزعةٌ حتّى الأعماق. ويُصيرُ الشُّعورُ بالذّنْب حادًّا من الناحيّة العُصابيّة إلى الدّرجة التي بها قد ألّهتُ قِيَمًا زائلة... وهَبْني قدّرتُ كثيرًا قُدرتي على التعليم والتواصُل بوضوح. فإذا صارَ التواصُل الجليُّ قيمةً مُطلقةً عندي، أو مركزَ قيمةٍ يجعل جميعَ قِيَمي الأخرى قيّمة، فإذا أخفقتُ في إجادة التعليم، أبتلَى عندئذٍ بالذّنْب العُصابيّ. ذلك أنَّ المرارة تصير حادّةً عُصابيًّا عندما يعترضُ شخصٌ ما أو شيءٌ ما بيني وبين أمرٍ جعلتُه القيمةَ القُصوى لديّ.[٩]

إنْ هدَّدَ هُويَّتَك أيُّ شيء، فلن يُساوِرَكَ القَلَقُ فحسْب، بل سيَشلُّك الخوفُ أيضًا. وإنْ فقدتَ هُويَّتك من جرَّاء خُذلانِ شخصٍ آخر، فلن يستبدَّ بك الاستياءُ فقط، بل ستُطبقُ عليك المرارة. وإن فقدتَها من جرَّاء إخفاقاتك الشخصيَّة، فإنَّك ستُبغِضُ ذاتَك أو تحتقرُها باعتبارك فاشلًا، ما دُمتَ حيًّا. ولكنْ إنْ كانَتْ هُويَّتك مَبنيَّةً على الله ومحبَّته- كما يقول كيركغارد- تستطيعُ عندئذٍ فقط أن تملكَ ذاتًا يمكنُها أن تقومَ بأيَّة مغامرة وتُواجِهَ أيَّ شيء.

ولا سبيلَ إلى تجنُّب هذا التَّقلقُل بمعزلٍ عن الله. حتَّى لو قُلت: "لن أبنيَ سعادتي أو أهمِّيَّتي على أيِّ شخص أو أيِّ شيء"، فإنَّك تكونُ بالفعل بانيًا هُويَّتك على حرِّيَّتك الشخصيَّة واستقلاليَّتك الذاتيَّة. وإنْ هدَّد تلك الهويَّة أيُّ خطر، تغدو من جديد بغَير ذات.

ثُمَّ إنَّ الهُوِيَّة التي لا تُؤسَّس على الله لا بدَّ أن تؤدِّيَ أيضًا إلى أشكالٍ عميقةٍ من الإدمان. فحينَ نُحوِّلُ الأمورَ الجيِّدةَ إلى أمور مُطلَقة، نكونُ مُدمنين روحيًّا، إنْ جاز التعبير. وإذا استَمْدَدنا معنى الحياة في نظَرِنا من عائلتنا، أو عملنا، أو قضيَّتنا، أو إنجازٍ آخر من نوع ما، فإنَّ هذه الأمور تَستعبِدُنا. إذ لا بدَّ لنا من أن تمتلكها. وقد قال القدِّيس أغسطينوس: "إنَّ محبَّاتنا ليستْ مُرتَّبةً ترتيبًا صحيحًا". ومشهورٌ قولُهُ لله: "ستظلُّ قلوبنا مُضطربةً حتَّى تَجِدَ راحتَها فيك!" فإنْ حاوَلْنا أن نجدَ راحتَنا القُصوى في أيِّ شيءٍ آخر، تُصير قلوبُنا مخلوعةً أو "في غير مَوضعها". إنَّ الأمورَ الجيِّدة التي تَستعبِدُنا هي أمورٌ صالحةٌ تستحقُّ أن تُحَبّ. ولكنْ عندما تصيرُ محبَّاتُ قلوبنا جامحةً، نَهوي عندئذٍ في أنماطِ حياةٍ لا تختلف كثيرًا عن الإدمان المادِّيّ. وكما في كلِّ إدمان، نلجأ إلى الإنكار بشأن الدرجة التي إليها تُسيطر علينا بدائلُ الله. ثُمَّ إنَّ الحُبَّ الجامح يُنشئ كَرْبًا جامحًا تتعذَّر السَّيطرة عليه إذا اعترى آمالَنا الكُبرى خَطبٌ أو خطأ.

لَمَّا كنتُ راعيًا في الكنيسة الأولى التي خَدَمتُ فيها بمدينة هُوپوَل في ڤرجينيا، وجدتُ نفسي أتولَّى إرشادَ امرأتَين مختلفتَين، كِلتاهما كانتا مُتزوِّجتَين، وكان لكُلٍّ منهما زوجٌ لم يكُن أبًا صالحًا، وابنٌ مُراهِقٌ بدأ يُواجه مَشاكلَ في المدرسة ومع القانون. كانت المرأتان كِلتاهما غاضبتَين على زوجَيهما. فأرشدتُهما وتحدَّثتُ (من جُملةِ أمور أخرى)

بشأن مشاكلِ المرارة غير المُصرَّفة وأهمِّيَّة المسامَحة. وقد قبلتْ كِلتاهما النَّصيحة، وقرَّرتا أن تُسامِحا. غير أنَّ المرأةَ التي كان زَوجُها أسوأ وكانت هي أقلَّ تديُّنًا، استطاعتْ أن تُسامح. أمَّا الأخرى فلم تستَطِع. وقد حيَّرني ذلك شهُورًا، إلى أنْ كان يومٌ فيه اندفعَتِ المرأةُ غيرُ المُسامِحة قائلة: "إذا تعثَّر ابني وراحتْ حياتُه هباءً منثورًا، فعندئذٍ تكونُ حياتي كلُّها فَشَلًا بِفَشل!" فإنَّها كانتْ قد ركَّزتْ حياتَها على سعادةِ ابنها ونجاحه. ولذلك لم تستطِع أن تُسامِح.[10]

في كتابِ "الفصحُ في كلِّ مكان: سيرةٌ ذاتيَّة" (Easter Everywhere: A Memoir)، تَروي دارْسي ستاينْك (Darcey Steinke) كيف أنْكَرَتِ اعترافَها بالإيمان المسيحيِّ، وهي ابنةُ قِسِّيسٍ لوثريّ. فإذِ انتقلَت إلى مدينة نيويورك انغمسَتْ في حياةٍ حافلة بارتياد النَّوادي وتلبية الهواجس الجنسيَّة. وقد كتَبت بِضعَ روايات. غير أنَّها ظلَّت غير مستقرَّة ولا راضية إلى أقصى الحدود. وفي منتصف سيرتها الذاتيَّة، تستشهِد بما قالَته سيمون وايل لتَلخيص القضيَّة الأساسيَّة في حياتها. وممَّا كتبَته: "ليس للمرء إلَّا الاختيار بين الله وعبادة الأصنام. فإنْ أنكَرَ المرءُ الله، يتعبَّد لبعض أمورِ هذا العالَم، اعتقادًا منه أنَّها لا تتعدَّى صفتَها هذه، ولكنْ مُتصوِّرًا فيها- ولو على غير عِلم منه- صفاتِ الألوهيَّة".[11]

إنَّ حياةً لا تتركَّز على الله تؤدِّي إلى الخَواء. وبناءُ حياتنا على أيِّ شيءٍ غير الله لا يؤذينا فقط إنْ كُنَّا لا نحصلُ على مُشتهَيات قلوبنا، بل أيضًا إذا حصَلْنا عليها بالفعل. ولمَّا كان أقِلَّاءُ منَّا يُحقِّقونَ جميع أحلامِهم الأكثر طموحًا أو جموحًا، يَسهُلُ أن تعيشَ مُتوهِّمًا أنَّك ستَظْفَر أخيرًا بالسَّعادة والسَّلام إذا كنتَ ناجحًا أو غنيًّا أو مشهورًا أو جميلًا. ولكنَّ الحالَ ليسَت

على هذا المنوال. فإنَّ سِنثيا هَيمل (Cynthia Heimel) مثلًا، في عمودٍ لها بمجلَّة **ڤيلج ڤويْس** (Village Voice)، استعرضَتْ ماضيَ جميع الأشخاص الذين عرفَتْهم في مدينة نيويورك قبل أن يَصيروا نُجومًا سينمائيِّين مشهورين. وتبيَّنَ أنَّ واحدةً منهم اشتغلَتْ خَلفَ نُضُد الماكياج في أحد المتاجرِ الكبيرة، وأنَّ آخرَ اشتغل قاطِعَ تذاكر في دُور السِّينما، وهلُمَّ جرًّا. ولمَّا صارَ هؤلاءِ مشاهير، صار كلٌّ منهم أكثر غضبًا وهَوسًا وبُؤسًا واضطرابًا ممَّا كانوا عليه وهم يُكافِحون لبلوغ القِمَّة. لماذا؟ إليكَ ما كتبَته هَيمل:

> إنَّ ذلك الشيءَ الضَّخم الذي كانوا يُجاهِدُون لبُلوغه، هدفَ الشُّهرة ذاك الذي سيَجعلُ كلَّ شيءٍ على خير ما يُرام، ويجعلهم يُطيقون أعباء الحياة، ويُفعِمهم بالسَّعادة الغامرة، **قد حدث فعلًا**. ثُمَّ استيقظوا صباحَ اليوم التالي فإذا بهم ما يزالون **هُم إيَّاهم**. وقد حوَّلهم تَبدُّدُ الوَهم إلى قومٍ مُولولِين لا يُطاقون.[١٢]

عواقبُ الخطيَّةِ الاجتماعيَّة

ليس للخطيَّة فقط تأثيرٌ داخليٌّ فينا، بل لها أيضًا تأثيرٌ فتَّاك في النسيج الاجتماعيّ. ففي أعقاب الحرب العالميَّة الثانية، رَأَت الكاتبةُ الإنكليزيَّةُ دوروثي سايَرز (Dorothy Sayers) كثيرين من أهل النُّخبة الفكريَّة في يأسٍ بشأن اتِّجاه المجتمع البشريّ. وفي كتابها "**عقيدةٌ إيمانيَّة أم فوضى كونيَّة؟** (Creed or Chaos?) (١٩٤٧)" ارتأَتْ أنَّ يأسَهم ناجمٌ إلى حدٍّ بعيد عن فقدانهم للإيمان بعقيدة الخطيَّة "الأصليَّة" في المسيحيَّة، أي ما ورثَه البشرُ من كبرياء وأنانيَّة. فقد كتَبَتْ: "إنَّ الأشخاص الذين هم أكثرُ يأسًا هم

أولئك الذين يتشبَّثون باعتقادٍ مُتفائلٍ بشأن تأثير التَّمدُّن المرتبط بالتقدُّم والتنوير". ذلك أنَّهم يرَونَ أنَّ الإبادةَ الجَماعيَّة في الدُّوَل الديكتاتوريَّة، والجشعَ والأنانيَّةَ في المجتمع الرأسماليّ، ليستْ صادمةً ومخيفةً فحسب. فبالنِّسبة إليهم، تُشكِّل هذه الأمورُ النَّقيضَ الكلِّيَّ لجميع ما سبقَ أنِ اعتقدوه. وقد بدا كما لو أنَّ قَعرَ عالَمِهم قدِ انهار". غير أنَّ المسيحيِّين يألَفُون فكرةَ "وجودِ خَطْبٍ داخليٍّ عميق في مركز الشخصيَّة البشريَّة بعَينه". وقد خلصَتْ سايَرز إلى ما يلي:

> إنَّ العقيدة المسيحيّة المُتعلّقة بوجود طبيعةٍ مُزدوَجةٍ في الإنسان (تلك التي تؤكّد أنَّ الإنسانَ قد أصابَه خَلَلٌ وهو بالضَّرورة غيرُ كاملٍ في ذاته وفي جميع أعماله، ومع ذلك فهو مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بواسطة وِحدةٍ جوهريّة بكمالٍ أزليٍّ داخِلَهُ وخارجَهُ) تَجعلُ الحالةَ الحاضرةَ المحفوفةَ بالخطر والسائدةَ في المجتمع البشريّ تَبدو أقلَّ يأسًا وأقلَّ لامعقوليّة.[١٣]

في كتاب "**طبيعةُ الفضيلة الأصيلة**" (The Nature of True Virtue)، وهو واحدٌ من أعمق ما كُتبَ من بحوثٍ في الأخلاق الاجتماعيَّة على الإطلاق، يُبيِّنُ جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards) كيف تُفسِدُ الخطيَّةُ النسيجَ الاجتماعيّ. إذ يُحاجُّ بأنَّ المجتمعَ البشريَّ يتفسَّخُ تفسُّخًا عميقًا حين يكون شيءٌ سوى اللهِ حُبَّنا الأسمى. فعندما تكونُ مصلحةُ عائلتنا هي هدفَنا الأعلى في الحياة، فسنَميل عندئذٍ– كما يقول إدواردز– إلى الاهتمام أقلَّ بشأن العائلات الأخرى. وإذا كان هدفُنا الأعلى هو مصلحةَ أمَّتنا، أو قبيلتنا، أو عِرقِنا، فسنَميلُ عندئذٍ إلى التعصُّب العِرقيِّ أو القوميّ. وإذا كان هدفُنا الأقصى في الحياة

هو سعادتَنا الفرديَّة، فعندَئذٍ سنُقدِّم مَصالحنا الاقتصاديَّة والنُّفوذيَّة على مصالح الآخرين. ثُمَّ يخلصُ إدواردز إلى القول إنَّه إذا كانَ الله هو ''خيرَنا الأسمى'' (summum bonum) ومركزَ حياتنا، فعندئذٍ فقط سنَجد في قلوبنا حنانًا ليس على أناسٍ جميع العائلات والأجناس والطبقات فحسب، بل على العالَمِ أجمعَ بصورةٍ عامَّة.[١٤]

تُرى، كيف ينجم هذا الانهيار في العلاقات الاجتماعيَّة عن آثار الخطيَّة الداخليَّة؟ إذا استمدَدنا هُويتَّنا الذاتيَّة، أو شُعورَنا بالاعتبار، من موقعنا السياسيّ، فعندئذٍ لا تكون السياسة في الحقيقة مَعنيَّةً بالسياسة، بل تكون مَعنيَّةً بنا **نحن**. إذ إنَّنا من خلال قَضيَّتنا نكون حاصلين على ذاتٍ مُتمثِّلة باعتبارنا أو قيمتنا. وذلك يَعني أنَّه **يجب** أن نستخفَّ بالمعارضة ونحسبُها شيطانيَّة. وإذا استمدَدنا هُويَّتنا من انتمائنا العِرقيّ أو وَضْعِنا الاجتماعيّ-الاقتصاديّ، **فلا بدَّ** إذ ذاك من أن نشعر بالتفوُّق على المُنتَمِين إلى الفئات والأعراق الأخرى. وإن كنتَ فَخورًا جدًّا بِكَونك منفتحَ الذِّهن وذا نفسٍ سَمْحَةٍ فستكون ساخطًا أشدَّ السَّخَط على الأشخاص الذين تعتقد أنَّهم مُتعصِّبون. وإن كنتَ شخصًا متمسِّكًا جدًّا بأهدابِ الفضيلة، فستَشعر بأنَّك أسمى كثيرًا من الأشخاص الذين تَعتقدُ أنَّهم مُستبيحون، وهلُمَّ جرًّا.

ولا سبيلَ إلى الخروج من هذه المَتاهة المُربكة. فكلَّما زادَتْ محبَّتُنا وزاد اندماجُنا القويُّ بعائلتنا، أو طبقتنا، أو عِرقنا، أو دِيننا، باتَ أصعَب ألَّا نشعر بالتفوُّق، أو حتَّى بالعداء، تُجاه باقي الأديان والأعراق...إلخ. وهكذا، فإنَّ التَّمييز العُنصريَّ والطَّبقيَّ والجنسيَّ ليس مسألةَ جهلٍ أو نقصٍ في التَّربية أو الثَّقافة. وقد بيَّن فُوكُو (Foucault) وآخرون في زماننا أنَّ حيازةَ هُويَّةٍ ذاتيَّة لا تؤدِّي إلى إقصاء الغَير هو أمرٌ أصعبُ بكثيرٍ ممَّا نظنّ. فحربُ

الحضاراتِ الحقيقيَّة تَجري داخلَ قلوبنا المُشوَّشة المُضطربة التي تُشتِّتها الرغباتُ الجامحة في الأشياء التي تُسيطر علينا، والتي تَحمِلُنا على الشُّعور بالتفوُّق وعلى إقصاء أولئك الذين لا يملكونَها، رغمَ إخفاقها في إعطائنا الرِّضى عندَ امتلاكها فعلًا.

عواقبُ الخطيَّةِ الكونيَّةُ

يتحدَّث الكتاب المقدَّس بطريقةٍ أكثرَ شمولًا بَعدُ (وأكثر غموضًا) بشأن نتائج الخطيَّة التي أشَرْنا إليها حتَّى الآن. ففي الفصلَين الأوَّل والثاني من سفر التكوين نَرى الله آمرًا الكونَ بالوجود، ومُشتغِلًا بيَديْه على نحوٍ شبهِ حَرْفيّ. "وجبلَ الربُّ الإله آدمَ تُرابًا من الأرض، ونفخَ في أنفه نَسَمة حياة" (تكوين ٢: ٧). فالمفارقة بين ما نراه هنا وجميع روايات الخَلق القديمة الأخرى لا يمكن أن تكونَ أكبر ممَّا هي عليه تلك المفارقة بالفعل.

في معظم روايات الخَلق القديمة، تأتي الخليقة كنتيجة ثانويَّة من نوعٍ ما لحربٍ أو فعلٍ آخر من أفعال العنف. فليسَتِ الخليقة في الواقع مُتعمَّدةً ومُصمَّمة البتَّة. ومن اللافت للنظر أنَّ الرواياتِ العلميَّةَ اللَّادينيَّة بشأن أصلِ الأشياء تكادُ تُماثِلُ تمامًا الرواياتِ الوثنيَّة القُدمى. فإنَّ شكلَ العالَمِ الطبيعيَّ والحياةَ البيولوجيَّة على السَّواء هما حصيلةُ قوًى عنيفة.

إنَّما على نحوٍ فريد بين روايات الخَلق، يُصوِّر الكتاب المقدَّس عالَمًا طافحًا بأشكالٍ من الحياة ديناميَّةٍ ووافرة، تتَّصفُ بأنَّها مُتضافِرةٌ ومُتوافِقةٌ تمامًا، تُعزِّز وتُغْنِي بعضُها بعضًا بطريقةٍ تَبادُليَّة. ثُمَّ إنَّ ردَّة فعْل **الخالق** إزاءَ ذلك هي الابتهاج. فهو ما توقَّف عن ترديدِ أنَّ ذلك كلَّه **حَسَنٌ**.

وعند خَلقه الكائنات البشريَّة، يُوجِّهُهم إلى الاستمرار في تَعَهُّدِ مَوارد الخليقة الوافرة وفي استخراجها مثلَما يَفعلُ الفلّاح في البُستان. إذ يبدو أنَّ الخالقَ يقول في تكوين ١: ٢٨ "اذهبوا وحافظوا على استمرار هذا العالَم! إليكُم هذهِ الكُرَة". [١٥]

إنَّ الكلمة العِبريَّة المعبِّرة عن هذا الاعتماد المتبادَل المُتناغِم الكامل بين جميع أجزاء الخليقة هي "شَلُوم" (Shalom)، ويُقابِلُها في العربيَّة "سلام" أو "سلامة". وهي لا تعني مجرَّد غياب البلاء أو العِداء. إنَّها تعني السلامة الكاملة- ملءَ حياةِ الوئام والفرح والازدهار.

وفي الفصل الثالث من سفر التكوين يُوصَف فقدانُ "شَلُوم" المدمِّرُ من جرَّاء الخطيَّة. إذ نُعلَمُ بأنَّه حالَما عَقَدْنا العزمَ على خدمة أنفُسنا بدلًا من الله- حالَما أقلَعنا عن أن نعيشَ لله ونتمتَّع به على أنَّه خيرُنا الأسمى- صار كاملُ العالَم المخلوقِ مُنهارًا. فإنَّ الكائنات البشريَّة جزءٌ لا يتجزَّأ من نسيج الحَياة، حتَّى إنَّه عندما تحوَّل البشر عنِ الله فسُدَت سَداةُ العالَم ولُحمَتُه أي فسُدَ قِوامه وتماسكه وأساسه. فالمرض والاختلالات الجينيَّة والمجاعة والكوارث الطبيعيَّة والشيخوخة والموت بذاته كلُّها نتائجُ للخطيَّة، شأنُها شأنُ الظُّلم والحرب والجرائم والعُنف. لقد فَقَدْنا "شَلُوم" الله- طبيعيًّا وروحيًّا واجتماعيًّا وسيكولوجيًّا وثقافيًّا. والأشياءُ الآنَ مُصدَّعةٌ ومُنهارة. وفي الفصل الثامن من رسالة رومية، يقول بولس إنَّ العالَم كُلَّه الآن أسيرُ "عبوديَّة الفساد" وقد "أُخضعت الخليقة للبُطل"، ولن يُصلَح حالُ الكون قبل أن نُعطى نحن علنًا "حرِّيَّةَ مجدِ أولاد الله".

ماذا يمكن أن يُصلحَ كُلَّ شيء؟

عند نُقطةٍ ما في حياة مُعظَمنا، نُواجِهُ حقيقةَ كونِنا لسنا الأشخاصَ الذين نعرف أنَّه ينبغي لنا أن نكُونَهم. وتكاد استجابتُنا دائمًا أن تكونَ "استهلالَ صفحةٍ جديدة" وبذْلَ محاولاتٍ أقوى للعَيشِ بمُقتضى مبادئنا. ولَن يُفضيَ بنا ذلك إلَّا إلى بلوغ طريقٍ روحيٍّ مسدود.

في مقالةٍ عُنوانُها "أصعبةٌ المسيحيَّةُ أم سهلة؟" (Is Christianity Hard or Easy?) يُصوِّر سي. أس. لِويس الكفاحَ البشريَّ المُعتاد:

> الفكرةُ المعتادة التي نحوزُها كلُّنا هي أنَّ لنا نَفْسًا طبيعيَّةً تملكُ رغباتٍ واهتماماتٍ شتَّى، وأنَّنا نعرفُ أنَّ لشيءٍ يُقال له "أخلاقٌ" أو "سلوكٌ حسن" حقوقًا علينا... ونحن جميعًا نأمُل أنَّه عندَ تلبيةِ جميع مطاليب الأخلاق والمجتمع سيَبقى بَعدُ للنَّفْس الطبيعيَّة المسكينة فرصةٌ ما، أو بعضٌ من الوقت، كي تمضيَ قُدُمًا في حياتها الذاتيَّة وتفعل ما تشاء. وبالحقيقة أنَّنا نُشبِه إنسانًا شريفًا يدفعُ الضَّرائبَ الواجبةَ عليه. فهو يدفعُها، ولكنَّه يأمُلُ فعلًا أن يبقى ما يَكفي كي يعيشَ به.
>
> غير أنَّ السبيلَ المسيحيَّ مُختلِف، وهو أصعبُ وأسهلُ في آنٍ معًا. فالسيِّدُ المسيح يقول: "أعطني **الكلّ**. لا أريدُ فقط هذا القَدْر من وقتك، وذاك القدْرَ من مالك، وذلك القدْر من عملك- حتَّى يتسنَّى لنفسك الطبيعيَّة أن تحوزَ الباقي. إنِّي أريدُك أنت، لا أشياءك. فأنا لم آتِ لكي أعذِّب نفسَك الطبيعيَّة. ولكنِّي سأعطيك بدلًا منها نَفْسًا جديدة. سلِّمْ كامل النفس الطبيعيَّة- رغباتك **كلَّها**، ليس فقط تلك التي تحسبُها شرِّيرة، بل أيضًا التي تحسبها بريئة- العُدّة

بكاملها. إنّي سأعطيك نفسًا جديدةً بدلًا من تلك".

هنا ينطلق لِويس من تعريف كيركغارد للخطيّة: أنَّ الخطيَّة ليست فقط فِعْلَ الأمور السيِّئة، بل هي إحلالُ الأمور الصالحة محلَّ الله. وهكذا، فإنَّ الحلَّ الوحيد ليس هو مجرَّدَ تغيير سلوكنا، بل أن نُعيد توجيهَ القلب والحياة إلى الله وتركيزَهما عليه.

> الأمر الصّعب الذي يكاد أن يكونَ مستحيلًا هو أن تُسلّم السيّد المسيحَ نفسَك بكاملها. ولكنّه أسهلُ بكثير ممّا نحاولُ نحن أن نفعلَه بدلًا من ذلك. فإنّ ما نحاولُ أن نفعلَه هو أن نبقى على كلّ ما ندعُوَه "ذواتِنا"- حيث سعادتُنا الشخصيَّة مُركّزةٌ على المال أو المتعة أو الطموح- ومع ذلك نأمُلُ أن نسلكَ سلوكًا مُستقيمًا وعفيفًا ومُتّضِعًا. وهذا تمامًا ما نبّهنا السيّد المسيح بأنّه ليس في وُسعنا أن نفعلَه. تخيَّل أنّي كنتُ أنا حقلَ عُشبٍ أخضر- فإنَّ كُلَّ جَزٍّ سيُبقي العُشبَ أقلّ، غير أنّه لن يُنتِجَ قمحًا. فإنْ أردتُ قمحًا، وجبَ أن أحرَثَ وأزرعَ من جديد.

أيُروِّعُكَ هذا؟ أوَيبدو خانقًا؟ تذكَّر هذا: إذا لَم تَعِشْ للسيِّد المسيح، فلا بدَّ أن تعيشَ لشيءٍ آخر. فإنْ عشتَ لمهنتك ولم تُبلِ حسنًا، فقد تُعاقِبُك طوال عُمرِك، وسوف تشعر بأنَّك فاشل. وإن عشتَ لأولادك، ولم تؤل جميع أمورهم إلى الخير، يُمكِن أن يستَوليَ عليك العذابُ كليًّا لأنَّك تشعرُ بأنَّك عديم القيمة بوَصفك شخصًا.

ولكنْ إنْ كان يسوعُ المسيح هو مركزَك وربَّك، ثُمَّ خذَلتَه، فإنَّه سيَغفرُ لك. إنَّ مهنتك لا يمكن أن تموتَ من أجل خطاياك. لعلَّك تقول: "إذا صرتُ مسيحيًّا حقًّا، فمن شأني أن أعيشَ والشُّعورُ بالذَّنب يُطارِدُني كلَّ

حين!" ولكنّنا جميعًا يُطارِدُنا الشُّعور بالذّنب؛ لأنَّه يجب أن نحوز هُويَّةً ما، ويجب أن يُوجَدَ معيارٌ ما نرتقي بحياتنا إلى مُستواه وبه نحصل على تلك الهُويَّة. ومهما أَسَّستَ عليه حياتك، فلا بُدَّ أن ترتقيَ بحياتك إلى مستوى ذلك الأمر. إنَّ يسوعَ هو الربُّ الوحيد الذي يمكنك أن تعيشَ لأجله بعدما مات من أجلك، لافظًا نَفَسَهُ الأخير في سبيلك. فهل يبدو هذا ثقيلَ الوطأة؟

ربَّما تقول: "أرى أنَّ المسيحيَّة قد تكون مُناسِبةً للأشخاص الذين شهدَتْ حياتُهم تصدُّعاتٍ أو انهيارات. ولكنْ ماذا لو لم أُخفِقْ في مهنتي، وماذا لو كانتْ لديَّ عائلةٌ عظيمة؟" كما قال أغسطينوس: إنْ كان هنالك إلهٌ قد خلقَك، فإنَّ أعمق أغوار نفسك عندئذٍ لا يمكن أن يَملأَها أيُّ شيءٍ أقلَّ من ذلك الإله. بهذا المقدارِ النَّفسُ البشريَّة عظيمة. وإذا كان يسوع هو الربَّ الخالق، فلا شيءَ على الإطلاق يُمكِن أن يُشبِعَك مثلما يستطيع هو، ولو كنتَ ناجحًا. حتَّى أنجحُ المِهَن والأُسَر لا يمكنُ أن تؤتيَك ما يستطيع أن يؤتيَك إيَّاه ربُّ المجد والمحبَّة مِن شأنٍ وأمانٍ وعزاءٍ ويقين.

لا بدَّ لكلِّ إنسانٍ من أن يعيش لشيءٍ ما. ومهما كان ذلك الشيء، فإنَّه يصير "ربَّ حياتك"، سواءٌ فكَّرتَ فيه هكذا أم لم تُفكِّر. ويسوع المسيح هو الربُّ الوحيد الذي إذا قَبِلتَهُ يُشبِعُكَ إلى التَّمام، وإنْ خذلتَهُ يبقى غافِرًا لك إلى الأبد.



11

الدِّينُ والإنجيل

لحظة داخلتني فكرةُ الزَّهوِ تلك، لحظتئذٍ تمامًا أطبق عليَّ إحساسٌ مفاجئٌ بالمرض، غثيانٌ كريه وقشعريرةٌ مروِّعةٌ أقصى التَّرويع... ثُمَّ أطرقتُ رأسي، فإذا أنا إدوارد هايْد مرَّةً أخرى.

روبرت لويس ستيفنسون (Robert Louis Stevenson)

بَلوى الدُّكتور جَكِل ومِستر هايْد

(The Strange Case of Dr. Jekyll and Mr. Hyde)

تُعلِّمُ المسيحيَّة أنَّ مشكلتَنا الأساسيَّةَ هي الخطيَّة. فما الحلُّ إذًا؟ حتَّى لو قَبِلْتَ التَّشخيصَ المسيحيَّ للمشكلة، لا يبدو أنَّ هنالك أيَّ سببٍ مَخْصوص يُفسِّر لماذا يجب أن ينظرَ المرءُ إلى المسيحيَّة وحدَها طلبًا للحلِّ. ربَّما تقول: "حسنًا، لقد فهمتُ أنَّك إذا بنَيتَ هُويَّتك على أيِّ شيءٍ سوى الله، فذلك يؤدِّي إلى الانهيار. فلماذا يجب أن يكون الحلُّ هو يسوعَ والمسيحيَّة؟ لماذا لا يمكن أن يُفيدَ دينٌ من الأديان الأخرى أيضًا، أو مجرَّدُ إيماني الشخصيِّ بالله؟"

إنَّ الجواب عن ذلك هو أنَّ هنالك فرقًا عميقًا وأساسيًّا بين الطريقة التي تقول لنا الأديانُ الأخرى أن نلتمسَ الخلاصَ بواسطتها والطريقةِ الموصوفة في إنجيل يسوع المسيح. فجميع الأديان الرئيسيَّة الأخرى لها مؤسِّسون هم مُعلِّمون يُبيِّنون الطريقَ إلى الخلاص. إنَّما المسيحُ وحده صرَّحَ أنَّه بالحقيقة هو نفسُه طريقُ الخلاص. وهذا الفرقُ كبيرٌ جدًّا، فرُغم كَونه أمرًا ممكنًا أن تُدعى المسيحيَّةُ دينًا بالمعنى الأوسع، فلأجل أغراض البحث سنَستعمل اللفظةَ "دينٌ" في هذا الفصل للإشارة إلى "الخلاص بواسطة المجهود الأخلاقيّ"، واللفظة "إنجيل" للإشارة إلى "الخلاص بالنعمة".[١]

شَكْلا التَّمَركُز على الذات (الأنانيَّة)

في رواية روبرت لويس ستيفنسون "بلوى الدُّكتور جَكِل ومِستر هايْد"، يتأتَّى للدُّكتور جَكِل أن يُدرِكَ أنَّه "مُركَّبٌ مُتنافرٌ من الخير والشَّرّ". وهو يعتقدُ أنَّ طبيعتَه السيِّئة تُلجِمُ طبيعتَهُ الطيِّبة. ففي وُسعه أن يتوقَ إلى القيام بأمور حسنة، ولكنَّه لا يستطيعُ أن يمضيَ قُدُمًا في إتمامها. ومن ثَمَّ يبتكر دواءً يستطيع أن يفصلَ طبيعتَيه إحداهما عن الأخرى. وهو يأمُل أنَّ ذاتَه الخيِّرة التي تبرز في أثناء النهار ستَتحرَّر من تأثير الشرّ وتتمكَّن من تحقيق أهدافها. غير أنَّه حين يَجرَعُ الدَّواء ذاتَ ليلةٍ وتطلعُ ذاتُه السيِّئة، يكون أكثرَ شرًّا ممَّا توقَّعَ بكثير. وهو يصف ذاته الشرِّيرة مستخدمًا مفاهيمَ مسيحيَّة:

> لقد عرفْتُ نفسي، لدى أوَّلِ نَفَسٍ من هذه الحياة الجديدة، بأنّي أكثرُ شرًّا، عشرةَ أضعافِ أكثرَ شرًّا، فَبيعٌ عبدًا لشَرّي الأصليّ. وهذه الفِكرة في تلك اللحظة أنعشَتني وأبهجَتني مثلَ الخمرة... إنَّ كلَّ فعلٍ وفكرةٍ لدى إدوارد هايْد تركُّزا على الذات.

وقد سمَّى ستيڤنسون إدوارد هايْد باسمه هذا ليس لأنَّه شنيعٌ وبَغيضٌ فَحسبْ، بل لأنَّه مُتَخفٍّ أيضًا*. فهو يفكِّر فقط في رغباته الخاصَّة، ولا يهمُّه في شيءٍ مَن يؤذي في سبيل إرضاء ذاته. وهو يَقتل مَن يَقِفُ في طريقه. فإنَّ ستيڤنسون يقول إنَّه حتَّى أفضلُ الناس يُخفون عن أنفُسِهم ما في دواخلهم- ويا لها من قُدرةٍ هائلةٍ على الاعتداد بالنَّفس والاستغراق في الذات والاهتمام بمصالحك الشخصيَّة قبل مصالح الآخرين جميعًا! ويكمُن تعظيمُ الذات في أساسِ قسطٍ كبير من بُؤس العالَم. فهو السببُ الذي من أجله لا يُبالي الأقوياء والأغنياء ببَلوى الفقراء. وهو سببُ مُعظم ما في العالَم من عنفٍ وإجرامٍ وحروب. وهو في لُبِّ أغلبِ حالاتِ تَصدُّع العائلات. ونحن نُخفي عن أنفسنا قدرتَنا الأنانيَّة على أفعال الشرّ، ولكنْ تَنشأ أوضاعٌ تؤدِّي دورَ "الدَّواء"، فإذا بتلك الشُّرور تَفور.

ومرَّةً أدركَ جَكل أنَّ لديه هذه القدرة على إتيان الأفعال الشرِّيرة، فقرَّر أن يَقسُوَ بشدَّةٍ بالغة على هاتَين الأنانيَّة والكبرياء الكامنتَين في صُلب كِيانه. وبمعنًى ما، "استَيقظَ فيه حِسٌّ دينيّ". وهكذا عَقَدَ عزمَه بجِدِّيَّة على ألّا يَجترِعَ "الدَّواء" بَعدُ. ثُمَّ كرَّس نفسَه للإحسان والأعمال الصالحة، جُزئيًّا كتكفيرٍ عمَّا قد فعلَه إدوارد هايْد، وجزئيًّا كمَجهودٍ لكبحِ طبيعته الأنانيَّة بأفعالٍ غَيريَّة مُجرَّدة.

ولكنْ ذاتَ يوم يُرى الدكتور جَكِل جالسًا على مقعدٍ في مُتنزَّه ريجَنتس (Regents Park)، مفكِّرًا في كلِّ الخير الذي ما توقَّفَ عن أن يفعلَه،

---

* في الإنكليزيَّة مجانسةٌ بين الاسم والمعنَيَين المذكورَين. فالكلمة "Hyde" هي من الفعل "Hide" وتعني يختفي، أمَّا الكلمة "Hideous" فتعني شنيع وبَغيض (الناشر).

وكم صار- على الرُّغمِ من إدوارد هايْد- إنسانًا أفضلَ من أغلبيَّة الناس.

> صممْتُ أن أفتدي سُلوكي الماضي بسلوكي المُستقبليّ. وفي وُسعي أن أقول بِصِدقٍ إنّ تصميمي أثْمرَ شيئًا من الخير. إنّك تعلمُ كم كافَحْتُ باجتهادٍ، في الأشهُر الأخيرة من السنة الفائتة، لِتخفيف مُعاناة الناس؛ تَعلَم مقدارَ ما فعلتُهُ لأجل الآخرين... ثُمّ ابتسمتُ، مُقارنًا نفسي بِغَيري من الناس، مقارنًا حماستي الناشطة بقساوةِ إهمالهم الكَسلَى... ولكنْ لحظةَ داخَلَتْني فكرةُ الزَّهوِ تلك، لحظتئذٍ تمامًا أطبقَ عليَّ إحساسٌ مُفاجئٌ بالمرض: غَثيانٌ كَريه وقُشَعريرةٌ مُروِّعة أقصى التَّرويع... ثُمّ أطرقتُ رأسي، فإذا بي إدوارد هايْد مرّةً أخرى.

وهذا تحوّلٌ في الأحداثِ مُهلِك. فإنَّها المرَّة الأولَى التي يصيرُ فيها جَكِل مِستر هايد لاإراديًّا، من دونِ الدَّواء، وهذه بدايةُ النِّهاية. وإذ يَعجزُ جَكِل عن السَّيطرة على تحوُّلاته بَعدُ، ينتحرُ! وفي اعتقادي أنَّ تبصُّرَ ستيڤنسون هنا عميقٌ. فلماذا من شأن جَكِل أن يصيرَ هايْد من غير الدَّواء؟ إنَّ جَكِل، شأنُه شأنُ كثيرين جدًّا، يعرفُ أنَّه خاطئ، ولذلك يحاولُ يائسًا أن يُغطِّيَ خطيَّتَهُ بأكداسٍ كبيرة من الأعمال الصالحة. ومع ذلك فإنَّ مجهوداتِه لا تُضعِفُ بالفعل كبرياءَه وأنانيَّته، بل تُفاقِمهُما فحسْب. إنَّها تؤدِّي به إلى الاستعلاء والبرِّ الذاتِيِّ والكبرياء، وفجأةً ها هو جَكِل يصير هايْد، ليس على الرُّغم من صلاحه، بل بسبب صلاحه!

إنَّ الخطيَّة والشَّرَّ هُما أنانيَّةٌ وكبرياء تؤدِّيان إلى الطُّغيان تجاه الآخرين، ولكنْ يوجد شكلان من ذلك: أحدُهما أن يكونَ المرءُ رديئًا جدًّا وينتهك جميع القواعد، والآخر أو يكونَ جيِّدًا جدًّا ومُراعيًا لجميع الأصول فيغدو بارًّا

في عين نفسه. فهنالك طريقتان بهما تكونُ أنت مُخلِّصَ نفسِك وربَّها. الأولى بأنْ تقول: "سأعيشُ حياتي بالطريقة التي أريدها أنا". أمَّا الثانية فتَصِفُها فلانري أوكونُر (Flannery O'connor)، إذ كتبَتْ عن أحَدِ أشخاصِها: "لقد عرفَ أنَّ أفضل طريقةٍ لتجنُّب المسيح هي تجنُّب الخطيَّة".[٢] فإنْ كنتَ مُتجنِّبًا الخطيَّة وعائشًا حياةَ فضيلةٍ بحيثُ يُضطَرُّ الله لأن يُبارِكَك ويُخلِّصَك، فمن دواعي السُّخرية أنَّك قد تكونُ ناظرًا إلى السيِّد المسيح بصفته مُعلِّمًا وقُدوةً ومُعينًا، غير أنَّك تتجنَّبه بصفته المخلِّص. إنَّك تعتمدُ على صلاحك الشخصيِّ بدلًا من التَّوكُّل على السيِّد المسيح في سبيل حيازةِ مَقامٍ لدى الله. وهكذا تكونُ محاوِلًا أن تُخلِّصَ نفسَك بنفسك من طريق اتِّباعِ المسيح.

غير أنَّ ذلك- ويا للسُّخرية!- هو رفضٌ لإنجيل يسوع المسيح. إنَّه شكلٌ من التديُّن أضفيَت عليه صِبغةٌ مسيحيَّة. فمن المُمكِن أن يتجنَّب المرءُ السيِّدَ المسيحَ بحفظ وصايا الكتاب المقدَّس كما بمخالفتها. ذلك أنَّ كِلا التديُّن (حيثُ تَبني هُويَّتك على إنجازاتك الأخلاقيَّة) واللَّاتَديُّن (حيث تَبني هويَّتك على غايةٍ أو علاقةٍ لادينيَّتَين أخريَين) هُما في نهاية المطاف سبيلان مُتطابِقان روحيًّا تَسلُكُهما. فكِلاهما "خطيَّة". إذ إنَّ الخلاص الذاتيَّ من طريق الأعمال الحسنة قد يُنتِج في حياتك مقدارًا كبيرًا من السلوك الأخلاقيّ، ولكنَّك تكون في الدَّاخل مملوءًا بالبرِّ الذاتيِّ والقساوة والتعصُّب، كما تكون في حالةٍ يُرثَى لها. فأنت دائمًا تُقارِن نفسك بالآخرين، ولستَ البتَّةَ على يقينٍ بأنَّك ذو صلاحٍ كافٍ. ومن ثَمَّ لا تستطيعُ أن تتصدَّى لشناعَتك واستغراقك في ذاتك من طريق القانون الأخلاقيّ، بمحاولتك أن تكون شخصًا صالحًا بفعلٍ من إرادتك. فأنت تحتاجُ إلى تغييرٍ كاملٍ في دوافع قلبك بعَينها.

إنَّ إبليس، إذا فصَّل شيئًا، يُفصِّل الفَرِّيسيِّين- الأشخاص الذين يحاولون أن يُخلِّصوا أنفُسَهم بأنفُسِهم، ذكورًا وإناثًا. وهُم أكثرُ بؤسًا وتَعسًا من المسيحيِّين الناضجين ومن الأشخاص غير المتديِّنين على حدٍّ سَواء، كما أنَّهم يُحدِثون ضررًا روحيًّا أكثرَ بكثير.

ضَرَرُ الفَرِّيسيَّة

لماذا الدِّيانة الفرِّيسيَّة ضارَّة جدًّا؟ عُد بذاكرتك إلى "المَرَض حتَّى الموت"، ذاك الغَثيان الروحيّ الشَّديد الذي نُعانيه حين نُخفِق في بناء هُويَّتنا على الله. فنحن نُجاهِد في سبيل شعورٍ بالاعتبار والغاية والتَّميُّز، غير أنَّه مؤسَّسٌ على شروط لا يُمكِننا أبدًا أن نُحرِزها أو نَحوزَها، وهي تُفلِتُ منَّا باستمرار. وكما يقول كيركغارد، فإنَّنا لم نَصِر ذواتنا. وهذا نختبره داخليًّا بصورة اضطرابٍ وقَلَقٍ وغضب. وهو يؤدِّي بنا خارجيًّا إلى تَهميش الآخرين وظُلمِهم ونَبذِهم.

وهكذا، فإنَّ الفَرِّيسيِّين، على الرُّغم من كلِّ بِرِّهم الناموسيّ، يعيشون حياةً إذا دَفَعَها شيءٌ فإنَّما يدفعُها يأسُ الخطيَّة أكثر من سواه. فَهُم يَبنون إحساسَهم بالاعتبار على أدائهم الخُلُقيّ والرُّوحيّ، وكأنَّه خُلاصةٌ من نوعٍ ما يعرضونَها أمام الله والعالَم. وفي الواقع أنَّ المعايير الخُلُقيَّة والروحيَّة في جميع الأديان عاليةٌ جدًّا، والفَرِّيسيُّون يعلَمون في أعمق أعماقهم أنَّهم لا يرتَقون بحياتهم إلى مُستوى تلك المعايير. فهم لا يُصَلُّون أوقاتًا كثيرةً كما ينبغي لهم. وهم لا يُحبُّون "قريبَهم" ويخدمونه بمقدار ما ينبغي لهم. ولا يُبقون أفكارهم الباطنيَّة نقيَّةً كما ينبغي. ومن ثَمَّ، فإنَّ ما يُسفِرُ عنه ذلك من قَلَقٍ وتَقَلقُل ونَزَقٍ في دواخلهم سيَكون في أغلب الأحيان أشدَّ بكثير من أيِّ شيءٍ يختبره اللاَّمُتديِّنون.

هذا، ويُحسِنُ ريتشارد لَڤْلايْس (Richard Lovelace) وصْفَ طريقةٍ أخرى بها تكونُ الدِّيانةُ الفَرِّيسيَّة بالغةَ الضَّرَر:

يستمدُّ كثيرون يقينَ قبولِهم أمامَ الله من إخلاصهم، أو اختبارهم الماضي للاهتداء، أو أدائهم الدِّينيّ الحاليّ، أو عدم التَّكرار النسبيّ لعصيانهم المُتعمَّد المُدرَك... وإذا بعدم أمانِهم يتبدّى بشكلِ كبرياء، وتوكيدٍ دفاعيٍّ شَرِس لبرِّهم الذاتيّ، وانتقادٍ دفاعيٍّ للآخرين. وهم يصيرون على نحوٍ طبيعيٍّ كارهين للأنماط الحضاريّة أو الثقافيّة الأخرى، وللأجناس الأخرى، في سبيل تعزيز أمانهم الذاتيّ وتصريفِ غضبهم المكظوم.[٣]

فكما يقولُ لَڤْلايْس، لا يقتصرُ ضررُ الدِّيانة الفَرِّيسيَّة على الإضرار بالنَّفس الداخليَّة، بل هي أيضًا تُنشئ نزاعًا اجتماعيًّا. فالفَرِّيسيُّون مُضطرُّون إلى تدعيم شعورهم بالبرِّ الذاتِيّ، وهكذا يَحتقِرون جميعَ الذين لا يُشارِكونَهم في مُعتقداتِهم الإيمانيَّة ومُمارساتِهم الدينيَّة ويُهاجِمونهم. ثُمَّ يأتي الحقدُ العُنصريُّ والاستعمار الثقافيُّ نتيجةً لذلك. والكنائسُ التي تغصُّ بأشخاصٍ أبرارٍ في نظر ذواتهم، نابذين للغير، مُتقلقِلين، ساخِطين، مُتزمِّتين، تُعوزها الجاذبيَّةُ إلى أقصى الحدود. وكثيرًا ما تتَّصفُ البياناتُ العلنيَّة من قِبَل جماعاتٍ كهذه بالأحكام الاستِعلائيَّة، فيما يُعاني أفرادُها كثيرًا من النِّزاعات المُرَّة والانقسامات والانشقاقات الحادَّة. وعندما يَقَعُ واحدٌ من قادَتِها في زَلَّةٍ أخلاقيَّة، تَعمِد إمَّا إلى تسويغها منطقيًّا والتنديد بمُنتقِديه وإمَّا إلى التَّضحية به. فملايينُ من أولئك الذين تَربَّوا في كنائس كهذه، أو على مَقرُبةٍ منها، يَرفضون المسيحيَّة في سنٍّ باكرة، أو في المرحلة الجامعيَّة، بسببِ اختبارهم إلى حدٍّ بعيد. ثُمَّ يَقضون ما بقي من حياتهم

وهُم "مُلقَّحون" ضدَّ المسيحيَّة. فإنْ كنتَ شخصًا طوَّحَتْ به جماعاتٌ كهذه، فكُلَّما اقترحَ عليك أحدُ المسيحيَّةَ طريقًا، تفترضُ أنَّه يدعوك إلى اعتناق "التديُّن". حقًّا إنَّ فرِّيسيِّي زمانِنا، بحياتهم غير الجذَّابة، يُوقِعون أناسًا كثيرين في البَلبَلة بشأن طبيعة الإيمان المسيحيِّ الحقيقيَّة.

اختلافُ النِّعمة

إذًا، هنالك هوَّةٌ شاسعةٌ بين المفهوم القائل إنَّ الله يقبَلُنا بفضل مجهوداتنا، والمفهوم القائل إنَّ الله يقبَلُنا بفضل ما قد فعله السيِّد المسيح. فإنَّ الدِّين يعملُ على أساس هذا المبدأ: "أنا أطيع، ولذلك فأنا مقبولٌ عند الله". ولكنَّ المبدأ العامل في الإنجيل هو: "أنا مقبولٌ عند الله بفضل ما قد فعله السيِّد المسيح، ولذلك فأنا أطيع". وقد يجلسُ شخصان يعيشان حياتَيهما على أساس هذين المبدأين المُختلفَين، أحدهُما قربَ الآخر، على مقعدٍ واحدٍ في الكنيسة. فكِلاهما يُصلِّيان، ويُقدِّمان مالًا بسخاء، وهما وَفيَّان لأسرتَيهما وكنيستِهما، ويحاولان أن يعيشا حياةً مستقيمة. غير أنَّهما يفعلان ذلك بدافع من حافزَين مختلفَين جَذريًّا، بهُويَّتَين روحيَّتَين مختلفتَين جَذريًّا، والنتيجةُ نوعان من الحياة مختلفان جَذريًّا.

إنَّ الفارقَ الجوهريَّ هو الاختلافُ في الحافز. ففي الدِّين، نحاول أن نُطيع المعايير الإلهيَّة بدافع الخوف. إذ نعتقدُ أنَّنا إذا لم نُطِع نَخسرُ بركات الله حتمًا في هذا العالَم وفي العالَم الآتي. أمَّا في الإنجيل، فالدَّافعُ دافعُ عرفانٍ بالجميل حيالَ البركات التي قد نِلناها فعلًا بفضل السيِّد المسيح. وبينما يُرغَم المُتزمِّتُ على الطاعة إذ يحفزه الخوفُ من الرَّفض، يندفع المسيحيُّ الحقيقيُّ إلى الطاعة إذ يحفزه تَوقٌ لأنْ يُسرَّ ويُمثِّل ذاك الذي بذل حياته لأجلنا.

وهنالك فارِقٌ آخَر يتعلَّق بهُوِيَّتنا واحترامِنا لذواتِنا. ففي إطارٍ دينيّ، إذا شعرتَ بأنَّك ترتقي بحياتك إلى مستوى المعايير الدينيَّة التي اخترتَها، فعندئذٍ تشعر بالتفوُّق والازدراء تُجاه أولئك الذين لا يسلكون الطريق القويم. وهذا صحيحٌ سواءٌ أَدِينُك كان من النَّوع الأكثر تحرُّرًا (وفي هذه الحالة ستَشعر بالتفوُّق على المتعصِّبين وضيِّقي أفق التفكير) أم من النَّوع الأكثر مُحافَظةً (وفي هذه الحالة ستَشعر بالتفوُّق على الأقلِّ خُلُقيَّةً وتَقوى). وإنْ لم تَكنْ مُرتَقيًا بحياتك إلى مُستوى معاييرك المختارة، فعندئذٍ سيَغْمرك اشمِئزاز تُجاهَ نفسك. ولَسوفَ يُداخِلُكَ شعورٌ بالذَّنب أكبرُ بكثيرٍ من ذاك الذي يُخالِجُك لو بَقِيتَ بعيدًا من الله والدِّين كلِّيًا.

لمَّا كان استيعابي الشخصيُّ للإنجيل ضعيفًا جدًّا، ترجَّحَتْ نظرتي إلى ذاتي ترجُّحًا شديدًا بين قُطبَين. فحينَ كُنتُ أحسِن الأداءَ مُرتقيًا إلى مستوى معاييري- سواءٌ أفي العمل الأكاديميّ أم في الإنجاز المِهنيّ أم في العلاقات- شعرتُ بأنِّي واثقٌ لكنْ غيرُ مُتواضِع. وكنتُ أمْيَلَ لأنْ أكونَ متكبِّرًا وغيرَ عَطوفٍ على المُخفقين. وحينَ لم أكُن أرتقي بحياتي إلى مُستوى معاييري، شعرتُ بأنِّي مُتواضِع لكنْ غيرُ واثق، شعرتُ بأنِّي فاشل. غير أنِّي اكتشفتُ أنَّ الإنجيل يحتوي على الموارد اللازمة لبناء هُويَّة فريدة. ففي السيِّد المسيح، تَسنَّى لي أن أعرفَ أنِّي مقبولٌ بالنِّعمة لا رُغمَ نقائصي فقط، بل لأنِّي كنتُ مستعدًّا للاعتراف بها. ذلك أنَّ فحوى الإنجيل هي أنِّي ناقصٌ جدًّا بحيثُ وجبَ أن يموت السيِّد المسيح من أجلي، غير أنِّي محبوبٌ وعزيزٌ جدًّا بحيثُ سُرَّ السيِّد المسيح أن يموت من أجلي. وهذا يؤدِّي إلى الاتِّضاع العميق والثِّقة البالغة في الوقتِ عَينه، إذ يُقوِّض التَّباهي والتَّباكي كِلَيهما. فلا يمكن أن أشعرَ بأنِّي متفوِّقٌ على أيِّ شخص، ومع

ذلك لستُ مُضطرًّا لأنْ أبرهِنَ أيَّ شيء لأيِّ شخص. ولستُ أزيدُ ولا أنقص اعتباري لنفسي، بل بالأحرى أقلِّلُ التَّفكير في نفسي. فلا حاجةَ بي لأنْ أراقِب نفسي- كيف هو أدائي وكيف يراني الآخرون- أكثرَ ممَّا ينبغي.

ثُمَّ إنَّ الدِّين والإنجيل يختلفان أيضًا اختلافًا جوهريًّا في كيفيَّة معاملتهما للآخرين- لأولئك الذين لا يشاركون المرءَ في معتقداته وممارساته الخاصَّة. فأحدثُ المفكِّرين العصريِّين يفهمونَ أنَّ الذات تتكوَّنُ وتتقوَّى من خلال نَبْذِ الآخر. أولئكِ الذين ليست لهمُ القِيَمُ التي أرسي عليها أهمِّيَّتي. ذلك أنَّنا نُعرِّف أنفُسنا بالاشارة إلى أولئك الذين لسنا إيَّاهم. ونُعزِّز شعورَنا بالأهمِّيَّة بإنقاص قيمةِ ذوي الأجناس والمعتقدات والمواصفات الأخرى.[٤] إنَّما هُويَّةُ الإنجيل المَعنيَّة تعطينا أساسًا جديدًا لترتيباتٍ اجتماعيَّة مُتجانسة ومُنصِفة. فإنَّ اعتبار المسيحيِّ وقيمتَه لا يتكوَّنان من خلال نبْذِ أيِّ إنسان، بل على يد الربِّ الذي لقيَ النَّبذَ من أجلي. ونعمةُ الربِّ تجعلُني أتَّضع على نحو أعمقَ ممَّا يمكن أن يُنتِجَه الدِّين (ما دمتُ أكثرَ نقصًا من أن يتسنَّى لي مُطْلَقًا أن أخلِّص نفسي بمجهودي الشخصيِّ)، غير أنَّها في الوقت عَينه تؤتيني أيضًا يقينًا أقوى ممَّا يمكن أن يؤتِيَهُ الدِّين (لمَّا كان في وُسعي أن أكونَ مُتيقِّنًا تمامًا بقبول الله غير المشروط لي).

وذلك يعني أنِّي لا أستطيعُ أن أزدريَ الذين لا يؤمنون كما أومِنُ أنا. فما دمتُ لستُ مُخلِّصًا بعقيدتي القويمة أو ممارستي السليمة، فهذا الشخصُ الذي أمامي- ذكرًا كان أم أنثى- رُغمَ معتقداته الخاطئة، قد يكون من الناحية الأخلاقيَّة مُتفوِّقًا عليَّ من عدَّة وجوه. ويعني ذلك أيضًا أنِّي لستُ مُضطرًّا لأن أرتاعَ من أحد. فأنا لستُ مُتقلقِلًا بحيثُ أخشى سَطوة الأشخاص المختلفين عنِّي أو نجاحَهم أو قُدراتِهم. فإنَّ الإنجيل يُتيحُ للمرء

أن ينجوَ من فَرْط الحسَّاسيَّة، ومن وقوف موقفٍ دفاعيّ، ومن الاضطرار إلى انتقاد الآخرين. ذلك أنَّ هُويَّة المسيحيّ الحقيقيّ ليستْ مؤسَّسةً على الحاجة لأنْ يُرى شخصًا صالحًا، بل على تقييم الله له في السيِّد المسيح.

كذلك يؤدِّي الدِّين والإنجيلُ أيضًا إلى طريقتَين متباعِدتَين في مواجهة البلايا والألم. فالدِّين المُتزمِّت يؤدِّي بأهله إلى الاقتناع بأنَّهم إذا عاشوا حياةً مُستقيمة يَضعون الله (والآخرين) في موقعٍ يَفرضُ تأديةَ الاحترام والإكرام لهم. إذ يَعتقدون أنَّهم يستحقُّون حياةً سعيدةً كريمة. ولكنْ إذا بدأتْ أحوالُ الحياة تَسوء، فإنَّ المُتزمِّتين سيَختبرون سَخَطًا مُوهِنًا. فإمَّا يَستَشيطون على الله (أو "الكَون") لأنَّهم يشعرون بأنَّه ينبغي أن يتمتَّعوا بحياةٍ فُضلى ما داموا يعيشون أفضلَ من سِواهم، وإمَّا يكونون ساخطين بشدَّةٍ على أنفسهم، إذ إنَّهم لا يقدرون أن يُبدِّدوا شعورَهم بأنَّهم لم يعيشوا كما ينبغي أو لم يَرتَقُوا إلى مُستوى معاييرهم. غير أنَّ الإنجيل يُتيح للمرء أن يُفلتَ من دوَّامة المرارة، والردِّ باتِّهام الذات، واليأس، حين تَسوءُ أحوال الحياة. إنَّهم يعلَمون أنَّ مُقدِّمة الدِّين المنطقيَّة الأساسيَّة (أنَّك إذا عشتَ حياةً صالحةً تسيرُ أمورُك على خيرِ ما يُرام) هي خاطئة. فقد كان السيِّد المسيح مُستقيمًا أدبيًّا أكثر من أيِّ شخصٍ عاش على الإطلاق، ورُغمَ ذلك كانت له حياةٌ حافلةٌ بمُعاناة الفَقْر والرَّفض والظُّلم، بلِ العذابِ أيضًا.

تهديدُ النِّعمة

عندما يسمع كثيرون للمرَّة الأولى بالتمييز بين الدِّين والإنجيل، يظنُّون أنَّ الأمر يبدو بالفعل سهلًا جدًّا. وقد يقولون: "صفقة موفَّقة! إنْ كانت تلك هي المسيحيَّة، فكلُّ ما ينبغي لي أن أفعلَه هو أن أحصلَ على علاقةٍ

شخصيَّة بالله، ومن ثَمَّ أفعلُ ما يحلو لي!" ولكنَّ هذا الكلامَ لا يمكن أن يُقال إلَّا خارجَ اختبارِ للنِّعمة الجذريَّة. فلا أحدَ من الدَّاخل يتكلَّم هكذا. ذلك أنَّ النِّعمة، في الحقيقة، يمكن أن تكونَ محفوفةً بالخطر فعلًا.

قابلتُ منذ بضع سنين امرأةً بدأتْ تحضرُ خِدْماتِ "كنيسة الفادي". وقد قالتْ إنَّها تواظبُ على حضور الكنيسة منذُ حداثتها، غير أنَّها لم تسمَعْ قطُّ من قبل تمييزًا بين الإنجيل والدِّين. فما سمعَتْه دائمًا كان أنَّ الله يَقْبلُنا فقط إذا كُنَّا صالحين كفايةً. وقالت إنَّ الرسالةَ الجديدة كانت مُروِّعة. فسألتُها لماذا هي مُروِّعة، فأجابتْ:

> لو كنتُ أُخلَص بواسطة أعمالي الصالحة، لكانَ لما يمكنُ أن يطلبه الله منّي، أو يُكلّفني إيّاه، حدودٌ جَليّة. فإنّي أكونُ إذ ذاك مثل دافع ضرائب له "حقوق"- حيثُ أقوم بواجبي، ومن ثمّ أستحقُّ حياةً ذات نوعيّة مُعينّة. ولكنْ إذا كنتُ خاطئة مُخلّصة بالنعمة المَحْض، فلا يكونُ هنالك شيءٌ لا يمكن أن يطلبَه الله منّي.

لقد فهمَتْ ديناميَّةَ النِّعمة والعِرفان بالجميل. فإن كُنتَ عندما فقدتَ كلَّ خَوفٍ من العِقاب فقدتَ أيضًا كلَّ حافزٍ لأنْ تعيشَ حياةً صالحةً غيرَ أنانيَّة، يكونُ الحافزِ الوحيد الذي حَمَلَك أصلًا على أن تعيشَ حياةً فاضلةً هو الخوف. وقد تسنَّى لهذه المرأة أن تدركَ في الحال أنَّ لتعليم الخلاص بالنِّعمة المَحْض- ذاك التعليم الذي هو أروعُ من أن يُصدَّق- حدًّا قاطعًا. فقد عَلمتْ أنَّها إذا كانت خاطئةً مُخلَّصةً بالنِّعمة، فلا بُدَّ (إنْ كان من بُدٍّ) أن تكونَ أكثرَ خُضوعًا لِرُبوبيَّة الله المُطلقَة السِّيادة. عَلِمَتْ أنَّه إنْ كان يسوعُ قد فعلَ لأجلها كلَّ ما فعلَه، فهي لَن تكون مُلكًا لذاتِها. إذ من شأنها أن

تكونَ مُنتميةً للسيِّد المسيح بفرحٍ وعرفانٍ بالجميل، ما دام قد وفَّر لها كلَّ ما وفَّره بكلفةٍ لامحدودةٍ دفعَها بنفسه.

قد يبدو ذلك من الخارج إكراهيًّا، مثلَ واجبٍ ضاغطٍ مُضنٍ. أمَّا من الداخل فالحافزُ هو الفرح الكُلِّيّ. فكِّرْ في ما يحدثُ إذا وقعتَ في الحُبّ. فإنَّ حُبَّك يجعلُكَ توَّاقًا لأن تُقبَلَ من المحبوبة. وإذا سألْتَ: "هل تُريدين أن نقومَ بنُزهة؟" بل أيضًا: "هل تتزوَّجينَني؟" فماذا يحدثُ حين يكون الجواب "نعم!"؟ هل تقول: "عظيم! لقد نلتُ مُرادي! والآن يمكنني أن أتصرَّف كما يحلو لي"؟ طبعًا لا. بل إنَّك آنذاك لا تنتظرُ حتَّى تطلبَ منك الفتاةُ التي تُحِبُّها طلبًا مباشرًا أن تؤدِّيَ لها عملًا ما. فأنتَ تَستبَق أيَّ أمرٍ يَسرُّها ويُبهِجها. ليس ثَمَّة أيُّ إكراه، أو شعورٌ بالواجب، ومع ذلك فإنَّ سلوكَك قد تغيَّرَ تغيُّرًا جذريًّا بفضل فِكرِ مَن تُحِبُّ وبفَضلِ قلبِها.

وما من أحدٍ عبَّر عن هذا بطريقةٍ أجلى ممَّا فعل ڤيكتور هوغو (Victor Hugo) في رواية "البؤساء" (Les Misérables). فإنَّ بطل الرواية، جان ڤالجان (Jean Valjean)، هو محكومٌ سابق مُتهوِّر. وقد سرقَ أوانيَ فضِّيَّةً من مِطرانٍ كان قد أبدى له إحسانًا. ثُمَّ قَبَضَ عليه رجالُ الشُّرطة، وعادوا به مخفورًا إلى بيت المِطران. وفي عملِ نِعمةٍ جذريّ، أعطى المِطرانُ ڤالجانَ الفضِّيَّات، وطلَبَ إطلاقَ سراحه. فأثَّر فعلُ الرحمة هذا في ڤالجان حتَّى الصميم. وفي الفصل الذي تَلَى، يكشفُ هوغو كم كانت هذه النِّعمة محفوفةً بالخطر:

> لقد قابل هذا الإحسان السماويَّ [من قِبَل المِطران] بالكبرياء، وهي قلعةُ الشرِّ في داخلنا. وقد أدركَ على نحوٍ غامضٍ أنّ صفْح هذا الحبْر كان أعظمَ هجومٍ وأخطرَ انقضاضٍ تعرّض لهما حتّى

ذلك الحين، وأنّ تحجُّر قلبه سيُسوّى إنْ هو قاوم هذه الرأفة، وأنّه إذا استَسْلمَ يكون مُجبَرًا على نَبْذِ الحقد الذي كانت أفعالُ الآخرين قد ملأتْ نفسَهُ به لِسنينَ طويلة، وهو أمرٌ كان يَسرُّه؛ وأنّه من الضّروريّ هذه المرّة أن يَظفرَ أو يَقهرَ؛ وأنّ صراعًا - صراعًا هائلًا ونهائيًّا - قدِ انطلق بين خُبثه وطيبةِ ذلك الرّجُل.[٥]

وقد اختارَ ڤالجان أن يَدَعَ النِّعمة تسلكُ سبيلها في حياته. إذ تخلَّى عن عميق رثائه لِذَاته ومرارته، وبدأ يعيش حياةَ مودَّةٍ وسماحة تُجاه الآخرين. لقد تغيَّر في أعماقِ كيانه.

أمّا الشخص الرئيسيُّ الآخر فهو ضابطُ الشُّرطة جاڤير (Javert) الذي كان قد بَنى حياتَه كلَّها على مفهومه للمكافآت والعقوبات. وهو يُطارِد ڤالجان مدى أحداث الكتاب، بِلا هوادة وببرٍّ ذاتيٍّ جليّ، رُغم كَون ذلك يُنغِّصُ حياتَه شخصيًّا. أخيرًا، يَقَعُ جاڤير في يَدَيْ ڤالجان. وبدل أن يَقتُلَ ڤالجان عدوَّه، فإنَّه يُطلِقُه. فإذا بِفِعل النِّعمة الجذريَّة هذا يُقلِقُ جاڤير في الصَّميم. إذ يُدركُ أنَّه لكي يَتَجاوَبَ على نحوٍ مُناسب مع هذه البادرة يُعوِزُه أن يُغيِّرَ رؤيتَهُ إلى العالَم تغييرًا كاملًا. ولكنْ بدلًا من إجراء هذا التغيير، يُلْقي نَفْسَه في نهرِ السِّين (The Seine).

قد تبدو هذه أكبرَ مُفارَقةٍ على الإطلاق. إذ إنَّ فِعلَ النِّعمةِ المجّانيَّة غيرِ المشروطة الأكثرَ تحريرًا يتطلَّب من المُتلقّي أن يتخلّى عن السَّيطرة على حياته. فهل من تَناقُضٍ هنا؟ لا، ليس إذا كنتَ تَذْكُرُ فَحوى الفصلَين الثالث والتاسع. ذلك أنَّنا لسنا نحنُ مسيطرين على حياتنا، بل إنّنا جميعًا نعيش لأجل شيءٍ ما، ونحن خاضعون لسَيطرة ذلك الشيء الذي هو سيِّدُ حياتِنا فعلًا. فإنْ لم يكُن هو الله، فإنَّه سيَطغى علينا طغيانًا لا نهايةَ له.

إنَّما النِّعمةُ وحدها تحرِّرُنا من عبوديَّة الذات التي تَكْمن في صُلْب التَّزمُّت والتَّديُّن. فالنِّعمة تهديدٌ فقط لِتَوَهُّمِنا أنَّنا نفوسٌ حرَّة مُستقلَّة نعيشُ الحياةَ كما نشاء.

إنَّ الإنجيل يُتيح لنا أن نحوزَ حياةً مختلفةً جذريًّا كلَّ الاختلاف. ولكنَّ المسيحيِّين كثيرًا ما يُخفِقون في استخدام موارد الإنجيل ليعيشوا الحياةَ المُتاحةَ لهم في السيِّد المسيح. ومن المهمّ أن يتنبَّه أيُّ مَن يقرأ هذا الكتاب إلى هذا الاختلاف الجوهريِّ بين الإنجيل والدِّين. فإنَّ الرِّسالة الأساسيَّة في الإيمان المسيحيِّ تختلف في لبِّها عن افتراضات الدِّين التقليديّ. ذلك بأنَّ مؤسِّسي كلِّ دينٍ رئيسيٍّ آخر جاءوا جوهريًّا بِوَصفهم مُعلِّمين، لا مُخلِّصين. فقد جاءوا ليقولوا للناس. "افعَلوا هذا، فتجدوا المُقدَّس". أمَّا السيِّد المسيح فقد جاء جوهريًّا بصفته مُخلِّصًا، لا مُعلِّمًا (مع أنَّه كان كذلك أيضًا). فهو يقول: "أنا القُدُّوس، وقد جئتُ إليكم كي أفعلَ ما تَعجزون أن تَفعلوه لأجل أنفُسكم". والرسالةُ المسيحيَّة هي أنَّنا نخلصُ ليس بسِجلِّنا نحن، بل بسِجلِّ السيِّد المسيح. وعليه، فَلَيس الإيمانُ المسيحيُّ دينًا أو لادِينًا. إنَّه شيءٌ آخَر مختلفٌ بجملته كلَّ الاختلاف.



١٢

قصَّةُ الصليب (الحقيقيَّة)

في وسعي أن أقبلَ يسوع كشهيد، وتجسيدٍ للتَّضحية، ومعلِّمٍ سماويّ. فقد كان موته على الصليب مِثالاً عظيمًا للعالَم. أمَّا أنَّه انطوى على أيّ شيءٍ من قَبيل الفعَّاليَّة السرِّيَّة أو المُعجِزيَّة، فأمرٌ لا يَسَعُ قلبي أن يقبله.

غاندي (Gandhi)، **سيرةٌ ذاتيَّة (An Autobiography)**

ليس بنادرٍ أن ألقيَ نظرةً على الصليب، فإذا بقلبي يهدأ حتَّى يكاد يجمد. فبطريقةٍ غريزيّةٍ حدسيّة، أفهم أنَّه كان قيد البحث شيءٌ أكثرُ أهمّيّةً وعُمقًا وشدّةً وحِدّةً من قضايانا الصالحة، مهما كانت شريفة... كان ينبغي أن أتقلّده... وكان ينبغي أن يكونَ هو بِزّتي ولُغتي وحياتي. لن يكون لي عُذر، ولا أستطيعُ أن أقول إنّي لم أعرف. لقد عرفتُ من البداية، ولكنّي انصرفتُ مُبتعِدًا.

مالكولم مَكريدج (Malcolm Muggeridge)
"يسوع مُعادًا اكتشافُه" (Jesus Rediscovered)

إنَّ رمزَ المسيحيَّة الأوَّليَّ ما يزال هو الصليب. فمَوتُ السيِّد المسيح من أجل خطايانا هو في لبِّ الإنجيل، أي البشارة أو الخبر السارّ. ولكنَّ ما قد حسبَتْه الكنيسةُ المسيحيَّة خبرًا سارًّا تحسبُه بقيَّةُ الحضارة الغربيَّة خبرًا سيِّئًا.

فمن وجهة النظر المسيحيَّة، مات السيِّدُ المسيح كي يُمكِنَ أن يغفرَ الله الخطايا. إنَّما في نَظَر الكثيرين، يبدو ذلك مُضحكًا، أو حتَّى مشؤومًا. فالسؤال "لماذا وجبَ أن يموتَ يسوع؟" هو سؤالٌ سمعتُه من الناس في نيويورك مِرارًا أكثرَ من السؤال "هل الله موجود؟" إذ يسألون: "لماذا لا يغفرُ لنا الله ببساطة؟ إنَّ إله المسيحيِّين يبدو شبيهًا بالآلهة التَّوَّاقين إلى الانتقام في الأزمنة البدائيَّة، أولئك الذين كان ينبغي أن يُسترضَوا بالأضاحيِّ البشريَّة". لماذا لا يقبلُ الله الجميعَ فحسْب، أو على الأقلِّ أولئك النادمين على أفعالهم السيِّئة؟ وبينما تُربِك عقيدةُ الصليبِ المسيحيَّةُ بعضَ الناس، فإنَّها تُرعِبُ آخرين. حتَّى إنَّ بعضَ اللاهوتيِّين البروتستانتيِّين الليبراليِّين يَرفضون عقيدةَ الصليب بجُملتِها؛ لأنَّها تبدو شبيهةً "بإساءة معاملة إلهيَّة للأولاد".

فلماذا إذًا لا نستغني عن الصليب تمامًا؟ ولماذا لا نُركِّز على حياة يسوع وتعاليمه، لا على مَوته؟ ولماذا كان واجبًا أن يموتَ السيِّدُ المسيح؟

السبب الأوّل: الغفرانُ الحقيقيُّ

مُعاناةٌ غالية

فَلْنبدَأْ بمَثَلٍ اقتصاديٍّ بحت. تصوَّرْ أنَّ شخصًا استعارَ سيَّارتك، وبينما هو راجِعٌ بها من أمام منزلك يصطدم ببوَّابةٍ فيُسقِطها أرضًا مع جزءٍ من حائط. ولمَّا كان تأمينُك على الأملاك لا يشملُ البوَّابة وحائطَ الحديقة، فماذا

يمكنُك أن تفعل؟ لديك في الجوهر خِياران. أمَّا الأوَّل فهو أن تُطالبَهُ بدَفْع نَفَقة إصلاح الضَّرر. وأمَّا الثاني فهو أن تأبى أن يَدْفعَ أيَّ شيء. وربَّما تيسَّرتْ أيضًا حُلولٌ وَسَطٌ فيها تتشاركان كِلاكُما في دَفْع النَّفقة. فلاحظْ أنَّ كلفةَ الضَّرَر، في كُلِّ خِيار، يجب أن يتحمَّلها أحدٌ ما. إذ لا بُدَّ أن تتكبَّد أنت أو يتكبَّد هو ثمنَ الفِعل، غير أنَّ الدَّين لا يتلاشى في الأثير تلقائيًّا بطريقةٍ ما. إنَّما الغفران، في هذا المَثَل الإيضاحيّ، يعني أن تتحمَّل أنتَ ثَمَن الجُرم.

ولكنَّ مُعظَم الإساءات التي تنالُنا لا يمكن تخمينُها بمُصطلحات اقتصاديَّة مَحْض. فرُبَّما سلبَكَ أحدٌ شيئًا من السَّعادة أو الشُّهرة أو الفُرَص، أو نواحيَ مُعيَّنة من حرِّيَّتك. فلا يُمكِن أن تُعلَّقَ على أمورٍ كهذه أيَّةُ بطاقةِ أسعار، ومع ذلك يُداخِلُنا شعورٌ بعدالةٍ مُنتهَكة لا يُفارِقُنا حين يقول الشخص الآخر: "أنا مُتأسِّفٌ حقًّا". وعندما يُساءُ إلينا إساءةً فادحة، يُخالِجُنا شُعورٌ يتعذَّرُ تبديدُه بأنَّ المُرتكبين جَلَبوا على أنفسهم دَينًا يجب أن يُسَوَّى. وما إنْ يُساءُ إليك وتُدرِكُ أنَّ هنالك دَينًا عادلًا لا يمكن إسقاطُه ببساطة، حتَّى يكون لديك أمرانِ فقط يمكن أن تفعلَهما.

أمَّا الخِيار الأوَّل فهو أن تلتَمسَ طُرقًا لجعل المُرتكبين يُعانون من جرَّاء ما فعلوه. ففي وُسعك أن تقطعَ العلاقةَ وتُباشرَ فعليًّا- أو تتمنَّى باطنيًّا- نوعًا من الألَم في حياتهم يتكافأ مع ما قد كابدتَه. وهنالك عدَّةُ طُرق للقيام بهذا. ففي وُسعك أن تواجهَهم بضَراوةٍ قائلًا لهم أمورًا تؤذي. وفي وُسعك أن تطوفَ على الآخرين لكي تُلطِّخَ سُمْعة أولئك. حتَّى إذا عانى المُرتكِبون، فقد تبدأ تشعر بشيءٍ من الرِّضى، إذ تُحِسُّ أنَّهم الآنَ يَدْفَعون دَينهم حقًّا.

غير أنَّ بعض المشكلات الخطرة تحفُّ بهذا الخِيار. فقد تَغدو أكثرَ قساوةً وبُرودةً ورثاءً للذّات، وتصيرُ بعد ذلك أكثر استِغراقًا في الذّات. وإذا

كان المُسيء شخصًا ذا ثراء أو نفوذ، فقد تُبغِض ذلك الشخص وتُقاوِمه طوالَ عُمرِك. وإنْ كان شخصًا من الجنس الآخر، أو من عِرقٍ آخر، فقد تصير على نحوٍ دائم ساخرًا ومُتحامِلًا تُجاه فئاتٍ كاملة من الناس. أضف أنَّ المُرتكِبَ وأصدقاءَه وعائلتَه غالبًا ما يشعرون بأنَّ لهم الحقَّ بالتجاوُب مع ردِّك بمِثله. وقد تستمرُّ دَورات ردِّ الفعل والانتقام سنينَ طويلة. رغم أنَّ شرًّا قد فُعِلَ بك، فإنَّه حين تُحاولُ أن تستوفِيَ دَينك من طريق الانتقام، لا يتلاشى الشَّرّ، بل بالأحرى ينتشر، ويكون انتشارُه الأكثرُ مأساويَّةً في داخلك وفي خُلُقِكَ بعَينه.

أمَّا الخيار الثاني، فهو أنَّك تستطيعُ أن تغفر. ومعنى الغفران أن ترفض جَعْلَ المرتكِبين يدفعون ثمنًا لقاءَ ما فعلوا. غير أنَّ إحجامَك عن الانقضاض على شخصٍ ما، حينَ تريدُ أن تفعلَ ذلك بكلِّ كِيانك، هو كَرْب. إنَّه نوعٌ من المُعاناة والألم. فأنت لا تُعاني فقط خسارتَك الأصليَّة للسَّعادة والسُّمعة والفُرَص، بل تمتنعُ الآنَ أيضًا من سُلوانِ تكبيدهم مِثلَ ذلك. إنَّك تتجرَّع الدَّين، مُتحمِّلًا بنفسك كامِلَ كُلفتِه، بدل استيفائه من الشخص الآخر. وذلك يؤذي أذًى رهيبًا. ومن شأن كثيرين أن يقولوا إنَّ له طَعْمَ موتٍ من نوعٍ ما.

نعم، ولكنَّه موتٌ يؤدِّي إلى قِيامة، بدلًا من موتِ المرارة والسُّخرية والإيذاء، ذلك الموتِ الحيِّ المستمرِّ طوالَ العُمر. وبصفتي راعيًا، فقد أرشدتُ كثيرين بشأن الغفران، وتبيَّن لي أنَّ الغضبَ يبدأ بالهمود شيئًا فشيئًا إنْ هُم فَعَلوا ذلك، أعني إنْ أَبَوا ببساطةٍ أن يلجأوا إلى الانتقام من المُسيء، بالفعل أو حتَّى بتخيُّلاتهم الباطنيَّة. فإنَّك لا تَمُدُّ الاستياء بأيِّ وَقود، وهكذا تخبو نارُه بالتَّدريج. وقد كتب سي. أس. لِويس في رسالةٍ من مجموعتِه "**رسائلُ إلى مالكولم**" (Letters to Malcolm): "بينما كنتُ

أصلّي في الأسبوع الماضي، اكتشفتُ فجأةً- أو شعرتُ كأنّي اكتشفت- أنّي فعلًا غفرتُ لشخص كنتُ أحاولُ أن أغفرَ له طيلةَ ثلاثين سنة، كنتُ في أثنائها أحاولُ وأصلّي عسى أن أتمكّن من ذلك".[١] وأذكرُ أنّي أرشَدْتُ ذاتَ مرَّةٍ فتاةً في السادسةَ عشرةَ بشأن الغضب الذي كانت تشعر به تُجاه أبيها. ولم أفلح في حَملِها على المبادرة حتّى قلتُ لها: "لقد هزمكِ أبوكِ، ما دُمتِ تُبغِضينه. وستبقَين عالقةً في فخِّ غضبك ما لم تغفري له إلى التمام من القلب وتبدإي تُحبِّينه". وإذا بشيءٍ يذوب في داخلها لمَّا أدركَتْ ذلك. لقد خاضَتْ معاناةَ الغفران المُكلِّفة، تلك التي يبدو الشعورُ بها أوَّلَ الأمر دائمًا أسوأ بكثير من المرارة، ونفذتْ إلى الحرِّيَّة النِّهائيَّة. فالغفران يجب أن يُمنَحَ قبل أن تتمكّن من الشعور به، غير أنَّه يأتي في آخر المطاف فعلًا. وهو يؤدِّي إلى سلامٍ جديد، إلى قيامة، كما أنَّه السبيلُ الوحيدُ لِوَقف انتشار الشّرّ.

عندما أشير بالغفران على أشخاصٍ تلقَّوا الأذى، يسألونني أغلب الأحيان عن المُسيئين إليهم: "ألا ينبغي أن يُحاسَبوا؟" فأجيبُ عادةً: "بلى، ولكنْ إنْ غفرتُم لهم فقط". وهنالك أسبابٌ كثيرةٌ تحملُنا على الرغبة في مُواجَهة المُسيئين. فَهُم قد أحدَثوا ضرَرًا، وإصلاحُ الضَّرر يُكلِّف شيئًا ما، كما في مَثَل إسقاط البوّابة وحائط الحديقة الذي ضربتُه سابقًا. وينبغي لنا أن نواجِهَهم؛ لنُوقِظَهم فينتبهوا إلى حقيقةِ أخلاقهم، أو لِنَدفعَهم كي يُرمِّموا علاقاتهم، أو على الأقلّ لنَحصرَهم ونحميَ الآخرين من أن يتأذَّوا على أيديهم في المستقبل. ولكنْ فلْنُلاحظْ أنَّ جميعَ أسباب المواجهة هذه هي أسبابُ محبَّة. فأفضلُ طريقةٍ كي نحبَّهم ونحميَ الضحايا الآخرين المُحتَملين حواليهم هي أن نُواجِهَهم على أمَلِ أن يتوبوا ويتغيَّروا ويُصلِحوا الأمور.

غير أنَّ التَّوق إلى الانتقام لا تحدوه النِّيَّةُ الطيِّبة بل النيَّة السيِّئة. وقد تقول: "إنَّما أريد أن أحمِّلَهم مسؤوليَّتهم"، ولكنْ قد يكون حافزك الحقيقيُّ هو أن تَراهم يتأذَّون ويتألَّمون. فإنْ كنتَ لا تُواجِهُهم من أجل مَصْلَحتهم أو مَصلحة المجتمع، بل من أجل مَصْلَحتك الخاصَّة، في سبيل أن يدفعوا الثَّمن فحسْب، فإنَّ احتمالَ إقبالِ المُسيء إلى التوبة تكون مَعدومةً فعليًّا. وفي مثل هذه الحالة، تَتَخطَّى- أنتَ المُواجِهَ- حدودَ المعقول، إذ تلتمسُ الانتقامَ لا العدالة، وإيلامَهم لا تغييرهم. فستَكون مطالبُك مُفرطةً وموقفُك تعسُّفيًّا. وسيَرى المُسيء، أو المُسيئة، أنَّ المقصودَ بالمواجهة لا يتعدَّى تسبيبَ الأذى لهما. وستبدأ دورةٌ من المُعامَلَة بالمثل أو الأخذ بالثأر.

فإذا التَمسْتَ الغُفران القلبيّ، تكونُ مواجهتُك عندئذٍ فقط هادئةً وحكيمةً وكريمة. ومتى تخلَّصتَ من حاجتك إلى رؤية الشخص الآخر يتأذَّى، فعندئذٍ فقط تُتاح لك فُرصةٌ ما لكي تُحدِثَ بالفعلِ التغييرَ والمصالحةَ والمُعافاة. فلا بدَّ لك من أن تَخضَعَ لألَمِ الغفران وموتِه الغالِيَين إنْ كانَتْ ستحدُثُ أيَّةُ قيامة!

ولم يُعبِّر أحدٌ عن ثمن الغفران الغالي أفضلَ ممَّا فعل دَيترتش بونهُويفر، وقد حَكَيتُ قِصَّتَهُ في الفصل الرابع.[٢] فبعد رجوع بونهُويفر إلى ألمانيا كي يُقاوِمَ هتلر، كتب في مُؤلَّفه "كلفةُ التلمذة" (١٩٣٧) أنَّ الغفران الحقيقيَّ هو دائمًا نوعٌ من الألَم:

> إنَّ حِملَ أخي الذي يجب أن أحمله ليس هو فقط نصيبَه الظاهر، أعني خصائصه ومواهبه الطبيعيَّة، بل أيضًا خطيَّته بالمعنى الحرفِيِّ تمامًا. والسبيلُ الوحيد لحَمْل تلك الخطيَّة هو بقوَّة صليب السيِّد المسيح الذي باتَ لي فيه نصيبٌ الآن... فالغفران

> هو المعاناة الشبيهة بمعاناة السيّد المسيح والتي من واجب المسيحيّ أن يحملَها.[٣]

ثُمَّ في شهر نيسان (أبريل) ١٩٤٣ أُلقيَ القبض على بُونهُويفَر وسُجن. وأخيرًا نُقِلَ إلى مُعسكر الاعتقال في فلُوسينبرغ، حيثُ أُعدِمَ قُبيَلَ نهاية الحرب العالميَّة الثانية.

فكيف عاشَ بونهُويفَر كما قال فعلًا؟ لقد كلَّفه غُفرانُه مُعاناةً باهظة؛ لأنَّه واجَهَ بالفعل الضُّرَّ والشَّرَّ القائمَين أمامَه. فلم يكُن غُفرانه ما دعاه في كلفةُ التَّلمذة "نِعمةً مُستَرخَصة". إذ إنَّه لم يتجاهل الخطيَّة ولا انتحلَ لها عُذرًا، بل قاومَها مُباشرةً، مع أنَّ ذلك كلَّفه كلَّ شيء. وقد كان غُفرانه أيضًا غاليَ الثمن لأنَّه رفض أن يُبغِض. فإنَّه اجتازَ العمليَّةَ المؤلمة المطلوبة لأجل محبَّة المؤمن أعداءَه، وهكذا كانت مقاوَمَته لشرِّهم مدروسةً وجريئة، لا حاقدةً وقاسية. ونَجِدُ الدليلَ المُذهِلَ على ذلك في الرسائل والبحوث التي كتَبَها بونهُويفر وهو في السِّجن، حيث تجلَّى عدمُ مرارتِه أو حقدِه.

> رجاءً، لا تضطرِبوا بشأني ولا تَقلقوا، ولكنْ لا تنسَوا أن تُصَلُّوا لأجلي- وأنا على ثقة بأنَّكم لن تنسَوا. إنّي واثقٌ تمامًا بِيَد اللّه الهادية بحيثُ أرجو فعلًا أن أبقى على ذلك اليقين. فيجب ألّا تَشُكُّوا أبدًا بأنّي أمشي شاكرًا ومُبْتَهجًا في السبيل الذي فيه يَهديني اللّه. إنَّ حياتي الماضية طافحةٌ بصلاح اللّه وإحسانه، وخطاياي تستُرُها محبَّةُ السيّدِ المسيحِ المصلوبِ الغافِرةُ...[٤]

هنا نرى بونهُويفَر مُترجِمًا بحياته ما قد فعله السيِّد المسيح لأجله.

فإنَّ السيِّد المسيح حملَ خطايا بونهُويفَر، آخذًا كُلفتَها على عاتقه. والآن بونهُويفر حُرٌّ كي يفعلَ مِثلَ ذلك تُجاه الآخرين. ويستخدمُ بونهُويفَر الغفران الإلهيَّ ليُعينَه على فَهْمِ الغفران البشريّ. ولْنَستخدِمِ الآن مثال بونهُويفَر المدهش في الغفران البَشريِّ كي نفهمَ الغُفرانَ الإلهيّ.

غفرانُ الله

"لماذا وجبَ أن يموتَ السيِّد المسيح؟ أمَا كان في وُسع الله أن يغفرَ لنا ببساطة؟" هذا هو ما يسألُه كثيرون. ولكنَّنا الآن نستطيعُ أن نرى أنَّه ما من أحدٍ يغفرُ "ببساطة" إذا كان الشَّرُّ فادحًا. فالغفران يعني أن تتحمَّلَ النَّفقة بدلًا من جَعْلِ المُسيء يؤدِّيها، حتَّى يُمكنَكَ أن تَمُدَّ يدَ المحبَّة مُلْتَمِسًا تجديدَ عدوِّك وتغييرَه. إنَّه يعني أن تتقبَّلَ أنت نفسُك وفاءَ دَينِ الخطيَّة. فكلُّ مَن يغفرُ شرًّا عظيمًا يجتازُ مَوتًا إلى قيامة، ويختبرُ مَساميرَ ودمًا وعَرَقًا ودموعًا.

أفيُدهِشُنا إذًا أنَّ الله لمَّا قرَّر أن يغفرَ لنا بدلَ أن يُعاقِبَنا على جميع الطُّرق التي بها أسأنا إليه وبعضُنا إلى بعض، مَضى إلى الصليب في شخص يسوعَ المسيح وماتَ هُناك؟ وكما يقول بُونهُويفَر، فإنَّ كلَّ مَن يغفرُ لآخَرَ يحملُ خطايا الآخر. ففي الصليب نَرى الله فاعلًا بصورةٍ مَرئيَّة وكونيَّة ما يجب أن يفعلَه كلُّ كائنٍ بشريٍّ كي يغفرَ لآخَر، وإنْ كان ذلك على نطاقٍ أوسع إلى ما لا نهاية. ومن شأني أن أحاجَّ طبعًا بأنَّ الغُفران البشريَّ يجري على هذا النَّحو لأنَّنا لا بُدَّ أن نعكِسَ صورةَ خالِقنا. لهذا لا ينبغي أن نُفاجَأ بأنَّه إذا لَمَسْنا **نحن** أنَّ السبيلَ الوحيدَ للانتصار على الشرِّ هو اجتيازُ مُعاناة الغُفران، فذلك يصحُّ بطريقةٍ حقيقيَّةٍ أكثر بكثير بالنِّسبة إلى الله الذي شَغَفُهُ العادلُ

بأنْ يقهرَ الشرَّ وتوقُهُ المُحِبُّ لأنْ يغفرَ للآخرين كِلاهُما أكبرُ من شَغَفِنا وتَوقنا بشكلٍ لانهائيّ.

ومن المُهمّ عند هذا الحدّ أن نتذكَّر أنَّ الإيمان المسيحيَّ ما يزال يَعي كلَّ حينٍ أنَّ يسوع المسيح هو الله.[٥] ولذلك فإنَّ الله لم يُنْزِلِ الألَم بشخصٍ آخر، بل بالأحرى تجرَّع هو نفسُه على الصليب ألَمَ العالَمِ وعُنفَهُ وشرَّه. فليس إلهُ الكتاب المقدَّس إذًا نظيرَ الآلِهةِ البدائيِّين الذين طالبوا بدمائنا استرضاءً لغضبهم. بل إنَّ هُنا بالأحرى إلهًا يصيرُ إنسانًا ويُقدِّم دَمَ حياتِهِ ذاتَهُ لكي يُكرِمَ العدالةَ الأدبيَّة والمحبَّة الرحيمة، بحيثُ يتسنَّى له ذات يوم أن يُبيدَ كلَّ شرٍّ بغيرِ أن يُبيدَنا نحن.

ولذلكَ فإنَّ الصليبَ ليس مجرَّدَ مِثالٍ جميل على الحُبِّ المُضحّي. ذلك أنَّ بذلَ حياتك بِلا داعٍ ليس أمرًا ينالُ الإعجاب، بل هو خطأ.[٦] فإنَّ موتَ الربِّ يسوع يكون مثالًا صالحًا فقط إذا كان أكثرَ من مجرَّد مِثال، إذا كان أمرًا ضروريًّا ضرورةً مُطلَقةً لأجل إنقاذنا. وهكذا كان حقًّا. فلماذا وجَبَ أن يموتَ لكي يغفرَ لنا؟ كان ثَمَّةَ دَينٌ لا بُدَّ أن يُدفَع- وقد دفعه الله نفسُه. كان ثَمَّةَ عقوبةٌ يجب أن تُؤدَّى- وقد أدَّاها الله نفسُه. فإنَّ الغفرانَ هو دائمًا شكلٌ من المُعاناة الغالية حقًّا.

لقد رأيْنا كيف يُلقي الغفرانُ البشريُّ وثمنُه الغالي ضوءًا على الغفران الإلهيّ. على أنَّ الغفران الإلهيَّ هو الأساس والمصدر الأقصَيان للغفران البشريّ. وقد شهد بونهُويفر لهذا تكرارًا، مؤكِّدًا أنَّ غفران السيِّد المسيح له على الصليب هو ما آتاه أمانًا كلِّيًّا في رحاب محبَّة الله حتَّى استطاع أن يعيشَ حياةَ خدمةٍ مُضحِّيةٍ في سبيل الآخرين.

السَّبب الثاني: المحبَّة الحقيقيَّة

مُبادَلةٌ شخصيَّة

في أواسط تسعينيَّات القرن العشرين، عقدَتْ إحدى الطوائف الليبراليَّة مؤتمرًا لاهوتيًّا فيه قال أحد المُتكلِّمين: "لا أعتقد أنَّنا نحتاج إلى نظريَّةِ كفَّارةٍ إطلاقًا؛ لا أعتقد أنَّنا نحتاج إلى قَومٍ يُعلِّقون على صُلبان، وإلى دَمٍ يتقطَّر، وإلى موادَّ غريبة!"[٧٤] فلماذا لا نُركِّز فقط على التعليم عن الله كيفَ هو إلهُ محبَّة؟ الجواب هو أنَّك إذا نبذتَ الصليبَ **لا يبقى لديك** إلهُ محبَّة.

ففي عالَم العلاقات الفعليّ، يستحيلُ أن تحبَّ أشخاصًا ذوي مُشكلةٍ أو حاجة بغيرِ أَن تَتَشارك معهم- بمعنًى ما- بل أيضًا بغيرِ أن تأخُذَ مكانهم وتُعطيَهم مكانك. وكلُّ حُبٍّ حقيقيٍّ مُغيِّرٍ للحياة ينطوي على شكلٍ ما من مِثلِ هذه المُبادَلة.

فأن تحبَّ شخصًا سليمًا ومُعافًى وسعيدًا أمرٌ يتطلَّب منك القليلَ جدًّا. ولكنْ فكِّر في الأشخاص المجروحين عاطفيًّا. فلا سبيلَ لأنْ تُصغيَ إلى أشخاصٍ كهؤلاءِ وتُحِبَّهم، وتظلَّ شخصيًّا غيرَ متأثِّرٍ عاطفيًّا بل سليمًا من الأذى إلى التَّمام. لعلَّهم يشعرون بأنَّهم أقوى وأكثرُ ثقةً وأمانًا عندما تتكلَّم إليهم، ولكنَّ ذلك لن يحدُثَ بغير أن تُستنْزَفَ أنت نفسُك عاطفيًّا إلى حدٍّ بعيد. فإمَّا هم وإمَّا أنت. ولكي تسندَهم وترفعَهم عاطفيًّا يجبُ أن تكون مستعدًّا لأن تُستنْزَفَ أنت عاطفيًّا.

وإليك مَثَلًا آخر. تصوَّر أنَّك احتَككتَ بشخصٍ بريءٍ ولكنَّه يتعرَّض للمُطاردة من قِبَل العُمَلاء السرِّيِّين، أو السُّلطات الحكومية، أو جماعةٍ أخرى قويَّة. ثُمَّ يتَّصلُ بك طالبًا المُساعدة. فإنْ لم تُساعِدْه، فيُحتمل أن يموت. ولكنْ

إذا تحالفتَ معه، فإنَّك- أنت الذي كنتَ سالمًا وآمنًا إلى التمام- ستكونُ عُرضةً لخطر الموت. ومن موادَّ كهذه تُحاكُ حَبكات الأفلام. فهُنا أيضًا، إمَّا هو وإمَّا أنت. وهو سيختبرُ سلامةً وأمانًا مُتزايدَين من طريق تدخُّلك، ولكنَّ ذلك يتمُّ فقط لأنَّك مستعدٌّ للانخراط في عدمِ أمانِهِ وفي تعرُّضه للخطر.

فكِّر في الوالِديَّة. إنَّ الأطفالَ يأتون إلى العالَم في حالةٍ من الاتكاليَّة الكلِّيَّة. وهم يعجزون عن التصرُّفِ كعناصِرَ مستقلَّةٍ ذاتيَّة الكفاية إلَّا إذا تخلَّى والِداهم عن كثيرٍ من استِقلاليَّتهما وحرِّيَّتهما بِضعَ سنين. فإنْ كنتَ لا تسمحُ لأولادك أبدًا بأن يُعيقوا حُرِّيَّتك في العمل واللَّعب؛ وإنْ كنتَ لا تتواصَلُ معهم إلَّا حين لا يُضايقُك ذلك، فإنَّهم سوف يكبرون جسميًّا فقط. أمَّا في مختلف أنواع الطُّرق الأخرى فسيظلُّون من الناحية العاطفيَّة مُعدمين ومُضطرِبين واتِّكاليِّين بإفراط. فالخِيار واضح: في وسعك أن تُضحِّي إمَّا بِحرِّيَّتك وإمَّا بِحرِّيَّتهم. والقضيَّة هي إمَّا هُم وإمَّا أنت. فَلِكَي تُحِبَّ أولادك جيِّدًا، ينبغي لك أن تنقصَ أنت حتَّى يَزيدوا هُم. إذ يجب أن تكونَ مستعدًّا لأن تدخُلَ إلى الاتِّكاليَّة والتبعيَّة التي لَدَيهم حتَّى يُتاح لهم أخيرًا أن يختبروا الحرِّيَّة والاستقلال اللَّذين لَدَيك.

إنَّ كلَّ محبَّةٍ مُغيِّرة تُجاه ذوي الحاجات القُصوى هي تضحيةٌ استِبداليَّة. فإنِ انهمكتَ شخصيًّا في شؤونهم، فبطريقةٍ ما تَسري ضَعَفاتُهم نحوَك كما تسري قواكَ نحوَهم. وفي مؤلَّفه "صليبُ المسيح" (The Cross of Christ)، يكتبُ جون ستُوت (John Stott) أنَّ البَدَليَّة قائمة في لبِّ الرسالة المسيحيَّة:

> جوهرُ الخطيَّة هو أن نَحلَّ- نحنُ الكائناتِ البشريَّة- أنفُسَنا محلَّ الله. أمَّا جوهر الخلاص فهو إحلالُ الله نفسهُ محلَّنا... إنّنا

نضعُ أنفسَنا حيثُ يستحقُّ اللهُ وحده أن يكون؛ كما أنّ اللهَ يضعُ نفسَه حيثُ نستحقُّ نحن أن نكون.[٨]

إنْ كان ذلك صحيحًا، فكيف يمكن أن يكونَ اللهُ إله محبَّة إذا كان لا يتولَّى شخصيًّا مُعاناةَ ما نُقاسيه من عُنفٍ وطُغيانٍ وكَرْبٍ وضعفٍ وألَم؟ إنَّ جوابَ هذا السؤال ثُنائيّ: أوَّلًا لا يمكن أن يفعلَ اللهُ ذلك؛ ثانيًا، يؤكِّدُ دِينٌ عالميٌّ النِّطاقِ واحدٌ فقط أنَّ اللهَ يفعلُ ذلك حقًّا.

المبادلة العُظمى

كتبَتْ جوانَ ترَل (JoAnne Terrell) واصفةً كيف لَقِيَت والدتُها مصرعَها على يد عشيق الوالدة. وقالت: "كان عليَّ أن أجدَ تَرابُطًا بين قصَّة والدتي وقصَّتي وقصَّة يسوع المسيح". وقد وجدَتْ ذلك التَّرابُط في فهمها للصليب– أي أنَّ السيِّدَ المسيح لم يتألَّم لأجلنا فقط، بل معَنا أيضًا. فإنَّه عرفَ ما يعنيه (حرفيًّا) أن يتعرَّض للجَلد بالسَّوط، وأن يرفضَ ترويعَ أصحاب السُّلطة له، وأن يدفعَ حياتَه ثَمنًا لذلك. وقد أخذَ مكانَه طَوعيًّا في صفِّ أولئك الذين كانوا مَعدومي القوَّة ومُتألِّمين من جرَّاء الظُّلم.[٩] وكما كتب جون ستوت: "ما كان في وسعي قطُّ أن أومِن شخصيًّا بالله لولا الصليب. ففي عالَمِ الألَم الواقعيّ، كيف يمكن أن يعبدَ المرءُ إلهًا مُحصَّنًا تُجاهَ الألم؟"

ولذلك فإنَّ الصليب، إذا فُهِم حقَّ الفَهم، لا يُعقَل احتمالًا أن يُستخدَمَ لتشجيع المظلومين على تقبُّل العُنف بصورة طبيعيَّة. فلمَّا تألَّم السيِّد المسيح من أجلنا، فإنَّه وفى العدالةَ حقَّها. ولكنْ لمَّا تألَّمَ معنا، تماهى (توحَّدَ) مع مَظلومي العالَم، لا مع ظالميهم. فكلُّ محبَّةٍ مُغيِّرةٍ للحياة تَستدعي

مُبادلة، أو تبادُلًا للمَواقع، ولكنْ هَهُنا المُبادَلة العُظمى. ذلك أنَّ الله، وهو في موقع السُّلطة المطلَقة، يتبادلُ المَواقع مع المُهمَّشين والفُقراء والمظلومين. وقد أنشدَ الأنبياءُ دائمًا أناشيدَ عن الله بصفته مَن "أنزلَ الأعِزَّاء (الرؤساء) عن الكراسي، ورفع المتَّضعين (الفقراء)" (لوقا ١: ٥٢)، ولكنْ ما كان ممكنًا قطُّ أن يتصوَّروا أنَّ الله نفسه ينزل عن عرشه الأسمى ويتألَّم مع المظلومين حتَّى يُتاحَ لهم أن يُرفعوا.

إنَّ نموذجَ الصليب هذا يعني أنَّ تمجيدَ العالَم للعِزِّ والقُوَّة والسُّلطة والمقام الرفيع قد فُضِحَ ودُحِر. فعلى الصليب يربحُ السيِّد المسيح من خلال الخسارة، وينتصر من خلال الهزيمة، ويحوز القوَّةَ من خلال الضَّعف والخدمة، ويبلغُ الغنى من خلال التخلِّي عن كلِّ شيء. إنَّ يسوع المسيح يقلب قِيَمَ العالَم رأسًا على عَقِب. وكما يقول أن. تي. رايْت (N. T. Wright):

> وبعدَ، فإنَّ العدوَّ الحقيقيَّ لم يكن روما بل قوى الشرِّ التي وقفتْ وراءَ العجرفة والعُنف البشريَّين. فعلى الصليب انتصرَ ملكوتُ الله على ممالك هذا العالَم بِرَفض الدُّخول في دوَّامة عُنفِها. وهناك كان من شأنِ يسوعَ أن يُحِبَّ أعداءَه، ويُديرَ الخدَّ الآخر، ويسيرَ الميلَ الثاني.[١٠]

هذا النَّموذج العكسيُّ يُناقِض تفكيرَ العالَم ومُمارستَه بحيثُ يُوجِد "مملكةً بديلةً"، حقيقةً بديلة، ثقافةً معاكسةً بين أولئك الذين تغيَّروا بفَضْله. وفي هذه المملكة السِّلميَّة انقلابٌ لقِيَم العالَم في ما يتعلَّق بالسُّلطة والاعتبار ورفعة المقام والثراء. ففي هذه الثقافة المُعاكِسة الجديدة، ينظرُ المسيحيُّون إلى المال بِوَصفه شيئًا يُعطَى ويُوزَّع؛ كما ينظرون إلى السُّلطة بِوَصفها شيئًا يُستخدَم حصرًا

في سبيل الخدمة. أمَّا التفوُّقُ العرقيُّ والطَّبَقيّ، وحَشْدُ المال والسُّلطة على حساب الآخرين، والتَّوقُ إلى الشُّهرة والاعتبار، هذه السِّمات المعهودة للحياة البشريَّة، فهي نقيضُ عقليَّةِ أولئك الذين فَهموا الصليبَ واختبروه. فالسيِّد المسيح يخلقُ حياةً ذاتَ نظامٍ جديدٍ كلِّيًّا. وأولئك الذين يتشكَّلون بمُوجِب مفهوم الصليب الانقلابيّ لا يعودون بحاجة إلى تبرير الذات بواسطة المال أو المقام أو المهنة أو الفخر العرقيّ والطَّبقيّ. وهكذا فإنَّ الصليب يُقيم ثقافةً مُعاكِسةً فيها يكُفُّ الجِنسُ والمال والسُّلطة عن السَّيطرة علينا، بل تُستخدَم كلُّها في بذل الحياة وبنيانِ الجماعة، ولا تُستخدَم بِطُرق هدَّامة.

ولكي نفهم لماذا وجب أن يموت السيِّد المسيح، فمن المُهِمّ أن نتذكَّر على السَّواء نتيجة الصليب (غفران الخطايا الغالي الثَّمن) ونموذج الصليب (عكس قِيَم العالَم). فعلى الصليب لم تُخفِق العدالة ولا الرَّحمة، بل تحقَّقتا معًا. لقد كان موتُ السيِّد المسيح ضروريًّا إنْ كان من شأن الله أن يأخُذَ العدالة على مَحمِلِ الجِدّ ويُحبَّنا مع ذلك. وينبغي أن تَضَعَ هذه المُراعاةُ ذاتُها للمحبَّة والعدالة علامةً فارقةً على جميع علاقاتنا. فيجب علينا ألَّا نُذعِنَ أبدًا في ما يُناقِض العدل؛ إذ إنَّ السيِّد المسيح وقفَ في صفِّ المظلومين. كما أنَّه يجب علينا ألَّا نُحاولَ التغلُّبَ على الشرِّ بالشرّ؛ فقد غفر السيِّد المسيح لأعدائه وماتَ من أجلهم.

فلماذا إذًا وجب أن يموتَ السيِّد المسيح؟ حتَّى يسوعُ نفسُه طرحَ هذا السؤال. ففي بُستانِ جَثسَيماني سألَ عن وجود أيِّ سبيلٍ آخر. إنَّما لم يكُن من سبيلٍ آخر. فليس ثَمَّة سبيلٌ آخر. وعلى الصليب، صرخَ يسوعُ، في خِضَمِّ المُعاناة، طارحًا السؤال: "لماذا...؟!" لماذا تُرِك؟[١١] لماذا كان ذلك كلُّه ضروريًّا؟ إنَّ جوابَ الكتاب المقدَّس هو: لقد مات لأجلنا.

قصّةُ الصليب

حاولتُ أن أشرحَ ما قد فعلَه السيِّد المسيح لأجلنا لمَّا مات. وقد فعلتُ ذلك بتَقطير بعض المبادئ. ولكنْ لا يَسَعُني أن أفيَ عقيدةَ الصليب حقَّها الكامل. وقد سمعتُ أنَّ الكاتبة الماهرة فلانري أوكونر سُئلَت مرّةً أن تُلخِّصَ معنى إحدى قصصها "بعبارةٍ وجيزة"، فردَّت على نحوٍ لاذع بأنَّها لو كانت تستطيع التعبيرَ عن المعنى بعبارةٍ وجيزة لما اضطُرَّت إلى كتابة القصَّة. وأنا ما أزال أحاولُ التعبيرَ عن صليب السيِّد المسيح بِما قَلَّ ودَلَّ من كلام لأنّي أعتقدُ أنَّ هذا مَسعًى مُهِمّ. غيرَ أنَّ شرحًا كالذي يتضمَّنُه فصلي هذا لا يمكن أن يُعبِّر عن كامل القوَّة المُغيِّرة للحياة كما تُبيِّنُها أحداثُ القصّة ذاتِها.

إنَّ القصصَ التي يبدو دائمًا أنَّها تؤثِّر فينا أعمقَ التأثير هي تلك التي فيها يُواجه أحدُهم خسارةً لا تُعوَّض أو مَوتًا محتومًا في سبيل الإتيان بالحياة إلى شخصٍ آخر. ولا يكادُ يُوجَد مثلًا فِلمٌ سينمائيٌّ واحدٌ لا يتطرَّق إلى هذا الموضوع الرئيسيّ. من هذه الأفلام الأثيرة لديَّ شخصيًّا "**ملائكةٌ وجوهُهم وسخة**" (Angels With Dirty Faces). وفيه يُمثِّل جَيمس كاغْني (James Cagney) دورَ رُوكي سَليڤان (Rocky Sullivan)، وهذا مجرمٌ مشهورٌ يتَّخذه جميعُ الجانحين الأحداث في المدينة معبودًا، ويُوشِك أن يُعدَم بالكُرسيِّ الكهربائيّ. وفي الليلة السابقة لإعدامه، يزورُه صديقُ طفولَتِه جيري (Jerry)– يؤدّي دورَهُ پات أبرَين (Pat O'brien)– وهو الآنَ كاهِنٌ يحاول إنقاذَ فِتيان أحياء المدينة الداخليَّة من حياة الإجرام. ثُمَّ يُقدِّم جيري طلبًا صاعقًا، وهو يقولُ إنَّ هذا الطلبَ هو الطريقةُ الوحيدة التي بها يُتاح للفِتيان الذين يعملُ بينَهم أن يُرَدُّوا عن السبيل المُهلِك الذي اختاروه.

أريد منك أن تخذلهم. فأنت ترى أنّك ما تزال طوال حياتك بطلًا في نظر هؤلاء الفِتيان ومئاتِ سِواهُم - والآن ستَكون بَطلًا مُمجّدًا في موتك، وأنا أريد أن أحُول دون ذلك، يا روكي. عليهم أن يزدروا ذكراك. ينبغي أن يَستحُوا بك.

إذ ذاك تُساوِر روكي الشُّكوك، ويقول:

أتطلبُ منّي أن أمثّل دورَ الجَبان وأن يظهرَ عليَّ الشُّحوب حتّى يحسبَ أولئك الفِتيانُ أنّي رديء؟... أنت تطلبُ منّي أن أطرحَ بعيدًا الشيءَ الوحيدَ الذي بقيَ لديَّ... إنَّك تطلبُ منّي أن أزحفَ على بطني كآخِرِ أمرٍ أفعلُه في هذه الحياة... لن أفعلَ شيئًا من هذا. إنَّك تطلبُ منّي ما يفوق طاقتي... إن كنتَ تُريد أن تُساعِدَ أولئك الفِتيان، فعليك أن تُفكّر في طريقةٍ أخرى سوى هذه.

إنَّ جيري يدعو روكي إلى القيام بالمُبادَلة العُظمى، بالتضحية الاستِبداليَّة. فهو يقول: إن تمسَّكتَ بكرامتك، فإنَّ الفتيان سيَموتون في عارهم. وإنْ مُتَّ في العار، مُتنازلًا عن مجدك، فيمكنُ أن تُنقَذَ حياتُهم. إنَّها الطريقة الوحيدة لتحرير فِتيانِ روكي من عبادة الأبطال التي لَدَيهم. ولكنَّه صباحَ اليومِ التالي يسير إلى غرفة الإعدام. وفجأةً يبدأ بالصُّراخ طالبًا الرَّحمة في نوبةٍ هِستيريَّة تُوصَمُ بالجُبن، ثُمَّ يموتُ ذليلًا، مُقدِّمًا التضحية القُصوى. ومُشاهِدو هذا الفِلم يُذهَلون دائمًا، الأمرُ الذي لا بدَّ أن أدرِكه لأنّي كُلَّما شاهدتُه يعملُ على زعزعة كِياني ويُرغِّبُني في أن أعيشَ حياتي بطريقةٍ مختلفة. هكذا هي قوَّةُ القصصِ المُغيِّرةُ للحياة.

ولنا مَثَلٌ آخرُ عظيم على هذا النَّوع من القصص في روايةِ **"قصَّةُ مدينتَين"** (A Tale of Two Cities). فإنَّ شارل دارناي (Charles

Darnay) وسيدني كارتُن (Sydeny Carton) يُشبِه أحدُهما الآخر كثيرًا، وكِلاهما يُحِبّان المرأةَ نفسَها، لوسي مانت (Lucie Manette). ثُمَّ تختار لوسي شارل وتتزوَّجه، ويُرزَقان بنتًا. أمَّا إطارُ القصَّةِ الظَّرفيُّ فهو الثورة الفرنسيَّة. ومن ثَمَّ يُلقى القبض على شارل، إذ كان أرِستوقراطيًّا فرنسيًّا، ويُسجَن ويُحكم عليه بالإعدام على المِقصَلة.

وفي أواخِرِ الرِّواية، يزور سيدني- وهو إنكليزيٌّ- شارلَ في الليلة السابقة لإعدامه. ويعرض عليه أن يتبادل المواقع معه. فيرفض شارل، ولكنَّ سيدني يُخدِّره بمُخدِّرٍ ويُهرِّبه بعيدًا في عَرَبةٍ تَنتظِر. ثُمَّ يأخذ سيدني مكانَ شارل. وبعد ذلك يفرُّ شارل وعائلته إلى إنكلترا.

تلك اللَّيلة في السِّجن، تقصد إلى سيدني خيَّاطةٌ شابَّةٌ محكومٌ عليها بالإعدام أيضًا وتُحادِثُه، ظانَّةً أنَّه شارل دارناي. وحين يتبيَّن لها أنَّه ليس شارل، تتَّسع حدقتاها وتسأل: "أتموتُ من أجله؟" فيُجيب سيدني: "ولأجل زوجته وابنته. سُكوتًا! نعم". عندئذٍ تعترفُ الخيَّاطة بأنَّها مُرتاعة ارتياعًا رهيبًا وليستْ على ثقةٍ بأنَّها ستَتمكَّن من مواجهة حَتفِها. وتطلبُ إلى الغريب الباسل أن يُمسِكَ بيَدِها حتَّى النِّهاية إنْ أمكن. وعندما تحين السَّاعة، يَمضِيان إلى الموت يدًا بيَد. وهي تَجِدُ نفسَها رابطةَ الجأش، بل مُفعمةً بالعزاء والرَّجاء، ما دامت تُبقي عينَيها ناظِرتَين إليه.

إنَّ الصبيَّةَ في الرِّواية كانت رازِحةً تحت وطأة محنتها، وقُوَّتُها كانت تتلاشى، ولكنَّ روعةَ تَضحية سيدني الاستِبداليَّة ما لبثت أن فتنَتها، ومكَّنتها من مواجهة محنتها القُصوى.

أهذا مُثيرٌ للمشاعر؟ نعم، ولكنَّ الإنجيل يتضمَّن قصَّةً أروع.[١٢] ولقد

وجدتُ دائمًا قصصَ التَّضحية التي تجري على هذا النحو مؤثِّرةً جدًّا على الصعيد العاطفيّ. وكنتُ دائمًا أنثَني عنها عازمًا على أن أعيشَ عيشةً أكثرَ شجاعةً ولاأنانيَّة. غيرَ أنّي لم أتِمّْ قطُّ ما عقدتُ عَزْمي عليه. فالقصصُ حرَّكتْ مَشاعري ونَخَسَتْ ضميري، ولكنَّ سُبُلَ قلبي الأساسيَّةَ بقيَتْ بمنأًى عن ذلك. فما زال يَحدُوني احتياجٌ لأنْ أثبِتَ ذاتي للآخرين، وأكسِبَ الاستحسانَ والتَّصفيق، وأضبطَ ما يظنُّه الناس فيَّ. وما دامَتْ هذه المخاوِفُ والحاجاتُ ذاتَ سُلطةٍ قاهِرةٍ عليَّ، فإنَّ نِيَّاتي بشأن التغيُّر والتغيير لم تَقوَ على قَطْعِ شوطٍ بعيد.

غيرَ أنَّ الإنجيل ليس مجرَّدَ قصَّةٍ خياليَّة مؤثِّرة عن شخصٍ آخر. إنَّه قِصَّةٌ حقيقيَّة عنَّا نحن. فنحنُ فعليًّا فيها. إذ إنَّنا أولئك الفتيةُ الجانحون، ولكي يُخلِّصَنا الربُّ يسوع تنازَلَ عن شيءٍ أعظم إلى ما لا نهاية من الشُّهرة البشريَّة. كذلك أيضًا قد أتى السيِّد المسيحُ إلينا في سجننا، وأخذَ مكانَنا على الرُّغم من عدم رغبَتِنا في أن نُخلَّص. وقد تأثَّرَت الخيَّاطة بتضحيةٍ لم تكُن في سبيلها هي أصلًا. فكم بالأحرى يمكنُ أن يَمُدَّنا بالقوَّةِ اكتشافُنا أنَّ السيِّدَ المسيح قد بذَلَ نفسَه لأجلنا وقد تبادلَ المواقع معنا؟

في وسعي أن أقول فقط إنَّ مُواكَبتي هذه القصصَ من الخارج أثَّرت فيَّ. ولكنْ لمَّا أدركتُ أنّي فعليًّا في قلب قصَّة يسوع (وأنَّه هو في قلب قِصَّتي)، غيَّرني ذلك حقًّا. وإذا بالخوف والكبرياء اللَّذين استَولَيا على قلبي قد تبدَّدا أخيرًا. فإنَّ حقيقةَ كَون السيِّد المسيح مُضطَرًّا لأنْ يموتَ لأجلي حَطَّتني من علياء كبريائي. أمَّا حقيقة كَون السيِّد المسيح مسرورًا بأن يموتَ لأجلي فقد آتَتني الأمانَ والاطمئنانَ خارجَ نطاقِ خوفي.

المفهوم المسيحيّ، لمصدرنا (من أين جئنا) وخَلَلنا وكيف يُمكن إصلاحُه، قُدرةً على تفسير ما نُعاينُهُ ونُعانيه تَفوقُ قدرةَ أيِّ تأويلٍ آخرَ مُنافِس. وقد آن الأوان كي نضفِرَ معًا مختلفَ خيوط السَّرد التي ما نزال ننظرُ فيها، بحيث نرى خطَّ قصَّةِ المسيحيَّة ككُلّ. فغالبًا ما نُلخِّصَ الكتاب المقدَّس باعتباره مسرحيَّةً في أربعة فصول: الخَلق، السُّقوط، الفداء، الإصلاح.

الرّقصة الإلهيّة

إنَّ المسيحيَّة، وحدَها بين أديان العالَم، تُعلِّمُ أنَّ الله مُثلَّثُ الأقانيم. ومؤدَّى عقيدة التَّثليث أنَّ الله كائنٌ واحدٌ موجودٌ أزَليًّا في ثلاثة أقانيم (أشخاص): الآَب والابن والرُّوح القُدُس. فالثالوث يعني أنَّ الله، في الجوهر، علائقيّ (ذو علاقات).

يَصِفُ يوحنَّا، كاتبُ الإنجيل، الابنَ مُقيمًا منذ الأزل في "حِضن الآَب" (يوحنا ١: ١٨)، وهذه استِعارةٌ قديمة تُعبِّر عن المحبّة والمودَّة. ثُمَّ لاحقًا في إنجيل يوحنَّا، يَصِفُ يسوعُ- الابنُ- الرُّوحَ القُدوس بأنَّه حيٌّ كي "يُمجِّدَ" المسيح (يوحنَّا ١٦: ١٤). كما أنَّ الابن بِدَوره يُمَجِّد الآَبَ (١٧: ٤) والآَبُ يُمجِّد الابنَ (١٧: ٥). وهذا ما زال جاريًا منذ الأزل (١٧: ٥).

ما معنى اللفظة "مَجَّدَ"؟ أنْ نُمجِّدَ شخصًا أو شيئًا هو أن نمدحَه ونتمتَّعَ ونبتهجَ به. فعندما يكون شيءٌ ما نافعًا، تنجذبُ إليه من أجل ما يمكن أن يأتيَك به أو يفعلَه لك. ولكنْ إذا كان جميلًا، فعندئذٍ تتمتَّع به من أجل ما هو في ذاته. حتَّى إنَّ مجرَّدَ الوجود في حَضرته هو المكافأةُ الخاصَّة المرتبطة به. وأن تُمجِّدَ شخصًا هو أيضًا أن تخدمَه وتخضعَ له. فبدلًا من أن

تُضحّيَ بمصالحه كي تُسعِدَ نفسك، تُضحّي بمصالحك كي تُسعِدَه. لماذا؟ لأنَّ فرحَك الأقصى هو أن تَراه فَرِحًا.

فماذا يعني إذًا أنَّ الآَب والابن والرُّوح القدس يُمجّد بعضُهم بعضًا؟ إذا فكَّرنا في الأمر بَيانيًّا، أمكنَنا القولُ إنَّ الأنانيَّةَ هي أن يكونَ المرءُ ساكنًا جامدًا. ففي الأنانيَّة نُطالِبُ بأن يدورَ الآخرون حولَنا. إذ نفعلُ أفعالًا للآخرين ونبذلُ لهم المودَّةَ ما دام ذلك يساعدُنا على تحقيق أهدافنا الشخصيَّة ويؤتينا الإشباع.

غير أنَّ الحياةَ الداخليَّة في الإله المُثلَّث الأقانيم تختلفُ اختلافًا كلّيًّا. ذلك أنَّ حياةَ الثالوث تتميَّزُ لا بالأنانيَّة، بل بالمحبَّة الباذلة للذات تَبادُليًّا. فحينَ نُبهِجُ شخصًا آخر ونخدمُه، ندخلُ في مدارٍ ديناميٍّ حولَه، حيثُ نُركّز على مصالح الآخر ورغباته. وهذا يُنشئ رقصةً، ولا سيَّما إذا وُجِد ثلاثةُ أشخاصٍ كلٌّ منهم يدورُ حول الآخَرَين. هكذا هي الحال، كما يقول لنا الكتابُ المقدَّس. فكلٌّ من أقانيم اللاهوت يتركَّز على الآخَرَين. ولا يطلبُ أيٌّ أن يدورَ الآخَرانِ حَولَه، بل يدورُ كُلٌّ منهم طَوعيًّا حول الآخَرَين، ساكبًا فيهما المحبَّةَ والمسرَّة والتَّقدير. فإنَّ كلَّ أقنوم في الثالوث يُحِبُّ الآخَرَين ويُقدِّرُهما ويَخضَعُ لهما ويبتهجُ بهما. وهذا يُنشِئ رقصةَ فَرَح ومحبَّة ديناميَّةً نابضةً بالحياة. وقد أطلق القادة الأوَّلون في الكنيسة الشَّرقيَّة كلمةً عبَّروا بها عن هذا الأمر، ألا وهي "پريكوريسِس" (Perichoresis)* (لاحظ داخِلَها المُصطلَح الفنِّيَّ الذي يُطلَق على الرَّقص اليوم "كُوريوغرافيا"

* هو مصطلحٌ قدَّمه اللَّاهوتيُّ يوحنَّا الدمشقيُّ في القرن السابع الميلاديّ، وهو لا يحوي مضمون الحركة المشتركة فحسب، بل يدلُّ أيضًا على التشابك واكتناف كلٍّ منهم للآخرين، في محبَّةٍ وتناغمٍ ووحدانيَّة، وضمن كياناتٍ متساوية (الناشر).

[Choreography]). ومعنى الكلمة الحرفيّ "رَقَصَ أو طافَ حول...".[١]

> إنّ الآب والابن والروح القدس يُمجِّد بعضُهم بعضًا... وفي مركز الكون، تُشكِّل المحبّة الباذلة للذات العُنصُر الحيويّ المُتباذل في حياة اللّه الثالوثيّة. فأقانيم اللاهوت يُمجِّد بعضُهم بعضًا ويتحادث بعضهم مع بعض ويَخضَعُ بعضُهم لبعض... فلمّا كان المسيحيّون الشرقيّون الأقدمون يتكلّمون بشأن **پَريكوريسِس** في اللّه، عَنَوا أنّ كلّ أقنوم إلٰهيّ يكتَنِفُ الآخَرين في لبّ كَينونته. ففي حركة دائمة من المُفاتَحة والقبول، يحتوي كلُّ أقنومٍ الآخَرين ويُحيط بهما.[٢]

> ليس اللّه في المسيحيّة شيئًا لاشخصيًّا ولا شيئًا ساكنًا- ولا حتّى مجرّدَ شخصٍ واحد- بل هو نشاطٌ حيويٌّ نابض؛ حياةٌ أو حتّى دراما من نوعٍ ما. وأكادُ أقول، إنْ كنتَ لن تحسِبَني عديمَ التوقير، إنّه نوعٌ من الرّقص... إنّ نموذجَ هذه الحياة الثُّلاثيّةِ الأقانيم هو النبعُ العظيمُ للطاقة والجمال مُتَدفّقًا من قلب الحقيقة بالذات.[٣]

من شأن عقيدة التثليث أن تُحمِّلَ تيّاراتِ عقولنا فوقَ طاقتها. ولكن على الرُّغم من صعوبة إدراكنا للإله المُثلَّث الأقانيم، فإنَّ هذا التصوُّرَ الديناميَّ المُدهِشَ لله مُفعَمٌ بالمضامين العميقة العجيبة، المُشكِّلة للحياة والمُغيِّرة للعالَم.[٤]

رقصةُ المحبّة

لو كان الله غيرَ موجود، لَكانَ كلُّ ما فينا وحوالَينا حصيلةَ قوًى لاشخصيَّةٍ

عمياء. ولئن بدا اختبارُ الحبِّ مُهِمًّا، فإنَّ أصحابَ المذهبِ الطبيعيِّ التطوُّريِّ يقولون لنا إنَّه مجرَّدُ حالةٍ كِيميحَيويَّة في الدِّماغ.

ولكنْ ما الحالُ إنْ كان الله موجودًا؟ أيصيرُ الحبُّ أكثرَ نجاحًا؟ إنَّ الأمرَ يتوقَّفُ على مفهومك لِهُوِيَّة الله. فإنْ كان الله أحاديَّ الشخصيَّة، فعندئذٍ لم تكُن محبَّةٌ قبلَ خَلقِ الله كائناتٍ أخرى، ما دامَت المحبَّةُ هي شيئًا يكنُّه شخصٌ لآخر. وهذا يعني أنَّ إلهًا أحاديَّ الشَّخصيَّة كان منذُ الأزل هو القُدرةَ والهَيمَنةَ والعَظَمة، ولكنْ ليس المحبَّة. فعندئذٍ لا تكونُ المحبَّةُ من جوهر الله، كما لا تكونُ في قلب الكون؛ إذ تكونُ القُدرةُ هي الأولى.

ولكنْ إنْ كان الله ثالوثًا، فعندَئذ تكون علاقات المحبَّة المُشتركة هي "النَّبعَ العظيم" في "قلب الحقيقة بالذَّات". وحينَ يقول الناس: "الله محبَّة"، يَعنُونَ- على ما أعتقد- أنَّ الحُبَّ مهمٌّ أهمِّيَّةً قُصوى، أو أنَّ الله يريدُ لنا حقًّا أن نُحبّ. إنَّما في المفهوم المسيحيّ، يحوز الله فعلًا المحبَّةَ في جَوهر كَينونته. فلو كانَ شخصًا واحدًا فقط، ما كان يُمكِنُ أن يكونَ مُحِبًّا منذ الأزل. ولو كان مجرَّدَ الرُّوح الكُلِّيِّ اللَّاشخصيّ، حسبَ الفِكرِ الشَّرقيّ، ما كان ممكنًا أن يكون مُحِبًّا أصلًا؛ لأنَّ الحبَّ شيءٌ يقومُ به الأشخاص. فالدِّيانات الشرقيَّة تعتقدُ أنَّ الشخصيَّة الفَردةَ وَهْم، وكذلك الحُبُّ أيضًا بناءً على ذلك.[٥] وقد كتب تشِسْترتون (Chesterton): "يرى البُوذيُّ أنَّ الشَّخصيَّة هي انهيارُ الإنسان؛ أمَّا المسيحيُّ فيرى أنَّها غايةُ الله، بيتُ القصيد في فكرة الله الكونيَّة".[٦] وهي غايةُ الله؛ لأنَّها جوهريًّا وأزليًّا مَحبَّةٌ بينَ أشخاص.

فالحقيقةُ السَّرمديَّة هي ثلاثةُ أشخاصٍ (أقانيم) مُتَّحِدين يَعرِفُ ويُحِبُّ

بعضُهم بعضًا. ذلك هو جوهرُ الله وأصلُ الكَون والتاريخ والحياة. فإذا آثرتَ المالَ والنُّفوذَ والإنجاز على العلاقات البشريَّة، فلا بدَّ أن تتحطَّم على صخور الحقيقة. ولمَّا قال السيِّدُ المسيح إنَّ عليك أن تبذلَ نفسك في الخِدمة لكي تجِدَ نفسَك (مرقس ٨: ٣٥)، فهو إنَّما كان يُشير إلى ما كان يَفعلُه الآبُ والابن والرُّوح القُدس منذ الأزَل. وإذًا، فإنَّك لن تُدرِكَ البتَّة أيَّ مَعنًى للذَّات بوُقوفِك ساكنًا- إنْ جازَ التعبير- وجَعْلِ كلِّ شيءٍ يدورُ حول حاجاتك ومصالحك. فما لم تَكُن مستعدًّا لأنْ تُعانيَ خسارةَ خياراتِك والقيودَ الفرديَّةَ التي تَنجمُ عن انخراطِك في علاقاتٍ مُلتزِمة، فإنَّك تبقى بمنأًى من مُلامَسةِ طبيعتك الذاتيَّة وطبيعة الأشياء عمومًا.

في عدَّة مواضِعَ أخرى من هذا الكتاب، تتَبَّعْتُ كم يستحيلُ أن تبقى إنسانيًّا تمامًا إن رفضتَ تأديةَ ثَمن الغُفران، وتبادُل المحبَّة التَّعويضيّ، وقيود التَّشارُك. وقد استشهدتُ بقول سي. أس. لِويس إنَّ المكانَ الوحيد الذي يخلو من ألَمِ العلاقات ومعاناتها- ما عدا السماء- هو جهنَّم.

لماذا هذا؟ لأنَّ هذا العالَم، حسبَ الكتاب المقدَّس، لم يخلقْه إلهٌ هو فَردٌ فحسْب، ولا هو انبثاقٌ من قوَّةٍ لاشخصيَّة. إنَّه ليس حصيلةَ نزاعاتِ نفوذٍ بين آلهةٍ ذات شخصيَّات، ولا نتيجةَ قوًى طبيعيَّةٍ عشوائيَّة عنيفة عَرَضيَّة. فالمسيحيُّون يرفضون رواياتِ الخَلق الأخرى هذه التي تأبى أن تُولي المحبَّة مكانتَها الجوهريَّة. ذلك أنَّنا نؤمن بأنَّ العالَم صنعَه إلهٌ هو ثلاثةُ أقانيمَ (أشخاص) مُتَّحدين ما زال يحبُّ بعضُهم بعضًا منذ الأزل. وأنتَ قد صُنعتَ لأجل المحبَّة الباذلة للذات والمُتَّجهة إلى الآخر على نحوٍ تبادُليّ. فالأنانيَّة المُنكفئة نحو الذات تُفسِدُ كِيانَ ما قد صَنعَه الله.

رقصةُ الخَلْق

إذ تأمَّلَ جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards) في الحياة الداخليَّة لدى الإله المُثلَّث الأقانيم، استنتجَ أنَّ الله سعيدٌ سعادةً لامحدودة. ففي داخل الله ثلاثةُ أشخاص مُتَّحِدين يَسكُبُ بعضُهم في بعض محبَّةً بهيجةً مُمجِّدة. ولْنُفكِّرْ في هذا النَّموذج في اختِبارنا الخاصّ. تصوَّرْ أنَّ هنالك شخصًا أنت مُعجَبٌ به أكثر من أيِّ إنسانٍ آخر في العالَم. فمن شأنك أن تفعلَ أيَّ شيءٍ في سبيله. والآنَ تصوَّرْ أنَّك تكتشفُ أنَّ ذلك الشخصَ يشعرُ الشعورَ نفسَه تُجاهَك، وأنَّكما تنخرطان إمَّا في صداقةٍ مدى العُمر وإمَّا في علاقةٍ عاطفيَّة وزواج. أفلا يبدو ذلك كأنَّه سماء؟ بلى، لأنَّه يأتي من السَّماء- فذلك هو ما قد عرفَه الله داخل ذاته، إنَّما بأعماقٍ ودرجاتٍ غيرِ محدودة وفائقة للتصوُّر. ذلك هو سببُ كَونِ الله سعيدًا سعادةً لامحدودة، لأنَّ في قلب كَينونته "توجُّهًا نحو الآخر"، ولأنَّه لا يطلبُ مجدَ ذاته بل مجدَ غيره.[٧]

إلَّا أنَّك تقول: "ولكنْ مهلًا! تقريبًا في كلِّ صفحةٍ من صفحات الكتاب المقدَّس، يدعونا الله لأنْ نُمجِّدَه ونحمدَه ونخدمَه. فكيف يمكنك أن تقول إنَّه لا يطلبُ مجدَ ذاته؟" صحيحٌ أنَّه يطلب منَّا أن نُطيعَه بلا قَيد ولا شَرط، وأن نُمجِّدَهُ ونُسبِّحَه ونُركِّزَ حياتنا حولَه. ولكنِ الآنَ- كما أرجو- بتَّ تُدرِكُ أخيرًا لماذا يفعلُ ذلك. إنَّه يُريدُ فرحَنا! فَلَديه سعادةٌ لامحدودة لا من طريق الأنانيَّة، بل من طريق الغيريَّة والمحبَّة الباذلة للذَّات. والطريقة الوحيدة التي بها يُمكننا- نحنُ الذين خُلقنا على صورته- أن نمتلكَ هذا الفرحَ عينَه هي إذا ركَّزْنا مُجمَلَ حياتنا حولَه هو بدلًا من التركيز على ذواتنا.

ولماذا يُقدِمُ إلهٌ كهذا على خَلْقِ عالَم كائناتٍ مثلنا؟ على أساسِ نُصوصٍ من الكتاب المقدَّس مثل يوحنَّا ١٧: ٢٠-٢٤، علَّلَ جوناثان

إدورادز الأمر. وقد لخّصَ المؤرِّخُ جورج مارسْدِن (George Marsden) فكرة إدواردز على النَّحو التالي:

> لماذا يُقدمُ على الخَلقِ هذا الكائنُ الصالحُ الكاملُ الأزليّ؟... هنا استمدّ إدوارز المدَد من مفهوم التَّثليث المسيحيّ عن الله في ما يخصُّ العلاقات القائمة بين الأقانيم جوهريًّا... فالسببُ الأوّليُّ لإقْدام الله على الخلق، كما قال إدواردز، ليس لإكمال أيِّ نقصٍ في الله (حاشا!) بل لِتوسيع ذلك التواصُلِ الداخليّ الكامل في صَلاح الإله المُثلَّث الأقانيم وفي محبّته... إنّ فرحَ الله وسعادتَه وسرورَه بالكمالات الإلهيّة مُعبّرٌ عنها خارجيًّا بِتوصيل تِينِكَ السعادة والبهجة إلى الكائنات المخلوقة... فالكونُ هو انفجارٌ لمجد الله. إنّ كاملَ الصلاحِ والجمالِ والمحبّة تُشعُّ من الله وتَجتذِبُ الخلائق كي يشتركوا على نحوٍ مُتزايد في فرح الله وبهجته... فَغايةُ الخَلْق القُصوى إذًا هي الاتّحادُ في المحبّة بين الله والخلائق المُحبّين.[٨]

إنَّ الله لم يخلقْنا للحصول على الفرح الكونيِّ اللّامحدود الناجم عن المحبَّة والتمجيد المُتبادَلَين، بل للاشتراك فيه، إذ صُنِعنا كي نُشارِكَ في الرَّقصة. فإنْ نحنُ ركَّزْنا حياتَنا على الله، خادمينَ إيَّاه لا بدافعِ المصلحة الذاتيَّة بل من أجل كَونِه مَن هو فحسْب؛ ومن أجل جمالِه ومجده، فسَندخلُ الرَّقصةَ ونشتركُ في الفرح والمحبَّة اللَّذين يُقيمُ فيهما. فنحن إذًا قد صُمِّمنا ليس لِمجرَّد الإيمان بالله بطريقةٍ ما عموميَّة، ولا لنوعِ غامضٍ من الإلهام أو الرُّوحانيَّة. إذ إنَّنا صُنِعنا لكي نُركِّزَ حياتنا على الله، ونجعلَ غايةَ حياتِنا وشغفَها أن نعرفَهُ ونخدمَه ونُسرَّه ونتمثَّل به. وسوف يستمرُّ هذا النُّموُّ في السعادة أبديًّا، مُتزايِدًا على نحوٍ لا يمكن تَصوُّره (١كورنثوس ٢: ٧-١٠).

وهذا يؤدِّي إلى مفهوم إيجابِيٍّ على نحوٍ فريدٍ للعالَم المادِّيّ. فلَيس العالَمُ- كما تُريد تأوِيلاتٌ أخرى للخَلْق- وهمًا أسفرَتْ عنه حربٌ بين الآلِهة، ولا حصيلةً عشوائيَّةً لِقوًى طبيعيَّة. إنَّه صُنع بفرح، ولذلك فهو صالحٌ في ذاته ومن ذاته. فالكَون يُفهَم باعتباره رقصةَ كائناتٍ تُوحِّدُها طاقاتٌ ضامَّةٌ لكنْ متميِّزة، كالكواكب السيَّارة في مدارها النَّجميّ، وكالمدّ والجَزْر والمواسِم، و"كالذَّرَّاتِ في جُزَيء، والأنغام في وَتَر، والكائنات الحيَّة على هذه الأرض، والأمّ فيما الجنينُ يتحرَّكُ في جسمها".[٩] إنَّ محبَّةَ حياةِ الثالوثِ الأقدس الداخليَّةِ مكتوبةٌ في خلال ذلك كُلِّه. فالخَلقُ رقصة!

إفسادُ الرَّقصة

تبدأ قصَّة الكتاب المقدَّس برقصة الخَلْق، ولكنْ في الأصحاح الثالث من سِفر التكوين نقرأ عن السُّقوط. فقد قال الله لآدم وحوَّاء إنَّه يجبُ ألَّا يأكلا من شجرةٍ معينَّة تحت طائلةِ عُقوبةِ الموت. ولكنْ أيُّ خَطبٍ في الأكل من هذه الشجرة؟ ليس في مُتناوَلنا جوابٌ شاف. ومهما يكُن، فإذا انصَعْنا لتَوجيهات الله فقط حين تُلائم أهدافَنا ومصالِحَنا، نكون عندئذٍ مُحاوِلين أن نجعلَ الله يدورُ حَولنا. إذ ذاك يصير الله وسيلةً لِغاية، لا غايةً في ذاته. فالله إذًا يقولُ للبشر قولًا من هذا القبيل: "أطيعوني بشأن الشجرة، فقط لأنَّكم تحبُّونني- فقط من أجل ذاتي".

ثُمَّ أخفقْنا. وهكذا صِرْنا ساكنين جامدين أنانيِّين. ووفقًا للفصل الثالث من التكوين، لمَّا اختلَّتْ علاقتُنا بالله فسدَت جميعُ علاقاتنا الأخرى أيضًا. فالأنانيَّة تُنشئ عُزلةً سيكولوجيَّة. إذ لا شيء يجعلُنا أكثر

بؤسًا من الانكِباب الدائم المُتجهِّم المُستغرِق في الذات على احتياجاتنا ومطالبنا ومُعامَلتنا وذاتيَّتنا وسِجِلّنا الشخصيّ. أضِفْ أنَّ الأنانيَّة تؤدِّي إلى التفسُّخ الاجتماعيّ. فهي في أصلِ انهيار العلاقات بين الأمم والأجناس والطَّبقات والأفراد. وأخيرًا، بطريقةٍ غامِضة، أدَّى رَفضُ البشر أن يخدموا الله إلى اغترابنا عن العالَم الطبيعيّ أيضًا.

لقد أفسدْنا الرَّقصة. فإنَّ رقصةَ العلاقات الباذلة للذّات تبادُليًّا مستحيلةٌ في عالَم كلُّ مَن فيه ساكنٌ جامد، يحاولُ أن يحملَ كلَّ شيء سواه على الدَّوران حوله.

غير أنَّ الله لا يتركنا هناك. فقد وُلِد ابنُ الله في العالَم ليبدأ بَشَريَّةً جديدة، جماعةً مُشتركةً جديدة من الناس الذين يتسنَّى لهم أن يُبدِّدوا أنانيَّتهم ويُباشِروا حياةً مُركَّزةً على الله بدلًا من الذات، ونتيجةً لذلك تُقوِّم أيضًا بكلِّ يقين جميعُ علاقاتهم الأخرى شيئًا فشيئًا. وقد دعا بولسُ الرَّسولُ يسوعَ المسيح "آدم الأخير". وكما امتُحِنَ آدمُ الأوَّل في بُستانِ عَدْن، فإنَّ آدمَ الأخير (المسيح) امتُحِنَ في بستان جَثسَيماني. وقد عرفَ آدمُ الأوَّل أنَّه سيَحيا إنْ أطاعَ الله بشأن الشَّجرة، غير أنَّه لم يُطِع. كذلك امتُحِنَ آدمُ الأخيرُ أيضًا بِما أصلُه شجرة (بالصليب). وقد علم يسوعُ أنَّه سيُسحَق إنْ أطاعَ أباه، ومع ذلك أطاع.

فلماذا ماتَ السيِّدُ المسيح من أجلنا؟ وماذا كان نائلًا من ذلك؟ تذكَّرْ أنَّه كانت له أصلًا شَرِكةُ فرحٍ ومجدٍ ومحبَّة. إنَّه لم يكن في حاجةٍ إلينا. فأيَّةَ منفعةٍ إذًا جَنَى من هذا؟ لا شيء! وذلك يعني أنَّه لمَّا جاء إلى العالَم وماتَ على الصليب ليُعالِجَ مشكلة خطايانا، كان يدور حولَنا ويخدمُنا نحن. "أنا قد أعطيتُهم المجدَ الذي أعطيتَني" (يوحنَّا ١٧: ٢٢). فقد بدأ يفعلُ معنا

ما كان فاعِلَهُ مع الآب والرُّوح القُدس منذ الأزل. إنَّه يُركِّز علينا، مُحِبًّا إيَّانا بغير منفعةٍ لِذَاته.

العودةُ إلى الرَّقصة

إذا أثَّرتْ فيك روعةُ ما فعلَه السيِّد المسيح، فتلك هي الخطوة الأولى نحو خروجك من أنانيَّتك وخوفك وانخراطك في علاقةِ ثقةٍ به. فلمَّا ماتَ السيِّدُ المسيح من أجلك، فإنَّه دَعاك لأنْ تدخلَ الرَّقصة، إنْ جازَ التعبير. وهو يدعوك لأنْ تبدأ تركِّز كلَّ شيءٍ في حياتك عليه هو، مثلَما بذلَ هو نفسَه من أجلك تمامًا.

فإنْ تجاوبْتَ معه، تبدأ جميع علاقاتك تُشفى. وكما بيَّنتُ في الفصل التاسع، فإنَّ الخطيَّة هي أن تُركِّزَ هُويَّتك على أيِّ شيءٍ سوى الله. إنَّنا نعكفُ فقط على العلاقات والمساعي التي تَبنينا وتُعزِّز مجهوداتنا في مجال تبرير الذات وتشكيلها. ولكنَّ هذا يؤدِّي بنا أيضًا إلى ازدراء أولئك الذين ليست لديهم الإنجازاتُ عينُها، أو مَعالِمُ الهُوِيَّة ذاتُها، كما يؤدِّي بنا أيضًا إلى الاستِعلاء عليهم.

ولكنْ حينَ نتبيَّنُ السيِّد المسيحَ مُتَّجِهًا إلينا ومُحيطًا إيَّانا بمحبَّةٍ لامُتناهية باذلة للذَّات، نُدعى إلى وَضْع حياتنا على أساس جديدٍ كلِّيًّا. ففي وُسعنا أن نجعلَ السيِّد المسيح مركزَ حياتنا الجديدَ ويكفَّ كلٌّ منَّا عن محاولاته أن يكونَ هو مُخلِّصَ نفسِه وربَّها. ولنا أن نقبلَ من السيِّد المسيح في آنٍ معًا تَحدِّيَهُ أن نَعرِفَ ونعترف بأنَّنا خاطئُون مُحتاجون إلى خلاصِه، ومحبَّتَهُ المُجدِّدةَ باعتبارها أساسَ هُوِيَّتِنا الجديدة. عندئذٍ لَن نُضطرَّ إلى إثباتِ أنفُسِنا

أمام الآخرين. ولن يُعوِزَنا أن نستخدمَ الآخرين لِتَعزيز إحساسنا الهَشِّ بالكبرياء والأهمِّيَّة الذاتيَّة. وسنُمَكَّن من التحرُّك خارجًا نحو الآخرين، مثلما تحرَّكَ السيِّدُ المسيحُ نحوَنا.

> في بذْل النّفس- في أيّ مكانٍ كان- نُلامِسُ إيقاعًا غير مُقتصِر على كُلّ خليقة بل هو يشملُ كُلَّ كينونة. إذ إنّ **الكلمة الأزليّ** أيضًا يبذلُ نفسَه مُضحّيًا. فعندما صُلِبَ "فَعَلَ في الجوّ العاصف القاصف في ربوعه النائية ذاك الذي كان يفعلُه في مَقرِّه الأصليّ في ديار المجد والغبطة" من قبل تأسيس العالَم... من الأعلى إلى الأدنى تكونُ النفسُ مَوجودةً لتَتنازَلَ عن رفعتها، وبذلك التنازُلُ يصيرُ المُتنازِلُ هو ذاتَهُ نَفْسًا أوفى، إذ يكون على تلك الرِّفعة ومع ذلك أكثرَ تنازُلًا، ويكون ذلك إلى الأبد. وليس هذا قانونًا يمكننا الإفلاتُ منه... فما يقومُ خارجَ نظام بَذْل النفس ليس هو إلَّا الجحيمُ فحسْب... وهو ذلك الانحباسُ البغيضُ جدًّا داخلَ الذات... إنَّ بَذْلَ النفس حقيقةٌ مُطلَقة.[١]

مُستقبَل الرَّقصة

كيف ستنتهي إذًا قصَّةُ التاريخ البشريّ؟ في خِتام آخِرِ سِفرٍ من الكتاب المقدَّس، نرى تمامًا نقيضَ ما تتنبَّأُ به دياناتٌ أخرى. إذ لا نرى تَوهُّمَ تَلاشي العالَم؛ ولا نرى النُّفوس الرُّوحانيَّة تُفلِتُ من العالَم الطبيعيِّ لِتَدخُلَ السَّماء، بل نرى بالأحرى السماء نازلةً إلى عالَمِنا لِتتَّحِدَ به وتُطهِّرَهُ من كلِّ تَصدُّعٍ ونقصٍ وعَيب. وسيَكون ذلك "سماواتٍ جديدة وأرضًا جديدة". ويُصوِّرُ النبيُّ إشعياء ذلك كأنَّه جنَّةُ عَدْنٍ جديدة، فيها يسودُ من جديدٍ التَّناغُمُ المُطلَق بين البشر والطَّبيعة، ويتلاشى الظُّلمُ والضَّرر والمرض

والموت، مع زوال كُلِّ عداءٍ عُنصريٍّ وحرب. ولَن يكونَ بعدُ فُقراءُ أو عبيد أو مُجرِمون أو نائحون مَسحُوقو القُلوب.

هذا كلُّه ينتج ممَّا نعرفه عنِ الخَلق بوَصفه رقصةَ فَرَح. فالثَّالوثُ الأقدسُ أبرزَ الكون إلى الوجود في جوٍّ من "الابتهاج". إذ إنَّ الله، بدافعٍ من البهجة، خلَقَ كَونًا من الكائنات كي تدخُلَ رِحابَ فَرَحه، وقد ترنَّمتِ الكواكبُ الجديدةُ الصُّنعِ مُشيدةً بذلك. حتَّى إنَّ الخليقةَ الآن أيضًا تُحدِّثُ دائمًا بمجد الله وتَرنو إليه، وهي "تَهتف وأيضًا تُغنِّي" (المزمور ٦٥: ١٢ و١٣). فالله يتحرَّك نحو العالَم الذي خلَقَه، مُبديًا عنايتَهُ ومحبَّته. إنَّه مَعنيٌّ بكلِّ شيءٍ من خليقته، مُحبًّا وداعمًا له. ومع أنَّ الخطيَّة والشَّرَّ قد أفسدا العالَم حتَّى بات مجرَّدَ ظلٍّ لذاته الحقيقيَّة، فسَوفَ تُرَدُّ الخليقة إلى كامل مجدها، ونحنُ معها. فإنَّ "الخَليقة نفسها أيضًا ستُعتَق من عبوديَّة الفساد إلى حرِّيَّة مجد أولاد الله" (رومية ٨: ٢١). فسوف يُشفَى العالَم كلُّه إذ يؤتى به إلى ملءِ مجد الله. إنَّ الشرَّ سوف يُباد، وجميع الإمكانيَّات الكامنة في الخليقة حتَّى ذلك الحين سوف تتفجَّر بالغةً ذُروةَ الكمال والجمال. ومقارنةً بما سوف نصير آنذاك، نحنُ الآن مُجرَّدُ كائناتٍ حيَّة بسيطة. حتَّى الأشجارُ سوف تُرنِّمُ وتُنغِّمُ أمام وجه الملك العائد الذي بحضوره يُحوِّل دائمًا النَّوح إلى رقص.

ولأنَّ الخليقة صُنِعَت على صورة الله، وهو واحِدٌ وجَماعةٌ على السَّواء، فسوف يُوحَّدُ الجنس البشريُّ من جديدٍ أخيرًا، ومع ذلك يبقى تنوُّعُنا العرقيُّ والحضاريُّ سليمًا في العالَم المُجدَّد. فأخيرًا يعيش الجنسُ البشريُّ معًا في سَلامٍ واتِّكالٍ مُتبادَل. المجدُ لله في العُلى وعلى الأرض السلام.

الحياةُ المسيحيَّة

كيف نَتَجاوَبُ مع هذا؟ حين نَنظرُ إلى مدى أحداث هذه القصَّة بأكمله، نَرى جليًّا أنَّ الإيمانَ المسيحيَّ غيرُ مَعنيٍّ فقط بحصول الإنسان الفَرد على غفران خطاياه، حتَّى يتيسَّر لنا أن نذهب إلى السَّماء. تلك وسيلةٌ مُهمَّة تتعلَّق بخلاص الله، ولكنَّها ليست غايتَه النهائيَّة ولا مَقصدَه الأخير. فالغرض من مجيء السيِّد المسيح هو أن يُقوِّمَ حالَ العالَم كلِّه، أن يُجدِّدَ الخليقة ويردَّها ردًّا شاملًا كاملًا، لا أن يُيَسِّرَ الإفلاتَ منها. ليس فقط أن يأتِيَ بالغُفران والسَّلام الشَّخصيَّين إلى العالَم، بل أيضًا بالعدالة والسلام والوئام. فإنَّ الله خلقَ الجسدَ والنَّفس كِلَيهما، وقيامة السيِّد المسيح تُبيِّن أنَّه سوفَ يفتدي الجسدَ والنَّفسَ كِلَيهما. ولا يقتصرُ عَمَلُ روح الله على تخليص النَّفس، بل يشملُ أيضًا الاهتمام والاعتناء بِوَجه الأرض، أي العالَم المادِّيّ.

ومن الصَّعب أن نُغالِيَ في التشديد على فرادة هذه الرؤية. فخارِجَ الكتاب المقدَّس، لا يُقدِّمُ أيُّ إيمانٍ دينيٍّ آخر أيَّ رَجاءٍ، أو حتَّى أيَّ اهتمامٍ، بإعادة كامل السَّلام والسَّلامة والعدالة والصِّحَّة إلى هذا العالَم المادِّيّ. وقد استطاعَ الكاتبُ المسيحيُّ السريلانكيُّ ڤينوث رامانشَندرا (Vinoth Ramanchandra) أن يرى هذا غاية في الوضوح. فهو يقول إنَّ جميعَ الدِّيانات الأخرى تَعرضُ الخلاصَ باعتباره شكلًا ما من أشكال التحرير من الحالة البشريَّة المألوفة. إذ يُرى الخلاصُ فرارًا من قُيود الفردانيَّة والوجود المادِّيّ في الجَسَد إلى نوعٍ من الوجود الروحيِّ المُتعالي.

إنَّ الخلاصَ (في مفهوم الكتاب المقدّس) لا يَكمنُ في فِرارٍ من هذا العالَم، بل في تجديد هذا العالَم... لن تجد رجاءً

للعالم في أيٍّ من الأنظمة الدّينيّة أو فلسفات البشر... إنّ رؤية الكتاب المقدّس فريدة. لذلك عندما يقول بعضٌ إنّ في العقائد الإيمانيّة الأخرى خلاصًا أيضًا، أسألهم: "بشأن أيّ خلاصٍ تتحدّثون؟" فلا عقيدة إيمانيّة أخرى تُقدّم للعالَم- هذا العالَم المألوف- ما يُقدّمه صليبُ السيّد المسيح وقيامتُه من وعد بالخلاص الأبديّ."

فماذا يعني إذًا أن يصيرَ المرءُ جُزءًا من عَمَل الله في العالَم؟ ماذا يعني أن نعيشَ حياةً مسيحيَّةً؟ إحدى الطَّرائق للإجابة عن هذَين السؤالَين هي بأن نُلقيَ نظرةً استرجاعيَّةً إلى كُنه حياة الثالوث الأقدس والخليقة الأصليَّة. فقد عَمِلَنا الله كي نشتركَ على نحوٍ مُتزايدٍ دائمًا أبدًا في فَرحه وسروره على غرارِ ما له من فرحٍ وسرورٍ داخلَ ذاته. ونحن نشتركُ في فرحه أوَّلًا حينما نُعطيه المجد (بعبادته وخدمته هو بدلًا من ذواتنا)؛ وثانيًا، حينما نَحترِمُ كرامة الكائنات البشريَّة الأخرى المصنوعة على صورة مجد الله ونَخدمها؛ وثالثًا، حينما نرعى مجدَهُ الحاضرَ في عالَم الطبيعة الذي يعكسُه أيضًا. فإنَّنا نُمجِّد الله ونتمتَّع به فقط حينما نعبُدُه، ونخدمُ مُجتمع البَشَر، ونتعهَّد البيئة المخلوقة.

ولكنَّ طريقةً أخرى للنَّظر إلى الحياة المسيحيَّة تَتَمثَّل في رؤيتها من منظور الإصلاح الكُلِّيِّ النهائيّ. فالعالَمُ مُحطَّمٌ وقلوبُنا مسحوقة. وقد كانت حياةُ يسوع وموتُه وقيامتُه عمليَّةَ إنقاذٍ غاليةَ الثمن غلاءً غير محدود لإعادة العدالة إلى المظلومين والمُهمَّشين، والسَّلامة البدنيَّة للمَرضى والمائتين، والعِشرة للمعزولين والمُوحَشِين، والفرح والتواصُل للمُغرَّبين عن الله. فأنْ يصيرَ المرءُ مسيحيًّا حقيقيًّا اليوم هو أن يَغدوَ جزءًا من تلك العمليَّة عينِها، ومع توقُّع الألَم والصِّعاب إضافةً إلى اليقين البهيج بالنَّجاح النهائيّ.

إنَّ قصَّة الإنجيل تُضفي معنًى جليلًا على الواجب الأخلاقيّ واعتقادنا بحقيقة العدالة، بحيثُ يَعمد المسيحيُّون إلى إجراء العدالة الإحيائيَّة والإصلاحيَّة حيثُما استطاعوا. ثُمَّ إنَّ قصَّةَ الإنجيل تُضفي معنًى جليلًا على تديُّننا الفِطريِّ الذي تَتَعذَّرُ إزالتُه، بحيثُ يَعمدُ المسيحيُّون إلى نَشْر البشارة، مُبيِّنين الطريقَ إلى الغفران والمصالحة مع الله بيسوع المسيح. كذلك يُضفي الإنجيلُ معنًى على طبيعتنا العلائقيَّة على نحو عميق، بحيثُ يَعمدُ المسيحيُّون إلى العمل المقرون بالتَّضحية لتَقْوية الجماعات البشريَّة المُشترَكة حواليهم، فضلًا عن تعزيز الجماعة المسيحيَّة المشتركة، أي الكنيسة. وتُضفي قصَّةُ الإنجيل أيضًا معنًى على بهجتنا في حضرة الجمال، بحيث يغدو المسيحيُّون وُكَلاء أمَناء على العالَم المادِّيّ- وكلاء من أولئك الذين يتعهَّدون الخليقة الطبيعيَّة بالعِلم والبَستَنة إلى أولئك الذين يَنذرون أنفسهم للمساعي الفنِّيَّة، عالِمينَ جميعًا لماذا هذه الأمور ضروريَّةٌ في سبيل ازدهار البَشَر. إنَّ الأفلاك والأشجار "تترنَّم" مُشيدةً بمجدِ الله، ونحنُ باعتنائنا واحتفائنا بها نُحرِّر أصواتَها كي تُسبِّحَهُ وتُبهِجَنا. وبالاختصار، فإنَّ الحياةَ المسيحيَّةَ لا تَعني فقط بنيان الجماعة المسيحيَّة بتشجيع الناس على الإيمان بالسيِّد المسيح، بل أيضًا بنيان الجماعة البشريَّة من طريق أعمال العدالة والخدمة.

فالمسيحيُّون الحقيقيُّون إذًا همُ "الثُّوَّار" الفعليُّون الذين يعملون في سبيل العدل والحقّ، ونحن نعمل باجتهادٍ ترقُّبًا لعالَمٍ كامِلٍ فيه:

> سيَمسح الله كلَّ دمعة من عيونهم؛ والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزنٌ ولا صُراخ ولا وجع في ما بعد، لأنَّ الأمور الأولى قد مَضت (رؤيا يوحنَّا ٢١: ٤).

وعندما نصل إلى هُناك، فسيقولُ الواحدُ منَّا: **ها قد وصلتُ إلى دياري أخيرًا!** هذا موطني الحقيقيّ! إلى هُنا أنتمي. **هذا هو البلد الذي طالَما كنتُ أصبو إليه طوال عُمري، مع أنِّي لم أعلَمْ ذلك قطّ!** ولن تكون هذه البتَّةَ نهاية قصَّتنا. فبالحقيقة، على حدِّ تعبير سي. أس. لويس**، فإنَّ جميع المُغامرات التي نكون قد مررنا بها سوف يؤول أمرُها لأنْ تكونَ مجرَّد "الغلاف وصفحة العنوان". وأخيرًا سوف نبدأ "الفصل الأوَّل من القصَّة العظيمة التي لم يقرأها قطُّ أحدٌ على الأرض. وهي القصَّة التي تستمرُّ إلى الأبد، وكلُّ فصلٍ فيها أجملُ من سابقِه".[١٢]

** من رواية "المعركة الأخيرة" (The Last Battle)، إحدى روايات مجموعة نارنيا من منشورات أوفير للطباعة المتخصّصة والنشر (الناشر).



خاتمة

أين تَذهبُ من هنا؟

أن يعرفَ المرءُ نفسَه هو- فوقَ كلِّ شيء- أن يعرفَ ما يَفتقر إليه. وهو أن يقيسَ نفسَهُ بِمعيار الحقّ، لا أن يقومَ بعكس هذا.

فلانري أكونُور (Flannery O'Connor)

"كاتبُ القِصَصِ الخياليَّة وبَلَدُه" (The Fiction Writer and His Country)

عندئذٍ تغيَّرَ قلبُ إيوين (Eowyn)، أو إنَّها على الأقلِّ أدركَتْ ذلك.

جاي. آر. آر. تُولكين (J. R. R. Tolkien)

"عودةُ المَلك" (The Return of the King)

من المُمكِن- وإنْ لم يكُنْ من المؤكَّد بأيَّة حال- أنَّ المسيحيَّةَ ربَّما باتَت الآنَ أكثرَ مَعقوليَّةً في نظرك بعدَما قرأتَ هذا الكتاب. ولربَّما تأثَّرتَ شخصيًّا ببعضِ الأوصاف التي تناولَت احتياجاتِ عالَمِنا، وحالتَك الشخصيَّة، ورسالةَ السيِّد المسيح في العالَم. فماذا لو كنتَ مُستعدًّا لتَستكشفَ ما يعنيه أن تضعَ إيمانك في السيِّد المسيح؟ أين تَذهبُ من هُنا؟

امتحانُ دوافِعك

إنَّ الحوافزَ تَكادُ تكونُ مختلطةً دائمًا. فإن انتظرتَ حتَّى تكونَ دوافِعُك نقيَّةً ولاأنانيَّة قبل أن تقومَ بأمرٍ ما، فسوفَ تَنتظرُ إلى الأبد. غير أنَّه من المُهِمِّ أن تسألَ ماذا يدفعُكَ أساسًا نحو فعلِ أمرٍ ما، ولا سيَّما حين يتعلَّقُ الأمر بالتزامٍ إيمانيّ. فقد تكونُ مثلًا في وقتِ عُسرٍ وضيقٍ شديدَين. وعندئذٍ تَعي وعيًا حادًّا- ربَّما للمرَّة الأولى في حياتك- أنَّك تحتاجُ إلى الله، وإلى معونةٍ روحيَّةٍ من نوعٍ ما، لكي تدحرَ مُشكلَتك. ليس من خطإٍ في ذلك، ولكنْ يكونُ سهلًا جدًّا في مثل ذلك الظَّرف أن تتقدَّمَ إلى الله كما لو كان وسيلةً لِغايةٍ ما. أفتَنوي قبولَ الإيمانِ المسيحيِّ لكي تخدمَ الله، أم لِتَجعلَ الله يخدمك؟ وهذا التوجُّهُ الأخيرُ نوعٌ من الشَّامانيَّة (Shamanism)*، إذ إنَّه مُحاوَلة للسَّيطرة على الله بواسطة صلواتك وممارساتك. إنَّه استخدامٌ لِله، لا استِسلام له بالإيمان.

علينا أن نُدرِك أنَّنا جميعنا في الواقع نُباشِر رحلتَنا نحو الله لأنَّنا نريدُ منه شيئًا. ولكنْ ينبغي لنا أن نستوعبَ حقيقةَ كَوننا مديونين له بكامل حياتنا، فقط بسبب ما قد فعلَه لأجلنا أصلًا. فهو خالِقُنا، ومن أجل هذه الحقيقة وحدها نحن مَدينون له بكلِّ شيء. ولكنَّه أيضًا فادينا الذي أنقذَنا بكلفةٍ لا محدودة تحمَّلَها بنفسه. فأيُّ قلبٍ عادَ إلى رُشده يرغبُ في الخضوع لشخصٍ ليس كلِّيَّ القدرة فحسْب، بل أثبتَ أيضًا أنَّه سيُضحِّي بأيِّ شيءٍ لأجل خيرنا.

* هي ديانة العرَّافين وتنتشرُ بين شعوب شمال آسيا وتقومُ على الاعتقاد بأنَّ الدنيا مملوءَةٌ بالخير والشرّ، ولا يُستطاع التحكُّم في أرواح الخير أو أرواح الشرّ إلَّا بواسطة العرَّافين، الذين بدَورهم يدخلون في غيبوبةٍ يزورون فيها -بحسب ادِّعائهم- العوالِمَ الروحيَّة (الناشر).

نحن عادةً نُباشِرُ رحلتَنا نحو الله مُفكِّرين: "ماذا ينبغي لي أن أفعلَ كي أحظى منه بهذا أو ذاك؟" ولكن علينا أخيرًا أن نبدأ نُفكِّر: "ماذا ينبغي لي أن أفعلَ كي أحظى به هو؟" فإنْ لم تَقُم بهذه النقلة، فلن تلتقيَ أبدًا الإلهَ الحقيقيَّ فعليًّا، بل سيَنتهي بكَ الأمرُ فقط إلى الإيمان بنُسخةٍ مُشوَّهة عنه.

حسابُ النّفقة

المسيحيُّ هو حرفيًّا "تابعٌ للسيِّد المسيح" يَنتسِب إليه حقًّا. إنَّه شخصٌ لم يتأثَّرْ بالعقيدة المسيحيَّة على نحوٍ مُبهَم فحسْب، بل أيضًا حوَّلَ ولاءه الأكثر أساسيَّةً نحو السيِّد المسيح. فالمسيحيُّون يُدرِكون خِيارَ "إمَّا الكُلّ وإمَّا لا شيء" ذاك الذي تَفرضُه علَينا خُطورة دعاوى السيِّد المسيح.

لقد كان اعترافُ المسيحيِّين، منذُ الأيَّام الأولى، "**خريستوس كيريوس**": "يسوعُ المسيح رَبّ". وفي الإطار التاريخيِّ الذي فيه كان مَطلوبًا القول "**قيصر كيريوس**" "القيصرُ رَبّ"، عَنَى هذا الاعتراف أنَّ السيِّدَ المسيحَ هو السُّلطةُ العُليا. فهو ليس مجرَّدَ كائنٍ سماويٍّ ملائكيّ، بل إنَّ له- كما عبَّرَتْ إحدى الترنيمات المسيحيَّة القديمة- "اسمًا فوق كلِّ اسم" (فيلبّي ٢: ٩). وفيه "يحلُّ كلُّ ملءِ اللّاهوت جسديًّا" (كولوسّي ٢: ٩).

إنَّ هذه دعوى هائلة، ولكنَّ فيها منطقًا ثابتًا. ومن أحدث الأشخاص الذين أشاروا إلى هذا المنطق بُونو (Bono)، المُغنّي الرئيسيُّ في فرقة يُوتُو (U2)، وذلك في حِوارٍ مع ميشكا أسَياس (Michka Assayas):

أسّياس: للمسيح مكانته بين مُفكّري العالم العظماء. أمّا القول إنّه ابن الله، أفلا يَبدو بعيدَ الاحتمال؟

بُونو: لا، ليس بعيد الاحتمال في نظري. إنّ الاستجابة الدُّنيويّة لقصّة السيِّد المسيح تجري دائمًا على هذا النّحو: لقد كان نبيًّا عظيمًا، ومن الجليّ أنّه شخصٌ مثيرٌ للاهتمام جدًّا، وكان لديه الكثيرُ يقوله ممّا يُوافِق سُبُلَ الأنبياء العظماء الآخرين، أمثال إيليّا أو الرّسولِ مُحمّد أو بوذا أو كونفوشيوس. ولكنّ السيِّدَ المسيح في الواقع لا يسمحُ لنا بذلك. إنّه لا يَدَعُنا نُفلِتُ من تلك الصنّارة. فهو يقول: لا، لستُ أقولُ إنّي مُعلّم، فلا تَدْعوني مُعلّمًا. ولستُ أقول إنّي نبيّ؛ بل أقول: "إنّي أنا **المسيح**". وأقول: "إنّي اللّهُ المتجسِّد". ويقول الناس: لا، لا، رجاءً، كُنْ مُجرَّدَ نبيّ. نحن نقبلُ أن تكون نَبيًّا. إنّما أنت غريبُ التفكير. لقد جاءَنا يوحنّا المعمدان يأكلُ الجرادَ والعَسَلَ البَرّيّ، وفي وسعنا أن نقبلَه. ولكنْ لا تذكُرْ تلك الكلمةَ التي تبدأ بحرف الميم (المسيح)! فإنّنا- كما تعلَمُ- سنُضطرُّ إلى صَلبِك. عندئذٍ يمضي قائلًا: لا، لا، إنّي أعلَمُ أنّكم تنتظرون أن أرجعَ بجيشٍ وأحرِّرَكم من أولئك البَغيضين، ولكنّي أنا هو المسيحُ حقًّا. إذ ذاك يبدأ كلُّ واحدٍ يُحدِّق إلى حذائه، ويقول: آه، يا لَلعجب! إنّه سيَظلُّ يقولُ هذا! وهكذا لا يبقى أمامنا إلّا هذا: إمّا أنّ السيِّدَ المسيحَ هو مَن قال إنّه هو- أي المسيح المُخلِّص- وإمّا أنّه مُخبَّل تمامًا. وهنا أتكلَّمُ عن مُخبَّلٍ على مُستوى القاتل المتسلسل تشارلز مانسون (Charles Manson).... ولستُ بمازح! فإنّما الفكرةُ القائلةُ إنّ مجرى الحضارة كلّه بالنسبة إلى أكثرَ من نصف الكُرة الأرضيّة كان ممكنًا أن يتغيّرَ مصيرُه ويُقلبَ رأسًا على عقب بفضلِ مُخبَّل، **تلك** الفكرةُ هي الأمرُ البعيد الاحتمال...

فإنَّ بُونو يَصفُ كيف تَضطرُّنا تصريحاتُ السيِّد المسيح بشأن ذاته إلى خيارٍ حتميّ: "إمَّا الكلَّ وإمَّا لا شيء". إذ يسألُ عن مدى الاحتماليَّة في أن يتمكَّنَ رَجُلٌ مُخبَّل– على شاكلة تشارلز مانسون أو ديڤيد كُورِش (David Koresh)– أن يُحدِثَ في أتباعه وفي العالَم التأثيرَ الذي أحدَثَه. ولكنْ إذا لم يكُنِ السيِّدُ المسيح مُخبَّلًا، فالخِيارُ الوحيدُ الذي يبقى أمامنا عندئذٍ هو أن نقبلَ دَعواه ونُركِّز كامل حياتنا حولَه. إنَّما الأمرُ الوحيدُ الذي لا يحقُّ لنا أن نفعلَه هو أن نستجيبَ له بفُتور.

كذلك تؤكِّد فلانِري أكونُور النُّقطةَ عينَها في قصَّتها "**الإنسان الصالح صَعبٌ أن تجدَه**" (A Good Man is Hard to Find). فإنَّ **المنحرفَ** (الذي لا يستقيمُ مع محيطه) قاطعُ طريقٍ يحتجز عائلةً في منطقة من الريف الجنوبيّ. وتُحاوِلُ ربَّةُ الأسرة، الجدَّة، أن تُقنعَه بعدم قتلِها مُثَرثِرةً بكلامٍ عن الصلاة والكنيسة والمسيح. غير أنَّ المنحرفَ يُجيبُ قائلًا:

> المسيح... إنّه قلبَ الموازينَ كلّها. فإنْ كان قد فعل ما قاله، فلا يبقى لديكِ إلّا أن تَتخلّيْ عن كلّ شيء وتَتْبَعيه. وإن لم يكُنْ قد فعلَ ذلك، فلا يبقى لديكِ إلّا أن تتمتَّعي بالدقائق القليلة المتبقّية لكِ بأفضل طريقةٍ تستطيعينها، وذلك بأن تقتُلي أحدًا، أو تُحرِقي بيته، أو تؤذيه بأيّةِ رَذالةٍ أخرى. لا متعةَ إلّا الرَّذالة.

وقد علَّقَت أكونُور على هذه الحادثة بقولها إنَّ المنحرفَ قد فهمَ فعلًا تنويهات السيِّد المسيح بوجوب إعطائه "إمَّا الكُلَّ وإمَّا لا شيء". إنَّ القصَّة هي مبارزةٌ غير مُتكافئة بينَ الجدَّة ومعتقداتها السطحيَّة وبين شعور المنحرف الأعمق بواجب الالتزام الفعليّ لاتِّباع السيِّد المسيح الذي قَلَبَ الموازين كلَّها في نظره".[١] وقد شعرَتْ أكونُور شخصيًّا بهذا الالتزام. فلا نفعَ

في مُجرَّد قولك إنَّك آمنتَ بالسيِّد المسيح إلَّا إذا جعلْتَ ذلك يُغيِّر حياتَك ويؤثِّر في رؤيتك إلى كلِّ شيء. وقد كتبَتْ في مقالة: "لا معنى للفداء إلَّا إذا كانتْ له قضيَّةٌ في الحياة الفعليَّة التي نعيشُها. فأنا أنظرُ إلى الأمور من نُقطة استشراف العقيدة المسيحيَّة القويمة. وهذا يعني أنَّ معنى الحياة بالنسبة إليَّ يتركَّزُ في فداء السيِّد المسيح لنا، وما أراه في العالَم فإنَّما أراه في علاقته بذلك الفداء".[٢]

إنَّ بُونو وأكونُور شخصيَّتان مختلفتان إلى أقصى الحدود، ومع ذلك شعرا كِلاهما شخصيًّا بما تنطوي عليه دعاوى السيِّد المسيح من مضامين. فالمسيحيُّون الحقيقيُّون قَومٌ يَدَعُونَ حقيقةَ السيِّد المسيح تُغيِّر كُلَّ شيءٍ في ما يخصُّ مَن هُم، وكيف يَرَون الأمور، وكيف يعيشون حياتَهم.

إجراءُ عمليَّة الجَرْد

ربَّما سبَّبَتْ لك تحدِّياتُ بُونو وأكونُور هذه غُصَّةً وضيقًا. فماذا لو كُنتَ مُحترِمًا للإيمان المسيحيِّ باطِّراد ومُهتمًّا به بازدِياد، ولكنَّك لستَ مُستعدًّا بعدُ للقيام بمثل هذا الالتزام الخطير؟ لعلَّك تشعرُ بأنَّه ما زال بينك وبين الإيمان المسيحيِّ عوائق.

إذا كان ذلك وضْعَك، فلا تكتفِ بتَرك الأمور مُعلَّقة، آملًا أن تَتغيَّر مشاعرُك بطريقة ما، وأن تتبدَّد العوائقُ على نحوٍ ما. إنَّما أجْرِ عمليَّةَ جردٍ لكي تُدرِكَ الأسبابَ المحدَّدةَ الكامنةَ وراء تحفُّظاتك. وإليكَ مجموعةَ أسئلةٍ مُمكِنة تُعينُك في هذه العمليَّة:

- **مسائل تخصُّ المضمون** (Content Issues): أفي الرِّسالة المسيحيَّة

عناصِرُ لا تفهمُها أو لا تقبلُها، كالخَلْق والخطيَّة وألوهيَّة السيِّد المسيح والصليب والقيامة؟

- **مسائل تخصُّ الانسجامَ المنطقيّ** (Coherence Issues): أمَا زالَتْ لديك شكوكٌ واعتراضاتٌ بشأن الإيمان المسيحيِّ لا تستطيعُ حلَّها؟
- **مسائل تخصُّ النَّفقة** (Cost Issues): هل تُدرِك أنَّ الانتقال إلى الإيمان المسيحيِّ الكامل سيُكلِّفك شيئًا عزيزًا؟ أيَّةُ مَخاوِفَ تُساوِرك بشأن التَّسليم التامِّ أو الالتزام؟

في وُسعكَ أن تستخدمَ مُخطَّطًا من هذا القبيل كي تُحلِّلَ وتُحدِّد العوائقَ التي تَثنيكَ عن الالتزام الكامل، ولكنْ لا تثقْ بنفسك للقيام بهذا دونَ مساعدةٍ أو إرشاد. إنَّ كلَّ شيءٍ تقريبًا- من تعلُّم لُغة جديدة إلى إتقان مهارةٍ جديدة- يُكتسَبُ على أفضل نحوٍ بمَعيَّة أشخاصٍ آخرين بلَغوا مراحلَ شتَّى في أثناء مسيرتهم الخاصَّة. فاقْضِ وقتًا في كنيسةٍ مسيحيَّة حيَّة، حاضِرًا اجتماعات العبادة فيها ومُصادِقًا بعضَ أعضائها، لكي تتحدَّث مع مؤمنينَ وتسمع كيف تَصَدَّوا لتلك الشُّكوك هُم أنفسُهم.

وأهمُّ كلِّ شيءٍ أن تتذكَّرَ أنَّه كي تَصيرَ مؤمنًا بالسيِّد المسيح ليس الأمرُ مجرَّدَ تأشيرٍ على بنودِ لائحةٍ تَتضمَّن أمورًا يجب أن تؤمن بها وتعملَها. ففي آخِرِ الأصحاح الحادي عشر من إنجيل متَّى، يَدْعونا السيِّدُ المسيح بقَوله: "تعالَوا إليَّ يا جميعَ المُتعَبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحُكم. احملوا نيري عليكم وتعلَّموا منِّي... لأنَّ نيري هيِّن وحملي خفيف". وقد قال رجلٌ مرَّةً لأحد رعاة الكنائس إنَّه سيَقبل الإيمان المسيحيَّ بِسُرور إذا تمكَّن القِسّيسُ من إعطائه بُرهانًا لا لَبسَ فيه على ذلك الإيمان. فأجابه

القسِّيس: "ماذا لو أنَّ الله لم يُعطِنا برهانًا لا لَبسَ فيه، بل بالأحرى شخصًا لا لَبسَ فيه؟"[٣] فها إنَّ المسيحَ قائلٌ: "أنا ذلك الشَّخص. تعالَوا إليَّ. انظُروا مَن أنا. انظُروا صليبي. انظُروا قيامتي. ما كان في وسع أحدٍ أن يخترعَ هذا كُلَّه! تعالَوا إليَّ فتجدوا راحةً لنفوسكم".

إنَّ الإيمان واليقين يَنمِيان أخيرًا حينَ يتيسَّر لنا أن نعرف المزيد عن السيِّد المسيح، ومَن هو، وماذا فعل.

وهنالك بَعدُ عائقٌ آخر يشعرُ كثيرون عند هذا الحدِّ أنَّه ربَّما لا يكون تَخطِّيه صعبًا كما تَظنّ. فإنَّ مدينةَ نيويورك تَغصُّ بأناسٍ أنشأهم أهلهم وعَمَّدوهم في كنائسَ شتَّى ولكنَّهم تخلَّوا عن إيمانهم في مُراهقتِهم وجامعاتهم، ولم يُفكِّروا فيه كثيرًا سنينَ عديدة. ثُمَّ يحدُثُ لهم ما يُشعِرُهم بالنَّقص، وإذا بهم يجدونَ أنفسَهم في حالةِ بحثٍ روحيّ. وإذ يُراجعونَ أساسيَّات الإيمان المسيحيِّ، يبدو لهم أنَّهم لم يَفْهموه قطُّ من قَبلُ فهمًا صحيحًا. والسؤالُ الذي يَطرحونَه عليَّ بصفتي راعيَ كنيسةٍ هو: "لستُ أدري بالحقيقة أمسيحيٌّ أنا أم لا. أعائدٌ أنا إلى إيماني أم واجدٌ له للمرَّة الأولى؟" فالجواب بسيط: لا أستطيع الجزم، وذلك لا يهمّ. وسواءٌ أردتَ أن ترتبط بالله أم أن تُعاوِدَ الارتباطَ به، ينبغي لكَ أن تفعلَ الأمرَين عينَهما. فما هذان الأمران؟

مُبادَرةٌ لا بُدَّ منها

أوَّلُ أمرٍ ينبغي أن تفعله هو أن تتوب. ولئن بَدَت هذه الكلمة ذاتَ وَقعٍ غير مُحبَّب، فلا سبيلَ إلى المُراوغة بشأنها. فالتَّوبة التي تبدأ علاقةً جديدةً

بالله ليستْ في الجوهر مسألةَ سَردِ لوائحَ بخطايا مخصوصة أنت نادمٌ عليها وتُريد الإقلاعَ عنها. لا تُسِئ فهمي: إنْ كنتَ تبتزُّ الفُقراء أو تخون زَوجتك، فعليك أن تكفَّ عن ذلك مهما كلَّفك الأمر. إذ يجبُ على المسيحيِّ المؤمن أن يحبَّ الفقراءَ ويكون ملتزمًا نحو عهود الزواج. ولكنَّ تغييرًا سلوكيًّا من هذا القبيل لن يجعلَكَ وحدَه مسيحيًّا حقيقيًّا. فإنَّ كثيرين من الناس في العالَم هم ذوو أخلاق على الصَّعيدَين الاجتماعيِّ والشخصيّ، ولكنَّهم ليسوا على علاقةٍ بالله بواسطة يسوع المسيح. وليسَتِ التَّوبةُ أقلَّ من كَونك نادمًا على خطاياك الفعليَّة، فهي تَعني أكثرَ من هذا بكثير.

إنَّ التَّوبة التي تُغيِّر فعلًا قلبَك وعلاقتك بالله تَبدأ حين تُدرِكُ أنَّ خطيَّتك الرئيسيَّة- تلك الخطيَّة التي تكمنُ في أساس باقي خطاياك- هي مشروعُ الخلاص الذاتيِّ لَدَيك. وكما رأينا في الفصلَين التاسع والعاشر، ففي أعمالنا الفاسدة وفي أعمالنا الصالحة على السَّواء نسعى لأنْ نكونَ مُخلِّصي نفوسنا وأربابها. فلدَينا مُتَّكَلاتٌ و"آلهة" بديلة، وإنْ كُنَّا لا نَدعوها هكذا. ونحن نُحاوِلُ أن نُثبِتَ أنفسَنا بصلاحنا الخُلُقيِّ، أو من طريق الإنجاز أو الأسرة أو المِهنة. حتَّى الانخراطُ النَّاشطُ في الكنيسة والدِّين قد ينبغي أن نتوبَ عنه حالَما نَعي أنَّه كان كُلُّه طريقةً لجَعل الله والآخرين مَديونين لنا.

فالتَّوبة إذًا هي أن تعترفَ بكلِّ الأشياء التي كُنتَ تعتمدُ عليها لأجل رجائك وشأنك وأمانك عدا الله. وهذا يعني أنَّ علينا أن نتوبَ ليس فقط عن الأمور التي أسأنا فِعلَها (كالخيانة والكذب)، بل أيضًا عن الحافز القائم وراءَ أعمالنا الصالحة.

وثاني أمرٍ ينبغي أن تفعلَه هو أن تؤمن بالسيِّد المسيح. وللإيمان بالمسيح مَضمونُه المخصوص. فيجب أن نؤمنَ بما قاله هو عن ذاته، وبأنَّنا نحتاج

إلى الخلاص، وبأنَّه أمَّنَ ذلك الخلاصَ على الصليب، وبأنَّه قامَ من بين الأموات. ولكنْ بينَما الإيمانُ المسيحيُّ المُغيِّر للحياة ليس أقلّ من تصديق هذه الأمور بعقلك، فهو أكثر من هذا بكثير.

إنَّ الإيمانَ الذي يُغيِّر الحياةَ ويربطُ الإنسان بالله تُعبِّر عنه أفضلَ تعبيرٍ الكلمةُ "ثقة" أو "تَوكُّل". تصوَّرْ أنَّك على جُرفٍ صخريٍّ عالٍ، حيث تَزلُّ قدمُك وتبدأ في السُّقوط. وبقُربكِ تمامًا وأنت تَهوي غُصنٌ بارزٌ من حافَة الهُوَّة بذاتِها. ذلك الغُصن هو رجاؤك الوحيد، وهو قويٌّ قُوَّةً أكثرَ من كافيةٍ لحَمْل وزنك.

فكيف يمكن أن يُخلِّصك؟ إذا كان عقلكُ عامرًا باليقين الفكريِّ بأنَّ الغُصن يستطيع أن يحملك، ولكنَّك لا تمدُّ يدَكَ فعلًا وتَتَشبَّثُ به، فأنت هالكٌ لا محالة. أمَّا إذا كان عقلك مُمتَلِئًا بالشُّكوك واللَّايقين بأنَّ في وُسع الغُصن أن يحملَك، ولكنَّك على كلِّ حالٍ تَمدُّ يدَكَ وتَتَشبَّثُ به، فسوف تُخلَّصُ. لماذا؟ لأنَّ ما يُخلِّصك فعلًا ليس هو قوَّة إيمانك بل مَوضِعُ إيمانك. فالإيمانُ القويُّ بغُصنٍ ضعيفٍ هو أدنى على نحوٍ مُهلِكٍ من الإيمان الضعيف بغُصنٍ قويّ.

وهذا يعني أنَّه لا ينبغي لك أن تنتظرَ حتَّى تَتَبدَّدَ جميعُ شُكوكِكَ ومَخاوِفك كي تتمسَّكَ بالسيِّد المسيح. لا تَرتكِبْ غلطةَ الظنِّ بأنَّ عليك أن تدحرَ كلَّ ريبةٍ وتوجُّس لكي تُقابلَ الله. فمن شأن ذلك أن يُحوِّلَ إيمانك إلى طريقةٍ إضافيَّة لتَكونَ أنت مُخلِّصَ نفسك. ذلك أنَّ عملَك على نوعيَّة التزامكَ (تسليمكَ) ونقاوته يغدو طريقةً لاستحقاق الخلاص وجَعْل الله مديونًا لك. غير أنَّ ما يخلِّصنا ليس هو سلامة نيَّاتنا ونقاوة قلوبنا، بل عَمَل يسوع المسيح من أجلنا.

فالإيمان إذًا يبدأ إذ تُدرِكُ كلَّ ما لديك من مُتَّكَلات وآلهةٍ بديلة وتَرفُضُها جميعها، وتلتفتُ بالأحرى إلى الآب السماويّ، مُلتمِسًا عَلاقةً به على أساسِ ما قد فعله السيِّدُ المسيح، لا على أساسِ مجهوداتك أو إنجازاتك الخُلُقيَّة. وقد قام بضعةُ راشِدين في مُقتبَل العُمر، من بينِ مَعارِفي، بخُطوةِ الإيمان الشَّخصيَّةِ على هذا النَّحو، إذ صَلَّوا على غِرارِ ما يلي:

> أيُّها الآبُ السماويُّ، لطالَما آمنتُ بك وبيسوع المسيح كلَّ حين. ولكنَّ مُتَّكَلَ قلبي الأكثر جوهريَّةً كان في مَوضِعٍ آخر- كان في أهليَّتي ولياقتي. وهذا إنَّما ورَّطني في البَلاء فحسْب. فَبِمقدارِ ما أعرِفُ قلبي الخاصّ، أسلِّمُك إيّاه اليوم. إنّي أحوِّل مُتَّكَلي إليك، طالبًا أن تستقبلني وتقبلني لا لشيءٍ قد فعلتُه، بل من أجل كُلِّ ما فعله السيِّد المسيح من أجلي. آمين!

وهذا يُطلِقُ عمليَّةً تَدومُ مَدى العُمر، في أثنائها- من طريق التغيير الدائم في كلِّ مَيدانٍ من ميادين الحياة- تُشكِّلُنا قِصَّةُ الإنجيل وتَصوغُنا أكثر فأكثر.

الاندماجُ في الجماعة

عندما يسألُ الناس: "كيف يمكنني أن أصيرَ بالفعل مسيحيًّا حقيقيًّا؟" أقولُ عادةً: "ذلك يستلزم أمرَين، وأمرًا ثالثًا". أمَّا الأمران الأوَّلان- التَّوبة والإيمان- فقد عرضتُهما قبلَ قليل. إنَّما يَبقى جانبٌ حاسمٌ آخر. فلماذا إذًا لا نَقول توًّا إنَّ هنالك ثلاثةَ أمورٍ فعلًا؟ إنِّي أفضِّل أن أقولَ "أمرَين... وثالثًا" لأنَّ الثالث ليس هو أمرًا ثالثًا بمقدار كَونه الطريقةَ التي بها تَقومُ بالأمرَين الأوَّلَين.

أن يصيرَ المرءُ مَسيحيًّا لها دائمًا ناحيةٌ فرديَّة وأخرى جماعيَّة على

السَّواء. فأهل الحضارات الغربيَّة يقلُّلون من تقديرَ قضيَّةٍ إلى أيَّةِ درجةٍ هُم حصيلةُ عائلاتهم وجماعاتهم وحضاراتهم، وليس فقط نِتاجَ اختياراتهم الشخصيَّة. ولذلك وَجَبَ أن تُجرى التوبة والإيمان فرديًّا وجماعيًّا على السَّواء. ونحن نَقوم بهما حين نتقدَّمُ إلى الله بالصلاة (كما في الأمثلة السابقة)، وأيضًا حين نندمج متوحِّدين معًا بشكل علنيٍّ مع السيِّد المسيح حينما نصير جُزءًا من كنيسته.

يُفيدُنا إنجيلُ لوقا أنَّ يسوعَ صُلِب بين لِصَّين كانا يُعدَمان أيضًا. وقد انهالَ أحدُهما على يسوع بالشَّتم، غير أنَّ اللِّصَّ الآخرَ قال لذاك: "أمَّا نحن فبعَدل، لأنَّنا ننالُ استحقاقَ ما فعلنا. وأمَّا هذا فلم يفعلْ شيئًا ليس في محلِّه". وفي ذلك الظَّرف، كان هذا تبصُّرًا رائعًا. فقد أدركَ اللِّصُّ أنَّ يسوعَ بريءٌ يموتُ من أجل المُذنِبين. ثُمَّ التفَتَ وقال لِيَسوع: "اذكُرني، يا ربّ، متى جئتَ في ملكوتك". وبذلك كان يَضَعُ ثقته ورجاءَه في السيِّد المسيح، الذي سوف يُقيم مَملكةً مُستقبليَّة، سماءً جديدةً وأرضًا جديدة. ولحظةَ وَضَعَ ثقتَهُ في السيِّد المسيح، طَمْأنَه يسوعُ قائلًا: "الحقَّ أقولُ لك: إنَّك اليومَ تكونُ معي في الفِردَوس" (لوقا ٢٣: ٤١-٤٣).

لقد رَويْتُ هذه الحادثةَ لأنَّها تُوضِحُ أنَّ في وُسع المرء أن يَتيقَّنَ بانتمائه إلى السيِّد المسيح لحظةَ يقومُ بهذه الإجراء القلبيِّ الشَّخصيِّ مع الله. على أنَّ كلَّ ما في العهد الجديد يُبيِّن أنَّه ينبغي للمسيحيِّين أن يُثبِتوا ويُقِرُّوا ذلك الالتزامَ (التَّسليم) الشخصيَّ بواسطة فِعلِ مُشارَكةٍ علنيٍّ يتمثَّل في المعموديَّة والانخراط في الكنيسة. فالقُلوبُ مُتقلِّبة، ولكي نَتَيقَّن بأنَّنا وَضَعْنا ثقتَنا القلبيَّة في السيِّد المسيح، لا في أشياءَ أخرى، يُعوِزُنا أن نُواليَ الأمرَ ونندمجَ في جماعةٍ من المؤمنين.

إنِّي أعي أنَّ المشكلةَ الرئيسيَّةَ لدى كثيرين جدًّا من الناس تتعلَّق بالكنيسة أكثرَ بكثيرٍ ممَّا تتعلَّقُ بالسيِّد المسيح. وهمُ لا يُريدونَ أن يُقالَ لهم إنَّه لكي يصيروا مسيحيِّين حقيقيِّين ويعيشوا حياةً مسيحيَّة، فإنَّه يُعوِزُهم أن يجدوا كنيسةً فيها يستطيعونَ أن يَنمُوا ويَزهُوا. فقد كانت لهمُ اختباراتٌ سيِّئةٌ مع الكنائس فائقةٌ للحَدّ. وأنا أتفهَّم ذلك تمامًا. وسأسلِّم جَدَلًا بأنَّ مُرتادِي الكنائس عمومًا قد يكونون أضعفَ من غير المُتردِّدين إليها سيكولوجيًّا وأدبيًّا. إنَّما لا ينبغي أن يكونَ ذلك أكثرَ إدهاشًا من حقيقة كَونِ الأشخاص الجالِسينَ في عيادة طبيبٍ هم على العموم أشدَّ مَرضًا من أولئك الذين ليسوا هُناك. فالكنائس تجتذبُ فعلًا نسبةً عُليا من الأشخاص المُحتاجين. وهي تضمُّ أيضًا عددًا كبيرًا من الأشخاص الذين تغيَّرَت حياتُهم تغييرًا كلِّيًّا وامتلأتْ بفرح السيِّد المسيح.

وهكذا، فإنَّ كنيسةَ المسيح تُشبِهُ المُحيط. فهي هائلةٌ ومُتنوِّعة. وفيها مِثلَ المُحيط، مواقعُ دافئةٌ وصافية، ومَواضِعُ باردةٌ مُميتة؛ أماكنُ تستطيعُ أن تدخلها بيُسرٍ دونَ خطر، وأماكنُ تُعرِّضُكَ حالًا للانجراف بعيدًا وتَقتُلك. وأنا أعي كم هو أمرٌ محفوفٌ بالأخطار أن أقولَ لقُرَّائي إنَّه ينبغي لهم أن يبحثوا عن كنيسة. فلستُ أفعلُ هذا بخفَّة، بل أناشِدُهم أن يقوموا بذلك باذلين أقصى الانتباه. ولكنْ لا بديلَ لذلك. إذ لا يمكنُكَ أن تعيشَ الحياةَ المسيحيَّة من دونِ مَعشرِ أصدقاءَ مسيحيِّين، من دون عائلةِ مؤمنينَ فيها تجدُ لك مكانًا.

صَدمةُ النِّعمة

عندما يَسأل الناس: "كيف أصير مسيحيًّا حقيقيًّا؟" فمن المُهمّ أن نُعطيَهم جوابًا محدَّدًا. ولكن من الخَطِر أيضًا أن نُعطيَهم انطباعًا بأنَّ الاهتداء إلى

اللهِ هو تقنيَّةٌ في جوهره، أي أمرٌ متروكٌ لنا جوهريًّا. يقينًا أنَّه ينبغي لنا أن نكونَ نشيطينَ في طلب الله، وقد دعانا يسوع نفسُه أن "اسألوا... اطلُبوا... اقرَعُوا" حتَّى نهتديَ إليه. غير أنَّ الذين يدخلونَ علاقةً بالله لا بدَّ أن يلتَفتوا إلى الوراء فيُدرِكوا أنَّ نعمةَ الله قد فتَّشَتْ عنهم وطلبَتهم، مُهيِّئةً إيَّاهم لقبول حقائق جديدة. فبطريقةٍ ما كُنتَ لِتَتوقَّعها، تبرزُ أمامَك حقيقةُ طبيعتِك السَّاقطة ونِعمةِ الله الفائقة. إذ ذاك تُدرِكُ أنَّ مجهوداتِك كي تكونَ صالحًا أو سعيدًا أو أصيلًا كانت جزءًا من المشكلة. فالغشاوة تَسقُط، وإذا بك تَرى الأمورَ رؤيةً مختلفة، غير أنَّك لا تعرفُ أبدًا كيف سيَحدُثُ ذلك. وفي وسعي أن أبيِّنَ هذا في مئةِ سيرةٍ روحيَّة شهيرة، كَسِيَر بولس الرسول وأغسطينوس ومارتن لوثر (Martin Luther) وجون وسلي (John Wesley) مثلًا، أو في ألفِ شهادةٍ بشأن تغيُّرِ الحياةِ يُدلي بها أشخاصٌ من جمهور المؤمنين في الكنيسة التي أخدمُ فيها راعيًا. ولكنَّ مَثَلي الأثيرَ على صدمة النعمة هو ذاك الذي مثَّلَتهُ فلانِري أكونُور في قصَّتها "**إلْهام**" (Revelation).

تبدأ القصَّة في عيادة طبيب، حيثُ السيِّدة تُرپِن (Turpin) وزوجُها كلُود (Claud) ينتظران معَ آخرين حُلولَ مَوعِدهما. وتقضي السيِّدة تُرپِن وقتها مُخمِّنةً وشاعرةً بأنَّها مُتفوِّقةٌ فعلًا على جميع أصناف الناس- من مُختلِف الأجناس والفئات والنماذج الجسمانيَّة والأمزجة- مُمثَّلينَ في أولئك الجالسين حوالَيها في الغُرفة. وهي مُعتدَّةٌ بذاتها كثيرًا وبارَّةٌ في عين نفسِها تمامًا، ولكنْ بطريقةٍ يمكن تَصديقُها تمامًا. فإنَّ أكونُور تُصوِّرُ ببراعةٍ عمليَّاتِ التفكيرِ النَّقديَّةَ لدى السيِّدة تُرپِن من جهة الآخرين، بطريقةٍ مألوفةٍ على نحوٍ مُقلِق.

ثُمَّ تُباشِرُ حديثًا مع امرأةٍ أخرى كانت هُناك مع ابنتها العاكفة على قراءةِ كتاب، واسمُ الفتاة ماري غريس (Mary Grace) (وتعني كلمةُ (Grace) نعمة). وفيما السيِّدة تُرِپن تتكلَّم، يَبرز ما لديها من غُرورٍ وتَعالٍ على الآخرينَ هائلَين. أمَّا ماري غريس فتَعبسُ وتُكشِّر، بغير أن تقولَ شيئًا، فيما المرأةُ ماضيةٌ في ثرثرتها. أخيرًا تهتف السيِّدة تُرِپن قائلةً:

> إنْ كان لا بُدّ من الإفصاح عن شيء، أقولُ إنّي شاكرة. فعندما أفكّر في كلّ ما كان يمكن أن أكونه خلاف من أنا؛ وحين أفكّرُ أيضًا في كلّ ما لديّ، أشعر فعلًا بميلٍ لأنْ أهتف: "شُكرًا لك، يا يسوع، على جعلِكَ كلّ شيءٍ كما هي حاله الآن!" كان يمكنُ أن يكونَ الأمرُ مختلفًا... نعم، شكرًا لك يا يسوع، شكرًا لك!

تلكَ اللحظةَ عينَها، تَستشيط ماري غريس. وتَرمي الكتابَ الذي تقرأه وعنوانه "التنمية البشريَّة" (Human Development) على السيِّدة تُرِپن، فيُصيبُ عينَها. ثُمَّ تندفعُ من فوق منضدة، وتَضَعُ أصابعها حول عُنق المرأة، وتُباشِرُ خَنْقَها. وما تلبثُ أن تأخُذَ ماري غريس نوبةُ صَرْع، وفيما يمسكها الآخرون تَنحني السيِّدة تُرِپن فوقَها مَشدوهةً، وتسألُها بصوتٍ أجشّ: "ماذا لَدَيكِ تقولينَه لي؟ ثُمَّ تَحبسُ نَفَسها مُنتظِرةً أن تُعطَى إلهامًا". فعلى مُستوًى ما، كانت تطلُبُ اعتذارًا؛ ولكنْ على مُستوًى آخر، باتت تُدرِكُ أنَّ الفتاة مُرسَلةٌ من قِبَلِ نعمةِ الله. إذ ذاك تنظر ماري غريس إلى فَوقُ وتقول: "عُودي إلى جهنَّم، مِن حيثُ جئتِ، أيَّتها الخِنزيرةُ الوحشيَّةُ الهَرِمة!"

لقد بلغَ الإلهامُ مَقصِدَه، وعلى السيِّدة تُرِپن الآنَ أن تُغيِّرَ رؤيتها إلى العالَم بمُقتضى ذلك الإلهام. وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، تخلو بنفسِها مع أفكارها بقرب زريبة الخنازير التي لديها،حيث تقول لله بغضبٍ شديد:

"لماذا تبعث إليَّ برسالة كهذه؟ كيف أكون خِنزيرةً وأنا ذاتي معًا. كيف أكون مُخلَّصةً، ومن جهنَّمَ أيضًا؟"

وقبل ذلك بقُرون، كان مارتن لوثر قد تعلَّم- بطريقةٍ لا تقلُّ في صَدمَتها أبدًا- أنَّ الله يُخلِّص الإنسانَ بالنِّعمة، لا بالأعمال الصالحة. فقد أدركَ أنَّ المسيحيَّ المؤمنَ هو في الوقت عَينه "مُبرَّرٌ ومَقبولٌ" في السيِّد المسيح، بنعمته فقط، وهو "خاطئٌ" أيضًا. مُخلَّصٌ و "حيوانٌ وَحشيٌّ من جهنَّم" في آنٍ معًا.

غير أنَّ السيِّدة تُرپِن، على غِرار مارتن لوثر، تُقاوِم أوَّلًا إلْهامَ نعمة الله. إذ تُدمدِمُ ساخطةً: "لماذا أنا؟ ليس مِن رَعاعٍ هُنا، سُودٍ أو بيض، حبستُ عنهم عطائي. وها أنا أنهَك كثيرًا في العمل كلَّ يوم. ثُمَّ إنِّي أخدمُ الكنيسة. إذا كنتَ تحبُّ الرَّعاعَ حبًّا أفضل، فَاذْهبْ إذًا واجمَعْ لنفسك بعض الرَّعاع... كيف أكونُ مثلَهم تمامًا؟"... ثُمَّ تُضيفُ مُتذمِّرةً: "كان يمكن أن أكفَّ عن العَمَل، وأهوِّنَ الأمور عليَّ، وأكونَ دَنسة... أتسكَّع على الأرصفة طولَ النهار شاربةً جَعة الجُذور، وأمضغُ التَّبغَ ثُمَّ أبصُقه في كُلِّ بُرَيكَة، مُوسِّخةً به وجهي كُلَّه. بَلى، في وسعي أن أكون شرِّيرة". أخيرًا تأخذُها سَورةُ غضبٍ تهزُّها هَزًّا، فتصرخ مُخاطِبةً الله: "**مَن تظنُّ نفسَك؟**"

لحظَتئذٍ تغيبُ الشَّمس، فترى السيِّدة تُرپِن شُعاعةً أرجوانيَّةً في السَّماء.

وإذا بنورٍ رُؤيويٍّ استقرَّ في عينَيها. فرأتْ جسرًا مُترجِّحًا ضخمًا يمتدُّ إلى فوقُ من الأرض عبرَ حقلٍ من النّار المتأجِّجة. وعليه كان حشدٌ هائل من النُّفوس يعبرُ نحو السَّماء بعَجيجٍ وضَجيج.

> كانت هنالك جماعاتٌ كاملةٌ من الرَّعاع، وكتائبُ من ذوي الخِلقة العجيبة والمجاذيب، يهتفونَ ويُصفّقون ويقفزون كالضّفادع. إنّما في الأخير كان قومٌ من الناس عرفْتهم في الحال بأنّهم أولئك الذين كان لهم في الحياة دائمًا- شأنُهم شأنُها وشأنُ كلود- قليلٌ من كلِّ شيء، وكانت لهم الفِطنةُ التي يَهَبُها الله لاستخدام ذلك القليل استخدامًا صائبًا... كان هؤلاء يسيرونَ وراء الآخرين بأناقة ولياقة، مُراعِينَ- كحالِهم دائمًا- حُسنَ التنظيم وسلامةَ الذَّوق وآدابَ السُّلوك. وقد كانُوا هُم وحدَهم على أحسنِ طِراز. غير أنّها استطاعت أن تُدرِكَ من وجوههم المُتجهِّمة الذّاهلة أنّه حتّى فضائلُهم كانت آخذةً في الاحتراق والتبدُّد... وبعدَ لحظةٍ تلاشت الرُّؤيا... وفي الغابات حواليها، كانت جوقاتُ حشرات اللَّيل غيرُ المرئيّة قد باشرت غناءها، ولكنّ ما سمعَتْه كان أصواتَ النُّفوس الصاعدة نحو العلاء إلى رحاب الحَقل المُترامي المُرصَّع بالنُّجوم وهي تهتفُ هلّلويا (سَبحًا لله)![٤]

يا لها من فكرةٍ جوهريَّة! أن يذهبَ ذوو "الخِلقةِ العجيبة والمجاذيبُ" إلى السَّماء قبلَ القَوم المُستقيمين خُلُقيًّا؟ ولكنَّ السيِّدَ المسيح أكَّدَ الأمرَ عينَهُ حينَ صدمَ القادة الدِّينيِّين في زمانه بِقَوله لهم: "الحقَّ أقول لكم: إنَّ العشَّارين والزَّواني يسبقونكم إلى ملكوت الله" (متّى ٢١: ٣١).

وماذا لو أنَّك بلغتَ نهاية هذا الكتاب، ونتيجةً لقراءتك إيَّاه تتمنَّى لو يتسنَّى لك أن تحوزَ إيمانًا ولكنَّك لا تحوزُه؟ لقد اعترفَ الأديبُ جوزيف إيشْتايْن (Joseph Epstein) مرَّةً بأنَّه يحسدُ القومَ الذين لديهم إيمانٌ نَبيهٌ عميقٌ من النَّوع الذي يمكنُ أن يُواكِبَهم في أحلكِ الأزمات. وهو كانَ مدهوشًا على وجه الخُصوص حيالَ الكيفيَّة التي بها مكَّنَ فلانِري أكونور

إيمانُها المسيحيُّ من مواجهة موتٍ مُبكِّر بداءِ الذّأبة (Lupus) دون تذمُّر أو خوف. غيَر أنَّه خلص إلى القول: "إنَّ حَسَدَ الإيمان هو- واأسفاه!- حَسَدٌ لا يستطيع المرءُ أن يفعلَ بشأنه شيئًا سوى إضمارِه في النَّفس في سُكون". وأنا أقدِّرُ احترامَ إيشْتايْن لسرِّ الإيمان. فهو ليس شيئًا يمكنُكَ أن توجِدَه في نفسك بواسطةِ تِقنيَّةٍ ما. ولكنْ، أليسَ من شيءٍ نفعلُه حقًّا؟

إنَّ امرأةً في رعيَّتي، في أثناء فترةٍ مُظلمة من حياتها، شَكَت أنَّها قد صلَّت مرارًا وتكرارًا: "يا ربّ، ساعِدني كي أجِدَك"، ولكنَّها لم تصِلْ إلى أيَّة نتيجة. غير أنَّ صديقةً مؤمنةً بالسيِّد المسيح اقترحَتْ عليها أنَّها تستطيع أن تُغيِّرَ صلاتَها بحيثُ تقول: "يا ربّ، تعالَ وَجِدْني. ألَسْتَ أنت الراعيَ الصالح الذي يذهبُ مُفتِّشًا عن الخِراف الضالَّة؟" وقد ختمَتْ حديثَها إذ كانت تَروي لي هذا الخبر، قائلةً: "السببُ الوحيدُ الذي من أجله أستطيعُ أن أحكيَ لك قصَّتي هذه هو أنَّه وَجَدَني فعلًا".



كلمةُ شكر

أودُّ أن أشكرَ جمهورَ المؤمنين والقادةَ في كنيسة الفادي المشيخيَّة، مع شُكري الخاصِّ لعديدِ المُستفسِرين والمُكافحِين والنُّقاد الذين قابلتُهم هناك على مرِّ السِّنين. فلَيس هذا الكتاب سوى سِجِلٍّ لِما تعلَّمتُه منهم. شُكرًا لجِل لامار (Jill Lamar) من أجل تشجيعها ودعمها الدائمَين لي في الكتابة. والشكْر أيضًا لِديڤيد مكورمك (David McCormick)، الوكيل الجليل، ولِبرَيان تارْت (Bryan Tart)، المُحرِّر المَهيب، ونثنائيل كَلهُون (Nathaniel Calhoun)، وجَنِفَر صمويلْز (Jennifer Samuels)، وديڤيد نَغرِن (David Negrin)، ولِن لاند (Lynn Land)، وجيم وسوزي لاين (Jim and Susie Lane)، وجانيس وُرث (Janice Worth)، ونيكول دايامond-أوستِن (Nicole Diamond-Austin)، ونساء المائدة المُستديرة وأزواجهنّ، وأبنائي الثلاثة- ديڤيد ومايكل وجوناثان (David, Michael and Jonathan)- من أجل تقديمهم أجمعين دعمًا كثيرًا جدًّا واقتراحاتٍ مُهمَّةً كثيرةً جدًّا في أثناء كتابتي هذا الكتاب على مدى السِّنين الأربع الأخيرة.

كذلك أيضًا أدينُ بنوعٍ من الفضلِ أعمقَ للأشخاص الثلاثة الذين كان لهم الدَّورُ الأكثر تأثيرًا في الصِّيغة الجوهريَّة لإيماني المسيحيّ. وهُم على التوالي: زوجتي كاثي، والأديبُ البريطانيُّ سي. أس. لِويس، واللاهوتيُّ الأميركيُّ جوناثان إدواردز.

إنَّ كلمات لِويس تكادُ تَظهرُ في كلِّ فصل. وسيَكون من الخطإِ ألَّا أعترفَ بِكَم أخذتُ عنه ممَّا أعتقِدُه بشأن الإيمان. أمَّا كلمات إدواردز فهي أقلُّ ظهورًا، لأنَّه أسهَمَ أكثرَ في البنية الأساسيَّة لِما يُمكنُ أن أدعُوَه "لاهوتيَّاتي". غير أنَّ أفكارَ لِويس وإدواردز تتوافق وتتلاقى في هذا الكتاب بطُرقٍ مُدهِشة. فالفصل الأخير عن "رقصة الله" مثلًا يَدينُ بالفضل لأحدهما كما يَدينُ للآخَر.

أمَّا زوجتي كاثي، فلا تُذكَر في الحواشي أبدًا، ومع ذلك فهي المؤلِّفةُ الرئيسيَّة لإيماني وفكري أنا مؤلِّفَ هذا الكتاب. فإنَّها وجَّهتني إلى لِويس، وإلى إدواردز ولاهوتيَّات الإصلاح، وإلى أهمِّيَّة الصَّلاة والعدالة الاجتماعيَّة وإلى أهمِّيَّة المدينة. وعندما يكونُ المرءُ أساسيًّا بهذا المقدار نسبةً إلى رؤية أحدهم إلى العالَم والحياة، فهو يُذكَر في سياق كلمة الشُّكر، ولكنْ ليس في الحواشي. والسببُ الرئيسيُّ لدفعي بهذا الكتاب للطِّباعة هو أنَّ كاثي أحبَّته. "امتداحُ مَن يستحقُّ المدحَ هو فوقَ كُلِّ مكافأة".



الحواشي

المقدِّمة

1. See the report "One in Three Adults Is Unchurched" (March 28, 2005) at the George Barna Group.

   في أوروبا، انخفض عدد الذين لا يحضرون اجتماعات الكنائس انخفاضًا أكثرَ حِدَّةً، فيما حلَّ معدَّل حضور الكنائس في إنكلترا في مَرتبةٍ وَسَط.

   See Grace Davie, "Europe: The Exception that Proves the Rule?" in Peter L. Berger, ed. *The Desecularization of the World: Resurgent Religion and World Politics* (Eerdmans, 1999) and Peter Brierly, *The Tide Is Running Out* (Christian Research, 2000).
2. Ross Douthat, "Crises of Faith," *The Atlantic Monthly,* July/Agust 2007.
3. George Marsden, *The Soul of the American University: From Protestant Establishment to Established Non-belief* (Oxford University Press, 1999).
4. Source: Peter Berger at the Pew Forum Faith Angle Conference, "Religion in a Globalizing World," December 4, 2006, Key West, Florida. Transcript accessed at http://pewforum.org/events/ index. php ?Event ID=136. See also Douthat, "Crises of Faith," The Atlantic Monthly (July/August 2007).

   يعتمد داوتهات المعطَيات عينَها التي يلحظها بيرغر، مُبيِّنًا على خلاف الانطباعات

الواسعة الانتشار أنَّ أوروبا آخِذةٌ في أن تصيرَ أكثر تديُّنًا، في حين تصير أميركا أعمقَ انقسامًا بين الدينيِّ والدُّنيويِّ. وهو يقول إنَّ كلتا النَّزعتَين هاتَين تعنِيان استمرار الصراع الثقافيِّ والسياسيِّ والتطرُّف في كلا الجانبَين.

5. "Defending the Faith," by Douglas Groothuis, *Books and Culture* (July/August 2003): 12. See Quentin Smith, "The Metaphilosophy of Naturalism," Philo 4, no. 2 at www.philoonline.org/ library/ smith_4_2.htm.

   اليوم، جمعيَّة الفلاسفة المسيحيِّين (The Society of Christian Philosophers)، وقد أُسِّسَتْ سنة ١٩٧٨، تضمُّ أكثر من ١٠٪ من جميع معلِّمي الفلسفة وأساتذتها في أميركا

   For more on this see K. Clark, *Philosophers Who Believe* (Oxford University Press).

6. "One University Under God?" *The Chronicle of Higher Education: Careers*, January 7, 2005.
7. For a good overview, read the entire transcript of the Peter Berger–led Pew Forum referenced above.
8. "A New Jerusalem," *The Economist*, September 21, 2006.
9.

   من المتَّفَق عليه غالبًا أنَّ "الحقيقة" هي إمَّا شيءٌ جليٌّ بذاته للجميع تقريبًا (مثلًا، "في الطريق صخرة") وإمَّا شيءٌ لا تدركه الحواسُّ ولكنْ يمكن إثباته علميًّا. فإن اعتقدْنا شيئًا لا تمكن برهنَتُه بإحدى هاتَين الطريقتَين، فهو عندئذٍ "مُعتقَدٌ" أو فعلُ إيمان.

10. For a good short summary of why we are all "believers," see Christian Smith, "Believing Animals," *Moral Believing Animals: Human Personhood and Culture* (Oxford University Press, 2003).
11. Each Easter at Redeemer we ask members to share the personal accounts of their faith journeys. These are a selection from Easter 2006. Used with permission.

الفصل الأوَّل: لا يُعقَلُ أن توجَدَ ديانةٌ حقيقيَّةٌ واحدةٌ فقط

1.

الاقتباسات في مستهلّ كلّ فصل مأخوذةٌ من استطلاع بالبريد الإلكترونيّ لنيويوركيّين شباب في أواسط عشرينيّاتهم طُلبَ إليهم أن يعبِّروا عن شكوكهم واعتراضاتهم الرئيسيَّة بشأن الإيمان المسيحيّ؛ وقد غَيَّرتُ الأسماء. وأنا أشكر نيكول دياموند أوستن على الفكرة وعلى تنفيذ الاستطلاع.

2.

إنَّ الموجة الحديثة من الكُتب المناهِضة للدِّين والرائجة جدًّا بأقلام ريتشارد داوكنْز وسام هرِس ودانيال دنت وكريستوفر هِتشنْز لا تُزكّي بُطلان الدِّين، بل تعود فقط إلى كَونهم لا يعتقدون أنَّ تلك الاستراتيجيَّة فعَّالةٌ عمليًّا. فرجاؤهم الرئيس بالنسبة إلى الدِّين أن يلقَى الشجبَ والهُزءَ بشدَّة، وأن يصيرَ على نحوٍ رسميٍّ أمرًا ذاتيًّا بحيث يُضعَف ويُهمَّش.

3. Alister McGrath, *The Twilight of Atheism: The Rise and Fall of Disbelief in the Modern World* (Oxford University Press, 2004), p. 230. See also pp. 187, 235.

4.

اعتقد كثيرون من المفكّرين البارزين في أواسط القرن العشرين أنَّه حين يغدو حفداؤهم في مثل سنِّهم ستكون معظم الأديان في وهنَتْ أو تلاشت. فمثلًا، كان في وُسع عالمٍ أنثروپولجيٍّ سنة ١٩٦٦ أن يكتبَ: "إن مستقبَلَ الدِّين التطوُّريَّ هو الانقراض... فالإيمان بقوًى فَوطبيعيَّة مصيرُه أن يضمحلَّ في جميع أنحاء العالَم نتيجةً لِتَزايُد وثاقة صلةِ المعرفة العلميَّة وسِعة انتشارها".

A. F. C. Wallace, Religion: *An Anthropological View* (Random House, 1966), p. 265.

5. For some account of how sociologists have backed away from the secularization thesis, see Peter L. Berger, ed., *The Desecularization of the World: Resurgent Religion and World Politics* (Eerdmans, 1999).

6. On the growth of Christianity in the Non-Western World, see Philip

Jenkins, *The Next Christendom* (Oxford University Press, 2002) and Lamin Sanneh, *Whose Religion Is Christianity?* (Eerdmans, 2003).

7. Joe Klein, "Because I Promised and You Seemed So Darn Curious . . ." on the *Time* magazine blog, March 7, 2007. Accessed that date at http://time-blog.com/swampland/2007/03/ because_i_ promised_ and_you_see.html.
8. Lesslie Newbigin, *The Gospel in a Pluralist Society* (Eerdmans, 1989), pp. 9–10, 170.
9. Peter Berger, *A Rumor of Angels: Modern Society and the Rediscovery of the Supernatural* (Doubleday, 1969), p. 40.
10. Lesslie Newbigin, *The Gospel in a Pluralist Society* (Eerdmans, 1989), pp. 9–10, 170. 9 Peter Berger, *A Rumor of Angels: Modern Society and the Rediscovery of the Supernatural* (Doubleday, 1969), p. 40.

ثَمّة عدّة دراسات نقديّة مُتقَنة تُبيِّن طبيعة الدَّحض الذاتيّ في النسبيَّة، وأحد الأمثلة على ذلك ما كتبه إتش. سيغل:

Relativism Refuted: A Critique of Contemporary Epistemological Relativism (Dordrecht: D. Reidel, 1987).

وهنالك وجهة نظر بالغة التأثير تزعم أنَّ "الحقيقة" توجَدُ فقط ضمن إطارٍ معيَّن من المعتقدات، وأنَّ كلَّ مُعتقد هو ذو قيمة مساوية بسبب عدم وجود معيار يتخطّى الأطر يجري بواسطته التحكيم بين جميع مزاعم الحقيقة. ويتمثَّل شكلٌ من هذا الزَّعم أكثرُ حداثةً في التشديد على أن الحقيقة "تستبدُّ بها اللغة" وأنَّ كلَّ زَعم بالحقيقة لا يعدو كَونَه تَبَصُّرات جماعةٍ لُغويّة معيَّنة.

ولكنْ، كما يبيِّن سيغل، أن يُقالَ إنَّ جميعَ رواياتِ الحقيقة تستبدُّ بها اللغة وتكون نسبيَّة عند جماعاتها اللغويّة هو بحدِّ ذاته روايةٌ شاملةٌ لمفعول اللغة عبر جميع الجماعات المشتركة، ومن ثَمَّ فهو زعمٌ بشأن الظرف البشريّ من هذا القبيل. إنَّما نِظرة النسبيِّين الخاصَّة إلى الأمور لا تخوِّلهم حقَّ التكلُّم على هذا النحو. فهم يفعلون الأمر عينَه الذين يمنعون الجماعات الأخرى أن تفعلَه. "وهكذا، فإنَّ النسبيَّة لا

تستطيع أن تحقّق إعلان ذاتها، أو حتّى اعتبار ذاتها، من دون أن تهزمَ ذاتها".

11. Alvin Plantinga, "A Defense of Religious Exclusivism," in *The Analytic Theist*, ed. James F. Sennett (Eerdmans, 1998), p. 205.
12. John Hick, *The Myth of God Incarnate* (Westminster, 1977) and *An Interpretation of Religion* (Yale University Press, 1989). For a much more extensive answer to Hick than I give here see Peter Van Inwagen, "Non Est Hick," in *The Rationality of Belief and the Plurality of Faith,* ed. T. Senor (Cornell University Press, 1995).
13.

يوجَدُ عرضٌ مفصَّلٌ لهذه النقطة في المرجع التالي:

Stanley Fish's "The Trouble with Tolerance" in the November 10, 2006, issue of the *Chronicle of Higher Education.*

وهذه مُراجَعةٌ لِ

Wendy Brown's *Regulating Aversion: Tolerance in the Age of Identity and Empire* (Princeton University Press, 2006).

ووجهة نظرها (كوجهة نظر فِش أيضًا) أنَّ الفكرة الغربيَّة القائلة "بالتساهل حيال جميع الآراء" هي في ذاتها تشكيلة مخصوصة جدًّا من الافتراضات بشأن الحقيقة تُستعمَل تاليًا كمعاييرَ لتقرير مَن يتساهَل المجتمع معه ومَن لا يتساهَل. ويقول فِش إنَّ لدى المجتمع الغربيِّ تشكيلَتَه الخاصَّة من المعتقدات المقدَّسة التي لا نِزاع فيها، مثل "قدسيَّة الاختيار". ويُجادلُ فِش وبراون بأنَّ كثيرًا من المعتقدات التاريخيَّة التقليديَّة إنَّما باتتْ عُرضةً "لعدم التَّسامح" في ذلك المجتمع بسبب البنية الجديدة التي يُضفيها عليها المجتمع الغربيُّ اللّيبراليّ.

"فهي تفترضُ أنَّ الناس يقومون بالأمور ليس بسبب ما يعتقدونه، بل لأنَّهم يهود أو مُسلمون أو سود أو مثليُّون... فهم محصَّنون حيال الجاذبيَّة العقلانيَّة". ولذلك فإنَّ أيَّ دينٍ يُضفي على حقيقته الخاصَّة قيمةً تفوق قيمة التَّسامح يُعدُّ "مُفرط الصِّلة" بحضارة القَوم وغير قادرٍ على أن يكونَ عقلانيًّا. "وما إن تكون جماعةٌ ما قد رفضتْ التَّسامح بصفته مبدأً هاديًا واختارتْ بدلًا منه الواجباتِ الحضاريَّة التي تُوصي بها الكنيسة أو القبيلة، حتّى تصيرَ مرشَّحةً لعدم التَّسامح الذي يُؤدّى باسْم التَّسامح".

14. C. John Sommerville, *The Decline of the Secular University* (Oxford University Press, 2006), p. 63.
15. Mark Lilla, "Getting Religion: My Long-lost Years as a Teenage Evangelical," in *New York Times Magazine* September 18, 2005, p. 95.
16. Robert Audi, "The Separation of Church and State and the Obligations of Citizenship," *Philosophy and Public Affairs* 18 (1989): 296; John Rawls, *Politi cal Liberalism* (Columbia University Press, 1993), pp. 212–254.
17. On February 28, 2007, this document could be accessed at http://www.cfi dc .org/declaration .html.
18. Richard Rorty, "Religion as a Conversation-Stopper," *Philosophy and Social Hope* (Penguin, 1999), pp. 168–169.
19. See Richard Rorty, *Consequences of Pragmatism* (University of Minnesota Press, 1982) pp. 166–67.
20. Stephen L. Carter, *The Dissent of the Governed* (Harvard University Press, 1999), p. 90.
21.

مثلًا تُقيم ليندا هِرشمان دعوى على النساء اللواتي يَبقَين خارج سوق العمل كي يُربِّين الأولاد في المنزل. وهي تُصرُّ على أنّه من غير الصواب أن تفعلَ النساء ذلك حتّى لو كان اختيارَهنَّ الطوعيَّ الحرّ. "إنَّ العائلة- بمهمّاتها الطبيعيّة المتكرِّرة وغير المنظورة اجتماعيًّا- هي جزءٌ ضروريٌّ من الحياة، ولكنّها تُتيحُ للازدهار البشريِّ الكامل فرصًا أقلَّ ممّا تُتيحه الدوائر العامّة مثل السُّوق والحكومة. وهذه الدائرة الأقلُّ ازدهارًا ليست المسؤوليّة الطبيعيّة أو الأدبيّة للنساء وحدَهنَّ... فالنساء اللواتي يخصِّصْنَها لأنفسهنَّ يلحقهنَّ الظلم".

"Homeward Bound," in *The American Prospect* 16, no. 12 (December 2005).

لاحظ أنَّ حجَّتها مؤسَّسةٌ على تخمينٍ "للازدهار البشريِّ" لا يمكنُ أبدًا أن يُبرهَنَ تجريبيًّا. وهو متجذِّرٌ في آراءٍ عن الكرامة والمجتمع البشريَّين تبدو في ظاهرها عَلمانيّة، ولكنّها حتمًا غيرُ قابلةٍ للبرهنة وعرضةٌ للجدل ومؤسَّسةٌ في النهاية على افتراضاتٍ

إيمانيَّة ذات علاقة برؤيةٍ شاملةٍ إلى العالَم. ويُناصر ديفيد بروكس هرشمان: "إنَّها تؤكِّد بأنَّ الوظائف ذات المدخول العالي تُؤدِّي إلى ازدهارٍ بشريٍّ أكثر من ذاك الذي تُؤدِّي إليه الوالديَّة. فألقِ نظرةً استرجاعيَّة على حياتك، وقُلْ: أيَّة ذكرياتٍ تعزُّها أكثر- تلك التي لك مع عائلتك، أم تلك التي حصلتَ عليها في الوظيفة؟"

See "The Year of Domesticity," *New York Times*, January 1, 2006.

22. Gary Rosen, "Narrowing the Religion Gap?" *New York Times Sunday Magazine*, February 18, 2007.
23. This interchange is adapted from C. John Sommerville, "The Exhaustion of Secularism," *The Chronicle Review* (June 9, 2006).
24. Michael J. Perry, *Under God? Religious Faith and Liberal Democracy* (Cambridge University Press, 2003), p. 44.

غير أنَّ پري يُحاجُّ على حقٍّ بأنَّ الخطابَ العامَّ ذا الأساس الدِّينيِّ في نظامٍ ديمقراطيٍّ ليبراليٍّ يجب أن يكونَ "مَدروسًا" لا "عقائديًّا" فحسب. أي أنَّ المتكلِّمين يجب أن يكونوا مستعدِّين لأن يُنتَقَدوا، ويردُّوا على النَّقد، ويتداوَلوا ويُناقشوا يسعَوا إلى جعل دعوى المرء مُقنعةً للطرف الآخر بقدر المستطاع.

25. See Perry's Chapter 3: "Why Political Reliance on Religiously Grounded Morality Is Not Illegitimate in a Liberal Democracy" in *Under God?* above.
26. See John Witte, Jr., "God's Joust, God's Justice: An Illustration from the History of Marriage Law," in *Christian Perspectives on Legal Thought*, M. McConnell, R. Cochran, A. Carmella, eds. (Yale University Press, 2001), pp. 406–425.
27. Stanley Fish, "Our Faith in Letting It All Hang Out," *New York Times*, February 12, 2006.
28. Miroslav Volf, "Soft Difference: Theological Reflections on the Relation Between Church and Culture in 1 Peter," *Ex Auditu* 10 (1994): 15–30.
29. See C. S. Lewis's appendix, "Illustrations of the Tao" in *The Abolition of Man* (Macmillan, 1947).

بيتُ القصيد عند لِويس أنَّ بين الأديان تشابُكًا مهمًّا في ما يتعلَّق بالأخلاق: كيف

يُفترَض أن نعيشَ في العالَم. والفوارق الحادَّة بين الأديان تحصلُ في نطاقٍ آخر، ألا وهو "علمُ الخلاص". فالأديان تختلفُ في تَوجيهاتها بشأن كيفيَّة الاتِّصال بالله والحصول على القوَّة الروحيَّة للعيش بالطريقة الموصوفة.

30.

قد يُفاجئُ هذا التصريح كثيرًا من القرَّاء الذين سبق أن سمعوا أنَّ الأديان القُدمى والوثنيَّة كانت أكثر إيجابيَّة من المسيحيَّة تُجاهَ النساء. فقد كان شائعًا جدًّا في العالَم اليونانيِّ-الرومانيِّ أن تُرمَى المولودات حديثًا في العَراء حتَّى يَمُتنَ من جرَّاء التعرُّض لعوامل الطبيعة، بسبب مكانة النساء الوضيعة في المجتمع. وقد منعَت الكنيسة جمهورها أن يفعلوا ذلك. فإنَّ المجتمعَ اليونانيَّ-الرومانيَّ لم يجدْ قيمةً للمرأة غير المتزوِّجة، ولذلك كان مُخالفًا للقانون أن تبقى الأرملة بغير زواج من جديد مدَّةً تفوقُ السنتَين. ولكنَّ المسيحيَّة كانت أوَّل دينٍ لا يُرغم الأرامل على التزوُّج. فإنَّهنَّ كنَّ يلقينَ الدعم الماديَّ والكرامة ضمن الجماعة بحيث لم يكُنَّ تحت ضغط شديد كي يتزوَّجنَ إذا لم يرغبنَ في ذلك. وكانت النساء الوثنيَّات يفقدنَ كلَّ سيطرةٍ على أملاك أزواجهنَّ إذا تزوَّجنَ من جديد، غير أنَّ الكنيسة سمحت للأرامل بأن يحتفظنَ بأملاك أزواجهنَّ. أخيرًا، لم يؤمنِ المسيحيُّون بالمساكنة. فإن أراد رجلٌ مسيحيٌّ أن يعيشَ مع امرأة، كان عليه أن يتزوَّجها، وقد أعطى ذلك النساءَ أمانًا أعظم بكثيرٍ جدًّا. ثُمَّ إنَّ المعيار الوثنيَّ المزدوج في السماح للرجال بأن يقيموا علاقاتٍ جنسيَّةً خارج الزواج، وبأن يتَّخذوا خليلاتٍ (عشيقات) كان محظورًا في المسيحيَّة. وبهذه الطُّرق جميعًا تمتَّعَت النساء المسيحيَّات بأمانٍ ومُساواةٍ أعظم بكثيرٍ جدًّا ممَّا تمتَّعت به النساء في الحضارة المحيطة.

See Rodney Stark, *The Rise of Christianity* (Harper, 1996), Chapter 5: "The Role of Women in Christian Growth."

31.

خلاصةٌ عظيمةٌ لأسباب انتصار المسيحيَّة على الوثنيَّة القُدمى، من طريق ممارساتها المتَّسمة بالرحمة والعدل، نجدها في المرجع التالي:

Rodney Stark, *The Rise of Christianity* (Harper, 1996), Chapters 4, 6, 7.

2nd ed. (Eerdmans, 1986), and Wilfred McClay, "Two Kinds of Secularism," *The Wilson Quarterly* (Summer 2000). A sophisticated dialogue on this subject can be found in R. Audi and N. Wolterstorff, *Religion in the Public Square: The Place of Religious Convictions in Politi cal Debate* (Rowman and Little-field, 1997). See Chapter 8 for more on the worldview soil that human rights need in order to grow.

12.

أشار ميشيل فوكو إلى أنَّ تشديد المجتمع الغربيِّ على حقوق الفرد و"احتضان" الأقلِّيَّات والنساء وأمورٍ أخرى يصحبه "تاريخُ ظلٍّ" من الحصريَّة والإقصاء. فكيف نحسب أولئك الذين لا يقبلون المفاهيم الغربيَّة المتعلِّقة بحقوق الفرد وخصوصيَّته؟

يُبيِّن فوكو أنَّ أولئك الذين يرتابون في آراء العصريَّة المتعلِّقة بالحقوق والمنطق يُوصَمون الآن ليس بأنَّهم "لاأخلاقيُّون" أو "مُهَرطقون" (كما في القرون الوُسطى)، بل بأنَّهم "لاعقلانيُّون" و"غير متمدِّنين".

إذا أردتَ قراءةً خلاصة جيِّدةٍ عن نقد فوكو لما يُدعى "الشُّموليَّة" الغربيَّة، انظر المرجع التالي:

Miroslav Volf, *Exclusion and Embrace: A Theological Exploration of Identity, Otherness, and Reconciliation* (Abingdon, 1996), pp. 58–64.

13.

"اللَّاحتميَّة المتطرِّفة" تتلازم مع نزعةٍ ثابتةٍ نحو الشمول تُسَوِّي جميع الحدود المقسِّمة. ولكنْ، ألا تقوِّضُ هذه من الداخل فكرة الاشتمال؟ فبلا حدود نكون قادرين على أن نعرفَ فقط ما نحاربُ ضدَّه، إنَّما ليس ما نحارب من أجله. والكفاح الذكيُّ ضدَّ الحصريَّة يقتضي وجودَ فئاتٍ ومعاييرَ قياسيَّة تمكِّننا من التمييز بين الممارسات القمعيَّة وتلك اللَّاقمعيَّة. فالتعبير "لا حدود" يعني أنْ لا السعادة ولا المسرَّة، ولا الحرِّيَّة ولا العدالة، يُمكنُ أن تحدَّد".

Volf, *Exclusion and Embrace*, p. 61.

14.

لنا مثلٌ واضح في تعليق جري فوْلوُل (Jerry Falwell) على ما كتبه پات روبتسون (*The 700 Club*) في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سپتمبر:

''أعتقدُ حقًّا أنَّ الوثنيِّين والإجهاضيِّين ودُعاة مساواةِ المرأة الشاملة، والمثليِّين، والسُّحاقيَّات الذين يحاولون جاهدين أن يجعلوا ذلك نمطَ حياةٍ بديلًا. إنَّ أولئك الذين حاولوا أن يجعلوا أميركا لادِينيَّة هم مسؤولون. إنِّي أمدُّ سبَّابتي إلى وجوههم وأقول: ''أنتم أسهمتهم في حدوث هذا!'' إلَّا أنَّ الاحتجاجات والاعتراضات الواسعة الانتشار من داخل الكنيسة أرغمتْ فولول على التَّراجع عن تعليقه في غضون ساعاتٍ قليلة.

(See http:// archives.cnn.com/ 2001/US/09/14/Falwell .apology. Last accessed March 5, 2007.)

15. Lamin Sanneh, *Whose Religion Is Christianity?* (Eerdmans, 2003), p. 15.
16. Philip Jenkins, *Christendom: The Coming of Global Christianity* (Oxford, 2002), p. 56. *The Next Christendom: The Coming of Global Christianity* (Oxford University Press, 2002), p. 56.
17. Ibid., p. 70.
18. David Aikman, *Jesus in Beijing: How Christianity Is Transforming China and Changing the Global Balance of Power* (Regnery, 2003), p. 285.

19.

يعزو لامين سانه هذا إلى ''قابليَّة المسيحيَّة للتَّرجمة''. وإذ هو غامبيٌّ ومسلمٌ سابق، يفارق بين المسيحيَّة والإسلام الذي يصرُّ على أنَّ القرآن الحقيقيَّ لا يمكنُ أن يُترجَم. فَلِكَي يسمعُ المرءُ كلمة الله، يجب أن يتعلَّم العربيَّة. ولكنَّ إيثارَ لغةٍ واحدةٍ يعني إيثارَ حضارةٍ واحدة؛ لأنَّ الكلمات المفتاحيَّة في أيَّة لغة ذات معنًى مُتَجذِّر في تقاليد حضارةٍ معيَّنة وقوالبها الفكريَّة. بمعجزة يوم الخمسين الذي فيه سمع كلُّ حاضرٍ بشارة الإنجيل بلُغته القوميَّة. وهكذا، فما من لغةٍ أو حضارة واحدةٍ تتفوَّقُ على أيَّة لغةٍ أو حضارةٍ أخرى. وقد تُرجِمَ الكتاب المقدَّس إلى كلِّ لغةٍ وحضارة.

See Lamin Sanneh, "Translatability in Islam and Christianity, with Special Reference to Africa," *Translating the Message: The Missionary Impact on Culture* (Orbis, 1987), p. 211ff.

20. Lamin Sanneh, *Whose Religion Is Christianity?* (Eerdmans, 2003), p. 43.
21. Ibid., pp. 43–44, 69–70.
22. Sanneh and Andrew F. Walls do not deny…

إن سانه وأندرو أف. وُلز لا يُنكران أنَّ المرسَلين المنتمين إلى حضارةٍ معيَّنة (الأوروبيَّة مثلًا) غالبًا ما يفرضون شكل المسيحيَّة الخاصّ بحضارتهم على المهتَدين الجدُد. ولكن حين يُقبِلُ المهتَدون على قراءة الكتاب المقدَّس بلغتهم الخاصَّة، يَرَون في الكلمة المقدَّسة أمورًا كان المرسَلون قد "قلَّلوا من أهمِّيَّتها" (مثل الرُّقى والتعويذات) وأمورًا أخرى كانوا قد "أبرزوها للعيان" بمقتضى منظوراتهم وانحيازاتهم الحضاريَّة الخاصَّة. وقد يؤدِّي هذا إلى ردَّة فعلٍ مبالَغٍ فيها على شكل الإيمان الذي دعا إليه المرسَلون. وفي الأخير، يتفهَّم المهتَدون حضارتَهم وتقاليدهم الخاصَّة- رافضين أجزاء منها، ومؤكِّدين أجزاء أخرى، ومُكيِّفين أجزاءً أخرى في ضوء قراءتهم للأسفار المقدَّسة.

23. From R. Niebuhr, "Humour and Faith," *The Essential Reinhold Niebuhr*, R. M. Brown, ed. (Yale University Press, 1986), p. 49ff. Quoted in Sommerville, *The Decline of the Secular University,* p.129.
24. Andrew F. Walls, "The Expansion of Christianity: An Interview with Andrew Walls," *Christian Century*, August 2–9, 2000, p. 792.
25.

"المسيحيَّة هي ديانةٌ ما يزيد عن ألفَي مجموعةٍ لغويَّة مختلفة في العالم. فالذين يُصلُّون ويعبدون من المسيحيِّين تفوقُ لغاتهم عدد أمثالهم من أهل أيَّة ديانةٍ أخرى في العالَم... ومن البديهيِّ أنَّ هذه الحقائق المتعلِّقة بالرِّيادة الحضاريَّة واللُّغويَّة تتضارَب مع صيت المسيحيَّة بوصفها فعلًا هائلًا من عدم التسامح الحضاريّ. وقد أدَّى ذلك إلى عقدة شعور بالذَّنب عميقة في العالَم المسيحيّ، تبدو جميع البيِّنات المعاكسة له عديمة النَّفع. ولكن من المهمِّ أن يُدفَع النَّاس إلى التغيير؛ لأنَّ المسيحيَّة الناقصة التي

يُمارسونها الآن هي شطرٌ حضاريٌّ بالٍ من شيءٍ أكثر عظمةً وجِدَّةً.

Sanneh, *Whose Religion Is Christianity?*, pp. 69–70.

26. This term comes from A. J. Conyers, "Can Postmodernism Be Used as a Template for Christian Theology?" *Christian Scholar's Review* 33 (Spring 2004): 3.
27. Kevin Vanhoozer, "Pilgrim's Digress: Christian Thinking on and About the Post/Modern Way," *in Christianity and the Post-modern Turn*, ed. Myron B. Penner (Brazos, 2005), p. 74.
28. Quoted in John Stott, *The Contemporary Christian* (IVP, 1992). The interview's English translation appeared in the *Guardian Weekly*, June 23, 1985.
29. C. S. Lewis, *The Four Loves* (Harcourt, 1960), p. 123.
30. The unnamed "old author" is quoted in C. S. Lewis, *The Four Loves* (Harcourt, 1988), p. 140.

الفصل الرابع: الكنيسةُ مسؤولةٌ عن مقدارٍ كبيرٍ من الظُّلم

1. Mark Lilla, "Getting Religion: My Long-lost Years as a Teenage Evangelical," in the *New York Times Magazine*, September 18, 2005, p. 94–95.
2.

وإن كان ما نبتغيه حجَّةً ضدَّ المسيحيَّة، فمن السهل أن تجدَ مسيحيًّا مغفَّلًا وغيرَ مُرضٍ وتقول: "إذًا هذا هو الإنسان الجديد الذي تُفاخرون به! أعطوني الصِّنف القديم". ولكن ما إن تكون قد بدأتَ تدركُ أنَّ المسيحيَّة مُحتمَلةٌ على أُسُسٍ أخرى، حتَّى تعلمَ في قلبك بأنَّ ذلك ليس إلَّا تجنُّبًا للمسألة. فماذا يسعك فعلًا أن تعرفَ عن نفوس الآخرين– عن تجاربهم وفُرَصهم وصراعاتهم؟ ثَمَّة نفسٌ واحدةٌ في الخليقة موجودًا، فأنت –بمعنًى ما– في مواجهته وحدَك. فلَيس في وُسعك دفعَه بعيدًا بتخميناتٍ تخصُّ جيرانك الأقربين، ولا بذكرياتٍ لِما قرأتَه في الكتب. وماذا سيكون من أمر كلِّ تلك الثرثرات والشائعات عندما يتلاشى الضباب المخدِّرُ الذي ندعوه "الطبيعة" أو "العالَم الواقعيّ" وتصيرُ الحضرةُ الإلهيَّة التي وقفتَ فيها كلَّ حينٍ ملموسةً ومباشرةً ولا مفرَّ منها؟"

C. S. Lewis, *Mere Christianity* (Macmillan, 1965), p. 168.

3. Christopher Hitchens, *God Is Not Great: How Religion Poisons Everything* (Hachette, 2007), pp. 35–36.

4.

يُصرُّ بعض المفكّرين العَلمانيّين اليومَ على أنَّ كلَّ دينٍ ينطوي على بذور الطُّغيان في داخله. غير أنَّ هذا الرأي يُخفِقُ في النظر بعَين الاعتبار إلى الفروق الهائلة بين المعتقدات الدينيَّة في نظرة كلٍّ منها إلى الاهتداء. فالبوذيَّة والمسيحيَّة مثلًا تقتضيان تغييرًا داخليًّا جذريًّا مؤسَّسًا على قرارٍ شخصيّ. والمراعاة الإكراهيَّة للقواعد الخارجيَّة تُرى أنَّها مُميتةٌ روحيًّا. ومن ثَمَّ فإنَّ أديانًا من هذا القبيل يُرجَّح جدًّا أن تنشُدَ مجتمعًا يُقدِّرُ الحرِّيَّة الدينيَّة، حتَّى يُتاحَ للأفراد أن يتعلَّموا الحقيقة وينذُروا أنفسهم لها بسخاء. بيَّن ماكس ويبَر وآخرون أنَّ العقيدة المسيحيَّة، لا سيَّما بصورتها الإنجيليَّة، تُوفِّرُ أساسًا للحقوق الفرديَّة والحرِّيَّة يُساعد على نموِّ الديمقراطيَّة والرأسماليَّة كلَيتَيهما. وتُضفي فلسفاتٌ وأديانٌ أخرى قيمةً أدنى بكثير على حرِّيَّة الاختيار الفرديَّة. فالفرق بين المسيحيَّة والإسلام بشأن معنى الاهتداء مسألةٌ وثيقةُ الصلة بالموضوع. ذلك أنَّ الاهتداء المسيحيَّ يشتمل على الانتقال من مجرَّد "المعرفة عن الله" إلى "معرفة الله شخصيًّا". ومن شأن معظم المسلمين أن يحسبوا التكلُّم بشأن معرفة الله على نحوٍ وثيقٍ وشخصيٍّ تواقُحًا. إنَّ ولدًا ينشأ في بيتٍ مسيحيٍّ قد يتكلَّم بشأن اهتدائه في العاشرة من العمر أو الخامسة عشرة أو العشرين. أمَّا الولد الذي ينشأ في بيتٍ مسلم فلن يتكلَّم البتَّة بشأن اهتدائه إلى الإسلام. وهذا الفارق في الإدراك يعني أنَّ المسيحيِّين يرَون أهمِّيَّة ضئيلة في فرض ضغطٍ اجتماعيٍّ على الناس كي يُحافظوا على اعترافهم بالإيمان المسيحيّ. غير أنَّ الإسلام لا يرى مشكلةً في بذل ضغطٍ اجتماعيٍّ وقانونيٍّ لإبقاء المواطنين ملتزمين نحو فرائض الإسلام.

(أقدِّم شكري إلى دون كارسون على هذا التبصُّر).

5. Alister McGrath, The Dawkins Delusion? Atheist Fundamentalism and the Denial of the Divine (Inter-Varsity Press, 2007), p. 81.

6. Merold Westphal, *Suspicion and Faith: The Religious Uses of Modern Atheism* (Eerdmans, 1993), Chapters 32–34. See page 203:

أميلُ إلى اتّهام كارل ماركس بالانتحال التأليفيّ. فإنَّ نقدَه للرأسماليَّة هو، في جوهره، الاهتمام الذي يطلبه الكتاب المقدَّس بالأرامل والأيتام، مُجرَّدًا من أساسه اللّاهوتيّ، ومُطبَّقًا على أحوال العصر الحديث".

7. Westphal, *Suspicion and Faith*, p. 205.
8. See Proverbs 14:31; 19:17; Matthew 25:31–46. Calvin's remark is from his commentary on Habbakuk 2:6 and is quoted in Westphal, *Suspicion and Faith*, p. 200.
9. C. John Sommerville, *The Decline of the Secular University* (Oxford University Press, 2006), p. 63.
10. Ibid., pp. 69–70.
11. Ibid., p. 70.
12. Rodney Stark, For the Glory of God: How Monotheism Led to Reformations, Science, Witch-Hunts, and the End of Slavery (Princeton University Press, 2004), p. 291. See pp. 338–53 for an overview of abolition movements.
13.

راجع تثنية ٢٤: ٧ و١تيموثاوس ١: ٩-١١، حيث يُنهى عن خطف الناس والمتاجرة بهم. ولكنَّ كثيرين (داخل الكنيسة وخارجها) يفترضون أنَّ الكتابَ المقدَّس يؤيِّد الاستعباد ويدعمه. بشأن المزيد عن هذا الموضوع، راجع الفصل السادس من هذا الكتاب.

14. See Mark Noll's *The Civil War as a Theological Crisis* (University of North Carolina Press, 2006)

راجع هذا الكتاب من أجل بحثٍ شامل يُبيِّنُ كيف تناوَلَ المسيحيُّون موضوع الاسترقاق من خلال تفسيراتٍ شتّى للكلمة المقدَّسة.

كما يُبيِّن كتاب نُل (Noll) كيف استخدمَ بعض القادة الكنسيِّين آلياتٍ من الكتاب المقدَّس تتطرَّق إلى العبوديَّة كي يبرِّروا النَّخاسة (المتاجرة بالعبيد). ولكنَّهم كانوا عميانًا عن الفروق المبينة بين الاسترقاق التملُّكيِّ الأفريقيِّ، وخدمة العبيد أو الخدام التعاقديَّة التي يتطرَّق إليها الكتاب المقدَّس.

15. Stark, *For the Glory of God* (Princeton, 2004), pp. 350ff.
16. David L. Chappell, *A Stone of Hope: Prophetic Religion and the*

Death of Jim Crow (University of North Carolina Press, 2003).

17. A narrative of the Catholic church's resistance to Communism in the 1970s and 1980s is given in Chapter 17 in "Between Two Crosses," in Charles Colson and Ellen Vaughn, *The Body* (Thomas Nelson, 2003).
18. Dietrich Bonhoeffer, *Letters and Papers from Prison: Enlarged Edition*, Eberhard Bethge, ed. (Macmillan, 1971), p. 418.

الفصل الخامس: كيف يُعقَلُ أن يُرسِلَ إلهٌ محبٌّ أناسًا إلى جهنَّم؟

1. May 23, 2005, Pew Forum's biannual Faith Angle conference on religion, politics, and public life in Key West, Florida. As of September 5, 2005, the transcript was found at http://pewforum. org/events/index.php?Event ID=80.
2. Robert Bellah, et al., *Habits of the Heart: Individualism and Commitment in American Life*, 1st ed., (University of California Press, 1985), p. 228.
3. From C. S. Lewis, *The Abolition of Man* (Collins, 1978), p. 46. On this subject see also Lewis, *English Literature in the Sixteenth Century, Excluding Drama* in the Oxford History of English Literature series (Oxford University Press, 1953), pp. 13–14.
4. Lewis, *Abolition of Man*, p. 46.
5.

يُشير ألان جاكوبس (Alan Jacobs)، في سيرة لِويس التي كتبها، إلى أنّه تكلَّفَ مشقّةَ الإصرار على أنّه ليس مُناهِضًا للأسلوب العلميّ في ذاته. فذلك الأسلوب يفترض بالفعل اتّساق الطبيعة، وقد بيّن باحثون كثيرون أنّ الرؤيةَ المسيحيَّة إلى الكَون هي التي يسَّرَت ذلك.

غير أنّ لِويس يُبيِّن أنّ العلم الحديث وُلِدَ "محتضنًا أحلام السيطرة".

See Jacobs, *The Narnian: The Life and Imagination of C. S. Lewis* (Harper San Francisco, 2005), pp. 184–187.

6. Rebecca Pippert, *Hope Has Its Reasons* (Harper, 1990), Chapter 4, "What Kind of God Gets Angry?"
7. Miroslav Volf, Exclusion and Embrace: *A Theological Exploration of Identity, Otherness, and Reconciliation* (Abingdon, 1996), pp. 303–304.
8. Volf, *Exclusion and Embrace*, p. 303.
9. Czeslaw Milosz, "The Discreet Charm of Nihilism," *New York Review of Books*, November 19, 1998.
10.

إنَّ جميع ما يشتمل عليه الكتاب المقدَّس من أوصافٍ وصُوَر للسماء وجهنَّم رمزيَّة ومجازيَّة. فكلُّ مجازٍ يوحي بناحيةٍ من نواحي اختبار جهنَّم. (مثلًا، "النار" تصوُّر الانحلال، أمَّا "الظُّلمة" فتُصوِّرُ العُزلة). إنَّما قَولُنا هذا لا يعني ضمنيًّا البتَّة أنَّ السماء وجهنَّم **ذاتهما** "مَجَازان". فهما حقيقتان بكلِّ ما تحمل الكلمة من معنى. وقد صعد السيِّد المسيح (بجسمه الطبيعيّ طبعًا) إلى السماء. والكتاب المقدَّس يفترضُ بوضوحٍ أنَّ السماء وجهنَّم حقيقتان فعليَّتان، إلَّا أنَّه يُبيِّن أيضًا أنَّ كلَّ لغةٍ تتناولهما هي تضمينيَّة واستعاريَّة وجزئيَّة.

11. For more on the likeness of sin to addiction, see Cornelius Plantinga, *Not the Way It's Supposed to Be: A Breviary of Sin* (Eerdmans, 1995), Chapter 8, "The Tragedy of Addiction."
12. This is a compilation of quotes from three Lewis sources: *Mere Christianity* (Macmillan, 1964), p. 59; *The Great Divorce* (Macmillan, 1963), pp. 71 72; "The Trouble with X," in *God in the Dock: Essays on Theology and Ethics* (Eerdmans, 1970), p. 155.
13. From C. S. Lewis, *The Problem of Pain* (Macmillan, 1961), p. 116; *The Great Divorce* (Macmillan, 1963), p. 69.

الفصل السادس: العلمُ أثبتَ بُطلان المسيحيَّة

1. Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker* (W. W. Norton, 1986), p. 6.
2. Richard Dawkins, *The God Delusion* (Boston: Houghton Mifflin, 2006), p. 100.

3.

مثلًا، يقول ڤان هارڤي إنَّ كلَّ دفاعٍ عن الحوادث المعجزيَّة لا يمكن أبدًا أن يأخذه المؤرِّخ الناقد على محمل الجدّ؛ لأنَّ تفكيرًا كهذا يُخالفُ "ما ندعوه الرؤية الموافقة للفطرة السليمة إلى العالَم".

Van Harvey, *The Historian and Believer* (Macmillan, 1966), p. 68. See also his essay, "New Testament Scholarship and Christian Belief" *in Jesus in History and Myth*, R. Joseph Hoffman and Gerald A. Larue, eds. (Prometheus, 1986).

4. John Macquarrie, *Principles of Christian Theology* (Scribner, 1977), p. 248, quoted in Plantinga, *Warranted Christian Belief,* p. 394.
5. Plantinga, *Warranted Christian Belief,* p. 406.

يذكرُ مقالةً مهمَّة بقلم الفيلسوف وليَم أولستن (William Alston) الذي يُحاجُّ بأنَّ في وُسع المرء أن يُبليَ حسنًا في تَعاطي العِلم إذا اعتقدَ أنَّ الله فعل المعجزات، بل ما زال يفعلها أيضًا بعض الأحيان.

See "Divine Action: Shadow or Substance?" in *The God Who Acts: Philosophical and Theological Explorations*, Thomas F. Tracy, ed. (Pennsylvania State University Press, 1994), pp. 49–50.

6. See John Paul II's Message to the Pontifical Academy of Sciences, October 22, 1996, "Magisterium Is Concerned with the Question of Evolution for It Involves Conception of Man."
7. Francis Collins, *The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief* (Free Press, 2006).

مَثَلٌ آخر على عالمٍ رائد يؤمن بكَونٍ صمَّمه الله غير أنَّه يرفض التصميم الذكيَّ والتطوُّر كلَيهما باعتبارهما فلسفةً مادِّيَّةً هو عالَم الفلك الهارڤاديُّ أُوِن جِنجرِتش (Owen Gingnerich)، مؤلِّف كتاب كَون الله (God's Universe)

God's Universe (Belknap Press, 2006).

8. Ian Barbour, *When Science Meets Religion: Enemies, Strangers, or Partners?* (Harper, 2000).

يحاجُّ بربور بأنَّه فيما يستخدم المسيحيُّون جميع هذه النماذج، فما يدعوه

"التّكامُل" هو الأفضل.

See Chapter 4 on "Evolution and Continuing Creation."

9. Christian Smith, ed., *The Secular Revolution: Power, Interests, and Conflict in the Secularization of American Public Life* (University of California Press, 2003).
10. Ibid., pp. 1–12. See also Alister McGrath's chapter, "Warfare: The Natural Sciences and the Advancement of Atheism," *The Twilight of Atheism* (Oxford University Press, 2002), and Rodney Stark's chapter "God's Handiwork: The Religious Origins of Science," in *For the Glory of God* (Princeton University Press, 2004).
11. Edward Larson and Larry Witham, "Scientists Are Still Keeping the Faith," *Nature* (April 3, 1997). See also Stark, *To the Glory of God*, pp. 192–97.
12. Edward Larson and Larry Witham, "Leading Scientists Still Reject God," *Nature* 394, no. 6691 (1998): 313.
13. Alister McGrath, *The Dawkins Delusion*?, p. 44.
14. From Stephen Jay Gould, "Impeaching a Self-Appointed Judge," *Scientific American* 267, no. 1 (1992). Quoted in Alister McGrath, *The Dawkins Delusion*? (Inter-Varsity, 2007), p. 34.
15. Thomas Nagel, "The Fear of Religion," *The New Republic* (October 23, 2006).
16. Stark, *For the Glory of God*, pp. 192–97.
17. See Gordon Wenham, *Genesis 1–15* (Word, 1987).
18.

رغمَ الانطباعات المنتشرة التي ترى العكس، داخل الكنيسة وخارجها على السواء، فإنّه لم يكُن "علم الأخلاق" الحديث هو الردَّ التقليديَّ من قِبَل المحتجّين المحافظين والإنجيليّين في القرن التاسع عشر لمّا صارت نظريّة داروين معروفةً أوّل الأمر.

وقد شاعَ الإقرار بأنّ الأصحاح الأوّل في التكوين كان يتكلّمُ عن أحقاب طويلة، لا عن أيّام حرفيّة.

آر. إيه. توريه (R. A. Torrey) المحرِّر الرئيس لمؤلَّف "الأساسيّات" (*The Fundamentals*)، الذي نُشِر ما بين ١٩١٠-١٩١٥، وأعطى التعريف للتّعبير

"متمسّكٌ بالأساسيّات"، قال إنّه من الممكن "أن يؤمنَ المرء كليًّا بعصمة الكتاب المقدّس ومع ذلك يقول بفكرة التطوُّر على نحوٍ مخصوص".

Mark Noll, *Evangelical American Christianity: An Introduction* [Blackwells, 2001], p. 171).

أمَّا بي. بي. وورفيلد (B. B. Warfield)، من جامعة پرنستون (Princeton) وهو الرجل الذي عرَّف عقيدة عصمة الكتاب المقدَّس، رأى أنَّ الله ربَّما استخدمَ شيئًا مثل التطوُّر للإتيان بأشكال الحياة.

وأفضل رواية لقيام "علم الخلق" كتبها رونالد أل.

Creation Science Ronald L. Numbers, *The Creationists: the Evolution of Scientifi c Creationism* (Knopf, 1992).

وراجع أيضًا:

Mark Noll, *The Scandal of the Evangelical Mind* (Eerdmans, 1994), "Thinking About Science and Mark Noll and David Livingstone, *B. B. Warfield on Evolution, Scripture, and Science* (Baker, 2000).

19. David Atkinson, *The Message of Genesis 1–11* (IVP, 1990), p. 31.

الفصل السابع: لا يَسَعُكَ أن تأخذَ الكتاب المقدَّس بحَرفيَّته

1. Quoted in a review of *Christ the Lord: Out of Egypt* by George Sim Johnston in *The Wall Street Journal*, November 12–13, 2005.
2.

مثلًا، الحجَّة المشهورة بشأن لاهوت المسيح- "كذَّابٌ أم مخبَّلٌ أم ربّ؟"- لا تقومُ إلَّا إذا أمكنَ إثباتُ كَون السيِّد المسيح صرَّح فعلًا بأنَّه ذو طبيعةٍ إلهيَّة.

وقد عبَّر سي. أس. لِويس عن هذه الحجَّة بصيغتها الكلاسيكيَّة: "إنَّ رجُلًا كان مجرَّد إنسان وقال أقوالًا من نوع ما قاله السيِّد المسيح لن يكونَ معلِّمَ أخلاقٍ عظيمًا. فهو يكون إمَّا مُخبَّلًا- على مستوى مَن يقول إنَّه بيضةٌ مسلوقة- وإمَّا إبليس الجحيم. وعليك أن تختار خِيارك. فإمَّا أنَّه ابن الله-وهو كذلك- وإمَّا كان مجنونًا، وإمَّا شيئًا أسوأ. ففي

وُسعك أن تحتجزَه بوصفه مجنونًا، أو أن تخرَّ عند قدمَيه وتدعوَه ربًّا وإلهًا. ولكن لا نأتِ بأيِّ هراء متفضِّل بشأن كَونه معلِّمًا بشريًّا عظيمًا. فهو لم يتركْ ذلك مُتاحًا لنا".

(Mere Christianity, Book 2, Chapter 3)

إنَّما إشكاليَّة هذه الحجَّة أنَّها تفترضُ أنَّ أخبار الكتاب المقدَّس عن كلمات السيِّد المسيح صحيحة ودقيقة. وهذا يقتضي الإقرار بأنَّ الكتاب المقدَّس يُعوَّلُ عليه تاريخيًّا، على الأقلِّ بصورةٍ عامَّة. فإنَّ صياغةً فُضلى للحجَّة تكون: أنَّ يسوع هو "إمَّا كذَّابٌ وإمَّا مخبَّلٌ وإمَّا أسطورةٌ وإمَّا ربّ". وإلى أن تُثبِتَ أنَّ صورة السيِّد المسيح في الكتاب المقدَّس ليست أسطوريَّة كليًّا، تبقى هذه الحجَّة المشهورة غير فعَّالة.

3. إنَّ "سمينار يسوع" يعتمد "معيار التَّبايُن المزدوج" كطريقة لتَقييم الصحَّة التاريخيَّة لمقطعٍ من الكتاب المقدَّس. أعني أنَّهم يزعمون أنَّنا لا نستطيع التيقُّن بكَون نصٍّ من الكتاب المقدَّس صحيحًا من الناحية التاريخيَّة إلَّا إذا كان غيرَ ممكن أنَّ التعليم الذي يتضمَّنه قد أتى إمَّا من يهوديَّةِ القرن الأوَّل وإمَّا من الكنيسة الباكرة. ولذلك يجب أن يُناقِضَ ما نعرفه عن العقائد البارزة في اليهوديَّة أو المسيحيَّة في أثناء القرن الأوَّل. (وإلَّا ما كان في وُسعنا أن نتيقَّن بأنَّ النصَّ لم يُختَلَق لدعم المعتقَد السائد). ولكنَّ هذا المعيار يفترض أنَّ السيِّد المسيح ما كان ليتأثَّرَ بتُراثه اليهوديِّ وأنَّه ما كان ليُخلِّفَ أيَّة علامة لدى أتباعه. فبسبب عدم أرجحيَّة ذلك، ينتقد عددٌ متزايدٌ من علماء الكتاب المقدَّس بشدَّة عملَ "سمينار يسوع" بوصفه سلبيًّا ومُتحاملًا على الأناجيل بصورةٍ لا داعيَ لها.

4. لستُ أحاجُّ هنا لموثوقيَّة الكتاب المقدَّس المطلقة، بل أقول إنَّ تصويره لحياة يسوع وتعليمه دقيقٌ تاريخيًّا. وإن كان كذلك، فعندئذٍ نستطيع أن نستخلصَ استنتاجات تخصُّ هُويَّة يسوع من المعلومات التي نقرأها هناك. وإن وضعنا آخر الأمر إيماننا في يسوع، صارت هذه النظرة إلى الكتاب المقدَّس نظرتنا نحن. وإذ أتكلَّم شخصيًّا، أقول إنِّي أحسبُ الكتاب المقدَّس بكامله موثوقًا، لا لأنِّي أستطيع بطريقة ما أن "أبرهن" أنَّه موافقٌ للواقع تمامًا. فأنا أقبل الكتاب كلَّه لأنِّي أومن بيسوع، وقد كانت هذه نظرته إلى الكتاب المقدَّس.

5. A scholarly but readable response to the *The Da Vinci Code* is

Ben Witherington, *The Gospel Code* (IVP, 2004). Witherington's refutation of the historical assumptions behind *The Da Vinci Code* is devastating.

6.

ثَمَّة مجموعة كبيرة ومُتزايدة من العلماء الرفيعي الطراز يُدافعون عن موثوقيَّة الأناجيل على الصعيد التاريخيّ. إن أردتَ مثلًا أكثر تفصيلًا ممَّا يمكن أن نتناوله هنا، راجع:
Richard Bauckham, *Jesus and the Eyewitnesses* (Eerdmans, 2006), N. T. Wright, *Jesus and the Victory of God* (Fortress, 1998) and *The Resurrection of the Son of God* (Fortress, 2003), C. Blomberg, *The Historical Reliability of the Gospels* (IVP, 1987), and *The Historical Reliability of John's Gospel* (IVP, 2002), as well as the more popu lar and older F. F. Bruce, *The New Testament Documents: Are They Reliable?* (Eerdmans, reissued 2003 with a foreword by N. T. Wright).

يدَّعي قسم كبير من النقد الشكوكيّ للكتاب المقدَّس أنَّه متأصِّلٌ في البحث التاريخيّ البالغ الدقَّة، ولكنَّه متأثِّر إلى حدٍّ بعيد بالافتراضات الفلسفيَّة المسبَّقة (أي المعتقدات البديلة). وإن أردتَ تحليلًا يتناول هذا الدعائم الفلسفيَّة، راجع:
see C. Stephen Evans, *The Historical Christ and the Jesus of Faith* (Oxford University Press, 1996), and Alvin Plantinga, "Two (or More) Kinds of Scripture Scholarship," *Warranted Christian Belief* (Oxford University Press, 2002).

7.

في الواقع أنَّ جميع المؤرِّخين يتَّفقون اليوم على هذا. في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، كان الباحثون في أوروبا متأثِّرين تأثُّرًا عميقًا بعقلانيَّة التنوير، ومن ثَمَّ أقبلوا على نصوص الكتاب المقدَّس بمقدِّمة منطقيَّة تفترض أنَّ العناصر المعجزيَّة في الأناجيل لا بدَّ أن تكون قد أضيفَت في وقت متأخِّر جدًّا إلى الروايات الأصليَّة "الواقعيَّة". ولمَّا كانوا قد علموا أنَّ الأخبار الأسطوريَّة المضفاة على الأحداث التاريخيَّة وجبَ أن تُصاغَ بعد وقتٍ طويل من حصول تلك الأحداث، افترضوا أنَّ الأناجيل كُتِبَت على الأقلّ بعد مرور مئة سنة أو أكثر على موت يسوع. ولكنْ في

أثناء القرن الماضي أَرغَمَت البيِّنات المخطوطيَّة حتَّى أكثر العلماء تدقيقًا على أن يستنتجوا أنَّها كُتِبَت أبكر من ذلك بكثير. بشأن مطالعة ميسَّرة لكيفيَّة تأريخ مختلف وثائق العهد الجديد (بما فيها الأناجيل)، راجع:

F. F. Bruce, *The New Testament Documents: Are They Reliable?*, with a new foreword by the prominent scholar N. T. Wright. Also See Paul Barnett, *The New Testament*

يميلُ الأكثرون إلى القول إنَّ إنجيل مرقس كُتِبَ في سبعينيَّات القرن الأوَّل، فيما كُتِب متَّى ولوقا في ثمانينيَّاته، ويوحنَّا في تسعينيَّاته. ولهذا الأمر دلالته، من حيث كَون الأناجيل قد كُتِبت في زمنٍ بدأ الرسل وشهود العِيان يموتون فيه، ولكنْ في زمنٍ كان كثيرون فيه ما يزالون متوافرين لكي يُراجعوا ويسألوا (راجع تصريح البشير لوقا في لوقا ١: ١-٤).

8. Richard Bauckham, *Jesus and the Eyewitnesses*, Chapters 2, 3, and 6.

ثُمَّ إنَّ بوكهام في الفصل الرابع، يُجري تحليلًا مُستفيضًا لأسماء الشخصيَّات في الأناجيل.

وهو يستنتج أنَّها تُمثِّلُ أنواع الأسماء التي كانت شائعةً بين اليهود في فلسطين قبل خراب أورشليم في السنة ٧٠م، لا أسماء الأشخاص المختلفةِ النوع تمامًا والتي أطلقَت على اليهود في الشتات بعد السنة ٧٠م.

فالخلاصة أنَّه يستبعد استبعادًا عاليَ الدرجة أنَّ قصص الأناجيل نشأت بين جماعاتٍ مسيحيَّة متأخِّرة خارج فلسطين.

9. N. T. Wright, *Simply Christian* (Harper, 2006), p. 97.

10.

يُضيف غوبنك قائلًا: "ليس في البَرديَّات معتقدات جديدة، ولا حجج جديدة، لا بيِّنات جديدة يقينًا، من شأنها أن تدفعَ للشَّكِّ أيَّ شخصلم يشكُكْ من قبل". وهو يتكلَّم بشأن الكتاب التالي:

The Gospel of Judas. See "Jesus Laughed," *The New Yorker*,

April 17, 2006.

11. For more on the formation of the New Testament canon, see Bruce M. Metzger, *The Canon of the New Testament: Its Origin, Development, and Signifi cance* (Oxford University Press, 1987). For a briefer survey see David G. Dunbar, "The Biblical Canon," in *Hermeneutic, Authority, and Canon*, D. Carson and J. Wood-bridge, eds. (Zondervan, 1986).
12. C. John Sommerville, *The Decline of the Secular University*, pp. 105–106.
13. We will pay more attention to this feature of the gospel narratives in Chapter 12.
14. Bauckham, *Eyewitnesses*, pp. 170–78.
15. Wright, *Simply Christian*, p. 97.
16. C. S. Lewis, *Christian Reflections*, Walter Hooper, ed. (Eerdmans, 1967), p. 155.
17. Bauckham, *Eyewitnesses*, pp. 324–346.
18. Ibid., p. 273.
19. David Van Biema, "Rewriting the Gospels," *Time*, March 7, 2007.
20. Vincent Taylor, *The Formation of the Gospel Tradition* 2nd ed. (Macmillan, 1935), p. 41. Also quoted and commented on in Bauckham, p. 7.
21.

إنَّ بوكهام في كتابه هذا، يدعو إلى نهجٍ علميٍّ في دراسة العهد الجديد منفصل تمامًا عن أسلوب الكتاب المقدَّس القديم البالغ الشكوكيَّة والمدعوّ "نقد الشكل"، ومُرتبط برودُلف بولتمان (Rudolph Bultmann). أمَّا أنَّ ذلك سيَحدثُ عاجلًا، أو لا يحدُثُ، فمسألة رأي. ولكنَّ كتبًا ألَّفها أمثال بوكهام ورايت تفتح الأبواب أمام كثيرين من العُلماء الأصغر سنًّا والمتقبِّلين للبيِّنات الدالَّة على أنَّ من الممكن الوثوق بالكتاب المقدَّس.

إذا أردتَ عرضًا مفيدًا للأصول التاريخيَّة لنقد الكتاب المقدَّس الشكوكيّ، راجع المؤلَّف: Hans Frei, *The Eclipse of Biblical Narrative* (Yale University Press, 1974).

وإذا أردتَ مدخلًا يُبيِّن كيف غدَتِ الدراسة الحديثة أقلَّ شكوكيَّةً بكثير من القديمة بشأن تاريخيَّة الأناجيل، راجع المقالة التالية:

Craig Blomberg, "Where Do We Start Studying Jesus?" *Jesus Under Fire: Modern Scholarship Reinvents the Historical Jesus*, M. J. Wilkins and J. P. Moreland, eds. (Zondervan, 1995).

وأفضل عرض في مُجلَّدٍ واحد للدراسة الحديثة بشأن السيِّد المسيح تجده في:

B. Witherington, *The Jesus Quest*, 2nd ed. (IVP, 1997).

ومن الأمثلة الممتعة التي تُبيِّن كيف أنَّ الدراسة العلميَّة للكتاب المقدَّس آخذةٌ في أن تصير أكثر احترامًا جون پي. ماير (John P. Meier)، مؤلِّف الثلاثيَّة الضخمة A Marginal Jew: Rethinking the Historical Jesus . فماير عالمٌ معتدلٌ وسطيٌّ يرفض بعض نصوص الكتاب المقدَّس باعتبارها مشكوكًا فيها تاريخيًّا. ولكنَّه يقدِّمُ نقدًا شبه فتَّاك للشكوكيَّة القُدمى، ويُبيِّن أنَّ جميع الخطوط الأساسيَّة في النظرة المتواترة إلى كلمات يسوع وأعماله يمكن تصديقها على أساس البحث التاريخيِّ الوافي.

22. See Murray J. Harris, *Slave of Christ: A New Testament Metaphor for Total Devotion to Christ* (IVP, 1999), pp. 44, 70. Also see Andrew Lincoln, *Ephesians*, Word Bible Commentary, 1990, pp. 416–17:

"ينبغي لقرَّاء الكتاب المقدَّس المحدَثين أن يتحرَّروا من عددٍ من الافتراضات بشأن العبوديَّة في القرن الأوَّل، بما فيها الافتراضات أنَّه كان بين مقام العبد ومقام الحرِّ فرقٌ شاسع، وأنَّ جميع الذين كانوا مستعبَدين كانوا يحاولون تحرير أنفسهم من العبوديَّة... لقد قام تواصلٌ عريضٌ بين العبد والحرِّ من حيث مقاماهما في المجتمعَين الرومانيِّ واليونانيِّ كليهما. فإنَّ عبيد المالكين اليونانيِّين كان يمكنهم امتلاك الأملاك، ومن جملتها عبيدهم الخاصُّون، وكان في وُسعهم أن يحصلوا على ترخيص بتَولِّي وظيفة أخرى فضلًا عن واجباتهم كعبيد... وغالبًا ما كانت مصلحة المالك تقضي بإعتاقهم، إذ كان ممكنًا الحصول على عملهم بثمنٍ أرخص كثيرًا إذا كانوا أحرارًا. ولئن وُجدَ بلا شكٍّ كثيرٌ جدًّا من حالات القسوة والوحشيَّة والظُّلم، فلم يَسُد مُناخٌ عامٌّ من الاضطراب بين العبيد".

23.

رُغم كَون إنكار الواقع مُجاراةً للاتّجاه السائد، فإنَّ العقائد المناهضة للعبودية بدأت بالظهور في علم اللّاهوت المسيحيّ بُعَيدَ انحطاط روما، وقد صحبها تلاشي العبوديّة النهائيُّ في جميع أنحاء أوروبا المسيحيّة ما عدا أطرافها البعيدة. ولمّا أسَّس الأوروبيّون الاسترقاق لاحقًا في "العالَم الجديد"، فعلوا ذلك رُغم المعارَضة البابويّة الشديدة. وهذه حقيقةٌ "ضُيِّعتْ" في التاريخ على نحوٍ ملائم حتّى عهدٍ قريب. وأخيرًا، أبطِل الاسترقاق في "العالَم الجديد" بفضل ناشطين مسيحيّين أطلقوه وحقّقوه... وكانت العبوديّة في ما مضى شاملةً تقريبًا لجميع المجتمعات القادرة عليها، وفي الغرب فقط نشأَتِ المعارَضة الأخلاقيّة المُهمّة أصلًا وأدّت أخيرًا إلى الإبطال".

(Rodney Stark, *For the Glory of God*, Princeton University Press, 2004, p. 291).

استراحة

1. Dawkins, *The God Delusion*, p. 31ff.
2. For a non-technical introduction…

إذا أردتَ مدخلًا غير تقنيٍّ إلى الفرق بين المعقوليّة القويّة والمعقوليّة النقديّة، راجع

Victor Reppert, *C. S. Lewis's Dangerous Idea* (Inter-Varsity, 2003), pp. 30–44.

3.

المقالة المشهورة التي كتبها دبليو. كاي. كليفورد (W. K. Clifford) في هذا الموضوع كان عنوانها: "أخلاقيات الإيمان" (The Ethics of Belief)

وفيها قال: "من الخطأ دائمًا وفي كلِّ مكان وبالنسبة إلى أيِّ شخص كان أن نصدِّقَ أيَّ شيءٍ بناءً على بيِّنات [تجريبيّة] غير وافية".

A. J. Ayer's most well- known text was *Language, Truth, and Logic*.

4. See Reppert for examples.

5.

يُبيِّن كتاب ماكإنتاير "**عدالة مَن؟ أيَّة معقوليَّة؟**" على نحوٍ استفزازيٍّ ومُقنع أنَّ في الغرب وحدَه بضعة "تقاليد" مختلفة للعقلانيَّة: الأرسطوطاليسيّ، الأوغسطينيّ، التُّومانيّ (نسبة إلى توما الأكوينيّ)، واقعيَّة الفطرة السليمة. وفي كلٍّ من هذه التقاليد ينشط المنطق والعقل في إطار افتراضات أساسيَّة مختلفة بشأن أمورٍ مثل الطبيعة البشريَّة، وعلاقة العقل بالعاطفة والإرادة، وعلاقة الفرد بالمحيط والتقليد الاجتماعيَّين، وهلمَّ جرًّا. فالحجَّة "العقلانيَّة" تُعرَّفُ بأنَّها الثبات أو الاتّساق داخل مُجمَل مجموعةِ العقائد في تقليدٍ ما. وربَّما وُجِد كثير من التَّداخُل بين هذه العقلانيَّات، وقد تُعدُّ بعض الحجج مُقنعةً في غير واحدٍ من هذه التقاليد. ولكنَّ من المشكوك فيه أنَّ هنالك أيَّة حجَّة واحدة بشأن كينونة الله يمكن أن تكون مُقنعةً لكلِّ فردٍ في كلِّ تقليدٍ عقلانيّ.

6.

من أفضل الدراسات النقديَّة عن رأي "التنوير" في المعقوليَّة القويَّة هي المراجع التالية:

Faith and Rationality: On Reason and Belief in God., A. Plantinga, and N. Wolterstorff, eds. (Notre Dame University Press, 1983).

دُعِي الرأي التنويريُّ "التأسيسيَّة" الكلاسيكيَّة أو الديكارتيَّة، وقد لقِي نبذًا شبه شاملٍ بين الفلاسفة. راجع أيضًا:

Nicholas Wolterstorff, *Reason Within the Bounds of Religion* (Eerdmans, 1984).

7. Thomas Nagel, *The Last Word* (Oxford University Press: 1997), p. 130.
8. Terry Eagleton, "Lunging, Flailing, Mispunching": A Review of Richard Dawkins's *The God Delusions* in *London Review of Books*, vol. 28, no. 20, October 19, 2006.
9. For a sophisticated case, see H. Siegel, *Relativism Refuted: A Critique of Contemporary Epistemological Relativism* (D. Reidel, 1987).

يُصرُّ القائلون بالنسبيَّة على أنَّ "الحقيقة" صحيحةٌ فقط في إطار معتقدات المرء

الخاصَّة، وأنَّ كلَّ إطار هو ذو صحَّة مساوية لجميع الأطر الأخرى. ويقول النسبيُّون إنَّه لا يوجَد معيارٌ يتخطَّى الأُطُرَ به يُستطاعُ التحكيم بين جميع ادِّعاءات الحقيقة. ولكنَّ دعوى النسبيِّين- كما يُبيِّن سيغل- أنَّ جميع الأُطُر (وليس إطارهم فقط) متساوية هي بحدِّ ذاتها معيارٌ للحقيقة يتخطَّى الأُطُر. وبهذه الدعوى ينتقلون إلى خارج إطارهم الخاصّ، ويُقيِّمون الآخرين بإطارهم الذاتيّ- الأمرُ عينُه الذي ينكرونه على الآخرين. "وهكذا، فإنَّ النسبيَّة لا تستطيع أن تُعلن ذاتيًّا، ولا حتَّى أن تحسبَ ذاتها، من دون أن تهزم ذاتها" (صفحة ٤٣).

10. A readable treatment of critical rationalism is in Reppert, *C. S. Lewis's Dangerous Idea*, p. 36ff.
11. From A *Devil's Chaplain* (Weidenfield and Nicolson, 2003), p. 81. Quoted in A. McGrath, *The Dawkins Delusion* (Inter-Varsity, 2007), p. 100 n16.
12. "هذه هي البنية الأساسيَّة لحُجَّتي. إنَّ العلماء والمؤرخين والمفتِّشين يُلاحظون المعطيات وينطلقون منها إلى نظريَّة ما عمَّا يُفسِّرُ على النحو الأفضل حصول هذه المعطيات. وفي وُسعنا أن نحلِّل المعايير التي يستخدمونها لبلوغ استنتاج أنَّ نظريَّةً معيَّنة تدعمها المعطيات أكثر ممَّا تدعم نظريَّة أخرى... وباستعمال تلك المعايير عينها، نجد أنَّ الرأي القائل بوجود الله يفسِّر **كلَّ شيءٍ** نُلاحظه، لا مجرَّد سلسلة ضيِّقة من المعطيات".
Richard Swinburne, *Is There a God*? (Oxford University Press, 1996), p. 2.
13. C. S. Lewis, "Is Theology Poetry?" *The Weight of Glory and Other Addresses* (HarperCollins, 1980), p. 140.

الفصل الثامن: مفاتيحُ مسألة الله

1. A survey can be found in Alvin Plantinga's lecture notes, "Two Dozen (or so) Theistic Arguments," available at http://www .homestead.com/philofreligion/fi les/Theisticarguments.html and many other places on the Internet. See also the summary of William C. Davis, "Theistic Arguments," in Murray, *Reason for the Hope Within*.

2. Stephen Hawking and Robert Penrose, *The Nature of Time and Space* (Princeton University Press, 1996), p. 20.
3. In an interview on http://www.salon.com/books/ int/2006/08/07/collins/index2.html, last accessed on March 9, 2007.
4. Found at http://www.truthdig.com/report/page2/20060815_ sam_harris _language_ignorance/, last accessed on March 9, 2007.
5. For a short summary of this argument see Robin Collins, "A Scientific Argument for the Existence of God: The Fine-Tuning Design Argument," *Reason for the Hope Within*, Michael J. Murray, ed. (Eerdmans, 1999).
6. In an interview on http://www.salon.com/books/ int/2006/08/07/collins/index2.html, last accessed March 9, 2007.
7. Quoted in Francis Collins, *The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief* (Free Press, 2006), p. 75.
8. See Richard Dawkins, *The God Delusion* (Houghton Mifflin, 2006), p. 107.
9. From Alvin Plantinga, "Dennett's Dangerous Idea," in *Books and Culture* (May–June 1996): 35.
10. Recounted in Collins, "A Scientific Argument," p. 77.
11. See "Science Gets Strange" in C. John Sommerville, *The Decline of the Secular University* (Oxford University Press, 2006). See also Diogenes Allen, *Christian Belief in a Post-Modern World* (John Knox, 1989).
12. Arthur Danto, "Pas de Deux, en Masse: Shirin Neshat's Rapture," The Nation, June 28, 1999.
13. From Leonard Bernstein's "The Joy of Music" (Simon and Schuster, 2004), p. 105.
14. Quoted by Robin Marantz Henig in her article "Why Do We Believe?" in *The New York Times Magazine*, March 4, 2007, p. 58.

15.

العرضُ الكلاسيكيُّ لهذه الحُجّة نجده في الفصل الذي يتحدّثُ بشأن "الرجاء" في كتاب:

C. S. Lewis, *Mere Christianity* (Macmillan).

16.

يُبيِّن أن. تي. رايت أنَّ النظرة إلى الجمال في المسيحيَّة تختلف عن النظرة الأفلاطونيَّة إليه. فأفلاطون والفلاسفة اليونانيُّون اعتقدوا أنَّ جميع الاختبارات الأرضيَّة للجمال تصرفنا عن عالَم الظلِّ الماديِّ هذا إلى عالَم الحقيقة المطلَقة الأزليِّ الروحيِّ. ولكنَّ رؤية الكتاب المقدَّس إلى الخلاص تهدف إلى سماء جديدة وأرض جديدة. فأشواقنا غير المُلبَّاة لا تُعنى فقط بعالَم روحيٍّ أبديّ، بل بهذا العالَم وقد قوِّم وكُمِّل، راجع:
Wright, *Simply Christian*, pp. 44 -45).

وهذه نقطة مُهمَّة؛ لأنَّ ما أورده سي. أس. لِويس بشأن "الحجَّة المستمدَّة من التَّوق" في كتابه "المسيحيَّة المجرَّدة" ينحو منحى النموذج الأفلاطونيِّ بطريقةٍ قريبة جدًّا.

17. Quoted in Leon Wieseltier, "The God Genome," *New York Times Book Review*, February 19, 2006.
18. *The New York Times Magazine*, March 4, 2007.
19. Henig, "Why Do We Believe?" p. 43.
20. Ibid., p. 58.
21. Dawkins, *The God Delusions*, p. 367ff,

"أدمغتنا بدأتها أعضاء مُطوَّرة... طُوِّرت كي تُساعدنا على البقاء".

22. Henig, p. 7.
23.

لاحظ روبرت تريڤرز (Robert Trivers) في تمهيده لكتاب ريتشارد داوكنْز "**الجين الأنانيّ**" *(The Selfish Gene)* تشديد داوكنْز على دور الخداع في الحياة الحيوانيَّة، وأضاف أنَّه "إن كان الخداع أساسيًّا بالفعل نسبةً إلى التواصل الحيوانيّ، فلا بدَّ إذًا من وجود انتخابٍ قويٍّ لتحديد الخداع، وقد وجب أن ينتخبَ هذا بدَوره درجةً من خداع الذات، جاعلًا بعض الحقائق الدوافع لاواعيةً بحيثُ لا تَفضحُ- بواسطة علامات معرفة الذات الماكرة- الخداعَ الذي يُمارَس". ومن ثَمَّ، "فإنَّ الرأي التقليديَّ القائل إنَّ الانتخاب الطبيعيَّ يُحبِّذُ أجهزةً عصبيَّة تُنتج صُورًا مُتزايدةَ الدقَّة عن العالَم يجب أن يكون رأيًا ساذجًا جدًّا في التطوُّر العقليّ".

Robert Wright, *The Moral Animal* (Pantheon, 1994), pp. 263–64.

كما أنَّ عالم النفس الإدراكيَّ جستن بَرِت (Justin Barrett) يكتب: "إنَّ بعض علماء الإدراك يفترضون أنَّه بسبب كَون عقولنا ووظائفها قد "صُمِّمَت" بفضل الانتخاب الطبيعيِّ ففي وُسعنا أن نثقَ بها لإطلاعنا على الحقيقة؛ إنَّما افتراضٌ كهذا مشكوكٌ فيه نسبةً إلى نظريَّة المعرفة. فلأنَّ في وُسعنا أن نبقى ونتوالدَ بنجاح، لا يضمن ذلك بأيَّة حال أنَّ عقولَنا ككلٍّ تقول لنا الحقَّ بشأن أيِّ شيء- ولا سيَّما في ما يتعلَّق بالتفكير المعقَّد. فما يمكنُ أن تعتنقَه بأمان نظرةٌ طبيعانيَّة تمامًا إلى العقل البشريِّ هو أنَّ عقولَنا كانت صالحةً للبقاء **في الماضي**".

Justin L. Barrett, *Why Would Anyone Believe in God*? (AltaMira Press, 2004), p. 19.

24. Patricia S. Churchland, "Epistemology in the Age of Neuroscience," *Journal of Philosophy* (October 1987), p. 548. Quoted in Plantinga, *Warrant and Proper Function* (Oxford University Press, 2000), p. 218.
25. Nagel, *The Last Word*, pp. 134–35.
26. Quoted in Alvin Plantinga, "Is Naturalism Irrational?" in *Warrant and Proper Function* (Oxford University Press, 2000), p. 219.
27. For the full argument, see A. Plantinga, Chapters 11 and 12 in *Warrant and Proper Function* (Oxford University Press, 2000).
28. From Alvin Plantinga's review of Richard Dawkins's *The God Confusion in Books and Culture* (March/April 2007): 24.
29. Wieseltier's review, "The God Genome," appeared in the *New York Times*, February 19, 2006.
30. C. S. Lewis, "On Living in an Atomic Age," in *Present Concerns* (Collins, 1986), p. 76.

الفصل التاسع: معرفةُ حقيقة الله

1. Quoted in Michael J. Perry, *Toward a Theory of Human Rights: Religion, Law, Courts* (Cambridge University Press, 2007), p. 28.
2. Christian Smith, *Moral Believing Animals: Human Personhood and Culture* (Oxford University Press, 2003), p. 8.

3.

الآثار التي تحاول أن تفسِّرَ حسَّ الواجب الأخلاقيّ لدينا بصفته حصيلةً للانتخاب الطبيعيّ تتضمَّنُ:

Edward O. Wilson, *On Human Nature* (Harvard University Press, 1978) and "The Biological Basis for Morality" in *Atlantic Monthly,* April 1998; Richard Dawkins, *The Selfish Gene* (Oxford University Press, 1976) and Robert Wright, *The Moral Animal: Evolutionary Psychology and Everyday Life* (Pantheon, 1994).

وإذا أردت قراءة بعض التحاليل النقديَّة اللاذعة لهذه المقارَبة، راجع:

Philip Kitcher, Vaulting Ambition: *Sociobiology and the Quest for Human Nature* (MIT Press, 1985); Hilary Rose and Steven Rose, *Alas, Poor Darwin: Arguments Against Evolutionary Psychology* (Harmony, 2000); John Dupre, *Human Nature and the Limits of Science* (Oxford University Press, 2001).

4. Francis Collins, *The Language of God*, p.28

يفضحُ كولنْز في هذا الكتاب زَيف مَثلٍ يُستعمَلُ أحيانًا عن نملة عاملة عقيمة تجتهد بتضحية لإقامة بيئة للنَّملات الأمَّات كي يُنجبنَ مزيدًا من الذُّرِّيَّة. "ولكنَّ لاأنانيَّة النمل تُفسَّر في يُسرٍ بالتَّعابير التطوُّريَّة بواسطة حقيقة كَون الجينات التي تحفز النملات العاملات العقيمات هي تمامًا الجينات التي ستنقلها الأمَّات إلى النَّمل الصغير التي يساعدنَ على استيلادها. فإنَّ صلة الحمض النوويّ المباشرة غير العاديَّة لا تنطبق على جماعات الأحياء الأكثر تعقيدًا، حيث يُجمع التطوُّريُّون تقريبًا على أنَّ الانتخاب الطبيعيَّ ينشطُ في الفرد لا في الجماعة".

See also George Williams, *Adaptation and Natural Selection*, reprinted, (Princeton University Press, 1996),

ويحاجُّ الكاتب في هذا الكتاب بأنَّ الانتخاب الطبيعيَّ الجماعيَّ لا يحصل.

5.

"إذا كانت الطبيعة (كما نفترض) هي الشيءَ الوحيد في الكَون، فنحن عندئذٍ لا نُفكِّرُ فكرةً واحدةً لأنَّها صحيحة، بل فقط لأنَّ الطبيعة العمياء ترغمنا على التفكير

فيها. ونحن لا نقوم بعمل واحد لأنَّه صائب، بل فقط لأنَّ الطبيعة تُرغمنا على القيام به. [ولكنَّ] هذا الاستنتاج بالحقيقة لا يُصدَّق. فمن جهة، نحن بتنا نعرف الطبيعةَ نفسَها فقط بالوثوق بعقولنا... ثُمَّ إنَّ العلومَ ذاتها تكون ترتيبات مصادفة للذرّات، ولا ينبغي أن نحوز سببًا منطقيًّا للوثوق بها... إنَّها فقط الطريقة التي بها يشعرُ أشباه الإنسان من جنسنا حين تبلغ الذرّات داخل عقولنا حالات معيَّنة- بعدما أنتجت هذه الحالاتِ أسبابٌ غير عقلانيَّة وغير بشريَّة وغير خُلُقيَّة إلى أبعد حدّ. وثَمَّة فقط طريقةٌ واحدةٌ لتجنُّب هذا المأزق: يجب أن نرجعَ إلى رأيٍ أبكر بكثير؛ يجب أن نقبلَ أنَّنا أرواحٌ حرَّةٌ، كائناتٌ حرَّة عاقلة، في عالَم غير عاقلٍ حادثٍ الآن، ويجب أن نستخلصَ الاستنتاج أنَّنا لسنا مُستمدّين منه".

(C. S. Lewis, "On Living in an Atomic Age" in *Present Concerns*).

6. "Cultural Relativism and Universal Human Rights" by Carolyn Fleuhr-Lobban, *The Chronicle of Higher Education*, June 9, 1995. This article was cited and used to make a similar argument in George M. Marsden's *The Outrageous Idea of Christian Scholarship* (Oxford University Press, 1997), p. 86.
7. Quoted in Michael J. Perry, *Toward a Theory of Human Rights: Religion, Law, Courts* (Cambridge University Press, 2007), p. 3.
8. Ibid., p. 6.
9. Chapter 1 of Alan M. Dershowitz, *Shouting Fire: Civil Liberties in a Turbulent Age* (Little, Brown, 2002).
10. Ibid., p. 15.
11. Quoted in Perry, p. 20.
12. Perry, p. 21.
13. See Sartre's famous essay "Existentialism Is a Humanism."

"الله غير موجود... ومن الضروريّ أن نستخلصَ عواقب عدم وجوده إلى النهاية تمامًا... فما عاد ممكنًا أن يوجَدَ أيُّ خيرٍ استنباطًا، إذ ليس من وعيٍ لامحدود وكامل للتفكير به. وليس مكتوبًا في أيِّ مكانٍ أنَّ "الخير" موجود، أنَّ المرءَ يجب أن يكونَ صادقًا أو أنَّه يجب ألّا يكذب، ما دمنا الآن على الصعيد الذي لا يوجَد فيه إلّا البشر وحدهم. وقد كتب دوستويفسكي مرَّةً: "إن لم يكن الله موجودًا، فكلُّ شيءٍ سيكون مسموحًا

به"... فكلُّ شيءٍ فعلًا مسموح به إذا كان الله غير موجود، والإنسان تبعًا لذلك بائس، إذ لا يسعُه أن يجدَ أيَّ شيء يُعوِّلُ عليه لا داخل ذاته ولا خارجها".

Existentialism from Dostoyevsky to Sartre, ed. Walter Kaufman (Meridian, 1989).

يُمكن أن تجد هذه المقالة على الموقع الإلكترونيّ التالي:

http://www.marxists .org/ reference/archive/sartre/works/exist/sartre.htm as of March 17, 2007.

14. Perry, *Toward a Theory of Human Rights*, p. xi.
15. Ibid., p. 23. Another recent book on this subject is E. Bucar and B. Barnett, eds., *Does Human Rights Need God*? (Eerdmans, 2005).
16. Arthur Allen Leff, "Unspeakable Ethics, Unnatural Law," *Duke Law Journal* (December 1979).
17. F. Nietzsche, *Thus Spoke Zarathustra*, part IV, "On the Higher Man," near the end of section I.
18. Raimond Gaita, *A Common Humanity: Thinking About Love and Truth and Justice*. (Quoted in Michael J. Perry, *Toward a Theory of Human Rights*, pp. 7 and 17–18.)
19. From Chapter 10, "Fecundity," in Annie Dillard, *Pilgrim at Tinker Creek* (HarperCollins, 1974).
20. Quoted in Peter C. Moore, *One Lord, One Faith* (Thomas Nelson, 1994), p. 128. 21 C. S. Lewis, "On Living in an Atomic Age" (1948), reprinted in the volume *Present Concerns*, pp. 73 80.

الفصل العاشر: مُشكلةُ الخطيَّة

1. Barbara B. Taylor, *Speaking of Sin: The Lost Language of Salvation* (Cowley, 2000), pp. 57–67.
2. Andrew Delbanco, *The Real American Dream: A Meditation on Hope* (Harvard University Press, 2000), p. 25
3. Soren Kierkegaard, The Sickness Unto Death: A Christian Psychological Exposition for Edification and Awakening (Penguin, 1989), pp.111, 113.

4. Ernest Becker, *The Denial of Death* (Free Press, 1973), pp. 3, 7.
5. Ibid., p. 160.
6. Ibid., p. 109.
7. Ibid., p. 166.

مهمٌّ أن نُلاحظَ أن بكر لم يكن يحاولُ ترويج الإيمان. فقد كان ملحِدًا، ولذا لم يكُن ذلك ضمن جدوَل أعماله.

8.

إذا استخدمنا تعريف كيركغارد، نستطيعُ أن نصنِّفَ مختلف "بدلاء الله" وأنواع الضرر والعطب التي يأتي بها كلٌّ منها إلى حياة الإنسان. وهكذا يمكننا أن نميِّزَ بعضًا ممَّا يلي:

- إذا ركَّزتَ حياتَك وهويَّتك على شريك حياتك أو رفيقك، فستكون على الصعيد العاطفيِّ تابعًا وغيورًا ومُسَيطرًا. وستكون مشاكل الشخص الآخر ساحقةً لك.
- إذا ركَّزتَ حياتك وهويَّتك على عائلتك وأولادك، فستُحاول أن تعيشَ حياتك من خلال أولادك إلى أن يمقتوك أو لا تكون لهم نفسٌ خاصَّة بهم. وعلى أسوإ احتمال، قد تُسيء معاملتهم وتتعسَّف حيالهم حين لا يسرُّونك.
- إذا ركَّزتَ حياتك وهويَّتك على عملك ومهنتك، فستكون مُدمنَ عملٍ منعزلًا وشخصًا سطحيًّا مُملًّا. وعلى أسوإ احتمال، ستخسر عائلتك وأصدقاءك، وتُبتلى بالاكتئاب الشديد إذا ساءَت أحوال عملك.
- إذا ركَّزتَ حياتك وهويَّتك على المال والأملاك، فسيَنهشك القلق والغَيرة بشأن المال. وستكون مستعدًّا للقيام بأمور غير أخلاقيَّة للحفاظ على نمط حياتك، الأمر الذي سيُبدِّدُ حياتك في نهاية المطاف.
- إذا ركَّزتَ حياتك وهويَّتك على المتعة والإشباع والراحة، فستجدُ نفسك مدمنَ شيءٍ ما. وستغدو مُقَيَّدًا "باستراتيجيَّات الهروب" التي بها تتفادى من قسوة الحياة.
- إذا ركَّزتَ حياتك وهويَّتك على العلاقات وتلقِّي الاستحسان، فإنَّك دائمًا

ستتأذّى بالانتقاد، وهكذا تخسرُ أصدقاءَك كلَّ حين. وستخشى مواجهة الآخرين، ومن ثَمَّ تصيرُ صديقًا عديم النفع.

- إذا ركَّزتَ حياتك وهويَّتك على "قضيَّة نبيلة" فستقسم العالَم إلى "خيِّر" و"رديء"، وتجعل أخصامك شياطين. ومن دواعي السخرية أنَّ أعداءك سيُسيطرون عليك. فمن دونهم، لا يكون لك هدف.
- إذا ركَّزتَ حياتك وهويَّتك على الدِّين والخصال الأخلاقيَّة، فستكون- إن كنت ترتقي بعيشتك إلى مستوًى معاييرك الأخلاقيَّة- مُتكبِّرًا وبارًّا في عين نفسك وفَظًّا. وإن لم ترتقِ بحياتك إلى مستوى معاييرك، فإنَّ شعورَك بالذَّنب سيكون مدمِّرًا لك إلى التَّمام.

9. Thomas C. Oden, *Two Worlds: Notes on the Death of Modernity in America and Russia* (IVP, 1992), Chapter 6.
10.

من المهمّ أن تتذكَّرَ أنَّك عندما تُسامح شخصًا ما فذلك لا يعني أنَّك لا تحسبه مسؤولًا عمَّا فعله. فليس الوضع وضعَ "إمَّا هذا وإمَّا ذاك"، بل عليك أن تفعل الأمرَين كلَيهما. ولمَّا طُلبَ من النساء أن يصفحنَ، فذلك لا يعني أنَّهنَّ نُصحنَ بأن يسمحنَ ببساطة بأن يستمرَّ تصرُّف أزواجهنَّ دون مواجهة. وهذا معبَّرٌ عنه بتفصيل أكثر في الفصل ١١.

11. Darcey Steinke, *Easter Everywhere: A Memoir* (Bloomsbury, 2007), p. 114.
12. Cynthia Heimel, "Tongue in Chic" column, in *The Village Voice*, January 2, 1990, pp. 38–40.
13. Dorothy L. Sayers, *Creed or Chaos*? (Harcourt and Brace, 1949), pp. 38–39

14.

أفضلُ نسخةٍ عن هذا البحث مطبوعةٌ في:

Paul Ramsay, *The Works of Jonathan Edwards: Ethical Writings*, vol. 8 (Yale University Press, 1989).

الملاحظات التمهيديَّة التي وضعها رامزي (Ramsey) مهمَّةٌ جدًّا.

15. Debra Rienstra, *So Much More: An Invitation to Christian Spirituality* (Jossey-Bass, 2005), p. 41.

الفصل الحادي عشر: الدِّين والإنجيل

1.

بالمعنى الأعمّ، الدين هو أيُّ نظام عقائديٍّ يشمل قِيَمًا قُصوى، ويُشكِّلُ انتهاجنا نوعَ حياةٍ مُعيَّنًا في العالَم. وهذا هو السبب الذي يبرِّرُ إلى حدٍّ بعيد أن ندعوَ العَلمانيَّة (أو اللَّادينيَّة) دِينًا، وكذلك المسيحيَّة أيضًا. غير أنَّ جميع الأديان تقتضي فعليًّا، إلى درجة أو أخرى، شكلًا من خلاص النفس من طريق الاستحقاق. فهي تطلب أن يتقرَّبَ الناس من الله ويصيروا مُستحقِّين بواسطة مختلف الشعائر والفرائض والسلوكات. وهذا هو ما يظنُّه معظم الناس حين يُفكِّرون في الدين، ومن هذه الناحية تختلف المسيحيَّة كما يقدِّمها كتاب العهد الجديد جذريًّا. لهذا السبب سنتحدَّث بشؤون المسيحيَّة في هذا الفصل باعتبارها مختلفةً عن "الدين".

2. Flannery O'Connor, *Wise Blood: Three by Flannery O'Connor* (Signet, 1962), p. 16.
3. Richard Lovelace, The Dynamics of Spiritual Life (IVP, 1979), pp. 212ff.
4. On how self is created by exclusion—Miroslav Volf, Exclusion and Embrace (Abingdon, 1996). 5 Victor Hugo, Les Miserables, Book One, Chapter 13, "Little Gervais."

الفصل الثاني عشر: قصَّة الصليب (الحقيقيَّة)

1. C. S. Lewis, *Letters to Malcolm: Chiefly on Prayer* (Harcourt Brace, and World, 1964), p. 106.
2. For full discussion of…

إذا أردتَ قراءة مبحث وافٍ في مَثَل بونهويْفَر في المسامحة، انظر المرجع التالي:

Chapter 1, "The Cost of Forgiveness: Dietrich Bonhoeffer and the

Reclamation of a Christian Vision and Practice," in L. Gregory Jones, *Embodying Forgiveness: A Theological Analysis* (Eerdmans, 1995).

3. Dietrich Bonhoeffer, *The Cost of Discipleship* (Macmillan, 1967), p. 100.
4. Eberhard Bethge, Dietrich Bonhoeffer, eds. *Letters and Papers from Prison*, abridged. (London: SCM Press, 1953), p. 144.
5.

يبدو أنَّ التهمة القائلةَ إنَّ الصليب هو "اعتسافٌ إلهيٌّ للأولاد" تفترضُ أنَّ الآب الذي في السماوات وهو الإله الحقيقيُّ وأنَّ يسوع هو مجرَّد كائن إلهيٌّ من نوع آخر تعرَّض للقتل. وهذه النظرة تُخفق في إنصاف عقيدة التثليث المسيحيَّة. فالمسيحيُّون يؤمنون بأنَّه رُغم كَون الآب والابن شخصَين مُميَّزَين فهما يتشاركان في الكَينونة والجوهر عَينهما، بحيث إنَّه عند تحمُّل يسوع كلفة الغفران كان الله هو القائم بذلك. للمزيد بشأن الثالوث الأقدس، راجع الفصل ١٣.

6.

من المناسب تقديم إيضاحٍ تمثيليّ. تصوَّر أنَّك تمشي بمُحاذاة نهرٍ مع صديق، وإذا بصديقك يقول لك فجأةً: "أُريد أن أبيِّن لك كم أحبُّك!". ثمَّ يرمي نفسه في النهر حالًا ويغرق. فهل تقول ردًّا على ذلك: "كم كان يحبُّني!"؟ طبعًا لا. بل ستَتَساءَلُ عن حالة صديقك العقليَّة. ولكنْ ماذا لو كنت تمشي مع صديق بمُحاذاة نهر وسقطتَ في النهر بحادث، وأنتَ لا تُجيدُ السباحة؟ وماذا لو غطس بعدَك ودفَعَك إلى حيث الأمان، إلَّا أنَّه هو جذبَه التيَّار فغرق؟ **عندئذٍ** سيكون ردُّك: "عجبًا، كم كان يحبُّني!" وهكذا، فإنَّ مَثَل يسوع هو مَثَلٌ رديء لو كان **فقط** مجرَّدَ مَثَل. فلو لم يكُن هنالك أيُّ خطرٍ يُنقذنا منه- لو لم نكُن هالكين لولا فديةُ موته الكفَّاريّ- لَكان مثالُ حُبِّه المُضَحِّي غيرَ مؤثِّرٍ ومُغيِّرٍ للحياة- بل مجرَّدَ ضربٍ من الجنون. ولو لم يكُنِ السيِّد المسيح قد مات بديلنا، ما كان ممكنًا أن يموتَ بصفته مَثَلًا مؤثِّرًا على الحبِّ المضحِّي.

7. Quoted in David Van Biema, "Why Did Jesus Have to Die?" *Time*, April 12, 2004, p. 59.
8. John Stott, *The Cross of Christ* (Inter-Varsity Press, 1986), p. 160.

9. JoAnne Terrell's story is recounted in Van Biema, "Why Did Jesus Have to Die?," p. 61. The John Stott quote is found on the same page.
10. N. T. Wright, *Simply Christian* (Harper, 2006), p. 110.
11. Matthew 27:45–46.
12.

"تحتوي الأناجيل على قصَّةٍ من نوعٍ أكبر تُحيط بكامل جَوهر القصص الأخرى. ولكنَّ **هذه** القصَّة قد دخلَتِ التاريخ والعالَم الأوَّليّ... هذه القصَّة فائقةٌ وهي حقيقيَّة".

J. R. R. Tolkien, "On Fairy Stories," in *The Tolkien Reader* (Del Rey, 1986).

الفصل الثالث عشر: حقيقةُ القيامة

1. Bauckham, *Eyewitnesses*, p. 273.
2. N. T. Wright, *The Resurrection of the Son of God* (Fortress, 2003), p. 608.
3. Ibid., pp. 686, 688.
4.

من الشائع أن يدَّعيَ الناس أنَّ فكرة "موت الآلهة وقيامتهم" كانت مَوجودةً في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم. ومع أنَّ هذه الأساطير قد وُجِدَت، فإنَّه حتَّى لو فرضْتَ أنَّ أتْباعَ يسوع اليهود عَرَفوا تلك الأساطير الوثنيَّة (وهذا أمرٌ غير مؤكَّدٍ على الإطلاق)، فلا أحدَ في الأديان الوثنيَّة آمن بأنَّ القيامة حصلتْ لكائناتٍ بشريَّة فردة.

راجع:

See N. T. Wright, *Simply Christian*, p. 113,

وبحثه الشامل بشأن أساطير موت الآلهة وقيامتهم في كتاب "**قيامة ابن الله**"

.(*Resurrection of the Son of God*)

5. Wright., *The Resurrection of the Son of God* (Fortress, 2003), pp. 200–206.
6. Wright, *Who Was Jesus?* (Eerdmans, 1993), p. 63.

7. Wright, *The Resurrection of the Son of God* (Fortress, 2003), pp. 578–83.
8. Ibid., p. 552.
9. Ibid., p. 707 and n. 63.
10. N. T. Wright, *For All God's Worth: True Worship and the Calling of the Church* (Eerdmans, 1997), pp. 65–66.

الفصل الرابع عشر: الرقصةُ السَّماويَّة

1. Hilary of Poitiers, in *Concerning the Trinity* (3:1),

تقول هيلاري في كتابها إنَّ كلَّ أقنوم في الثالوث الأقدس "يحتوي الآخرَين تبادُليًّا، بحيث إنَّ الواحد يكتنف الآخرَين وهما يكتنفانه دائمًا فيما هو يكتنفهما بعدُ".

See also Robert Letham on Tom Torrance: *The Holy Trinity: In Scripture, History, Theology, and Worship* (Presbyterian and Reformed, 2004), pp. 265, 373.

إنَّ المصطلحَ "پريكوريسِز" (Perichoresis) يتضمَّن الحركة المتبادَلة والسُّكنى المتبادَلة أيضًا. إنَّه يُعبِّر عن حركة المحبَّة- أو شركة المحبَّة- الأزليَّة/الأبديَّة التي تقوم في ذات الثالوث الأقدس سرمديًّا.

2. Cornelius Plantinga, *Engaging God's World: A Christian Vision of Faith, Learning, and Living* (Eerdmans, 2002).
3. C. S. Lewis, "The Good Infection," in *Mere Christianity.*
4.

هنالك كثيرٌ من المضامين العميقة جدًّا للفكر التثليثيّ تتَبَّعها المفكِّرون على مرِّ العصور. والمسألة القديمة المختصَّة "بالواحد والكثير"- من أفلاطون وأرسطو حتَّى الفلسفة الحديثة وما بعدها- قد فتنَتِ الفلاسفة على مدى قرون، هل الوحدة أهمُّ من الخصوصيَّة، أم العكس بالعكس؟ هل الفرد أهمُّ من الجماعة، أم العكس بالعكس؟ هل العموميَّات أهمُّ من الخصوصيَّات والسياقات، أم العكس بالعكس؟ لقد كان على الحضارات أن تختار بين الإطلاقيَّة والنسبيَّة، وبين الفردانيَّة والجماعيَّة. ولكن إن كان الله مُثلَّثَ الأقانيم وهو وحدانيَّة بقدْر ما هو تنوُّع، فلا ينبغي عندئذ للفكر

الفلسفيّ التثليثيّ أن يحتلّ مكانَه الملائم على الطّيف بين الإطلاقيّة والنسبيّة، كما لا ينبغي لفكره الاجتماعيّ أن يحتلّ مكانه الملائم على طيفٍ بين الجماعيّة والفردانيّة. فلا الفرد ولا العائلة أو العشيرة ينبغي أن يكونا الوحدة الاجتماعيّة المطلقة. كذلك لا ينبغي أن تتميَّزَ الفلسفة الأخلاقيّة بالنّاموسيّة ولا بالنسبيّة. لمزيدٍ من التأمّلات المحفّزة جدًّا في وعد الفكر التثليثيّ، راجع الآثار التالية:

Colin Gunton, particularly *The One, the Three, and the Many (Bampton Lectures)* (Cambridge University Press, 1993); *The Triune Creator: A Historical and Systematic Study* (Eerdmans, 1998); and *The Promise of Trinitarian Theology* (T.&T. Clark, 2004).

5. Consider the statement of Lee Kuan Yew, Minister Mentor of Singapore, on the controversy over the judicial caning of Michael Fay in 1994. To Western journalists he said, "To us in Asia, an individual is an ant. To you, he's a child of God. It is an amazing concept." Quoted in Daniel C. Dennett, Darwin's *Dangerous Idea: Evolution and the Meaning of Life* (1995), p. 474.
6. G. K. Chesterton, *Orthodoxy* (Dodd, Mead, 1959), p. 245. Quoted in Rienstra, *So Much More*, p. 37.
7.

"فما لدينا إذًا هو صورة لله الذي محبّته- حتّى قبل خلق أيّ شيء- متَوجّهةٌ نحو الغَير... وما يزال التوجّه الغَيريّ مَوجودًا في طبيعة الله بالذّات كلّ حين... نحن أصدقاء الله بفضل محبّة الله داخل الثالوث الأقدس تلك التي بلغت الأوْج في ملء الزمان بحيثُ إنّ خُطّة الفداء التي مثلَت في فكر الله في الأزل، انفجرت في قلب تاريخنا المكانيّ/الزمانيّ في اللحظة الصحيحة تمامًا".

D. A. Carson, *The Difficult Doctrine of the Love of God* (IVP/UK, 2000), pp. 44–45.

8. George Marsden, *Jonathan Edwards: A Life* (Yale University Press, 2003), pp. 462–63.
9. Rienstra, So Much More, p. 38.
10. C. S. Lewis, *The Problem of Pain* (Macmillan, 1961), p. 140.

11. Vinoth Ramachandra, T*he Scandal of Jesus* (IVP, 2001).
12. C. S. Lewis, *The Last Battle* (Collier, 1970), pp. 171, 184.

خاتمة: أين نَذهبُ من هنا؟

1. "Letter to Mr.–." *Flannery O'Connor: Collected Works* (Library of America, 1988), p. 1148.
2. "The Fiction Writer and His Country." *Flannery O'Connor: Collected Works* (Library of America, 1988), pp. 804–805.
3. From a sermon by Dick Lucas, Matthew 11.
4. Quotes from "Revelation" in *Three by Flannery O'Connor* (Penguin, 1983).
5. Joseph Epstein, "The Green Eyed Monster: Envy Is Nothing to Be Jealous Of," *Washington Monthly*, July/August 2003.